بلزاك

الملهاة الانسانية



أوهام ضائعة

(ثلاثية)

الرواية الثالثة

آلام المبتكر

دراسات طبائع

مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة

ميشيل خوري

روايات بلزاك ٣٧

روايات بلزاك
(٣٧)

أوهام ضائعة
(ثلاثية)

الرواية الثالثة

آلام المبتكر

دراسات طبائع
مشاهد من حياة المقاطعات

ترجمة
ميشيل خوري

مَنشُورات وزارَة الثَّقَافَة
في الجُمهوريَّة العَرَبيَّة السُّوريَّة
دمشق ٢٠٠٤

العنوان الأصلي للكتاب باللغة الفرنسية :

ILLUSION PERDUES
Trilogie
Troisième roman
Les Souffrances de l'inventeur
Etude de mœurs
Scènes de la vie de province

مقدّمة الرواية الثالثة

آلام المبتكر

١٨٤٣

هذا المؤلّف هو القسم الثالث من أوهام ضائعة: ظهر القسم الأول تحت هذا العنوان[١] وسمّي القسم الثاني: **رجل كبير من المقاطعات في باريس**. وبهذا القسم الأخير ينهي المؤلّف **المُسهب الكافي** حيث تتباين حياة المقاطعات والحياة الباريسية معًا، مما يجعل هذا الكتاب المشهد الأخير من **مشاهد الحياة في المقاطعات**.

توجد ثلاثة أسباب لحركة دائمة تربط المقاطعات بباريس: طموح النبيل، وطموح التاجر المغتني، وطموح الشاعر. فميزة الروح، والمال، والاسم الكبير، تأتي بحثًا عن الجو الخاص بها، **وحجرة العاديات القديمة وأوهام ضائعة** ترويان طموح النبيل الشاب، والشاعر الشاب، يبقى تسجيل تاريخ البورجوازي المغتني الذي لا تروق له مقاطعته، ولا يريد البقاء وسط شهود يعرفون بداياته، ويأمل أن يكون شخصية في باريس.

أما الحركة السياسية وطموح النائب فمشهد يعود إلى **مشاهد من الحياة السياسية**، وقد انتهى تقريبًا وهو بعنوان نائب في باريس[٢].

---

(١) - أعطي بعد ذلك لهذا القسم الأول عنوان: الشاعران، وأطلق اسم أوهام ضائعة على الثلاثية بكاملها.

(٢) - بُدل العنوان إلى نائب دارسي.

ما أن ينتهي رسم بورجوازي المقاطعات في مكانه الضيق دون أن يبقى إلاّ الأشياءالقليلة من **مشاهد في حياة المقاطعات** لتكون كاملة. ومنذ الآن من السهل ملاحظة الفجوات التي يجب ملؤها، وهي قبل كلّ شيء لوحة مدينة الموقع حامية حدودية، ولوحة المرفأ البحري، ولوحة المدينة التي يخلق المسرح فيها الفوضى حيث ممثلو باريس وممثلاتها يأتون لجني غلتهم. أخيراً لن تنتهي مشاهد المقاطعات إذا لم تظهر التأثير الذي يحدثه الباريسيون الذين يتركون العاصمة للاستقرار فيها بعد تحديد هدف ورسم خطة لتكوين الثروة.

ليست هذه المشاهد الأربعة أو الخمسة إلا تفاصيل، لكنها تتيح رسم بعض الوجوه النموذجيّة المنسيّة.

في هذا المشروع الكبير، يسيء، نسيان ما، إلى الأعمال التي تمّ إنجازها، والمؤلّف الذي يجهد لتصوير المجتمع وتمثيله بكامله يُتهَم عند إهماله أحد التفاصيل بأنه يفضل ويهتم بغيرها. وهكذا قال له بعض النقاد: إنّك تؤثر الشخصيات اللاأخلاقية، أو اللوحات المشينة، لأنك تقدم إلينا هذا الوجه أو ذاك، ناسيًا التباين الذي تحدثه في النفس الصورة الخيّرة لذلك الوجه الآخر أو غيره من الوجوه.

هذا اللوم لا يمكن أن يوجّه اليوم **لأوهام ضائعة**، وحياة دافيد سيشار وزوجته في عمق المقاطعات هي معارضة عنيفة للعادات والتقاليد الباريسية.

قد يكون من المفيد ملاحظة أن **دافيد سيشار**[1] رغم أنه ينهي مؤلّفًا متعدّد الأجزاء، يظهر متكاملاً في ذاته، وبالرغم من أنه مرتبط بالمؤلّفات السابقة، ينفصل عنها كليّـًا بطريقة تجعل من غير الضروري معرفة الأحداث السابقة.

وجب بذل جهود أدبية واسعة من أجل تأطير حركة الحياة الباريسية الأدبية في لوحتين من حياة المقاطعات، تلك التي تبدأ بها رواية **أوهام ضائعة**، وتلك التي تنهيها.

---

(١) - هو العنوان الذي أعطي في بعض الطبعات لآلام المبتكر.

لكن ربّما كانت الفائدة الاجتماعية فيها قويّة، إذ أننا نرى على الأقل، المؤلف يأمل منها، كيف تأتي التجربة في الحياة، ولحمة حياة المقاطعات بالحياة الباريسية هي المكان المناسب الذي يجب أن تتوفر فيه هذه العبرة الكبرى. من هذا المؤلف بكامله، وهو حتى الوقت الحاضر الأكثر أهمية في **دراسات الطبائع**، تتجلى إرشاداته ومبدؤه الأخلاقي، وبذلك لا يمكن الحكم عليه إلا بعد قراءته بشكله الكامل وبصيغته التي انتهى إليها في الجزء الثامن من **الملهاة الإنسانية**.

ظهر القسم الأول من **أوهام ضائعة** وهو **الشاعران** في العام **١٨٣٥**، ونشر القسم الثاني **رجل كبير من المقاطعات** في باريس في العام ١٨٣٩، وفي العام ١٨٤٣، ينشر القسم الأخير. قلائل هم الأشخاص الذين يعتقدون أن هذه السنوات الثمانية كانت ضرورية، لا أقول لإنجاز هذا المؤلّف الكبير، وإنّما لإعداد المجموعات فيه وتتبّع مجريات أحداثها، وهو الآن، بين المؤلّفات التي شغلت الكاتب، الأفضل تعبيراً عن طبائع بعض الشخصيات، التي يمكن حاليّاً أن تتبيّن لنا صعوبات دراستها.

يوجد: بين مضاهاة طبع راستينياك الذي ينجح، بطبع لوسيان الذي ينهار، رَسمُ واقعٍ رئيسٍ في عصرنا بأبعاده الكبرى، الطموح الذي ينجح، والطموح الذي يسقط، الطموح الشاب، والطموح في بداية الحياة.

تبدو باريس كما القلعة الخلاّبة التي يتهيّأ جميع شباب المقاطعات للهجوم عليها. وهكذا ففي تاريخ طبائعنا الفاعلة، تبدو شخصيات الفيكونت الشاب دي بورتندويير (في رواية **أورسول ميروه**) والكونت الشاب دسغرينيون، وشخصية لوسيان هي الموازيات الضرورية لشخصيات إميل بلونده، وراستينياك، ولوستو، ودارتز، وبيانشون إلخ... ففي مقارنة الوسائل والعزائم والنجاح يتلّخص التاريخ المأساوي للشباب منذ ثلاثين عامًا. وهكذا فالمؤلّف مافتئ يكرّر أن الأمر لا يتعلق بالناحية الأخلاقية لقسم بل بإعطاء صورة عن المجموع.

في دافيد سيشار كآبة عميقة، أهمل المؤلّف إبرازها. فأتناس غرانسون (في رواية **العانس**) يلقي بنفسه في الماء، فهو لم يتمكن من الصبر، ودافيد سيشار، المحبوب من امرأة ذات طبع بسيط أبيّ، يقبلُ حياة المقاطعات الهادئة النقيّة، بإلقائه صولجان آماله، وثروته. وتردّد المؤلّف في أن يظهره بعد عشر سنوات من اعتزاله، وهو يشعر بالأسف وسط سعادة يحرص على استمرارها! فالأذكياء ينهون هذا المشهد في تفكيرهم، أمّا الآخرون فقد يرون فيه نكران جميل إيڤ شاردون. لكن في هاتين الصورتين من **مشاهد حياة المقاطعات** مرافعة لصالح العائلة. على كل حال، هذا هو المغزى العام من **أوهام ضائعة**.

نفوس النخبة وحدها، أولئك الأشخاص الذين يتمتعون بقوة هرقلية، مؤهلون فقط لمغادرة سقف العائلة الحامي والذهاب للصراع في حلبة باريس الواسعة.

لو لم تتجدّد في كل يوم اتهامات غبيّة، ولو لم يوجد بورجوازيون فاضلون ومحترمون، بثقافتهم البسيطة غير الجديرة بأن تعرض على المنابر وأمام البلاد[1]، لا ستغنى المؤلّف بكل طيبة خاطر عن كتابة هذه المقدمة.

إن قوة الاحتجاج ستكون دائماً هنا مساوية لعنف التهجّمات.

---

(١) - يلمح بلزاك هنا إلى خطاب ألقاه في ١٣ حزيران ١٨٤٣، النائب شابوي - مونلاڤيل (١٨٠٠ - ١٨٦٨) أثناء مناقشة المجلس النيابي للموازنة. فهذا النائب عن منطقة الساون ولوار، الذي سخر منه بلزاك في رسالة إلى السيدة هانسكا، أثار قضية الرواية المسلسلة والانحطاط الأخلاقي الذي افترض أنّها تثيره، وألقى المسؤولية على الحكومة التي أجبرت الصحف، بالضرائب المرتفعة التي فرضتها عليها، على البحث عن وسائل جديدة لجذب القراء، وهاجم بصورة خاصة صحيفة «الرسول Le Messager» التي كانت قد نشرت **ربة وحي المقاطعة** إنما دون أن يذكر اسم بلزاك، مؤكداً ما انتشر من شائعات عن احتجاج النواب أمام وزير الداخلية على مقطع في الرواية (ذِكر ثوب الأورغندي المدعوك) رؤوا فيه إفساداً شنيعاً.

يجب أن يعرف الأربعمئة مشرّع الذين حظيت بهم فرنسة أن الأدب فوقهم، وأنّ الإرهاب، ونابوليون، ولويس الرابع عشر، وتيبر(*)، والسلطات الأكثر عنفًا، والمؤسسات الأشدُّ قوة تزول أمام المؤلّف الناطق والمعبّر عن عصره، هذا التعبير يسمى تاسيت(**)، ولوثر وكالفن، وڤولتير، وجان جاك روسو، ويسمى أيضًا شاتوبريان، وبنجامين كونستان، ودي ستايل(***)، ويُسمى اليوم **الصحيفة**. حطّم ڤولتير والموسوعيون المنافقين الذين أرادوا تكرار تصرفات فرسان الهيكل[٢]، وكانوا أكبر قوة طفيلية مشوشة في الأزمنة الحديثة، لو تضافر خمسة عشر شخصًا من ذوي المواهب وترأسهم زعيم مماثل لڤولتير، لتوقّفت هذه السخرية المسماة الحكومة الدستورية المستندة أساسًا إلى ضعف العرش الدائم.

من أكبر أخطاء هذا العصر ملاحقة **الصحافة**. بإمكانكم بعد جهد كبير إلغاء أو إيقاف صحيفة. لكنكم لن تستطيعوا أبدًا إيقاف الكاتب. وكلمة **الكاتب** هنا تؤخذ بمعناها الجماعي المطلق (أرجو ألا يغيب هذا عن البال). تلاحقون المؤلّفات فتولد من جديد، ويفيض الكاتب بفكره في ألف مطبوعة. وبتعابير أخرى ليس

(*) - تيبر Tibére (٤٢ ق.م - ٣٧م) امبراطور روماني (١٤ - ٣٧م) عُرف بعدم شعبيته وحكمه الدكتاتوري..

(**) - تاسيت Tacite (٥٥ - ١٢٠) مؤرخ لاتيني، اشتهر بدقته وإيجازه.

(***) - دي ستيل، السيدة جرمين دي ستايل De Stael (١٧٦٦ - ١٨١٧) ابنة الوزير نيكر، أديبة رومانسية شهيرة.

(٢) - فرسان الهيكل Les Templiers: تنظيم عسكري وديني تأسس في العام ١١١٩ خلال الحروب الصليبية، واشتهر أفراده خاصة في فلسطين وجمعوا ثروات هائلة وغدوا صرافي البابا وعدد من الأمراء، رغب فيليب لي بِلْ ملك فرنسة في نهاية القرن الثالث عشر أن يقضي على نفوذهم ويستولي على ثرواتهم الواسعة فأوقف جاك دي مولاي معلمهم الأكبر، وجميع الفرسان الموجودين في فرنسة في العام ١٣٠٧ وأعدموا على المحرقة بين (١٣١٠ - ١٣١٤) وألغى البابا كلمنت الخامس، في العام ١٣١٥، بتحريض من ملك فرنسة، رهبنتهم وتنظيمهم.

أمام أية حكومة إلا أحد اتجاهين: قبول المعركة أو جعلها مستحيلة. وشرعة[1] لويس فيليب خلقت المعركة.

تُعَدُّ هذه الكلمات جوابًا كافيًا للمشرّعين، الذين راحوا يتسلّون، بخصوص بضع قطع نقدية من ذات المئة فلس، بالحكم من أعلى المنابر على كتب لم يفهموها وتحولوا بذلك من وضعهم كمشرّعين إلى وضع الأكاديميين الأفلاطونيين، وهو أكثر تسلية بما لا يقاس. فليحافظوا إذن على الكلمة الجديرة بإمتاعنا.

في أحد الأيام اجتمع مجلس الشيوخ الروماني ليناقش مشكلة كبرى تشغل رجال الدولة وهي اختيار أفضل صلصة يطبخ بها سمك الترس[2]. لنلاحظ أن المجلس النيابي الفرنسي في جلسته المنعقدة بتاريخ ... حزيران ١٨٤٣ قد بحث في وجوب تحري الحقيقة حول رواية **أسرار باريس**[3] وهل هي غذاء صحي أو غير صحي لمشتركي صحيفة المناقشات J. des Débats

عندما ارتكب شارل كنْت غلطة أرسل سلسلة ذهبية للارتين[4]. وفي يوم تلقي لارتين سلسلة فقال: لكنها خفيفة جداً لقاء ثقل هذه الغلطة! وقد خسر الأدب كثيراً بإنشاء مجلسين، ففي فرنسا، فقد كثر الحاكمون.

سنردّد هنا على مسمع النائب المحترم، الذي وجّه الاتهام للأدب بخصوص مئتي ألف فرنك، اعتقد هذا النائب أنه منحها للأدب: إن الأدب لم ينل منها ليارين[5] (لم يُلغَ الليار رغم القانون الذي يدعي بإقامة النظام العشري)، وإذا كان

---

(١) - شرعة لويس فيليب: هي الشرعة التي روجعت في ٧ آب ١٨٣٠ ونصب بموجبها لويس فيليب ملكًا.

(٢) - سمك الترس Turbot: سمك بحري فاخر، وقد استمد بلزاك هذه الحكاية من كتاب **الأهاجي** للشاعر اللاتيني جوفينال (٦٠ - ١٤٠) الذي ينتقد فيه أحداث عصره.

(٣) - أسرار باريس: رواية لأوجين سو نشرت مسلسلة بين عامي ١٨٤٢ - ١٨٤٣ في صحيفة المناقشات Débats.

(٤) - لارتين L' Arétin: (١٤٩٢ - ١٥٥٦): كاتب إيطالي إباحي لكنه حاضر البديهة لاذع الفكاهة.

(٥) - ليار Liard: عملة نقدية نحاسية تساوي $\frac{1}{4}$ فلس بقيت سائدة مدة من الوقت رغم النظام العشري وتقسيم الفرنك إلى سنتيمات.

الأدب قد حصل على شيء ما ، **فهو يجد التشجيع يستحق أكثر من ذلك بكثير ،** وخاصة إذا وجب أن يرافق بخطابات بلهجة أهل أوفرني ، **وننهي هذا اللوم** المتواضع بملاحظة بسيطة تهدف بطبيعتها إلى تذكير رقيب **الأدب** المعاصر الصارم بأنه مع زملائه الأربعمئة ناتج مباشر **للعقد الاجتماعي وإميل**[٦] اللذين أحرقا بيد الجلّاد بناءً على قرار من برلمان باريس .

(١) - العقد الاجتماعي ، وإميل : كتابان لروسو صدرا العام ١٧٦٢ وهما من محفزات الثورة الفرنسية الكبرى .

آلام المبتكر

في اليوم التالي قام لوسيان بالتأشير على جواز سفره، واشترى عصا من شجر البهشيّة وأخذ تذكرة سفر أقلّته لقاء عشرة فلوس في عربة قديمة ذات دولابين إلى لونجيمو في مرحلة أولى، حيث قضى ليلته في اسطبل مزرعة على بعد فرسخين من أرباجون. وعندما وصل إلى أورليان أحسّ بالسأم والإرهاق. لكن مراكبيّاً أوصله في مركبه النهري لقاء ثلاثة فرنكات إلى تور، ولم ينفق خلال تلك الرحلة إلا فرنكين اشترى بهما ماتقوّت به، ومن تور سار باتّجاه پواتيه لمدة خمسة أيام ومايزال بعيداً عن مبتغاه، ولم يعد يملك إلا مئة فلس لكنه استجمع بقية قواه ليتابع طريقه. وفي أحد الأيام هبط عليه الليل وهو في أحد السهول فقرّر أن يفترش العراء ويلتحف السماء، لكنه لمح وهو في قعر وهدة عربة تجري على السفح المتاخم، فتمكن في غفلة عن الحوذي وخادم إلى جانبه والركاب في داخلها أن يندس بين رزمتين في مؤخرتها ويتثبت بطريقة تمكّنه من الصمود ومقاومة الرجّات ويخلد إلى النوم، واستيقظ في الصباح على أشعة الشمس تبهر عينيه، وضجّة أصوات عرف منها أنه في وسط مانسل، تلك المدينة الصغيرة التي انتظر فيها منذ ثمانية عشر شهراً[1] مضت، السيدة دي بارجتون وقلبه مفعم بالحب والأمل والسرور، ورأى نفسه والغبار يعلو ثيابه في وسط زمرة من الفضوليين والحوذيين،

---

(١) - ترك لوسيان أنغوليم بين شهري أيلول وتشرين ثاني ١٨٢١ وتوفيت كورالي في ٢٧ آب ١٨٢٢ وفقاً لرسالة لوسيان لأخته ودعي لوسيان إلى حفلة آل شاتليه، بعد عودته إلى انغوليم، في ١٥ أيلول، وهذا ما لايتوافق مع ذكر شهرين قضاهما في باريس بعد موت كورالي، كما أنه لا يتوافق مع الثمانية عشر شهراً التي تذكر هنا محدّدة تلك المدة التي انقضت بين مغادرته انغوليم وعودته إليها.

فأدرك أنه سيكون موضع شبهة واتّهام. وقفز واقفًا وهمّ بالكلام عندما رأى مسافرين يخرجان من العربة عرف فيهما محافظ شارنت الجديد. الكونت سيكست دي شاتليه وزوجته لويز دي نغربليس.

قالت الكونتيسة: «أي رفيق طريق ساقته المصادفة إلينا! ولكن اصعد إلى جانبنا أيّها السيّد».

حيّا لوسيان الزوجين ببرود وهو يلقي عليهما نظرة امتزجت فيها الضعة بالازدراء، وعرج على طريق جانبي يجتاز ضاحية مانسل ويوصله إلى مزرعة تمكّن فيها أن يتناول فطوراً من خبز وحليب، ويستريح قليلاً وهو يفكر بصمت في مستقبله **القريب** بعد أن لم يبق في حوزته إلا ثلاثة فرنكات، ودفعت الحميّة مؤلّف ديوان **أزهار المرغريت** إلى الجري طويلاً بمحاذاة ضفة النهر وهو يرقب حالة الأماكن التي غدت أكثر جمالاً وروعةً.

وصل عند منتصف النهار إلى مكان محاط بالسوحر تبرز فيه الطبقة المائية الجوفية فتشكل بحيرة صغيرة وتوقّف يتأمل هذه الغيضة المرعة المنعشة للروح بسحرها الريفي. وبدا له من بين رؤوس الشجر سقف منزل متاخم لمطحنة تقوم على ذراع من النهر وهو مغطى بحزُمَ من القش مختلطة بسوق نبات من فصيلة المخلّدات، وباقترابه من المنزل لاحظ أنّ واجهته البسيطة اقتصرت في زينتها على بعض جنيبات من الياسمين، وعرائش من زهرة العسل وحشيشة الدينار. وأبرقت حوله بعض أزهار القَبَس ونباتات ذات أوراق لحمية. ولاحظ على الحصباء المحيطة بالأوتاد المدعمة للطابق الأرضي والواقية من دفق الفيضان شباكًا منشورة في الشمس، بينما كان سرب من طيور البط يسبح في الحوض الواقع ما بعد المطحنة بين تياري الماء المندفعين من السكور. والمطحنة تبعث ضجيجًا مزعجًا. وابصر الشاعر على مقعد قروي ربة منزل بدينة تحبك الصوف وهي ترقب طفلاً يجري خلف بعض الدجاجات.

- قال لها لوسيان بعد أن وصل إلى قربها: «أيتها المرأة الطيّبة، إنني متعب جدًا، وقد أصبت بالحمى وليس معي إلا ثلاثة فرنكات، فهل توافقين لقاءها على تغذيتي بالخبز الأسمر والحليب، والسماح لي بالنوم على القش لمدة أسبوع؟ ريثما أتمكن من الكتابة إلى أهلي ليرسلوا لي بعض المال أو للمجيء لنقلي من هنا».

- قالت المرأة: بكل طيبة خاطر، إن وافق زوجي على ذلك أيّها الشاب، أليس كذلك؟

خرج الطحان ونظر إلى لوسيان وهو يزيح غليونه من فمه ليقول: «ثلاثة فرنكات، ولمدة أسبوع؟ أفضّل استضافتك مجّانًا».

قال الشاعر في نفسه وهو يتأمل هذا المنظر البهيج: «قد ينتهي بي الأمر إلى العمل أجير طحّان» واستلقى على سرير القش الذي أعدته له زوجة الطحان وسرعان ماغطّ في نوم عميق روّع مضيفيه.

قالت زوجة الطحّان مخاطبة زوجها ظُهرَ اليوم التالي: «اذهب ياكورتوا، لترى إن كان هذا الشاب ميتًا أوحيًّا، فها قد مرّت أربع عشرة ساعة على نومه، وأنا لا أجسر على الذهاب لرؤية ما حلّ به».

أجاب الطحّان زوجته وهو ينهي نشر شباكه وأدوات صيده للسمك: «اعتقد أن هذا الشاب الوسيم كوميدي صعلوك لا يملك شروى نقير».

قاطعته الزوجة بالقول: ماالذي يدفعك إلى هذا الاعتقاد أيّها الرجل؟

- عجبًا! إنّه ليس أميرًا، ولا وزيرًا، ولا نائبًا، ولا أسقفًا، فما سبب هذا البياض في يديه كيدي شخص لا يقوم بأي عمل؟

- قالت زوجة الطحان التي يبدو أنها هيّأت غداء للضيف الذي ساقته المصادفة إليهما في البارحة: «من المستغرب ألا يوقظه الجوع». ثم تساءلت: «كوميدي؟ إلى أين يذهب؟ لم يَحُن الوقت لمعرض آنغوليم».

لم يخامر الطحّان أو الطحّانة شكٌ بوجود رجل غير الكوميدي، أو الأمير، أو الأسقف، رجل هو في آن كوميدي وأمير معًا، رجل يتجلل بثوب كهنوتي رائع، هو الشاعر الذي يبدو أنه لا يفعل شيئًا، ومع ذلك فهو يسيطر على البشرية إذا علم كيف يصوّرها[1].

- قال كورتوا لزوجته: من يكون هذا الشاب إذن؟

- سألت الطحّانة: هل من الخطر استقباله؟

- استأنف الطحّان: باه! إن اللصوص أكثر حذقًا من الانصراف إلى النوم، ولو أنه منهم لسطا على منزلنا.

ظهر لوسيان فجأة ويبدو أنه قد سمع دون شك، الحديث الذي دار بين الزوجين، فقال ورنّة من الحزن تشوب صوته: «لست أميرًا ولا لصًا، ولا أسقفًا، ولا ممثلاً هزليًا، وأنا شاب فقير، متُعب، حضرت من باريس إلى هنا على قدميّ، واسمي لوسيان دي روبمبره، وأنا ابن السيد شاردون، سلف بوستل صيدلي هورو، وقد تزوجت أختي من دافيد سوشار صاحب المطبعة الواقعة في ساحة موريه في آنغوليم.

قال الطحّان: رويدك، أليس هذا الطبّاع ابن ذلك العجوز الماكر الذي يستثمر ملكيته في مارساك؟

أجاب لوسيان: بالضبط، إنه هو.

استأنف كورتوا: أب جشع، يُقال إنّه سبَّب بيع كل ما يملكه ابنه رغم أن ملكيته تقدّر بمئتي ألف فرنك، عدا مدّخراته النقدية.

عندما ينهار الجسد والروح في صراع طويل ومؤلم، تمرّ ساعة تنحطُّ فيها القوى وقد يحلّ بها الموت أو ينتاب الشخص المنهار يأس يمثل مرارة الموت. لكن

---

(١) - هي لفتة نموذجية من القصاص، تعبّر عن نظرية أثيرة لدى السان سيمونيين، والمنشقين عن بوشيز (١٧٩٦ - ١٨٦٥) فيلسوف الإشتراكية المسيحية.

الطبائع القادرة على المقاومة تستعيد نشاطها، وقد كان لوسيان فريسة أزمة من هذا النوع، وأوشك أن يتضعضع في اللحظة التي سمع فيها نبأ الكارثة التي حلت بصهره، رغم غموضها، وصاح: أوه! وأختاه! ماذا فعلت ياالهي! ما أنا إلا أخ أثيم.

ثم تهالك على مقعد من الخشب وبدا شاحبًا، خائرًا كمحتضر. وأسرعت الطحّانة تحمل إليه كأسًا من الحليب أجبرته على تناوله، لكنه رجا بعد ذلك الطحان أن يغفر له ما سيسببه له من إزعاج لموته في داره، إذ أنّه أحسّ بدنو ساعته الأخيرة. وبرؤية شبح الموت راودت الأفكار الدينية وجدان هذا الشاعر الظريف، فأراد رؤية الكاهن والاعتراف بخطاياه وتناول القربان المقدّس.

كان من شأن هذه التضرعات، الصادرة بصوت ضعيف عن فتى حسن التكوين، ذي وجه صبوح كلوسيان أن تمسّ شغاف قلب السيّدة كورتوا التي هتفت مخاطبة زوجها:

«اركب جوادك أيّها الرجل، واسعَ إلى السيد مارون طبيب مارساك، وسيرى ما ألمّ بهذا الشاب، الذي يبدو لي في حالة سيئة، وأحضر الكاهن أيضًا، فهما أعلم منا بما حلّ بطبّاع ساحة موريه، لأن الصيدلي بوستل هو صهر السيد مارون».

انطلق كورتوا وانصرفت الطحّانة، المشبعة، كجميع أبناء الريف، بفكرة التغلّب على المرض بالغذاء الجيد، إلى تغذية لوسيان، الذي انصاع لها مستسلمًا إلى تبكيت ضمير عنيف أنقذه من يأسه ووهنه بحركة تصريف الدم التي أحدثتها هذه الحجَّة الموضوعية المعنوية.

تقع مطحنة كورتوا على بعد فرسخ من مارساك مركز المنطقة، البلدة التي تتوسط منتصف الطريق بين مانسل وأنغوليم. وهكذا أمكن للطحّان الطيّب أن يحضر بسرعة طبيب مارساك وكاهنها. وكان نبأ علاقة لوسيان بالسيدة دي بارجتون قد طرق مسامع هاتين الشخصيتين، وبما أن جميع سكان مقاطعة شارنت

كانوا يتحدثون في تلك المدة عن زواج تلك السيدة، وعودتها إلى أنغوليم مع زوجها الكونت سيكست دو شاتليه محافظ شارنت الجديد، فقد انتابت الطبيب والكاهن، عند معرفتهما بوجود لوسيان في منزل الطحّان، رغبة عنيفة في تحري الأسباب التي منعت الأرملة دي بارجتون من الزواج بالشاعر الشاب الذي هربت معه، وكذلك الكشف عمّا إذا كانت نجدة صهره دافيد سوشار هي دافع عودته إلى المنطقة، وهكذا تضافر الفضول والدافع الإنساني على أن يسرع هذان الشخصان لإغاثة الشاعر المحتضر، فلم تنقض ساعتان على مغادرة كورتوا حتى سمع لوسيان على الدرب المحصّى قعقعة عجلات عربة طبيب الريف العتيقة. وظهر السيّدان مارّون في الحال، ذلك أن الطبيب هو ابن أخ الكاهن، وهكذا رأى لوسيان في تلك اللحظة أشخاصاً مرتبطين بوالد دافيد سيشار ذلك الارتباط القائم بين جيران في بلدة كرامين صغيرة. وعندما فحص الطبيب المريض المدنف، وجسّ نبضه، ولاحظ لسانه، نظر إلى الطحّانة مبتسماً بطريقة تبدّد القلق، وقال:

«سيدة كورتوا، لا أشك أن في قبوك إحدى زجاجات النبيذ الجيد، وفي قعر زورقكم إحدى الأنقليسات الشهيّة، وما عليك إلا تقديمهما لمريضك الذي لا علّة فيه إلا بعض الآلام في أطرافه نتيجة الإجهاد وسترين رجلنا الكبير ينتصب بسرعة على قدميه».

- قال لوسيان: آه! ياسيدي ليست علّتي في الجسد، وإنمّا في الروح، وقد نقل لي هؤلاء الأشخاص الطيّبين نبأ يفيد كارثة حلّت بعائلة أختي السيدة سيشار! استحلفك بالله وأنت الذي ذكرت لي السيدة كورتوا أنك حمو بوستل، وبالتالي فأنت مطّلع على قضية دافيد سوشار!

أجاب الطبيب: إنّه في السجن، على ما أعلم، بعد أن رفض والده مدّ يد العون إليه. . .

هتف لوسيان: في السجن! ولماذا؟

- أجاب السيد مارّون: من أجل كمبيالات طولب بتسديدها من باريس ونسي على الأرجح القيام بذلك، إذ أننا لا نعلم تماماً تصرفاته.

قال الشاعر وقد تغيّرت قسماته بشدّة: أرجو أن تسمحوا لي بالانفراد مع حضرة الكاهن خرج الطبيب والطحان وزوجته، وعندما وجد لوسيان نفسه وحيداً مع الكاهن العجوز صاح: «إنني استحق الموت الذي أشعر أنه آت إليّ»، ياسيدي: وما أنا إلا بائس كبير ليس له رجاء إلا في الارتماء في أحضان الدين، فأنا ياسيدي جلاّد أختي وأخي، فدافيد سيشار هو أخ بالنسبة لي، وأنا صاحب الكمبيالات التي لم يستطع داڤيد تسديدها. . وقد سببتُ خرابه، وفي البؤس الرهيب الذي عانيته نسيت هذه الجريمة بعد أن توقفت دوني الملاحقات الناتجة عن هذه الكمبيالات بتدخل أحد كبار الأثرياء، الذي ظننت أنه قام بتسديدها، إنما يبدو أن ذلك لم يحصل!».

وقص لوسيان ما حلّ به من مصائب، وعندما أنهى هذه القصيدة بسرد محموم جدير حقّاً بشاعر، ترجى الكاهن بالذهاب إلى انغوليم ليستقصي من إيف أخته، ومن السيّدة شاردون والدته، حقيقة الأمر ليعلم إن كان يستطيع معالجته.

قال وهو يذرف الدموع الحرّى: «سأتمكن من العيش، ياسيدي، حتى عودتك. لن ينال مني الموت إلا إذا دفعني دافيد وأمّي وأختي إليه!».

كان من شأن فصاحة الباريسي، ودموع هذا الندم المروّع، وحالة هذا الشاب الوسيم، الشاحب، شبه المحتضر في قنوطه، وسَرْد المصائب التي تجاوزت القوى البشرية أن تثير شفقة الكاهن واهتمامه.

أجابه الكاهن: «في الأقاليم، كما في باريس أيّها السيّد، يجب استبعاد نصف ما يقال، فلا ترتعب من شائعة قد يغالى فيها كثيراً على بُعد ثلاثة فراسخ من أنغوليم. وجارنا الشيخ سيشار غادر مارساك منذ عدة أيام، وهكذا فمن المحتمل أنه يسعى لحلّ مشكلة ولده. وسأذهب إلى أنغوليم وآمل أن أعود لإبلاغك إن كان بإمكانك الانضمام إلى عائلتك مستمداً العون من اعترافاتك وندمك للدفاع عنك.

لم يكن الكاهن يعلم أن لوسيان، خلال الثمانية عشر شهراً السابقة عبّر عن ندمه أكثر من مرّة، وأن قيمة هذا التعبير، مهما بلغت شدّته، لم تتعد قيمة مشهد مُثّل ببراعة، وما يزال يعاد تمثيله بنية طيّبة! وبعد الكاهن جاء دور الطبيب الذي شخّص تعرّض مريضه لأزمة عصبية بدأ خطرها ينقشع، فبادر كعمه إلى مواساة لوسيان وانتهى إلى إقناعه بتناول غذاء يسترد به قواه.

أسرع الكاهن، وهو العارف بأحوال المنطقة وعاداتها، بالعودة إلى مانسل ليلتحق بالعربة التي تنقل المسافرين بين روفك وأنغوليم وأمكنه تأمين مكان له بها.

قرَّر الكاهن الشيخ أن يتقصّى أخبار دافيد سيشار من بوستل صيدلي هومو، ونسيب الكاهن بالمصاهرة حاليّاً، ومنافس الطباع سابقًا في التقرب من إيف الجميلة.

وبرؤية مدى العناية التي أبداها الصيدلي في مساعدة الكاهن العجوز على النزول من العربة العتيقة التي تقوم بخدمة النقل المنتظم بين روفك وآنغوليم يخمن المشاهد الأكثر غفلة ما تعلّقه عائلة بوستل من آمال على ميراث الكاهن في تأمين رفاهيتها.

قالت السيدة بوستل مخاطبة نسيبها الكاهن العجوز: «هل تغديت، ألا تريد تناول شيء؟، لم نكن نتوقع قدومك أبداً، ونحن سعداء جداً بهذه المفاجأة...».

وتتالت الأسئلة من السيّدة بوستل المهيّأة جيداً لتغدو زوجة صيدلي من هومو، فهي بمثل قامة السيد بوستل، وتملك وجهًا متورّداً لنشأتها في الريف، وهيئتها عامة، وجمالها لايتعدّى نضارة الصبا، وشعرها الأصهب يطغى على جبينها، وتصرفاتها ولهجة كلامها متميّزة ببساطة تتجلّى في قسمات وجه مستدير، وفي عينين صفراوين تقريبًا. كان كل ما فيها يشير إلى أن زواجها قد تمّ أملاً بما ستحظى به من ميراث. وهكذا غدت تأمر بعد سنة من الزواج، وبدت أنّها مسيطرة كليّاً على بوستل السعيد جداً لحظوته بهذه الوريثة. وكانت السيدة ليوني بوستل ابنة عائلة ماروّن ترضع طفلاً بشعًا شبيه أمه وأبيه وقد أحاطه الكاهن العجوز والطبيب وبوستل بكل الحبّ.

قالت ليوني: وبعد، ماذا جئت تفعل إذن في أنغوليم، مادمت لا تريد أن تأخذ شيئًا وأنت تتحدث عن ضرورة عودتك سريعًا منذ وصولك؟

ما أن ذكر رجل الدين الوقور اسمي إيف ودافيد سوشار حتى علَت الحمرة وجه بوستل، وألقت ليوني على رجلها تلك النظرة من الغيرة المزدرية التي لايفوت المرأة المسيطرة على زوجها إظهارها تعبيراً عن ازدرائها لماضيه وحرصاً على توطيد مركزها مستقبلاً.

- قالت ليوني بحدّة ظاهرة: ما علاقتك بهؤلاء القوم ياعمي حتى تتدخّل في شؤونهم؟

- أجاب الكاهن إنّهم تعساء ياابنتي، وراح يشرح لبوستل الحالة التي وصل إليها لوسيان لدى عائلة كورتوا.

- هتف بوستل: آه! **ياللغنائم** التي عاد بها من باريس، يا للفتى المسكين! إنّه شاب ذكي **لكن** طموحه جامح! ذهب يسعى إلى غلال وافرة وعاد دون قشّ.

ولكن ماذا سيفعل هنا؟ فأخته في بؤس مريع. وهؤلاء العباقرة من دافيد وزوجته إلى لوسيان لا يعرفون شيئًا من أمور التجارة. تحدثنا عن داڤيد في المحكمة التجارية، وباعتباري أحد قضاتها اضطررت إلى توقيع الحكم بإدانته!... وأنا متألم لما حلّ به! **ولا أعلم** إن كان من المناسب أن يحضر لوسيان إلى منزل أخته في الظروف الراهنة، على كل حال ماتزال الغرفة الصغيرة التي كان يشغلها هنا خالية، وسأقدّمها له ليقيم فيها بكل طيبة خاطر.

أثنى الكاهن على طيبة بوستل وهو يضع قبعته الثلاثية الزوايا ويقبّل الطفل النائم في حضن أمه وهو متهيأ للانصراف.

قالت السيدة بوستل: ستتناول العشاء معنا، دون شك ياعمي، لأنك لن تنته بسرعة إن أردت جلاء قضية هؤلاء الأشخاص وسيقلّك زوجي بعد ذلك في عربته رغم بطء حصانها الهزيل.

تأمّل الزوجان نسيبهما الواعد وهو يغادر الصيدلية متوجهًا إلى آنغوليم، وقال الصيدلي: «إنه مايزال في صحة جيدة رغم تقدّمه في العمر».

لنترك رجل الدين الوقور يسلك الدرب المتعرج بين مومو وأنغوليم ولنتطرق إلى تشابك المسألة التي يتعرّض لها.

بعد رحيل لوسيان، أراد دافيد سوشار، هذا الثور الذكي والمقدام، شبيه ذلك الذي يرسمه الفنانون قرب مزود الإنجيلي، أن يحقق ثروة كبيرة وسريعة، تمنّاها لا من أجل نفسه بل من أجل إيف ولوسيان، وفي إحدى الأمسيات، وأثناء جلوسه مع إيف على سد نهر الشارنت، في المكان الذي منحته فيه يدها وقبلها، ذكر لها أن البرنامج المتجلي بأحرف من نار أمام عينيه يتلخص في نقطتين هما أن يهيء لزوجته جواً من الأناقة والثراء تعيش فيه، وأن يدعم بذراعه القويّة طموح لوسيان أخيها. وهو يرى أن الصحف والسياسة والتطوّر السريع والواسع للنشر والأدب، ومجالات العلوم، والاتّجاه إلى مناقشة عامة لجميع مصالح البلاد، والحركة الاجتماعية التي ظهرت بوادرها بعد أن توطّدت الملكية الثانية، كلّ ذلك يتطلب إنتاجًا من الورق يجب أن يصل تقريبًا إلى عشرة أضعاف الكمية التي ضارب عليها أوفرار الشهير في البورصة مع بداية الثورة[1] مدفوعًا بحوافز مماثلة. لكن معامل الورق في العام ١٨٢١ غدت كثيرة في فرنسة بحيث يتعذر السعي إلى تملك حصري[2] لها، كما فعل أوفرار الذي استولى على المعامل الرئيسة بعد أن احتكر منتجاتها. كما أن دافيد لا يملك الجرأة ولا رؤوس الأموال اللازمة لمثل هذه

(١) - أوفرار، غابريل جوليان (١٧٧٠ - ١٨٤٦): مالي فرنسي شهير، وهو ابن مُصنّع ورق، اشترى إنتاج مصانع الورق في منطقتي أنغوليم وبواتو لمدة سنتين، مضاربًا على زيادة الأسعار، وباعها بعد ذلك لتجار ودور نشر في تور ونانت محققًا ربح ٣٠٠,٠٠٠ ف مما يُعدُّ ثروة كبيرة في ذلك العهد. وكان التطور الكبير للصحافة الدورية ودور النشر في عهد الملكية الثانية مبررًا للأبحاث والآمال التي ترجعها هذه الرواية لدافيد سيشار.

(٢) - عرف إنتاج الورق توسعًا كبيرًا في فرنسة بدءًا من العام ١٨٢٠، وقُدّر عدد أحواض صناعة الورق في العام ١٨٢٥، ثمانمئة حوض تعمل بملء طاقتها (عن كتاب. لاكروا «صناعة الورق، ١٨٤٨»).

المضاربات. وفي هذه المرحلة بدأت آلية صنع ورقٍ بجميع الأطوال العملَ في انكلترة[1]، وهكذا غدت الضرورة ماسة لتكييف صناعة الورق وفقًا لحاجات الحضارة الفرنسية التي كانت تنذر بتوسع النقاش حتى يشمل كل شيء، وبالاستناد على تظاهرة فكر فردي مستمرة، هي الطاقة الكبرى، لأن توصّل الشعوب إلى قرار بطيء جدًا، وهنا يتجلّى أمر غريب فبينما ينحرف لوسيان في تيار الصحافة الهادر مجازفًا بأن تتقطع فيه كرامته وذكاؤه إربًا إربًا، كان دافيد سيشار في قعر مطبعته يتأمل حركة النشر والمطبوعات الدورية ونتائجها الماديّة، وهو يريد أن ينسق الوسائل مع الغايات التي يهدف إليها فكر القرن، وكان يتوقع تمامًا، وهو يسعى إلى الثروة في صناعة ورق منخفض السعر أن تثبت الأحداث تقديراته. فخلال هذه الأعوام الخمسة عشر الأخيرة، تلقى مكتب تسجيل براءات الاختراع أكثر من مئة طلب لتسجيل اكتشاف مواد مزعومة يمكن إدخالها في صناعة الورق[2]، وكان واثقًا أكثر من أي وقت مضى من فائدة اكتشافه غير البراق لكنه ذو منفعة كبيرة. وهكذا غرق دافيد بعد رحيل أخي زوجته إلى باريس في شغل شاغل سببته هذه القضية التي أراد حلّها. ولما كان قد استنفد جميع موارده في مصاريف زواجه، وتأمين نفقات رحلة لوسيان إلى باريس، فقد وجد نفسه في بداية زواجه يعاني الفاقة، لكنه احتفظ بألف فرنك لحاجات مطبعته، إنما عليه تسديد سند بالمبلغ نفسه لبوستل الصيدلي، وهكذا كانت المشكلة بالنسبة لهذا المفكر المتعمق مضاعفة: فعليه أن يبتكر بسرعة ورقًا قليل الكلفة وأن يكثف ما يجنيه من مكاسب لحاجات عائلته ومهنته. والحال أي نعتٍ يُعطى لمخٍ قادر على أن يهزّ الشواغل القاسية التي يسببها، عدا عن فاقةٍ يجب إخفاؤها، ومشهد عائلة دون خبز، ومتطلبات يوميّة لمهنة كالطباعة تتطلب

---

(١) - ابتكر الفرنسي لويس روبير المستخدم في مصنع ورق طريقة لهذه الصناعة تعطي نتاج صفائح ورقية لاحدّ لطولها في العام ١٧٩٩ لكن ديدو رب عمله نازعه على ابتكاره وهاجر إلى انكلترة حيث أقام مصنعًا وفق هذا الابتكار وقامت الدعاوي والمشاحنات في فرنسة بين الرجلين مما أخَّر هذه الصناعة حتى العام ١٨٣٠، مما سيرد تفصيله عند دراسة الرواية.

(٢) - قبل أبحاث دافيد سيشار بعشرين عامًا اهتم الدارسون بالمواد الأولية التي يمكن أن تحل محلّ الخرق القماشية في صناعة الورق، مما سيرد ذكره عند دراسة الرواية.

دقّة كبيرة في ذات الوقت الذي يقوم فيه صاحبها بعبور مجالات المجهول بحماس العالم وحميّته في متابعة سرّ ينزلق يومًا بعد يوم من أدقّ الأبحاث؟ للأسف! إن على المبتكرين، كما سنرى، أن يتحمّلوا آلامًا أخرى، دون الأخذ بالحسبان عقوق الجماهير الذين يستمعون إلى البطالين والعاجزين وهم يقولون عن رجل العبقرية، «إنه خلق ليكون مبتكراً، ولا يمكنه إلا أن يفعل ذلك، ويجب ألا يعترف له بأي فضل على اكتشافه، فأيّ فضل لمن شاء له القدر أن يولد أميرًا! وكذلك المبتكر، فهو يمارس قدرات طبيعية ولدت معه! عدا عن أنه يجد مكافأته في العمل بالذات».

يسبِّب الزواج للشابة اضطرابات نفسية وعضوية عميقة، عدا عن أن زواجها في الشروط البورجوازية، للطبقة المتوسطة يفرض عليها أن تهتم بمصالح جديدة كليّا، وأن تُلم بإدارة الأعمال، ومن هنا فإنها تمرّ في طور يتطلّب منها، بشكل ضروري، أن تلاحظ دون أن تتصرّف، وللأسف فإنّ حبّ دافيد لزوجته قد أخّر تدربها، فهو لم يجرؤ أن يطلعها على الوضع القائم غداة عرسهما ولا في الأيام التالية له، ورغم الضائقة الشديدة التي أوصله إليها بخل أبيه، حرص ألا يفسد شهر عسلهما بتدريب عروسه على أعمال مهنته الشاقّة وإعطائها التوجيهات الضرورية لزوجة مهني تاجر، وهكذا فإن الألف فرنك الباقية لديه أنفقت على مصاريف المنزل الزوجي بدلاً من أن يتدبّر بها سير العمل في مطبعته، واستمرت لامبالاة دافيد وجهل امرأته بالأزمة التي يمرّان بها أربعة أشهر! وكانت اليقظة رهيبة. وعند استحقاق السند الموقّع من داڤيد لبوستل لم يكن الزوجان يملكان أي مبلغ من المال، وكانت إيف تعرف سبب هذا الدين حتى أنها ضحّت من أجل تسديده بحليّ عرسها وفضيّات منزلها، وأرادت في ذات المساء الذي تم فيه تسديد ذلك السند أن تطلّع من داڤيد على سير أعماله لأنها لاحظت أنه يهمل مطبعته من أجل القضية التي حدثّها عنها سابقًا، وكان داڤيد يقضي معظم وقته تحت السقيفة الواقعة في أقصى الفناء، في غرفة صغيرة يستخدمها في صهر اسطواناته. وبعد ثلاثة أشهر من وصوله إلى أنغوليم، استعاض عن لفيفات مسح الأحرف المحبّرة بالمحبرة ذات الصفيحة والأسطوانة حيث يُبسط الحبر ويتوزّع بواسطة أسطوانات من صمغ قوي وثُفل

قصب السكر، وكان هذا التحسين الأول في طريقة الطباعة واضحًا لا جدال فيه حتى أن الأخوين كوانته تبنياه. وكان دافيد قد أسند إلى الحائط المشترك لهذه الغرفة الشبيهة بالمطبخ فرنًا ذا حويض نحاسي بذريعة التوفير في الفحم اللازم لإعادة صهر الأسطوانات التي رتبت قوالبها الصدئة على طول السور، هذه الاسطوانات التي لايعاد سبكها مرتين. ولم يقتصر على تجهيز هذه الغرفة بباب صلب من خشب السنديان المصفّح من الداخل بلوح معدني، بل استبدل أيضًا بالألواح الزجاجية الوسخة المثبتة على النافذة التي يرد منها النور زجاجًا مضلّعًا يحول دون الرؤية الخارجية لطبيعة عمله في الداخل، وعندما بادرت إيف داڤيد بأول كلمة تتعلق بموضوع مستقبلهما، نظر إليها قلقًا وقاطعها بهذه العبارات: «ياعزيزتي، أنا أعلم كل ما يوحي لكِ به منظر مشغل خاوٍ، ونوع التلاشي التجاري الذي أعانيه. ولكن انظري، - وقادها إلى نافذة غرفتهما وهو يشير إلى مكان خلوته الغامض - إن ثروتنا هناك... سنعاني الألم لعدة أشهر، فلنتحمل ذلك بصبر، ودعيني أحلّ المشكلة الصناعية التي ستضع حداً لبؤسنا، وأنت تعرفينها».

كان داڤيد بمنتهى الطيبة، وإخلاصه يدفع إلى الإيمان بوعوده، حتى أن المرأة المسكينة، المنشغلة كجميع النساء بالنفقات اليومية، رأت أنّ من واجبها أن ترفع عن كاهل زوجها أعباء العائلة، فغادرت الغرفة الجميلة الزرقاء والبيضاء حيث كانت تنصرف إلى أشغال الإبرة وهي تتسامر مع أمّها، ونزلت إلى أحد القفصين الخشبيين في ركن الورشة لتدرس آلية العمل التجاري في المطبعة. ألا يُعَدُّ هذا بطولة بالنسبة لامرأة حامل؟ وكان معظم العمال الضروريين لسير العمل في مطبعة داڤيد الخاملة قد هجروها واحداً بعد الآخر لينتقلوا إلى مطبعة الأخوين كوانته اللذين لم تقتصر زحمة التعاقدات معهم على إغراء هؤلاء العمال بمكاسب يومية أكبر بل أضافا إليهما مستخدمين آخرين وفدوا من بوردو وهم يعتقدون أنهم بلغوا من المهارة حداً يعفيهم من شروط التدريب. وبفحص الوسائل التي يمكن أن تنهض بمطبعة سيشار، لم تجد إيف فيها إلا ثلاثة أشخاص؛ أولهم سريزه، هذا المهني الذي رافق داڤيد من

باريس، ثم ماريون المتعلقة بمنزل سيشار مثل كلب حراسة أمين، وأخيراً كولب، الألزاسي الشاب الكادح لدى آل ديدو سابقًا، الذي استدعي للخدمة العسكرية، وصادفه دافيد خلال عرض في أنغوليم وقد قرب موعد تسريحه فدعاه لزيارته، وتعلّق الألزاسي بماريون البدينة التي رأى فيها جميع المزايا التي يرغب شاب من طبقته بتحلي امرأة بها: صحة متينة تورّد وجنتيها، وقوّة ذكورية تتيح لها أن ترفع صندوق أحرف رصاصية بكل سهولة، واستقامة ورعة يتمسك بها الألزاسيون، وهذا الإخلاص لمعلميها المعبّر عن طبعٍ طيّب، وأخيراً ذلك الإدّخار الذي أمّن لها مهر ألف فرنك، وبياضات، وأثوابًا وأمتعة تتميز بنظافة ريفية. كانت ماريون الطويلة البدينة في السادسة والثلاثين من العمر، وقد ازدهت لشعورها بأنها موضع اهتمام جنديّ مدرّع بطول خمسة أقدام وسبع بوصات، متين البنيان، منيع كأحد الحصون، فأوحت إليه بشكل طبيعي بالعمل طبّاعًا، وما أن سُرّح حتى جعَلَ منه داڤيد وماريون عامل مكبسٍ متميز معتمدين على قوّته البدنية رغم أنه أميّ لا يعرف القراءة والكتابة. وكان تنضيد المطبوعات الطارئة في المدينة[1] قليلاً في ذلك الفصل بحيث يمكن أن يقوم سريزه وحده بمهمة المنضد، والمخرج، والمصحّح، فسريزه يحقق ماسماه كانط الثلاثية الظاهرية[2]، فهو ينضد، ويصحّح تنضيده، ويسجّل الطلبات، وينظّم الفواتير، لكن الإقبال على المطبعة قليل، وهو في معظم الأوقات دون عمل، جالس في قفصه، في ركن قصيّ، يقرأ الروايات، وهو ينتظر طلب إعلان وفاة أو بطاقات دعوة إلى عرس أو تهنئة بمولود إلخ... أمّا ماريون التي دربّها سيشار الأب فكانت تكيف الورق وتنقعه وتساعد كولب في طبعه، ثم تنشره، وتقصّه إلى جانب أعمال الطهي وتأمين شراء الحاجيات من السوق.

---

(١) - المقصود بذلك الأعمال الطباعية قليلة الأهمية مثل النشرات الدعائية وبطاقات المناسبات واللصيقات التي تقتضي مكبسًا محدود القياس.

(٢) - الثلاثية الظاهرية Tripficité phénoménal: تهكم بلزاك من هذه المقولة، وقصد بها الشاي والقهوة والشوكولا، أو الزيت والشمعة والمصباح.

عندما راجعت إيف حسابات الأشهر الستة الأولى المقدمة من سريزه وجدت الدخل ثمانمئة فرنك وقيمة أجور سريزه وكولب ستمئة فرنك بمعدل فرنكين أجرة يومية للأول وفرنك واحد أجرة يومية للثاني، وبما أن قيمة اللوازم التي تطلّبتها المواد المطبوعة تبلغ أكثر من مئة فرنك بدا واضحًا لإيف أن دافيد خسر إيجار المكان وفائدة الرأسمال المتمثل بقيمة أجهزة مطبعته وإجازة عمله، والحبر، وأجرة ماريون، والأرباح المشروعة لطبّاع، هذه المجموعة من الأشياء التي يعبر عنها في لغة المطبعة بكلمة **الأقمشة** وهي اصطلاح يعود إلى الأجواخ والحرائر المستعملة في جعل مكبس الضاغط أقل قسوة على الحروف المنضدة بتوسط مربع قماش (اللبادة) بين المكبس والورقة المتلقية للطباعة. وبعد أن فهمت إيف بشكل مجمل، وسائل الطباعة ونتائجها أدركت ضآلة موارد تلك الورشة التي جففتها فعالية الأخوين كوانتة الضارية، وهما في آن واحد مصنعا ورق، وصحفيان، وطباعان، وأصحاب رخصة المطرانية، ومتعهدا تموين المدينة والمحافظة، وقد غدت الصحيفة التي باعها الأب سيشار وابنه دافيد باثنين وعشرين ألف فرنك تدرُّ على مشتريها الأخوين كوانتة ثمانية عشر ألف فرنك سنويًا، وأدركت إيف الحسابات الخفية لأولئك الأخوين المبطنّة بسماحتهما الظاهرة في التخلي عن بعض الأعمال التي تسمح لمطبعة سيشار في الاستمرار لكنها لا تمكنها من المنافسة. وقد بدأت بعد استلامها إدارة الأعمال بإجراء جرد صحيح لجميع الموجودات ذات القيمة. استخدمت كولب وماريون وسريزه لترتيب المطبعة وتنظيفها وتنظيم محتوياتها. وفي إحدى الأمسيات التي عاد فيها دافيد من جولة في الحقول تصحبه عجوز تحمل له رزمة كبيرة من البياضات، طلبت منه إيف اسداءها النصح للاستفادة من الحطام الذي تركه لهما الأب سيشار متعهدة بإدارة العمل بمفردها. استخدمت السيدة سيشار بناء على نصيحة زوجها جميع بقايا الورق التي وجدتها، ونظمتها بطريقة تطبع فيها على عمودين وورقة واحدة هذه الأساطير الشعبية الملونة التي يلصقها الفلاحون على أكواخهم: حكاية اليهودي التائه، وروبير الشيطان، وماغلون

الفاتنة[1]، وقصص بعض المعجزات. جعلت إيف من كولب بائعًا جوّالاً، ولم يضع سريزه لحظة في تنضيد هذه الصفحات الساذجة وزخرفتها البسيطة من الصباح حتى المساء، وقامت ماريون بمفردها بأعمال الطباعة، واهتمت السيدة شاردون بكافة المهام المنزلية، بينما انصرفت إيف إلى تلوين الصور. وخلال شهرين وبفضل نشاط كولب واستقامته، باعت السيدة سيشار على مدار اثني عشر فرسخًا من أنغوليم ثلاثة آلاف نسخة كلفت طباعتها ثلاثين فرنكًا عادت عليها بمعدل فلسين للقطعة ثلاثمئة فرنك ولكن بعد أن غطيت جدران الأكواخ والخمارات بهذه الصور الأسطورية، وجب التفكير بمشروع آخر، لأن الألزاسي لا يتمكن من التجول خارج المنطقة. ووجدت إيف وهي تنقب في محتويات المطبعة مجموعة الصور الضرورية لطباعة تقويم يُسمى تقويم الرعاة[2] حيث تُمثّل المعلومات بإشارات وصور وأشكال بالأحمر أو الأسود أو الأزرق، وقد ربح سيشار العجوز الذي لا يعرف القراءة والكتابة، كثيراً من المال عند طباعة هذا التقويم المخصص لمن لا يعرفون القراءة. كان هذا التقويم يباع بفلس وهو مؤلف من صفيحة ورق مطويّة أربع وستون طيّة مما يشكل بقياس - ٦٤، مئة وثماني وعشرين صفحة. كانت سعيدة بنجاح أوراقها الطيّارة، وهي صناعة تنصرف إليها مطابع المقاطعات الصغيرة. باشرت السيّدة سيشار بطباعة تقويم الرعاة على نطاق واسع مخصّصة له أرباحها، وكان ورق هذا التقويم الذي تباع منه ملايين النسخ سنويًا في فرنسة، أقل جودة من ورق تقويم ليبيج، ويكلّف الماعون منه أربعة فرنكات، هذا الماعون المؤلّف من خمسمئة ورقة يباع مطبوعًا بسعر فلس للورقة بخمسة وعشرين فرنكًا. قرّرت السيدة سيشار أن تبدأ طباعتها بمئة ماعون مما يعطيها خمسين ألف تقويم مما يؤمن لها

(١) - قصص شعبية متداولة منذ العصر الوسيط، وقد خص شامفلوري حكاية اليهودي التائه بمئة صفحة من كتابه تاريخ الصور الشعبية (١٨٦٩) كما أن بلرين يتطرق إلى روبير الشيطان (في ٤٣ صفحة) وحكاية البروفنسي وماغلون الفاتنة (٣٩صفحة) من كتاب «تاريخ الكتب الشعبية - ١٨٥٤».

(٢) - هو تقويم من إعداد ملشيور غريسر للأميّين ممتلئ بأشكال هيروغليفية لايتمكن القارئ العادي من فهمها.

ربح ألفي فرنك. وبالرغم من شرود دافيد المميّز لرجل الأعمال المنصرف إلى التفكير بشكل عميق، فقد دهش وهو يلقي نظرة على مطبعته، فيطرق سمعه جعجعة مكبس الطابعة، ويشاهد سريزه منصرفًا إلى التنضيد باستمرار تحت إشراف السيدة سيشار، وكان يوم دخوله لمراقبة العمليات التي باشرتها زوجته لحظة انتصار لإيف وهي تحظى بموافقة زوجها الذي استحسن مشروع التقويم، ووعد بتقديم نصحه في استعمال الحبر المناسب لمختلف الألوان التي يتطلبها إعداد هذا التقويم حيث تنطق الأشكال أمام الأعين. أخيراً أراد إعادة سبك اسطوانات مطبعته الغامضة بنفسه لتقديم المساعدة التي يتمكن منها لزوجته في مشروعها الهام على صغره.

في بداية هذا النشاط المحموم وردت رسائل لوسيان المؤسفة التي ينبئ فيها أمه وأخته وصهره بفشله وشقائه في باريس، وكان إرسال مبلغ ثلاثمئة فرنك لذلك الولد المدلّل بمثابة تضحية من إيف والسيدة شاردون ودافيد بالدم للشاعر. استقبلت إيف المرهقة بهذه الأخبار، والقانطة من الأرباح القليلة التي تجنيها رغم ماتبذله من جهود وجرأة في العمل، الحدث الجديد الذي يشيع في العادة الفرحة الكبرى لدى الأزواج الشبّان حَدَث الحمل وتوقع الأمومة قريبًا، قالت في نفسها: «إذا لم يتوصل عزيزي داڤيد إلى تحقيق الغاية المرجوّة من أبحاثه في فترة ولادتي ماذا سيحدث لنا؟... من سيدير المشاريع الوليدة في مطبعتنا المسكينة؟».

كان من المفترض أن ينتهي تقويم الرعاة قبل الأوّل من كانون الثاني، غير أن سريزه المسؤول عن كامل مهام التنضيد تباطأ بشكل مقنط في عمله خاصة وأنّ السيدة سيشار التي لم تألف سير العمل في المطبعة لا يمكنها أن تحكم عما إذا كان هذا التقصير عن عمد لتؤنبه، واكتفت بمراقبة هذا الباريسي الشاب. كان سريزه يتيمًا في ملجأ الأولاد اللقطاء وألحق صانعًا لدى السادة ديدو، وأشرف سيشار على تدريبه بين سن الرابعة عشر والسابعة عشر فعهد به إلى أمهر العمال، وجعله تابعاً له، يساعده في أعماله الطبوغرافية، كان داڤيد يهتم بشكل طبيعي بسريزه لما لاحظه

من ذكائه، وكسب مودته بعد أن أمّن له بعض المسرات والمتع التي يحول فقره دون حصوله عليها. وهُب سريزه وجهًا صغيراً، في قسماته بعض وسامة، وشعراً أصهب، وعينين بزرقة كَدِرة، وقد حمل معه من باريس إلى أنغوليم طبائع المراهق السوقي، فبدا بذهنه الوقّاد الساخر، وبمكره شخصًا رهيبًا خاصة وأن داڤيد خفف عنه الرقابة، سواء لأنه غدا شابًا أكثر إيحاء بالثقة لمرشده، أو لأن صاحب المطبعة اعتمد على تأثير المنطقة على مستخدمه. غير أن سريزه غدا في غفلة عن ولي أمره، الدون جوان ذا القبعة المائلة الذي تهيم به حبًّا ثلاث أو أربع من صغار العاملات في البلدة، وفَسُد كليًّا، فأخلاقه وليدة الحانات الباريسية، وهو يدين بالمصلحة الشخصية مبدأ وحيداً، وبما أنه كان مزمعًا على أن **يسحب قرعة التجنيد**[1] في العام التالي وهو يرى نفسه دون أي ارتباط بمهنة، فقد أخذ يستدين متوقعًا بأنه سيغدو جنديًا خلال ستة أشهر، ولن يتمكن أي من دائنيه ملاحقته أثناء الخدمة.

كان داڤيد مايزال يحتفظ ببعض نفوذ على هذا الفتى، ليس بسبب كونه معلمًا له، أو بسبب اهتمامه به، وإنما لأن سوقي باريس السابق معجب بذكاء داڤيد الفائق. توطدت صداقة سريزه سريعًا مع عمال آل كوانته منجذبًا نحوهم بقوّة اللباس الخاص، ومبدعة العمل وأخيراً بروح التضامن الأكثر متانة لدى الطبقات الدنيا منها لدى المراتب العليا، وفقد سريزه بتأثير تلك المعاشرة القليل من المبادئ الطيّبة التي غرسها دافيد فيه، غير أنه عندما كان يُمازح حول **حوافر** مطبعته وهو تعبير الازدراء الذي كان يطلقه على مكابس سيشار القديمة، وهم يفخرون بمكابس الحديد الرائعة بعددها الاثني عشر التي تعمل في مطبعة آل كوانته، حيث خُصّص مكبس الخشب الوحيد الباقي لإجراء التجارب، فإنه ينحاز بعزم إلى داڤيد ويلقي بتفاخر في وجه ممازحيه بهذه الكلمات: «سيتفوّق معلمي الصافي القلب على معلميكم بأدوات طباعتهم الحديدية التي لا تصلح إلا لإعداد كراريس الصلوات! إنه يهيء في السرّ لابتكار سيجعله في طليعة طبّاعي فرنسة ونافار! ويُرَدُّ عليه :

---

(١) - كان التجنيد آنذاك في فرنسة عند بلوغ الشاب سن الدعوة للجندية بالقرعة ومن كان نصيبه وجوب الالتحاق بالخدمة له حق تكليف بديل عنه لقاء دفع تعويض مناسب لذلك البديل.

«بانتظار ذلك أيها المنضد الخبيث المكتفي بأجر أربعين فلس يومياً، إخضع لتوجيهات ربّة عملك الكوّاءة!». ويعقب سريزه: «إنها جميلة، والنظر إليها أكثر إمتاعًا من رؤية **مشافر** أرباب عملكم». لكن هل رؤية زوجة دافيد سيشار تكفي لتغذيتك؟ من محيط الحانة أو من خلال باب المطبعة حيث تجري هذه المناقشات الحبيّة. كانت تصل بعض الومضات إلى الأخوين كوانته عن وضع مطبعة سيشار، ومنها عرفا المشروع الذي تنفذه إيف، ورأيا من الضروري العمل على تعطيله خشية أن تتشجع تلك المرأة المسكينة بما تلقاه من نجاح وازدهار. قال الأخوان في نفسيهما: «فلنجعل المشروع يفلت من بين أصابعها حتى تعاف العمل». التقى أحد الأخوين كوانته الذي يدير المطبعة بسريزه واقترح عليه مراجعة المسودّات الطباعية لقاء مبلغ معين لكل مسوّدة للتخفيف عن مصحح مطبعتهم الذي لا يتمكن من إنجاز التصحيحات بمفرده، ورأى سريزه أنه بعمل عدة ساعات ليلاً لدى آل كوانته فإن كسبه يفوق أجرة كامل نهاره لدى داڤيد سيشار. واستتبع ذلك قيام علاقات بين الأخوين كوانتة وسريزه أُبرزت فيها قدراته الكبيرة التي يُغمط استحقاقه عنها في الوضع غير الملائم لصالحه لدى سيشار. قال له أحد الأخوين كوانته يومًا: «يمكنك أن تغدو مشرفًا على مطبعة هامة، وتكسب ستة فرنكات يومياً، ولك من ذكائك ما يحفزك على العمل في المستقبل لصالحك بالاستقلال عن الآخرين». أجاب سريزه: «ماهي نتيجة عملي كمشرف جيد؟ إنني يتيم، وأنا مدعو للخدمة العسكرية في العام القادم، وإذا وقعت القرعة عليّ فمن يدفع لي التعويض اللازم لاستئجار رجل يقوم بها نيابة عني». أجاب كوانته، الطباع الغني: «إذا قدّر ربّ عملك أهمية خدماتك له، فلماذا لايقدم لك سلفة على أجورك تمكنك من استئجار رجل يحررّك من الخدمة العسكرية؟» أجاب سريزه: «لا أتوقع ذلك من داڤيد سيشار رغم طيبته - لكن إن توصل إلى الابتكار الخفي الذي يسعى إليه...».

أطلقت هذه العبارة بطريقة توقظ أسوأ الأفكار لدى من يسمعها، وهذا ما دفع سريزه إلى أن يوجه إلى مصنع الورق نظرة تعبّر عن تساؤل عميق وأجاب بحذر وهو يلاحظ صمت **رجل الأعمال**: «لا أعلم ما الذي يشغله؟ لكنه ليس الرجل

الذي تتوفر رؤوس الأموال في أسفل صندوق أحرف مطبعته! قال الطباع وهو يناول سريزه ست ملازم من كتاب صلوات الأبرشية:

- «خذ ياصديقي، إذا أمكنك أن تصحح لنا هذه الأوراق حتى نهار غد، فلك منا ثمانية عشر فرنكًا. نحن لسنا سيئين. إننا نيسّر لمنضد منافسنا وسيلة لكسب المال! أخيراً يمكننا أن نترك السيدة سيشار تغوص في مشروع طباعة تقويم الرعاة، ونسبّب لها الإفلاس؛ إننا نسمح لك بإعلامها أننا بدأنا طباعة هذا التقويم وأنها لن تكون الأولى في طرحه للبيع...» من هذا يفهم السبب الذي دفع سريزه إلى التباطؤ في تنضيد التقويم.

انتاب إيف الهلع عندما علمت أن آل كوانته يسعون إلى عرقلة مشروعها الصغير البائس، وأرادت أن ترى في تبليغ سريزه لها عن المنافسةالتي ستلاقيها بادرة ولاء، على ما لاحظته فيه من بعض نفاق، لكنها سرعان ما فاجأت لدى منضدها الوحيد بعض قرائن تشير إلى فضول شديد أرادت أن تعزوه إلى حداثة سنّه.

قالت له ذات صباح: سريزه، لاحظت أنك تقف على عتبة الباب تنتظر مرور السيد سيشار محاولاً معرفة ما يكتمه، وأنت تقف في الفناء عندما يخرج من المطبعة ليصهر الاسطوانات ويعيد سبكها بدلاً من أن تستمر في تنضيد التقويم. كلّ هذا ليس جيّداً، خاصة وأنت تراني، وأنا زوجته، أحترم أسراره، وأعمل جاهدة لأوفر له حرية الانصراف إلى أبحاثه. لو لم تُضيع كثيراً من الوقت، لانتهت طباعة التقويم، ولانطلق كولب في بيعه وتعذّر على آل كوانته منافستنا.

أجاب سريزه: إيه! ياسيدتي، ألا تعتقدين أنني لقاء الأربعين فلسًا التي أتلقاها هنا أقوم بتنضيد يستحق مئة فلس على الأقل؟ ولولا المسوّدات الطباعية التي أراجعها للأخوين كوانته كل ليلة لما أمكنني أن أتغذى إلا بالنخالة.

أجابت إيف متألّمة للهجته الفظّة، وموقفه المهدّد، وعدوانية نظراته عدا عن حِدّة نظراته: أظهرت العقوق مبكراً، وأنت تسعى لشقّ طريقك.

- لن يكون ذلك مع ربّة عمل، لأن الشهر عندئذ ليس على الأغلب ثلاثين يومًا.

أحسّت إيف أنّها طُعنت في كرامتها كامرأة، فألقت على سريزه نظرة صاعقة وصعدت إلى منزلها، وعندما حضر داڤيد للعشاء قالت له: «هل أنت واثق ياعزيزي من سريزه، هذا الصغير التافه؟».

أجاب داڤيد: «سريزه، إنّه تابعي. دربته، جعلته حافظًا لنُسخي، ثم وضعته على صندوق الأحرف. أخيراً إنه يدين لي بكل ما يعرفه، وثقتي به مثل ثقة أب بابنه...».

أنبأت إيف زوجها بأن سريزه يراجع لآل كوانته المسوّدات الطباعية.

أجاب داڤيد باستكانة المعلّم الذي يشعر أنه ارتكب غلطة: «ياللفتى المسكين، يجب أن يعيش».

- نعم، ياعزيزي، لكن أي فرق بينه وبين كولب، كولب الذي يسير عشرين فرسخًا في اليوم وينفق خمسة عشر إلى عشرين فلسًا، ليجني لنا سبعة أو ثمانية فرنكات وأحيانًا تسعة من الأوراق المباعة ولا يطالبني إلا بعشرين فلسًا بعد دفع نفقاته. كولب يقطع يده ولا يضغط على مكبس لدى كوانته، ولا يتحرّى عن الأشياء التي ترميها في الفناء، حتى لو منح لقاء ذلك ألف إكو، بينما يقوم سريزه بجمعها وفحصها.

يصعب جدًا على النفوس الكريمة أن تسيء الظن أو أن تفكر بالأذى والعقوق وتلزمها البراهين الدامغة قبل الاعتراف بمدى الفساد البشري، وعندما توقن من حدوث ذلك تسمو إلى مسامحة هي الدرجة الأخيرة من الازدراء.

هتف دافيد عندئذ: عجبًا، هذا فضول صرفٌ من صبيّ باريسي.

- حسن، ياعزيزي، سأكون شاكرة لك إن تكرّمت بالنزول إلى المطبعة وفحصت ما قام به تابعك من تنضيد خلال شهر، لتعلمني إن لم تكن مدة شهر كافية لتنضيد تقويمنا...

اعترف دافيد بعد العشاء أن تنضيد التقويم لا يحتاج لأكثر من ثمانية أيام، وعندما علم بأن آل كوانته يطبعون تقويمًا مماثلاً، هبّ لمساعدة زوجته وأوقف عمل كولب في مبيع الصور الأسطورية، وتولّى إدارة العمل في المطبعة، هيّأ بنفسه قالبًا كلّف ماريان مع كولب بطباعته، كما أعد قالبًا آخر قام بطباعته مع سريزه وهو يراقب الأعمال الطباعية بالحبر المتنوّع الألوان. كل لون يقتضي طبعة مستقلة، فالألوان الأربعة تقتضي مرور كل نسخة من التقويم تحت المكبس أربع مرات. بذلك يكون طبع تقويم الرعاة عملاً مكلفًا يتمّ إجراءه حصراً في مطابع الأقاليم حيث تتوفر اليد العاملة الرخيصة، وتكون فائدة رأس المال المستثمر في المطبعة شبه معدومة. هذا المنتج أيًا كان عدم اتقانه، تمتنع المطابع المهتمة بالمؤلفات الأنيقة عن القيام به. ولأول مرّة بعد أن تقاعد سيشار العجوز لوحظ مكبسان يعملان في مطبعته القديمة، وبالرغم من أن التقويم يُعَدُّ تحفة في طرازه، فإن إيف اضطرت إلى بيعه بليارين[1] لأن الأخوين كوانته يبيعان تقويمهما للباعة المتجولين بثلاثة سنتيمات. هي تبيع بسعر التكلفة للباعة المتجولين، وتربح من المبيعات المباشرة التي يقوم بها كولب، لكن محاولتها التنافس مع كوانته أخفقت. عندما لاحظ سريزه أنه غدا موضع ريبة معلمته الجميلة، اعتمد في قرارة نفسه أن يقف خصمًا لها. قال: «إنها ترتاب بي، سأنتقم منها!».

هذه عقلية سوقي باريس، وقد قدم له الأخوان كوانته بدل أتعاب عاليًا جدًا، بالطبع، لقاء قراءة المسوّدات الطباعية التي كان يذهب لاستلامها في مكتبهما كل مساء ويعيدها إليهما صباح اليوم التالي. وبالاسترسال في الحديث معهما كل يوم ألفهما وانتهى إلى الشعور بإمكانية تحرّره من الخدمة العسكرية، إمكانية لُوِّحَ بها إليه بمثابة طعم يتمم إفساده، لكن الأخوين كوانته كانا ينتظران منه الكلمات الأولى المتعلقة بتجسسه على أسرار الأبحاث التي يجريها دافيد وإمكان استثمارها.

(١) - الليار Liard: يعادل ربع فلس فتقويم إيف يباع إذن للباعة المتجولين بـ ٥,٢ سنتيم أي أقل من منافسيها بنصف سنتيم. يذكر أن القطع النقدية النحاسية ذات ١ و ٢ و ٦ ليار كانت متداولة حتى عهد الامبراطورية الثانية (١٨٧٠) لكن لم يجر أي صك لنقد الليار منذ العام ١٧٩٢.

قلقت إيف لشعورها بعدم استطاعتها من الآن فصاعداً الاعتماد على سريزه، وتعذّر إيجاد شخص بمثل إخلاص كولب، وفكّرت بطرد المنضد الوحيد الذي رأت فيه بعين بصيرة المرأة المحبّة، خائناً. لكن هذا الطرد يُعَدُّ بمثابة حكم بموت مطبعتها، واتخذت قراراً جريئاً:

وجهت رسالة إلى السيد متيفيه وكيل دافيد سيشار، والأخوين كوانته، وجميع الوراقين في المنطقة ترجوه فيها أن يضع في **صحيفة المكتبة** في باريس الإعلان التالي: «برسم التسليم مطبعة شغالة بمعدآت جيّدة، ورخصة عمل صالحة، تقع في مدينة أنغوليم، للإطلاع على الشروط، يرجى الاتصال بالسيد متيفيه، شارع سربنت». بعد أن قرأ الأخوان كوانته عدد الصحيفة المتضمن هذا الإعلان قالا في نفسيهما: «لا ينقص هذه المرأة الشابة الذكاء، وقد حان الوقت لنغدو أسياد مطبعتها بإعطائها ما يؤمن عيشها، وإلا فقد نصادف في خليفة دافيد خصماً لنا، ومن مصلحتنا أن يكون لنا على الدوام عين في تلك المطبعة».

دفعت هذه الفكرة الأخوين كوانته للاتصال بدافيد سيشار، وشعرت إيف بفرحة كبرى وهي ترى الأثر السريع لخديعتها، عندما توجّه الأخوان للتداول معها دون أن يخفيا رغبتهما بالاقتراح على السيد سيشار القيام بالأعمال الطباعية لحسابهما. فمطبعتهما مزدحمة بالطلبات، ومكابسهما لا تكفي، وقد طلبا عمالاً من بوردو، وهما يرغبان بالاستفادة من المكابس الثلاثة في مطبعة دافيد.

قالت إيف للأخوين كوانته عندما ذهب سريزه ليعلم دافيد بزيارة زميليه: أيّها السيّدان لقد تعرف زوجي لدى السادة ديدو على عمال ممتازين، مستقيمين ونشيطين، وسيختار دون شك خلفاً له من أمهرهم... أليس الأفضل له بيع مؤسسته بنحو عشرين ألف فرنك تعطي ألف فرنك فائدة سنوية، بدلاً من أن يخسر ألف فرنك في السنة من جراّء الاستمرار في مهنة تزاحموننا عليها. ما الذي دفعكما إلى منافستنا على طباعة تقويمنا الصغير البائس الذي يعود إلى مطبعتنا إصداره؟

قال أحد الأخوين الملقب كوانته الطويل مبديًا كثيراً من اللطف : إيه! ياسيدتي ، لماذا لم تعلمينا؟ لو فعلت لا متنعنا عن منافستكم على هذا المشروع .

- هيّا أيّها السيّدان ، لم تقررا طباعة هذا التقويم إلا بعد أن عرفتما من سريزه بأنني بدأت العمل به .

نطقت بهذه العبارة بحزم وهي تمعن النظر في كوانته الطويل الذي غضَ بصره صامتًا مما يشكل الدليل على خيانة سريزه .

كوانته الطويل هذا هو مدير الأعمال وتجارة القرطاسية ، وهو أكثر مهارة في التجارة من أخيه جان الذي يدير أعمال المطبعة بدقة فنية كبيرة فهو في كفاءته بمثابة عقيد أما أخوه الأكبر بونيفاس فهو الجنرال الذي تخلى له جان عن القيادة والتخطيط . كان بونيفاس رجلاً نحيلاً معروقًا ، ذا وجه شاحب كالشمعِ مبقع بنمش أحمر ، وفم منكمش ، وعينين تشبهان عيون القطط ، لا يغضب أبداً ، وهو يستمع بهدوء مثل إنسان ورع لأقزع الشتائم ويردُّ بلطف وصوت ناعم . يحضر القداس ويعترف ويتناول القربان المقدس . وهو يخفي طي طرائقه ، المداهنة ، تحت مظهر خارجي مسترخ ، الصلابة ، وطموح الكاهن ، وجشع التاجر التواق للثروات والأمجاد . منذ العام ١٨٢٠ أراد كوانته الطويل كلّ ما توصّلت البورجوازية إلى الحصول عليه ، خلال ثورة ١٨٣٠ ، وهو مشبع بالحقد ضد الارستقراطية ولا مبال بشؤون الدين ، كان ورعًا مثل كون بونابرت جبليّا . وعموده الفقري ينحني بمرونة رائعة أمام النبالة والإدارة اللتين يقف تجاههما صغيراً ، متواضعًا ، متساهلاً جداً . أخيراً لإعطاء علامة فارقة مميزة لهذا الرجل يثمنها عاليًا الأشخاص الذين اعتادوا على إدارة الأعمال ، إنّها نظارات[1] ذات زجاجتين زرقاوين تخفي نظرته بذريعة وقاية عينيه من وهج النور المبهر في مدينة حيث الأرض والأبنية بيضاء ، وشدّة النور تزداد بارتفاع المنطقة عن المستوى السهلي . بالرغم من أن قامة بونيفاس كوانته لا تزيد إلا قليلاً عن المتوسط ، فهو يبدو طويلاً بسبب نحافته ، التي تنبئ عن طبيعة

(١) - نظارات ذات زجاجات مستوية ملوّنة لتخفيف تأثير الضوء تماثل نظارات الوقاية من الشمس حاليًا .

مرهقة بالعمل، وذهن في جَيَشان مستمر. يتمم ملامحه الجزويتية شعر مسترسل، رمادي طويل، مقصوص على الطريقة الكهنوتية، وملابس بزي لم يغيره منذ سبع سنوات، وتتألف من بنطال أسود، وجوارب سوداء، وسترة سوداء، ومعطف من الجوخ الكستنائي اللون. وقد لُقّب كوانته الطويل تمييزاً له عن أخيه الملقّب كوانته البدين، تعبيراً عن التباين الموجود بينهما سواء من ناحية القامة، أو من ناحية القدرات، رغم أنهما رهيبان كلاهما، الواقع أن جان كوانته فتى بدين طيّب ذو وجه فلمندي، لوّحته شمس آنغوليم، قصير القامة، منتفخ البطن مثل سانشو(*)، وهو يتميز بابتسامة دائمة على شفتيه، وكتفين عريضين، مما يشكّل تبايناً واضحاً عن أخيه الأكبر، وهو لا يختلف عنه في الذكاء والمظهر فقط بل إن جان يجاهر بآراء شبه ليبرالية، فهو من **يسار الوسط**، ولا يذهب إلى الكنيسة إلا أيام الآحاد، وهو يتفاهم بشكل رائع مع التجار الليبراليين. ويزعم بعض تجار هومو أن هذا التباين في الرأي خدعة من الأخوين. كوانته الطويل يستثمر بمهارة مظهر طيبة أخيه، وهو يستخدم جان مثل هراوة، فيختص جان بالكلمات القاسية والإجراءات التي تتنافى مع حلم أخيه. لجان قطاع الغضب والتظاهر بالغيظ والحدّة، وطرح الاقتراحات غير المقبولة التي تجعل أحكام أخيه أكثر اعتدالاً، وهكذا يتوصلان عاجلاً أو آجلاً إلى بغيتهما.

خمّنت إيف باللباقة الخاصة بالنساء طبع الأخوين، وهكذا بقيت في حالة تأهّب لمواجهة هذين الخصمين الخطرين، ونبّهت داڤيد إلى واقع الأمر، فلزم الصمت وهو يستمع شارداً إلى عروض عدويّه.

قال للأخوين كوانته وهو يخرج من الحجرة المزججة ليعود إلى مخبره: «تفاهما مع زوجتي فهي أكثر اطلاعًا على واقع مطبعتي، وأنا مهتم بموضوع أكثر ربحًا من هذه المؤسسة البائسة، وبواسطته سأعوض عمّا سببتما لي من خسائر.

(*) - سانشو: الخادم الأمين في رواية دون كيشوت تأليف الكاتب الاسباني سرڤنتس وقد ظهرت بين عامي ١٦٠٥ - ١٦١٦. (م. المترجم)

- قال كوانته البدين ضاحكًا: وكيف؟

نظرت إيف إلى زوجها لتنبهه إلى التزام الحذر

أجاب داڤيد: «ستكونان تابعين لي أنتما وجميع من تستلزم أعماله الورق.

سأل بنوا - بونيفاس كوانته، عمَّ تبحث إذن؟».

عندما أطلق بونيفاس سؤاله بلهجة ناعمة، وطريقة حاذقة، نظرت إيف مجدّدًا إلى زوجها لتؤكد عليه وجوب عدم الإجابة، أو الإجابة بكلام مبهم لا يعني شيئًا.

قال داڤيد: «أبحث عن طريقة لتصنيع الورق تخفض سعر الكلفة الحالي إلى النصف...».

وذهب دون أن يأبه للنظرة التي تبادلها الأخوان والتي يتبادلان فيها بصمت أفكارهما: «سيغدو هذا الرجل مخترعًا، ولا يمكن بعد أن عرفنا نواياه أن نبقى دون حراك!».

- قال بونيفاس: لنستغلّه.

- قال جان: لكن كيف؟

قالت السيّدة سيشار: تصرُف دافيد معكما كتصرفه معي. عندما يستبدُّ بي الفضول، يحترس على الأرجح من اسمي، ويرميني بهذه العبارة التي هي بعد كل حساب هدف برنامج. تابع بونيفاس وهو يلتفت نحو المطبعة الخالية إلا من كولب الجالس على لوح خشب يدعك رغيف خبز بفص ثوم: إذا تمكن زوجك من تحقيق هذا البرنامج فسيصل بالتأكيد إلى ثروة لا يمكن أن تؤمنها المطبعة، ولا أستغرب رؤيته يهمل هذه المؤسسة، لكن من غير الملائم لنا أن نرى هذه المطبعة بين يدي منافس نشيط، طموح، لايقر له قرار، وربما يمكننا أن نصل إلى تفاهم فيما بيننا. مثلاً إذا وافقت على تأجير معداتكم لقاء مبلغ معين لأحد عمالنا الذي يعمل

لمصلحتنا، باسمكم، على مثال مايتمّ في باريس، يمكننا أن نُشغّل هذا العامل، لنتيح له أن يُسدّد لكم الإيجار، ويؤمن لنفسه بعض الربح . . .

أجابت إيف سيشار: هذا يتعلق بالمبلغ. ثم أضافت وهي تنظر إلى بونيفاس بطريقة تجعله يدرك بأنها تفهم تمامًا خطتّه.

- عقب جان كوانته بحدّة ما هي مطالبكم.

- قالت: ثلاثة آلاف فرنك كل ستة أشهر.

- عقب بونيفاس بهدوء: لكنك ياسيدتي العزيزة الشابّة، ذكرت استعدادك لبيع مطبعتك بعشرين ألف فرنك، وفائدة هذا المبلغ بمعدّل ستة بالمئة هي ألف ومئتا فرنك لمدة ستة أشهر.

بقيت إيف مدة حائرة، وأدركت قيمة التحفظ في المداولات التجارية، ثم استدركت:

«ستستخدمون مكابسنا، وأحرفنا الطباعية التي برهنت لكم من خلالها إمكان تحقيق أعمال صغيرة جيّدة. كما تترتب علينا أجرة المكان للأب سيشار الذي لن يسامحنا بها».

بعد جدل استمر نحو ساعتين، حصلت إيف على ألفي فرنك كلّ ستة أشهر ألف منها تُدفع مسبقًا، وعندما تمّ الاتفاق عبّر الأخوان عن رغبتهما بتكليف سريزه بتسيير العمل في المطبعة منتدبًا من قبلهما. ولم تستطع إيف أن تخفي حركة تعبّر عن دهشتها.

قال كوانته البدين: أليس من الأفضل الاعتماد على شخص يعرف وضع المطبعة.

ودعت إيف الأخوين دون أي تعليق لكنها أضمرت مراقبة سريزه بنفسها.

قال دافيد ضاحكًا عندما أطلعته إيف على عقد الإيجار الواجب توقيعه: إيه، هاهم أعداؤنا في ديارنا.

قالت: باه! سأدرأ خطرهم بإخلاص كولب وماريون، اللذين سيراقبان كل شيء. ثم إننا سنؤمن دخل أربعة آلاف فرنك من ملكية صناعية تكلّفنا مالاً. وأنا أرى حاجتك إلى سنة لتحقق آمالك!

قال سيشار وهو يشدّ على يد إيف بحنان: أراك كما وعدتني على السدّ، امرأة تبحث عن ابتكارات.

لئن تمكن الزوجان داڤيد تأمين مبلغ كاف لقضاء فصل الشتاء، غير أنهما وجدا نفسيهما تحت رقابة سريزه، كما أنّهما تابعان لكوانته الطويل دون دراية منهما.

قال مدير الوراقة لأخيه الطبّاع: «إنهم تحت سيطرتنا. سيعتاد هؤلاء الأشخاص البائسون على تلقي أجرة مطبعتهم، وسيعتمدون على ذلك وسيستدينون، وخلال ستة أشهر لن نجدّد الإيجار، وسنرى عند ذلك ما سيخبئ هذا العبقري في كيسه، لأننا سنقترح عليه تخليصه من ورطته بمشاركتنا له في استثمار اكتشافه».

لو أن أحد التجار الماكرين استطاع أن يرى كوانته الطويل يلفظ هذه الكلمات: **مشاركتنا له** لأدرك أن خطر الزواج أقل شدة في دار البلدية منه في محكمة التجارة. ألا يتمثل هذا الخطر في رؤية هذين الصيّادين المفترسين يجدّان في إثر طريدتهما؟ وهل داڤيد وزوجته بمساعدة كولب وماريون قادران على مقاومة حيلَ بونيفاس كوانته؟

عندما حان وقت وضع السيدة سيشار لطفلها، كانت الورقة النقدية ذات الخمسمئة فرنك المرسلة من لوسيان مع الدفعة الثانية من إيجار المطبعة كافية لتغطية جميع النفقات. وشعر داڤيد وإيف وأمّها المعتقدون بنسيان لوسيان لهم بفرحة معادلة لفرحتهم التي أحسّوا بها خلال النجاحات الأولى للشاعر الذي أحدثت بداياته في الصحافة أيضًا مزيدًا من الضجة في أنغوليم وفي باريس.

اطمأن دافيد إلى أمان خدّاع، لكنه ترنح وخارت قواه وهو يتلقى من لوسيان هذه الرسالة القصيرة القاسية.

«عزيزي دافيد، حوكت ثلاثة سندات موقعة من قبلك لصالحي إلى متيڤيه يستحق تسديدها خلال شهر وشهرين وثلاثة أشهر. مابين هذا التحويل وانتحاري اخترت هذا العلاج الرهيب الذي سيضايقك كثيراً دون شك. سأشرح لك الأزمة التي أعانيها، بيد أنني سأحاول أن أرسل لك المبلغ اللازم لتسديد هذه السندات عند استحقاق دفعها».

«أحرق هذه الرسالة، لا تذكر شيئًا عنها لأختي أو لأمّي لأنني اعترف لك بأنني اعتمدت على شهامتك الشهيرة».

أخوك القانط

«لوسيان دي روبمبره»

قال دافيد لزوجته التي استعادت قواها بعد الوضع «يعاني أخوك البائس من أزمة مالية مروعة وقد أرسلت له ثلاثة سندات بقيمة ألف فرنك لكل منها، قابلة للحسم ويستحق تسديدها على التتابع خلال شهر، وشهرين، وثلاثة أشهر. خذي ذلك بالاهتمام».

ثم غادر المنزل بسرعة ليتجنّب التعرض للتوضيحات التي ستطالبه زوجته بها. لكن إيف القلقة جداً من انقطاع أخبار أخيها وصمته منذ ستة أشهر، وبالتداول مع أمّها حول عبارة داڤيد الممتلئة بالفواجع، أحسّت بهواجس سيئة، دفعها القنوط، من أجل تبديدها، إلى القيام ببعض المساعي. كان السيد دي راستينياك الابن قد جاء إلى المدينة ليقضي عدة أيام عند أهله وتحدّث عن لوسيان بتعابير سيئة حتى أن هذه الأنباء المنتشرة في باريس التي روّجتها الألسن و تناقلتها، وصلت إلى أخت الصحفي ووالدته. ذهبت إيف إلى السيدة دي راستينياك تلتمس مقابلة الابن، وقد عبّرت له عن مخاوفها طالبة منه أن ينبئها عن وضع لوسيان في باريس.

اطلعت إيف خلال مدة قصيرة على علاقة أخيها بكورالي، ومبارزته مع ميشيل كرستيان بسبب خيانته لدارتز، أخيراً جميع ظروف حياة لوسيان وقد بث بها هذا النفّاج المرح السموم التي عرف حقده وحسده أن يعطياها مظاهر الشفقة، وشكل وطنية وديّة قلقة على مستقبل رجل كبير، وألوان إعجاب صادق بموهبة أحد أبناء أنغوليم الذي أساء إلى نفسه بقسوة. تحدّث عن الأخطاء التي ارتكبها لوسيان وضيّعت عليه حماية أهم الشخصيات، وسببت تمزيق الأمر الملكي القاضي بمنحه شعار نبل دي روبمبره واسمه.

- قال: «سيدتي لو أسدي لأخيك النصح المخلص لكان الآن في طريقه لارتقاء مراتب الشرف. زوجاً للسيدة دي بارجتون، لكن ماذا تريدين؟... تركها مهانة! تزوّجت وهي آسفة الكونت سيكست دو شاتليه، لأنها تحبّ لوسيان».

- هتفت السيّدة سيشار: هل هذا ممكن؟...

- أخوك فرخُ عقاب أحرقت جناحيه أشعة الترف والمجد الأولى، عندما يسقط العقاب، من يعلم مدى الهوة وبُعدَ القرار الذي سيوقفه؟ إن سقوط الرجل الكبير يتناسب دائماً مع الارتفاع الكبير الذي وصل إليه.

عادت إيف مذعورة من العبارة الأخيرة التي اخترقت قلبها مثل السهم. أحسّت بالجراح في أرق إحساسات روحها، ولزمت في منزلها الصمت العميق، لكن أكثر من دمعة ثخينة تدحرجت على خديها وعلى جبين الوليد الذي ترضعه. من الصعب التخلي عن الأوهام التي تسمح بها الرابطة العائلية والتي تولد مع الحياة، وهذا ما دفع إيف إلى الشك بأقوال أوجين دي راستينياك، وأرادت أن تسمع صوت صديق حقيقي. فكتبت رسالة مؤثّرة إلى دارتز الذي سبق أن أعطاها لوسيان عنوانه في المرحلة التي كان لوسيان فيها من أعضاء الندوة المتحمسين وهاهو الجواب الذي تلقته:

سيّدتي

تطلبين مني أن أصدقك القول حول حقيقة الحياة التي يمارسها السيد أخوك في باريس، وتريدين أن تتنوري حول مستقبله، ومن أجل حملي على إجابتك

بصراحة، كررت علي ما أدلى لك به السيد دي راستينياك، وسألتني إن كانت هذه الوقائع صحيحة. فما يتعلق بي، ياسيدتي يجب تصحيح مسارات السيد راستينياك لمصلحة لوسيان. أحسّ أخوك بتبكيت الضمير، وحضر إلي وأطلعني على نقده لكتابي، ذاكراً لي أنه لا يستطيع إقناع نفسه بنشره، بالرغم من أن تمرّده على أوامر حزبه سيعرّض إنسانًا عزيزاً جداً عليه للخطر. للأسف، ياسيدتي تقوم مهمة الكاتب على تصور الأهواء إذ أنّه يبني مجده بالتعبير عنها. أدركت إذن أن ما بين خليلة وصديق، يجب أن يضحّي بالصديق. سهّلت على أخيك جريمته، وصحّحت له بنفسي هذاالمقال **الهجائي** ووافقت له على نشره تمامًا. تسألينني إن كان لوسيان قد حافظ على تقديري وصداقتي. هنا. يصعب عليّ الجواب، فأخوك في طريق ضال. حتى هذه اللحظة، ما أزال أرثي له، وعمّا قريب سأنساه بملء إرادتي، ليس بسبب مافعله سابقًا، وإنما لما يجب أن يفعله. لوسيان ليس شاعراً بل هو شخص يعيش في خيال شاعري، يحلم ولا يفكر. يتقلّب ولا يبتكر. أخيراً اسمحي لي أن أقول إنّه ضعيف الإرادة يحبّ الظهور، وهذه نقيصة لدى الفرنسي. هكذا سيضحّي لوسيان دائمًا بأفضل أصدقائه رغبة في إظهار ذكائه، وهو مستعد لأن يوقع غداً ميثاقًا مع الشيطان، إن كان هذا الميثاق سيؤمن له عدة سنوات من حياة برّاقة مُترفة. ألم يفعل أسوأ من ذلك عندما قايض بمستقبله للذّات عابرة من حياته العامة مع ممثلة؟ في تلك المرحلة حجب عنه شباب تلك المرأة وجمالها وتضحيتها، بعد أن أغرم بها حتى العبادة، أخطار وضع لا يرتضى في العالم مهما بلغت مظاهر المجد والنجاح والثروة فيه. إيه، وبعد كل إغراء جديد، فإن أخاك لا يرى، كما هو الآن، إلا مسرات اللحظة العابرة. اطمئني فلوسيان لن يصل أبدًا إلى حدّ ارتكاب جريمة فهو لا يقوى على ذلك، لكنه يرضى بجريمة تحصل ويقتسم الفوائد الناتجة عنها دون أن يشارك في أخطارها: هذا ما يبدو رهيبًا لكل الناس، حتى للمجرمين الأشرار. سيحتقر نفسه وسيندم، لكنه سيعود إلى ما هو عليه عند الضرورة لأن الإرادة تنقصه، فهو دون قوة أمام إغراءات اللذة العابرة، وأمام إشباع أقلّ رغباته.

كسول مثل جميع الرجال الذين يعيشون في الخيال الشاعري، إنّه يعتقد نفسه ماهراً عندما يتهرّب من الصعوبات بدلاً من أن يقهرها، يبدو شجاعًا في ساعة ما، ثم جبانًا في ساعة أخرى. ولا يجب شكره على شجاعته، أو لومه على جبنه، فلوسيان قيثارة تشتد أوتارها أو ترتخي وفقًا لتغيرات الجو. يستطيع أن ينشئ كتاباً جميلاً في طور غضب أو سعادة، ولا يحسُّ بوقع النجاح إلا بعد أن يرغب به. منذ الأيام الأولى لوصوله إلى باريس وقع تحت تابعية شاب دون أخلاق لكنه بُهر بمهارته وخبرته في خضم صعوبات الحياة الأدبيّة. وقد أغوى هذا المشعوذ لوسيان كليّاً وساقه إلى حياة لا كرامة فيها، كان الغرام لسوء حظه هو المسيطر، فالإعجاب الذي يتمّ بسهولة كبيرة علامة ضعف، إذ يجب ألاّ يلقى البهلوان الراقص على الحبل والشاعر المجيد الجزاء نفسه. صُدمنا كلنا لاختيار الدسيسة والاحتيال الأدبي، وتفضيلهما على شجاعة أولئك المخلصين وصدقهم في نصح لوسيان بقبول المعركة بدلاً من اختلاس النجاح، وبإلقاء نفسه في الحلبة بدلاً من كونه أحد أبواق الأوركسترا. المجتمع، ياسيّدتي، بغرابة فريدة، متسامح كثيراً مع شبابٍ هذه طبيعتهم، إنّه يحبهم، يتركهم يستمتعون بالمظاهر الجميلة لمواهبهم الخارجيةً. لا يطلب منهم شيئاً، ويغفر لهم جميع أخطائهم، يوافق لهم على منافع كاملة دون شروط، بالاقتصار فقط على رؤية مزاياهم، يجعل منهم أخيراً أطفاله المدلّلين. وبالعكس فهو يبدي قسوة لاحدّ لها تجاه الطبائع القوية الكاملة. بهذا السلوك، الشديد الظلم في الظاهر، يتجلّى سمو المجتمع على الأرجح، إنّه يتسلى بالمهرجين دون أن يطلب منهم شيئاً إلا توفير المتعة له، وينساهم سريعًا، لكنه يطلب من العظمة روائع إلهية من أجل أن يثني ركبته في تحية إجلال وتقدير لها. لكل شيء قانونه: لخلود الألماسة يجب خلوّها من أيّة شائبة، وللموضة المؤقتة الحق في أن تكون خفيفة، غريبة، دون ثبات. وهكذا قد يتمكن لوسيان، رغم أخطائه، أن ينجح بشكل رائع، إذ يكفيه أن يستغل أحد الحظوظ السعيدة، أو أن يوجد في وسط جيّد، لكن إن يصادف ملاكًا شريرًا فسيذهب إلى أعماق الجحيم. إنّه تجمعٌ برّاق من مزايا جميلة مطرزة على أساس خفيف جداً، سيزيل التقدم في العمر زهوة

الأزهار، ولن يبقى عندها إلا النسيج، فإن كان سيئًا فلن نرى فيه إلا الأسمال البالية. مادام لوسيان شابًا سيعجب، لكنه بعد أن يتجاوز الثلاثين من العمر، في أي وضع سيكون؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن يطرحه جميع من يحبونه بإخلاص. لو كنت وحدي في هذا التفكير لتجنبت على الأرجح تكديركم بصراحتي. لكن وأنا لا أريد تجنّب الأسئلة المطروحة من قبل رعايتك بإجابة تافهة مبتذلة، يبدو لي غير خليق بك ورسالتك صرخة قلق وضيق، وغير خليق بي وقد خصصتني بهذا التقدير الكبير إلا أن أنقل إليك هذا الحكم الذي يُجمع عليه كل أصدقائي الذين عرفوا لوسيان: أرى إذن تأدية للواجب إظهار الحقيقة مهما كانت رهبتها. يمكن توقع كل شيء من لوسيان، كلّ الخير أو كلّ الشر. هذا هو رأينا بكلمة واحدة، تُختَتَمُ بها هذه الرسالة. إذا شاءت أقدار حياته البائسة الآن، المسيرة بالحظ، أن تقود هذا الشاعر إليكم، أرى أن تستخدموا كل تأثيركم للاحتفاظ به في حضن العائلة، إذا أن باريس ستبقى دائمًا خطرًا عليه إلى أن يكتسب طبعه صلابة الإرادة. كان يسميكم أنت وزوجك ملاكيه الحارسين، ولا شكّ أنّه نسيكم الآن، لكنه سيتذكركم في اللحظة التي ستقهره العاصفة، فليس له إلا عائلته ملجأً، احفظي له قلبك ياسيدتي، فسيحتاج إليه.

اقبلي ياسيدتي، أصدق مشاعر الاحترام من رجل يعرف مزاياك الثمنية، ويقدر كثيراً مخاوفك الأمومية ليعلن لك امتثاله لجميع مطالبك مؤكداً لك أنّه

خادمك المخلص

«دارتز»

بعد يومين من قراءة هذا الجواب، اضطرّت إيف إلى استخدام مرضعة لوليدها، فقد جف حليبها. جعلت من أخيها ربًا تعبده، وهي تراه الآن فاسداً بعد أن ضيّع أجمل مزاياه، أخيراً إنّه بالنسبة إليها يتمرّغ في الوحل. هذا المخلوق النبيل لم يعرف أن يتوافق مع الاستقامة، والرقّة، وجميع المبادئ الأهلية السائدة في منزل العائلة الذي مايزال على نقائه وإشعاعه في عمق المقاطعات. كان داقيد إذن على

حقّ في توقعاته. عندما غيّر الحزن بياض جبين إيف إلى ألوان الرصاص، باحت بسرّها إلى زوجها خلال إحدى هذه المحادثات النقيّة التي يمكن للزوجين العاشقين أن يصرّحا خلالها بكل شيء. أسمعها داڤيد كلمات معزيّة، رغم أن الدموع انهمرت من عينيه عندما علم أن الألم جفّف ثدي زوجته الجميل، وأن القنوط قضى على قدرة تلك الأم وإمكانات قيامها بواجبها الأمومي وطمأن زوجته مولّداً لديها بعض الآمال.

«أترين، ياصغيرتي، أثمَ أخوك في الخيال، طبيعي جداً أن يرغب الشاعر بوشاح من لازورد وأرجوان، فيسعى عجولاً إلى الاحتفالات مزهواً بنجاحه! هذا العصفور ينبهر بالبريق والترف بنية طيّبة ويعذره رب السماوات على تهوّره بينما يدينه المجتمع».

- صرخت المرأة البائسة: لكنه يقتلنا.

- إنّه يقتلنا اليوم كما أنقذنا منذ عدة أشهر عندما أرسل إلينا بواكير ربحه! أجاب داڤيد الطيّب الذي أدرك بذكائه أن قنوط امرأته قد تجاوز الحدود وأنّها ستعود قريبًا إلى حبّها الفائق للوسيان. ثم استأنف، يقول مرسيه في مؤلّفه **لوحة باريس** منذ نحو خمسين سنة[١]، «إن الأدب والشعر والعلوم، مثل سائر مبتكرات المخ، لا يمكنها أن تغذي أبدًا الرجل، ولوسيان، بصفته شاعراً، لم يؤمن بخبرة خمسة عقود، فالمحاصيل التي تُسقى بالحبر لا تُجنى (إذا أثمرت) إلا بعد عشر أو اثنتي عشرة سنة بعد بذرها[٢]، ولوسيان عدّ النبتة حزمة[٣]، لكنه تعلّم واختبر على الأقل

(١) - مرسيه، لويس L.Mercier (١٧٤٠ - ١٨١٤) أديب فرنسي، نشر كتابه **لوحة عن باريس**، العام ١٧٨١، في طبعته الأولى، ثم تعددت طبعاته في عهد الملكية الثانية، خاصة وأن الكتاب مُنع خلال الثورة، ومؤلّفه العضو في المؤتمر الوطني قد اقترع ضد إعدام الملك مما كلفه عدة سنوات سجن.

(٢) - يتحدث بلزاك هنا بلسان دافيد، وبلزاك هنا يردّد أفكاراً أوردها في مسرحية **كرومويل** و**مذكرات فلسفية** العام ١٨١٩ ثم في **آخر الثوّار الملكيين** و**فيزيولوجية الزواج** العام ١٨٢٩.

(٣) - هي صورة وردت في قصص ماجنة فيها جناس بين Herbe نبتة و Gerbe حزمة.

الحياة. وبعد أن خدعته المرأة، انخدع بالمجتمع والصداقات المزيفة. فالخبرة التي اكتسبها كلفته غاليًا، هذا كل شيء، لكن أسلافنا قالوا: المهم أن يعود ابن العائلة، وأذناه سالمتان، بذلك يبقى الشرف مصونًا، **وكلُّ شي جيّد**. . .

- صاحت إيف المسكينة: الشرف! . . . ياللأسف! كم هي الفضائل التي ضيّعها لوسيان! . . . الكتابة خلاف وجدانه! مهاجمة أحسن صديق! . . . قبول دراهم ممثلة! . . . الظهور معها في المجتمع! الوصول بنا إلى حافة البؤس! . . .

- هتف داڤيد متردداً: «إيه! هذا لا شيء! . . . ».

كاد أن يفلت من بين شفتيه التصريح بالتزوير الذي أجراه لوسيان باسمه، ولا حظت إيف، للأسف، هذه الحركة فبدا عليها قلق مبهم واجابت:

«لا شيء! كيف يمكننا تسديد ثلاثة آلاف فرنك؟».

- استأنف داڤيد: أولاً سنجدّد عقد استثمار مطبعتنا مع سريزه. منذ ستة أشهر منحه الأخوان كوانته خمسة عشر بالمئة من أرباح الأعمال التي ينفذها لصالحهما فكسب منها ستمئة فرنك عدا عن خمسمئة فرنك ربحها من مطبوعات للمدينة.

- إذا عرف الأخوان كوانته فقد لا يجدّدان العقد. إنّهما سيخافان من سريزه فهو رجل خطر.

- هتف داڤيد: إيه! سيّان! فبعد عدة أيام سنغدو أغنياء! ومع الغنى سيمتلك لوسيان، يا ملاكي، كل الفضائل. . .

- آه! يادافيد، ياعزيزي، ياحبيبي، أيّة كلمة فاهت بها شفتاك! لوسيان فريسة الشقاء لا يقوى على الصمود أمام الشرّ، إنّ رأيك به مماثل لرأي دارتز! لا وجود للرفعة دون قوة، ولوسيان ضعيف. . . هو ملاك يجب ألا يتعرّض للتجربة، أليس كذلك؟ . . .

- إيه! هي طبيعة ليست جميلة إلا في بيئتها، وجوّها، وسمائها. لوسيان لم يخلق للصراع، وسأجنّبه الصراع. إليك، انظري! إنني قريب جداً من النتيجة المرجوة بحيث يجب السعي إلى وسائل التنفيذ»، وأخرج من جيبه عدة أوراق بيضاء بقياس قطعُ الثمن، ولوَّح بها بزهو المنتصر ووضعها على ركبتي زوجته قائلاً: «إن ماعونًا من هذا الورق، بالشكل المعروف باسم عنقود العنب الكبير[1]، لا يكلف أكثر من خمسة فرنكات، وحرك إحدى العينات أمام عينيّ إيف التي ارتسمت على قسمات وجهها علائم دهشة طفولية.

- قالت: كيف تمكنت من إجراء هذه التجارب؟!

- أجاب: بواسطة منخل قديم من الشعر أخذته من ماريون.

- سألت: لكن ماذا تبقى عليك؟

- ليست المشكلة في التصنيع إنما في سعر كلفة العجينة. للأسف! لست إلا واحداً من أواخر الساعين في هذا المجال الصعب. جرّبت السيّدة ماسون منذ العام ١٧٩٤ أن تحوّل الورق المطبوع إلى ورق أبيض، ونجحت، لكن بأية كلفة! وحاول المركيز دي ساليسبوري، حوالي العام ١٨٠٠، في إنكلترة، كما حاول سيغن، في فرنسة، في الوقت نفسه تقريبًا، العام ١٨٠١[2]، استعمال القش في صناعة الورق. القصب الشائع انتشاره في مناطقنا المعروف باسمه العلمي Arundo phragmitis ينتج الورق الذي تمسكين به. لكنني سأستخدم القرّاص والشوك إذ لدعم سوق المادة الأولية، يجب التوجّه إلى مواد نباتية يمكن أن ترد من المستنقعات والأراضي البور: ستكون ذات كلفة زهيدة. يكمن السرّ كلّه في محضّر يُعَدُّ من هذه السوق، وطريقتي ليست سهلة حاليّاً، لكنني رغم هذه الصعوبة متأكد من أنني أقدّم لصناعة الورق الفرنسية الميزة التي يتمتع بها أدبنا، فأجعلها حكراً على

(١) - أي قياس ٥١ × ٦٦ سم.

(٢) - حصَل على براءة في / ٢٢أيار / ١٨٠١.

بلادنا، كما يحتكر الانكليز صناعة الحديد أو الفحم الحجري أو الخزفيات العادية، أريد أن أكون في صناعة الورق مثيل جاكار[1] في صناعة النسيج.

نهضت إيف يدفعها حماس وإعجاب أثارتهما بساطة دافيد وفتحت ذراعيها وضمته إلى صدرها وهي تسند رأسها إلى كتفه.

قال لها: «إنك تكافئينني وكأنني حققت أهدافي».

كان جوابها الوحيد رفع رأسها لتبدو وجنتاها الجميلتان وقد غرقتا بالدموع، وبقيت لحظة دون أن تستطيع الكلام، ثم قالت:

«أنا لا أقبل الرجل العبقري، بل المواسي. فمقابل مجد ينهار تقدّم لي مجداً يشرق. تمسح الأحزان التي سببها انحطاط الأخ برفعة الزوج السامية... نعم ستغدو كبيراً مثل غريندورج[2]، وروقه، وفان روبه، وألتن الذي أدخل إلى بلادنا زراعة نبات الفوّة، وجميع هؤلاء الرجال الذين حدثتني عنهم، وبقيت أسماؤهم مجهولة لأنهم طوّروا صناعة وقدّموا عملاً جيّداً دون أن يحيطوا أنفسهم بالبريق».

كان كوانته الطويل يتنزه في ساحة موريه مع سريزه، وهو يتأمل ظلّي إيف وزوجها المرتسمين على ستائر الموسلين، إذ أنه كان يلتقي مع سريزه المكلف بمراقبة أدنى إجراءات معلمه السابق.

---

(١) - جاكار، جوزيف (١٧٥٢ - ١٨٣٤) مبتكر نول النسيج الفرنسي الذي يحمل اسمه.

(٢) - غريندورج، انطوان: رأس اسرة من النسّاجين في القرن السادس عشر «صناع مهرة» كما كتب بلزاك في طيب الريف وأعطو اسمهم لهذه الأقمشة السميكة المدمقسة.

جان روقه: ذُكر مرتين في رواية الفلاحين، عاش أيضاً في القرن السادس عشر ونبه إلى خاصة طفو الخشب على سطح الماء وإمكان الاستفادة منها العام ١٥٤٩ على نهر الإيون أحد روافد نهر السين.

جوس فان روبه: أقام معمل جوخ، العام ١٦٦٥، في مدينة آبفيل بدعم ملكي ونجح في منافسة الأجواخ الانكليزية والهولندية.

جوانيس ألتن: (١٧١١ - ١٧٧٤): ابن حاكم المقاطعة الأرمنية، اختطف وهو طفل وبيع في الأناضول حيث كان يُستثمر نبات الفوة ذو الجذور الحمراء المستعملة في صباغ الأقمشة أدخل زراعة هذا النبات إلى الكونتية القنسية (في مقاطعة فوكلوز) وغدت من مصادر الثروة في تلك المنطقة.

سأل بونيفاس: «ماذا يفعلان في هذه الساعة؟». . .

أجاب سريزه: «إنه يبيّن لهـا على الأرجح الأوراق التي صنعـهـا هذا الصباح».

سأل مصنّع الورق: ماهي المواد التي استعملها؟

أجاب سريزه: يستحيل معرفة ذلك، ثقبت السطح، وتسلّقت عليه ورأيت معلمي الساذج خلال الليل الفائت يغلي عجينته في حوض من النحاس، فحصت عبثًا مواده المجّمعة في زاوية وكل ما أمكنني ملاحظته شبه هذه المواد الأولية بأكوام من مشاقات الكتان. . .

قال بونيفاس لجاسوسه بصوت مداهن: لاتُغالي في الرقابة فهذا عمل غير نزيه! . . . ستقترح عليك السيدة سيشار تجديد إيجار استثمار المطبعة، قل إنك تريد العمل طبّاعًا اعرض عليها نصف قيمة البراءة والمعدات، وإذا حصلت على الموافقة راجعني. على كل حال تباطأ في عقد اتفاق. . . فهما محتاجان إلى المال.

قال سريزه: لا يملكان فلسًا!

كرّر كوانته الطويل: لا يملكان فلسًا «إنهما رهن إرادتي».

كانت مؤسسة ميتيڤيه ومؤسسة الأخوين كوانته تعملان بالصرافة[1]، إلى جانب أعمالهما في الوكالة التجارية للورق والطباعة، وهي مهنة احترسا جيّدًا من دفع رسم عنها، ولم تكن مصلحة الضرائب قد توصلت إلى الوسائل المناسبة لمراقبة الأعمال التجارية بحيث تلزم جميع أولئك الذين يمارسون العمل المصرفي خلسة بتسديد الرسم المترتب عليها، ومقداره في باريس خمسمئة فرنك. لكن الأخوين كوانته وميتيڤيه في كونهم ما أطلق عليه البورصة الخفيّة يتداولون ما لايقل عن بضع مئات ألوف الفرنكات في أوساط باريس وبوردو وأنغوليم، والواقع أن

(١) - يذكر بلزاك الأعمال المختلفة التي يمارسها بعض أصحاب المكتبات: فمنهم الحاسم، ومنهم المموّل، ومنهم المرابي، وفي أيلول ١٨٢٣ ردّدت صحيفة «الأوريفلام» فضيحة لڤاسور، تاجر الورق السابق وأعمال الحسم التي يجريها على السندات التي تصل إلى ٤٨٪، وسنرى في الصفحات التالية من هذه الرواية أن الأخوين كوانته يسيطران على بعض تجار أنغوليم.

مؤسسة الأخوين كوانته في مساء ذلك اليوم بالذات قد تلقت من باريس السندات الثلاثة التي زوّرها لوسيان بتوقيع صهره وهي بقيمة ثلاثة آلاف فرنك. وقد بنى كوانته الطويل في الحال على هذا الدين مؤامرة رهيبة موجهة، كما سنرى، ضد المبتكر الصبور البائس.

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، كان بونيفاس كوانته يتجول على موازاة ساقية الماء التي تغذّي مصنع ورقه الذي يعلو ضجيجه على كلماته. كان ينتظر شاباً في التاسعة والعشرين من عمره، المحامي منذ نحو ستة أسابيع لدى المحكمة الإبتدائية في أنغوليم، واسمه بييرپتي - كلو.

قال كوانته الطويل وهو يحيي المحامي الشاب الذي حرص على تلبية دعوة الصناعي الثري:

«كنت زميلاً في كلية أنغوليم لداڤيد سيشار، أيام التلمذة

أجاب بتي - كلو وهو يسير إلى جانب كوانته الطويل: نعم ياسيدي.

- وهل جددتما صلاتكما.

- التقينا مرتين على الأكثر بعد عودته من باريس. لايمكن فعل غير ذلك، فقد استغرقت في الدراسة أو ملازمة قصر العدل في الأيام العادية، وفي أيام الآحاد والأعياد كنت أتابع تدريبي القضائي، فأنا أعتمد على نفسي...».

هز كوانته رأسه موافقًا، وتابع المحامي:

«عندما التقيت مع داڤيد لأول مرّة بعد عودته سألني ماذا أعددت لمستقبلي، ذكرت له إنهائي لدراسة الحقوق في پواتيه، وعملي متدربًا وكاتبًا أول في مكتب محاماة الأستاذ أوليفه وأملي في أن يكون لي مكتبي الخاص يوماً ما... كانت صلتي أكثر وثوقًا بلوسيان شاردون، الذي يطلق على نفسه الآن اسم دي روبمبره، عشيق السيدة دي بارجتون، شاعرنا الكبير، أخيراً نسيب داڤيد سيشار.

- قال كوانته الطويل: يمكنك أن تذهب وتعلن لداقيد نبأ تعيينك محاميًا مرخصًا لدى المحكمة البدائية وتعرض عليه خدماتك.

- أجاب المحامي الشاب: لا أرى هذا مناسبًا.

- ليس عليه أية دعوى، وليس له محام، فلا ضير عليك في ذلك، أجاب كوانته وهو يرمق المحامي الشاب من خلف نظارته القاتمة.

كان بيير بتي - كلو ابن خياط من هومو يزدريه رفاقه في الكلية لما يبدو في طبعه من حقد وضغينة. في وجهه تظهر هذه التلوّنات العكرة الكامدة التي تنمُّ عن أمراض قديمة، وسُهد الشقاء، والأحاسيس السيئة بشكل دائم تقريبًا، والأسلوب المألوف في الحديث يمكن أن يفصح عن تعبير يصوّر هذا الفتى بكلمتين: إنه جاف وحاد. في صوته خنَّة تتلاءم مع ملامح وجهه القاسية وشكله النحيل واللون غير الواضح في عينيه الشبيهتين بعيني عَقْعَق[1]. وعين العقعق وفقًا لملاحظة نابوليون دلالة عدم استقامة. قال للاس كاز[*] في جزيرة القديسة هيلانة وهو يتحدث عن ضابط كان موضع ثقته ثم اضطر لتسريحه بسبب الاختلاس «انظر إلى هذا الشخص لا أدري كيف خُدعتُ به، إن له عين عقعق» وهكذا فإن كوانته الطويل بعد أن تأمّل هذا المحامي النحيل، المجدور، ذا الشعر القليل، والجبين المتصل بقحف الرأس وعندما رآه يضع قبضته بخفة على وركه، قال في نفسه «هو ذا رجلي» الواقع أن بتي - كلو المشبع ازدراء، والمتحرق رغبة للوصول، مما جرأه، رغم عدم توفّر المال لديه، على شراء مكتب معلمه بثلاثين ألف فرنك، مفكرًا بتحقيق زواج ليسدد دينه، وجريًا على العادة المتبعة اعتمد على معلمه ليجد زوجة له، فالسلف يجد دومًا من مصلحته تزويج خلفه ليحصل على ثمن مكتبه. لكن بتي - كلو كان أكثر اعتمادًا على نفسه، إذ لا ينقصه بعض تفوق، نادر في المقاطعات، إنّما أساسه كامن

(١) - يحتمل أن بلزاك كان يفكر ببورية Bourrienne (١٧٦٩ - ١٨٣٤) رفيق بونابرت في مدرسة بريين الحربية الذي تبعه إلى ايطالية وإلى مصر.

(*) - لاس كاز Las Cases (١٧٦٦ - ١٨٤٢) مؤرخ فرنسي، رافق نابوليون إلى منفاه وكتب مذكرات جزيرة القديسة هيلانة، العام ١٨٢٣. (ملاحظة المترجم)

في نقمته. نقمة كبيرة، وجهود كبيرة. ثمة فرق كبير بين المحامين في باريس وزملائهم في المقاطعات، وكوانته الطويل بمهارته، لن يفوته استغلال الأهواء الصغيرة التي تراود هؤلاء المحامين الصغار. في باريس، المحامون المتميزون، وهم كثر، يتحلّون بصفات يختص بها الدبلوماسي. فعدد المشاريع، وعِظَم المصالح، وسعة القضايا التي يعهد بها إليهم، تغنيهم عن رؤية الإجراءات وسيلة للحصول على الثروة. فالإجراء سلاح هجومي أو دفاعي لم يعد بالنسبة للمحامي الباريسي مكسبًا كما في السابق، بعكس محامي المقاطعات الذين يستثمرون ما يسمى في مكاتب باريس **الفُرُط**(*)، هذه النفقات النثرية الصغيرة التي تثقل فواتير النفقات وتستهلك أوراق الدمغة والطوابع. هذه المبالغ الزهيدة تشغل محامي المقاطعات، فهو يرى فيها نفقات يجب تحصيلها عدا عن الأجور، بينما لايهتم محامي باريس إلا بالأتعاب والأتعاب هي مايترتب على الزبون إضافة إلى النفقات لقاء متابعته ومهارته في سير القضية. الضرائب تلتهم نصف النفقات، أما الأتعاب فتعود بكاملها للمحامي، لكن لنقل بجرأة! نادراً ماتكون الأتعاب المدفوعة متوافقة مع الأتعاب المطلوبة والمتوجبة لقاء الخدمات التي يقدّمها محام جيّد. فالمحامون المرخصون، والأطباء، والمحامون المرافعون(**) هم مثل بنات الهوى مع عشاقّهن الطارئين، في حَذَر بالغ ضد تعرف زبائنهم عليهم. فالزبون قبل القضية وبعدها يمكن أن يرسم لوحتين شعبيتين جديرتين بميسونيه(١) يزيد من قيمتها، دون شك، المحامون المرخّصون أصحاب المكاتب الشهيرة. يوجد فرق آخر بين المحامي

(*) - فُرُط Broutille: الأمر التافه الزهيد القيمة، تقول العامة: فراطة. (م. المترجم)

(**) - المحامي المرخص Avoué والمحامي المرافع Avocat. نظاما محاماة قديم في فرنسة. فالمحامي المرخص شبه ضابط عدلي هو وكيل دعاوي ينظم الدعوى ويهيئ ثبوتياتها الشكلية ويمثل المتخاصمين أمام القضاء وكان ترخيص هذا المحامي يباع ويُشرى بموافقة وزارة العدل أمّا المحامي المرافع فموكّل خاصة بالدفاع أو بالاستشارة أو هو مستخدم لدى مكتب المحامي المرخص ولابد للاثنين من شهادة في الحقوق معترف بها لممارسة العمل. (م. المترجم)

(١) - ميسونية Meissonier، ارنست (١٨١٥ - ١٨٩١) رسام لوحات شعبية ولوحات معارك. وكان في العام ١٨٤٣ رسّامًا شابًا عهد إليه بلزاك برسم عدة مشاهد من الملهاة الإنسانية، وقال عن الروائي «إنه قد بدأ الصفحات الأولى من المدرسة الفلمندية».

المرخص في باريس والمحامي المرخص في المقاطعات، فالأول لا يرافع إلا نادراً، إنه يتحدث أحيانًا في المحكمة عن القضايا المستعجلة، لكنه في العام ١٨٢٢ وفي معظم المقاطعات كان يرافع بنفسه عن قضاياه (وبعد ذلك التاريخ كثر المحامون المرافعون). من هذه الحياة المضاعفة ينتج عمل مضاعف ينمّي في محامي المقاطعات المرخص العادات التقانية المذمومة لدى المحامي المرافع دون أن تعفيه من مهام المحامي المرخص الجسام. يغدو هذا المحامي في المقاطعات ثرثاراً ويفقد ذلك الصفاء في الحكم، على ضرورته القصوى في سير الدعاوى. بهذا التضاعف يجد الرجل السامي في نفسه، غالبًا، رجلين ضعيفين، في باريس لا يُجهد المحامي المرخص نفسه أبداً في الكلام أمام المحكمة، ولا يرافع مؤيداً القضية أو مضاداً لها، وبذلك يمكنه أن يحتفظ بسداد آرائه ونزاهتها. ولو ملك ناصية الحقوق، ونقُب في أمهات المراجع والمدوّنات عن الوسائل التي تظهر تناقضات اجتهادات المحاكم، فإنه يحتفظ بقناعته عن القضية التي يعمل جاهداً لتحقيق الفوز بها. بكلمة واحدة، الفكرة أقل تهوّراً بكثير من الكلمة، والإنسان الذي يسترسل في كلامه ويردّده ينتهي إلى تصديق ما يقول والثقة بصحته، بينما يمكنه التصرف وهو صامت ضد فكرته دون إلغائها، والعمل على كسب دعوى سيئة دون ادعاء جودتها كما يفعل المرافع. وهكذا فالمحامي المرخص المتمرس في باريس يمكنه أن يحقق انتصارات لا يصل إليها المحامي المرافع المتمرس أو القاضي الجيّد. في المقاطعات تتهيأ ظروف تجعل المحامي المرخص شخصاً ضعيفًا فهو يتبنى أهواء تافهة، ويعالج قضايا صغيرة، ويعتمد في عيشه على النفقات المترتبة عن سير الدعاوي ويستغل قوانين الإجراءات والمرافعات ويرافع. وبكلمة واحدة تقف أمامه عوائق كبيرة تخلق فيه كثيراً من العيوب. وهكذا فعندما يصادف بين المحامين المرخصين في المقاطعات رجلاً مرموقًا فإنه متفوق حقّـاً.

نظر المحامي الشاب بدوره إلى كوانته الطويل نظرة تحاول أن تخترق ما تعبر عنه عيناه المحتجبتان خلف بلورتي نظارته العاتمتين، مع افترار شفتيه عن ابتسامة تهكم وقال:

«اعتقدت ياسيدي بأنك استدعيتني لقضايا خاصة بك».

عقب بونيفاس كوانته: «لا حاجة للمداورة في الكلام، استمع إليّ...»

بعد هذه العبارة، الكبيرة بمساراتها، ذهب كوانته وجلس على مقعد ودعا بتي - كلو للجلوس قربه وقال:

«أثناء مرور السيّد دو هوتوا في أنغوليم، العام ١٨٠٤، التقى بالآنسة زفيرين، ثم همس في أذن مستمعه، وكانت ثمرة هذا اللقاء ابنة، عندها بدرت من بتي - كلو انتفاضة. وتابع كوانته. نعم تمت هذه الولادة في الريف خفية وعهدت الآنسة زفيرين بالطفلة إلى أمها وتزوجت سريعًا السيّد دي سينونش. هذه الطفلة التي نشأت في الريف هي الآن الشابة الآنسة فرانسواز دي لاهاي التي تعنى بها السيّدة دي سينونش باعتبارها عرابتها، وفقًا لما جرت عليه العادة. لكن أمّي التي كانت مزارعة لدى السيدة دي كاردانه العجوز جدّة الآنسة زفيرين مطلعة على سرّ الوريثة الوحيدة لآل كاردانه وآل سينونش في فرعهم البكر. كُلّفتُ باستثمار المبلغ الصغير الذي قدّمه السيّد فرنسيس دو هوتوا في تلك الحقبة من الزمن لابنته وبنيت ثروتي من هذه التقدمة التي كانت في حينها عشرة آلاف فرنك وبلغت الآن مع فوائدها المتراكمة ثلاثين ألف فرنك. وستقدم السيّدة دي سينونش لفليونتها(*) وربيبتها الجهاز والفضيات وبعض الأثاث، بإمكاني أن أزوجك من هذه الفتاة أيّها الفتى. قال كوانته وهو يربت على ركبة بتي - كلو. بزواجك من فرانسواز دي لاهاي ستضيف إلى زبائنك قسمًا كبيراً من ارستقراطيي أنغوليم، وستؤمن لك هذه المصاهرة مستقبلاً رائعًا... يكفيك تأمين شراء مكتب المحامي المرّخص: فأنت لا تطمح إلى أفضل من ذلك، كما أعلم.

- قال بتي - كلو بلهفة: ماذا يترتب عليّ أن أفعل لك؟ إذ أنك تعتمد الأستاذ كاشان محاميًّا.

---

(١) - الفليونة Filleule: هي الطفلة التي تقدّمها المرأة للمعمودية وتكون تلك المرأة عرابتها Marraine (من أصل ايطالي). (م. المترجم).

- قال كوانته الطويل بمكرٍ: كما أنني لن أترك كاشان فجأة من أجلك. ولن أكون أحد زبائنك إلا في وقت لاحق. ماذا يمكنك أن تفعل لي ياصديقي؟ إيه! أن تهتم بقضايا دافيد سيشار. يترتب على هذا الشيطان البائس أن يسدّد لي سندات بقيمة ثلاثة آلاف فرنك، ولن يتمكن حاليّاً أن يدفع لي، ستدافع عنه ضد الملاحقات حتى تتراكم عليه النفقات. . . لا تقلق، سر، اجمع الطوارئ العارضة. لن ينطلق دوبلون، المحضّر، المكلّف بإقامة دعوى من قبل محاميٍّ كاشان من أموال وقفية. . . وإن اللبيب من الإشارة يفهم، فما رأيك أيها الشاب؟. . .

مرت مدة استراحة معبّرة راح خلالها الرجلان يتبادلان النظر، استأنف بعدها كوانته:

«نحن لم نتقابل أبداً، وأنا لم أقل لك شيئًا، وأنت غير مطلع على سرّ السيد دوهوتوا، والسيدة دي سينونش، والآنسة دي لاهاي، غير أنك ستتقدّم لطلب يد تلك الشابة عندما يحين الوقت، أي خلال شهرين من الآن، وعندما تحتاج لمقابلتي أحضر إلى هنا ليلاً، ولن نتكاتب مطلقًا.

- سأل بتي - كلو: تريد إذن تدمير سيشار؟

- لن يصل الأمر إلى هذا، لكن يجب إيداعه السجن بعض الوقت. . .

- وما الهدف؟. . .

- هل تعتقد بي الغفلة لأصرح لك بالهدف. إن بلغت بك النباهة حدّ تخمينه فأرجو أن تملك منها ما يدفعك إلى الكتمان.

- قال بتي - كلو محاولاً النفوذ إلى أفكار بونيفاس ومشيراً إلى احتمال عدم النجاح: إن سيشار الأب رجل غني.

- مادام على قيد الحياة لن يعطيَ ابنه فلسًا، ويبدو أن الموت غير قريب من هذا الطبّاع السابق. . .

- قال پتي - كلو عاجلاً: اتفقنا. ولن أطلب ضمانات منك. أنا محام مرخص، فإن خُدعت سيعرف كل منا حسابه.

فكر كوانته وهو يحيي پتي - كلو: «سيذهب الماكر بعيداً».

في اليوم التالي من هذه المداولة، الواقع في ٣٠ نيسان، أرسل الأخوان كوانته السند الأول المزور من قبل لوسيان يطالبان بتسديده، ولسوء الحظ قابل الرسول السيدة سيشار التي لاحظت أن توقيع دافيد مقلّد على هذا السند فاستدعته وفاجأته بالقول: «هذا السند غير موقّع منك؟»...

- «كلا، كان أخوك مستعجلاً ووقّعه بدلاً عني...».

أعادت إيف السند إلى رسول الأخوين كوانته قائلة: «ليس في مقدورنا التسديد الآن».

وخارت قواها فأسرعت بالعودة إلى غرفتها وتبعها داڤيد، فقالت له بصوت مختنق:

«ياعزيزي أسرع إلى الأخوين كوانته. فإنهما يكنّان لك الاحترام، اطلب منهما إمهالنا إلى أن نجدّد العقد مع سريزه فنسدّد لهما هذا المبلغ».

ذهب داڤيد في الحال لزيارة عدويه. يمكن للمصحّح أن يغدو دائماً طباعاً. ولكن ليس من السهل على منضد مهما بلغت مهارته أن يغدو تاجراً، وهكذا فإن داڤيد بخبرته القليلة في الأمور المالية، وقف متلعثماً أمام كوانته الطويل، وبعد أن أحس بحشرجة في حلقه وتسارع في نبضات قلبه، أبدى بخجل اعتذاره والتمس إمهاله ليتلقى على الفور هذا الجواب: لا علاقة لنا بهذا الأمر، سنعيد السند إلى ميتيڤيه، ونسترد مالنا. توجّه بطلبك إلى ميتيڤيه.

قالت إيف عندما علمت بهذا الجواب: إيه! مادام السند سيعاد إلى ميتيڤيه، يمكننا الاطمئنان.

في اليوم التالي، وعند الساعة الثانية بعد الظهر، الوقت الذي تكون فيه ساحة مورية مملوءة بالناس أعلن محضرّ السيدين كوانته، ڤيكتور - آنج - هرمنجيلد دوبلون احتجاجه وتسجيل بروتستو على عدم تسديد داڤيد سيشار السند المستحق عليه، ورغم حرصه على أن يتحدث على مدخل الممر مع ماريون وكولب فقد انتشر الخبر في كل أوساط أنغوليم التجارية مساءً. لكن هل يمكن لمظاهر نفاق السيد دوبلون الذي أوصاه كوانته الطويل بإبداء أكبر قَدَر من الاحترام أن تنقذ إيف وداڤيد من الخزي التجاري الناتج عن وقف الدفع: لنحاول الحكم! سيبدو الإسهاب هنا إيجازاً. ستجذب التفاصيل التالية تسعين بالمئة من القراء مثل جدّة الأزياء الأكثر طرافة. هكذا سيبرهن مرة أخرى على صحة هذه الحقيقة المقررة:

لا شيء أقل معرفة من **القانون** الذي يجب أن يعرفه كل الناس!

من المؤكد بالنسبة للغالبية العظمى من الفرنسيين أن الوصف الجيد لآلية أحد أجهزة المصرف ستكون بأهمية كتابة فصل عن رحلة إلى بلاد غريبة مجهولة[1].

عندما يرسل تاجر من المدينة التي يقوم فيها متجره أحد سنداته إلى شخص مقيم في مدينة أخرى، كما افترض فعل ذلك من قبل داڤيد إنقاذاً للوسيان من ورطته، فإنّه يحولّ العملية البسيطة لسند موقّع بين تاجرين، من ذات المدينة، من أجل معاملات تجارية، إلى شيء ما يشبه كمبيالة مسحوبة من مكان إلى آخر. هكذا اضطر ميتيڤيه، عندما أخذ سندات لوسيان الثلاثة، من أجل أن يقبض قيمتها، أن يرسلها من باريس إلى الأخوين كوانته عميليه في أنغوليم. من هنا أولّ خسارة للوسيان المشار إليها تحت اسم **عمولة تبديل المكان** التي تحدّد بمعدلُ معين يُخفض من كل سند غير الحسم. وهكذا فإن سندات سيشار انتقلت إلى زمرة عمليات المصرف. لا يمكنكم أن تصدّقوا إلى أي حدّ تبدّل ميزة المصرفي مقترنة بصفة الدائن

(١) - فكر بلزاك أن تذوق معالجة هذا الموضوع الغريب سيكون أكثر تقديراً خارج فرنسة، فقد كتب إلى السيدة هانسكا: «قرأت عشر مرات وصحّحت عشر مرات هذا الجزء من **داڤيد** الذي سيكون هامّاً جداً بالنسبة للأجانب لأنهم سيرون فيه آلية إجراءاتنا المصرفية (رسالة بتاريخ ١٣ حزيران ١٨٤٣).

الجليلة وضع المدين. هكذا في **المصرف** (هل تدركون جيّداً هذا التعبير؟)، عندما لا يُسدّد سند محوّل من موقع باريس إلى موقع أنغوليم، يلتزم المصرفيون من أنفسهم التوجه إلى ما يسميه القانون **حساب الرجوع**. باستثناء التلاعب بين لفظتي الجناس(*)، لم يبتكر الروائيون قصة غير معقولة كهذه القصة، إذ إليكم المهازل الحاذقة، بدعة المتمسخر Mascarille(**) التي يفرزها ويسمح بها أحد بنود قانون التجارة الذي سيبين لكم شرحه مدى القسوة الوحشية المقنّعة تحت هذه الكلمة الرهيبة: الشرعية!

ما أن سجّل المُحضر دوبلون البروتستو، حتى حمله بنفسه إلى الأخوين كوانته، فهو يعمل لحساب هذين الذئبين المفترسين ويؤجّل أجور خدماته المستحقة لستة أشهر قد يسوف كوانته الطويل تسديدها له حتى السنة وهو يقول له في مطلع كل شهر:

«دوبلون، هل تحتاج إلى دراهم؟». ليس هذا كل شيء فقط! بل إن دوبلون يحابي بحسم خاص هذا البيت التجاري القوي الذي يحقق بعض الربح في كل عملية جارية، مبلغاً زهيداً، فرنكاً ونصف الفرنك على تسجيل البروتستو!... يجلس كوانته الطويل على مكتبه بهدوء، ويتناول ورقة ذات طابع بقيمة خمسة وثلاثين سنتيماً وهو يتبادل الحديث مع دوبلون بطريقة يستمد منها المعلومات عن الوضع الحقيقي للتجار.

- «وبعد، هل أنت مسرور من تاجر المفرّق غانراك؟».

- لا بأس به. طبعاً! وسيط نقل...

- آه! لكن الواقع أنه يسحب مبالغ مالية! وقيل لي إن زوجته مبذرة وتزيد من نفقاته.

هتف دوبلون بسخرية: هل سنلاحقه؟...

(*) - الجناس Calembour: بين Compte: حساب و Conte: حكاية.

(**) - المتمسخر Mascarille: الخادم المكار، المتآمر في مسرحيات القرنين السابع عشر والثامن عشر.

(م. المترجم)

كان الذئب الجشع قد أنهى تنظيم فاتورته، وكتب بالخط العريض الوثيقة المشؤومة المتضمنة الحساب التالي (هكذا!)

حساب رجوع ونفقات

بناءً على السند بقيمة **ألف فرنك**، المؤرخ في أنغوليم بتاريخ العاشر من شباط سنة ألف وثمانمئة واثنين وعشرين الموقع من **سيشار الابن** لأمر لوسيان شاردون الملقّب بدي روبمبره المحوّل لميتيڤيه ومنه إلينا، المستحق بتاريخ الثلاثين من شهر نيسان الأخير، المحتجّ عليه ببروتستو المحضر دوبلون في أوّل أيار ألف وثمانمئة واثنين وعشرين :

الأساس	١٠٠٠ فرنك
البروتستو	١٢,٣٥ فرنك
عمولة بمعدّل نصف بالمئة	٥ فرنك
عمولة سمسرة بمعدّل ربع بالمئة	٢,٥ فرنك
طابع رجوعنا والحساب الحالي	١,٣٥ فرنك
فوائد وأجرة رسائل	٣ فرنك
	١٠٢٤,٢٠

تغيير المكان بمعدّل واحد وربع بالمئة على

مبلغ ١٠٢٤,٢٠	١٣,٢٥ فرنك
	١٠٣٧,٤٥

ألف وسبعة وثلاثون فرنكًا وخمسة وأربعون سنتيمًا.

مبلغ نسترده من كمبيالتنا التي تدفع عند إبرازها على السادة ميتيڤية، شارع سربنت في باريس لأمر السيد غانراك من هومو.

أنغوليم، الثاني من أيار سنة ألف وثمانمئة واثنين وعشرين

الأخوان كوانته

في أسفل تلك القائمة، المعدة من قبل ممارس متمكن إذ أنه كان يسجل وهو مستمر في الحديث مع دوبلون، أضاف كوانته الطويل التصريح التالي:

نحن الموقعان، بوستل الصيدلي في هومو وغانراك وكيل نقل بالعمولة، التاجران في تلك المدينة نشهد أن تغيير مكاننا إلى باريس يتم بمعدّل واحد وربع بالمئة

أنغوليم في الثالث من أيار سنة ألف وثمانمئة واثنين وعشرين

«خذ يادوبلون، تكرّم علي بالذهاب إلى بوستل وغانراك، وخذ لي توقيعهما على هذا التصريح، وأعده لي غداً صباحاً».

ذهب دوبلون المنفذ لأدوات التعذيب هذه وكأنه يقوم بأبسط الأعمال. بديهي أن البروتستو سُلّم كما في باريس طيّ غلاف مغلق، غير أن أنغوليم بكاملها علمت بالحالة التعيسة التي وصلت إليها مشاريع هذا الشاب المسكين داڤيد سيشار. وكم كانت الاتهامات الموجهة إلى خموله؟ قال بعضهم! إنه ضاع نتيجة حبه المفرط لزوجته، واتهمه آخرون بتعاطفه الكبير مع ابن حميّه، وكم كانت الاستنتاجات المريعة التي استخلصها كل واحد من هذه المقدمات؟ يجب الامتناع عن تبني مصالح الأقارب! من حقّ الأب سيشار القسوة على ابنه، وموقفه يستحق الإعجاب!

الآن، أنتم جميعاً يامن تنسون لسبب ما أن **تفوا بتعهداتكم**، تمعّنوا جيّداً بالوسائل الشرعية تماماً التي تتيح لمصرف خلال عشر دقائق الحصول على فائدة ثمانية وعشرين فرنكاً على رأسمال ألف فرنك.

البند الأول من **حساب الرجوع** هذا هو الشيء الوحيد الذي لا خلاف فيه.

البند الثاني يتضمن حصة مصلحة الضرائب، والمُحضر، والستة فرنكات التي تلحظها المصلحة لقاء تسجيل همّ المدين وتقديم الورقة ذات الطابع ستحيي سوء الاستعمال مدة طويلة! فأنتم تعلمون أن هذا البند يؤمن ربح فرنك وخمسين سنتيماً للمصرفي بسبب الحسم الذي أجراه دوبلون.

يقضي البند الثالث بمنح عمولة نصف بالمئة بمقتضى تلك الذريعة البارعة التي تقضي بأن عدم التسديد يعادل في المصرف حسم سند، بالرغم من أن هذا هو العكس تمامًا، فلا شيء أكثر تماثلاً من إعطاء ألف فرنك أو عدم قبضها، فكل من يقدّم سندات للحسم يعرف أنّ الحاسم يقتطع عدا الستة بالمئة المتوجبة قانونًا، وتحت الاسم المتواضع، العمولة، وهي نسبة مئوية تمثل الفوائد التي تعطيها إضافة للمعدّل القانوني، العبقرية التي تقيِّم بها رأسمالها، وكلما استطاعت أن تربح زادت من مطالبها. هكذا يجب إجراء الحسم عند الحمقى، فهو أقل كلفة، لكن هل في المصرف حمقى؟...

يُلزم القانون المصرفي إثبات معدّل الصرف من قبل صرّاف، أو بشهادة تاجرين، في الأماكن التي لا يوجد فيها لسوء حظها، بورصة. حدّدت عمولة الصرّاف المسماة سمسرة بربع بالمئة من المبلغ المسجّل في السند المحتج عليه بالبروتستو، وقضى العرف حساب هذه العمولة هبة للتاجرين المعتمدين بدلاً من الصرّاف، ويحولها المصرفي بكل بساطة إلى صندوقه، وهذا ما ورد في البند الثالث من هذا الحساب الجذّاب.

يشمل البند الرابع ثمن المربع الورقي ذي الطابع المخصص لتسجيل **حساب الرجوع**، وثمن الطابع المترتب على ما يُسمى ببراعة **الرجوع** أي الكمبيالة الجديدة المعدّة من المصرفي على زميله لاسترداد مبلغ السند المحوّل له.

يتضمن البند الخامس كلفة نقل الرسائل والفوائد القانونية عن المبلغ خلال الفترة من الزمن التي انقضت بعد استحقاق دفعه وعدم تسديده.

أخيراً كلفة تغيير المكان وهي هدف المصرف بالذات تعني كلفة نقل الدفع من مكان إيداع السند إلى مكان تسديد قيمته.

لندقّق هذا الحساب المماثل لطريقة حساب بوليشينيل في الأغنية النابولية التي مثلها لابلاش (خمسة عشر وخمسة تعطي اثنين وعشرين، أليس كذلك[1]؟)، وبديهي أن توقيع بوستل وغانراك قضية مجاملة. فالأخوان كوانته يوقعان عند الحاجة لغانراك، كما أن غانراك يوقع لكوانته وهذا تطبيق عملي للمثل القائل: أعطني الراوند وسأعطيك السنا[*]، ونظراً لوجود حساب جارٍ بين الأخوين كوانته وميتيقيه يكفي لرجوع سند إضافة القيمة في خانةٍ له منقولة من خانة «عليه» دون حاجة لتسطير كمبيالة.

هذا الحساب الوهمي يختصر في حقيقته على ألف فرنك مستحقة، وبروتستو ثلاثة عشر فرنكًا وفائدة نصف بالمئة لشهر أي ما مجموعه ألف وثمانية عشر فرنكًا.

إذا كان لأحد المصارف حساب **رجوع واحد** وسطيّاً كل يوم، فإنه يقبض بنعمة الله والأنظمة المصرفية ثمانية وعشرين فرنكًا عن الألف فرنك وهي أتاوة رهيبة ابتكرها اليهود في القرن الثاني عشر وهي تسود الآن على العروش والشعوب. بتعبير آخر، الألف فرنك تدرُّ على ذلك المصرف ثمانية وعشرين فرنكًا في اليوم أو عشرة آلاف ومئتين وعشرين فرنكًا في السنة. فإذا وصل الحد الوسطي **لحسابات الرجوع** إلى ثلاثة أضعافه، فرؤوس الأموال الوهمية هذه ستعطي دخلاً

---

(١) - بوليشينيل: شخصية هزلية في مسارح الدمى الأوروبية.
لابلاش: مغني نابولي شهير، فرنسي الأصل (١٧٩٤ - ١٨٥٨) ذاع صيته في إيطالية وفرنسة وإنكلترة، ويبدو أن الأغنية المشار إليها كانت سائدة في تلك الحقبة، فقد دونها ستندال في رواية **الأسود والأبيض** وخلاصتها «أن بوليشينيل أراد أن يتزوج وراح يعدُّ على أصابعه لوازم منزل الزوجية لكنه كان يخطئ العدّ رغم تكراره مرات كثيرة».

(*) - المثل: PoussE - Moi lA RhubaabE jE Uous passerai, Le Séme. أو أعني اليوم، أعينك غداً (م. المترجم) (الراوند والسنا من أصناف البقول).

سنويًا يصل إلى ثلاثين ألف فرنك. وهكذا فأحب استثمار للمصرفيين **حسابات الرجوع**. يمكن أن يأتي دافيد سيشار في الثالث من أيار ليسدّد سنده، أو قد يأتي غداة تسجيل البروتستو، ليقول له الأخوان كوانته: «أعدنا سندك إلى ميتيڤيه!» بينما لايزال هذا السند موجوداً على مكتبهما. **فحساب الرجوع** يسري في مساء يوم وضع البروتستو، وهذا ما يسمى في لغة مصرف المقاطعات: **استثمار الأموال**، فحساب أجور الرسائل في مصرف كيلر، الذي يتعامل مع العالم كله يعطي نحو عشرين ألف فرنك، **وحسابات الرجوع** تسدّد أجور المقصورة في مسرح الإيطاليين، والعربة ونفقات زينة السيدة البارونة دي نوسنجن، **وأجرة الرسالة** تعسّف تظهر فظاعته بتفاهة الإجراء الذي يتخذه المصرفي بشأنه، والذي لا يتعدى كتابة بضعة أسطر لعشرات القضايا المتماثلة. شيء غريب! لمصلحة الضرائب نصيبها من هذه الأتاوة المقتلعة من التعاسة، وهكذا تنتفخ الخزينة العامة من المحَن التجارية. أما المصرف فإنه يلقي من أعلى مكتب حساباته على المدين ذلك السؤال الصائب المحرج: «لماذا لم تأخذ بالحسبان موعد تسديد السند؟»، ويبقى السؤال للأسف، دون جواب. هكذا فإن حساب الرجوع حكاية مملوءة بالخيالات الرهيبة، ومن شأنها أن تدبّ الرعب الناجع في نفوس المدينين الذين سيقرؤون بتروٍّ هذه الصفحة التوضيحية.

في الرابع من أيار تلقى ميتيڤيه من الأخوين كوانته حساب الرجوع مع أمر بملاحقة لوسيان شاردون الملقب بدي روبمبره بلا هوادة في باريس.

بعد عدة أيام، تلقّت إيف جوابًا على رسالة وجّهتها إلى السيد ميتيڤيه الرسالة القصيرة التالية التي طمأنتها.

«إلى السيد سيشار الابن، الطبّاع في أنغوليم».

«تلقيت في الوقت المناسب رسالتكم المؤرخة في الخامس من الشهر الجاري، وعلمت استناداً إلى شروحكم المتعلقة بالسند غير المدفوع المستحق بتاريخ ٣٠ نيسان الفائت الأسباب التي تدفعكم إلى تكليفي بمطالبة ابن حميّكم السيد دي روبمبره،

الذي ينفق كثيراً، بالتسديد، حتى أن إلزامه بالدفع يُعَدُّ خدمة لكم: إنّه في وضع لا يسمح له بالإلحاف في مطالبته، فإذا لم يدفع ابن حميكم المحترم، فإنني سأعتمد على استقامة منزلكم العريق وأقول لنفسي كما قلت دائماً بأنني»

خادمكم المخلص

«ميتيبيه»

قالت إيف لداڤيد: «وبعد فإن أخي سيعلم عند مراجعة ميتيڤيه له بأننا لم نتمكن من التسديد».

كم تنمُّ هذه العبارة عن تغيّر لدى إيف؟ فالحبّ المتعاظم الذي أوحى به طبع داڤيد الذي ازدادت معرفة به يوماً بعد يوم احتلّ في قلبها مكان الحبّ الأخوي. ولكن كم قالت وداعًا لكثير من الأوهام؟...

ألا نرى الآن المسار الذي اتبعه **حساب الرجوع في باريس**؟ إن الطرف الحائز وهو الاسم التجاري لمن يمتلك سنداً بالنقل حرٌّ، بمقتضى القانون في ملاحقة الأوفر حظًا بين مختلف المدينين بالتسديد السريع له، واستناداً إلى هذه الحرية في الاختيار فقد لاحق مُحضرٌ ميتيڤيه لوسيان. وها هي مراحل هذه العملية التي لم تؤد إلى أية نتيجة. كان ميتيڤيه الذي يستتر خلفه الأخوان كوانته يعرف عدم قدرة لوسيان على الدفع، ولكن، ودائماً بمقتضى روح القانون لا وجود في **علم الحقوق** للعجز عن الدفع **واقعياً** إلا بعد التحقق. وتم التحقق من تعذّر الحصول من لوسيان على تسديد السند بالطريقة التالية:

أعلن مُحضرٌ ميتيفيه في الخامس من أيار حساب الرجوع وبروتستو أنغوليم، عند دعوته إلى محكمة غرفة تجارة باريس ليستمع إلى أقوال كثيرة منها الحكم عليه من قبل هيئتها بصفته تاجراً. عندما قرأ لوسيان وسط حياته كوعلٍ محاصر هذه الطلاسم، تلقى إعلان الحكم الصادر عليه غيابيًا بعد تخلفه عن الحضور، من

محكمة التجارة[1] فخليلته كورالي، التي تجهل موضوع السندات، تصوّرت أنها خدمة يؤديها لصهره، وقدّمت له الوثائق الواردة له بعد أن فات الوقت، فالممثلة التي ترى كثيراً من المحضرين في مسرحيات الڤودفيل الفكاهية لا تعلق أهمية على الأوراق ذات الطابع. ترقرقت الدموع في عيني لوسيان، ورثى لحال سيشار، وخجل من تزويره، وأراد أن يُسدّد الدين، وكان طبيعيّاً أن يلجأ إلى أصدقائه ليستشيرهم في الطريقة التي يمكن أن يكسب بها بعض الوقت، وعندما أعلمه لوستو وبلونده، وبيكسيو، وناتان عن قلة الحالات التي يمثل بها شاعر أمام محكمة التجارة، الجهة القضائية المخصصة لأصحاب الدكاكين، وجد الشاعر نفسه معرّضاً للحجز. ورأى على بابه ذلك الإعلان الصغير الأصفر الذي يحول لونه على الأبواب الخارجية ويتمتع بفضيلة تقليص السُلَف، ويحمل الرعب إلى قلوب صغار المموّنين، ويجمد خاصة الدم في عروق الشعراء المرهفي الإحساس، المتعلقين بهذه القطع الخشبية، والأسمال الحريرية، وركام الصوف الملوّن، وهذه الترّهات المسماة أثاثًا. عندما حضروا ليحجزوا أثاث كورالي، ذهب مؤلّف **أزهار المرغريت** يستشير صديقًا لبيكسيو، المحامي ديروش الذي انتابه الضحك عندما لاحظ ذعر لوسيان رغم تفاهة الموضوع وقال له: «هذا لا شيء ياعزيزي، أتريد كسب الوقت؟ - إلى أبعد حدّ ممكن - حسن، اعترض على تنفيذ الحكم. اذهب وراجع ماسون، أحد أصدقائي، وهو وكيل مقبول أمام المحكمة التجارية، وقدّم إليه وثائقك فيجدّد لك الاعتراض، ويُمثّلك أمام المحكمة، ويطعن في اختصاصها، ولن يلق أيّة صعوبة، فأنت صحفي معروف ولست تاجراً وإذا دعيت للمثول أمام محكمة مدنية فعُد إليّ، إنّه اختصاصي: وأنا كفيل بأن أطرد كل من يحاول إزعاج كورالي الجميلة».

في الثامن والعشرين من أيار دُعي لوسيان للمثول أمام محكمة مدنية، وأدين بسرعة فاجأت ديروش فقد أُريد ملاحقة لوسيان حتى النهاية، وعندما أعلن عن

---

(١) - هذه العبارة غير الواضحة تتفسر بما تلاها: لم تسلّم كورالي للوسيان دعوات المحكمة السابقة وبالتالي حكم عليه غيابيًا لتخلفه عن الحضور رغم الدعوة.

إجراء حجز جديد، وأُحضر إعلان أصفر لتزيين عضادتي مدخل منزل كورالي، وتمّ التهيؤ لمصادرة أثاثها، لم يبلغ الحمق بديروش درجة يتيح بها لزميل له أن ينال منه (وفقًا لتعبيره، فاعترض مدعيًّا بحقّ، أن الأثاث يعود للآنسة كورالي، والتمس الحكم بصفة مستعجلة في هذه القضية، وبناءً على هذا الالتماس دعا رئيس المحكمة الأطراف المتنازعة إلى جلسة صدر على أثرها الحكم بملكية كورالي للأثاث واستأنف ميتيفيه، لكن استئنافه رُفض بقرار صدر بتاريخ الثلاثين من شهر تموز.

في السابع من شهر آب تلقى المحامي كاشان في أنغوليم بواسطة عربة البريد الآتية من باريس الملف الضخم المعنون، **ميتيفيه في مواجهة سيشار ولوسيان شاردون.**

كانت الوثيقة الأولى في هذا الملف كشف الحساب التالي الموثق، الذي تم التأكد منْ صحته وجرى نسخه:

سند مستحق بتاريخ ٣٠ نيسان الماضي موقّع من سيشار الابن لصالح لوسيان دي روبمبره. لم يسدّد وجرى حساب الرجوع بتاريخ (٢ أيار) :	١٠٣٧,٤٥ ف
(٥ أيار) تبليغ حساب الرجوع والبروتستو مع دعوة للحضور أمام محكمة التجارة في باريس بتاريخ ٧ أيار :	٨,٧٥ ف
(٧ أيار) محاكمة، وحكم غيابي مع ملاحقة المدين لإلزامه على الدفع	٣٥ ف
(١٠ أيار) إعلان الحكم	٨,٥٠ ف
(١٢ أيار) أمر بتسديد الدين	٥,٥٠ ف
(١٤ أيار) محضر ضبط بالحجز	١٦ ف

(١٨ أيار) محضر ضبط بإعلانات الحجز ١٥,٢٥ ف

(١٩ أيار) النشر بالجريدة ٤ ف

(٢٤ أيار) محضر ضبط بجرد الأشياء المتحقّق من وجودها تمهيداً للحجز مع الإشارة إلى اعتراض السيد دورومبره على تنفيذ الحكم ١٢ ف

(٢٧ أيار) قرار المحكمة استجابة للاعتراض المكرّر وفق الأصول بإحاله المتداعين إلى المحكمة المدنية ٣٥ ف

(٢٨ أيار) دعوة عاجلة لميتيڤيه بالحضور إلى المحكمة المدنية مع توكيل محام مرخص ٦,٥٠ ف

(٢ حزيران) حكم حضوري بإلزام لوسيان شاردون بتسديد مسوغات حساب الرجوع وإبقاء النفقات الناتجة عن إقامة الدعوى أمام المحكمة التجارية على عاتق المدّعي ١٥٠ ف

(٦ حزيران) إعلان الحكم السابق ١٠ ف

(١٥ حزيران) الأمر بالتنفيذ ٥,٥ ف

(١٩ حزيران) محضر ضبط جرد الأشياء المعدة للحجز واعتراض الآنسة كورالي المدّعية بأن الأثاث يعود إليها، وطلب إجراء جلسة مستعجلة في حال تثبيت الحجز ٢٠ ف

(١٩ حزيران) أمر رئيس المحكمة بإحالة طرفي الدعوى إلى جلسة مستعجلة ٤٠ ف

(١٩ حزيران) الحكم بتثبيت ملكية الأثاث للآنسة كورالي ٢٥٠ ف

(٢٠ حزيران) استئناف ميتيڤيه ١٧ ف

(٣٠ حزيران) حكم استئنافي مؤيد للحكم البدائي	٢٥٠ ف
المجموع	٨٨٩ ف
سند ٣١ أيار	١٠٣٧,٤٥ ف
تبليغه للوسيان	٨,٧٥ ف
	١٠٤٦,٢٠ ف
سند ٣٠ حزيران ، حساب الرجوع	١٠٣٧,٤٥ ف
تبليغه للوسيان	٨,٧٥ ف
	١٠٤٦,٢٠ ف

أرفقت هذه الوثائق برسالة يطلب فيها ميتيڤيه من المحامي كاشان المرخص في أنغوليم بملاحقة دافيد سيشار بجميع الوسائل القانونية ، وهكذا أنذر المحضر ڤيكتور - آنج - هرمنجيلد دوبلون بتاريخ ٣ تموز ، دافيد سيشار ، عن طريق محكمة تجارة أنغوليم بتسديد مبلغ إجمالي قدره أربعة آلاف وثمانية عشر فرنكًا وخمسة وثمانين سنتيمًا قيمة السندات الثلاثة وما ترتب عليها من نفقات إضافية ، وفي اليوم الذي حمل فيه دوبلون أمر دفع هذا المبلغ الضخم إلى إيف تلقت في الوقت نفسه من ميتيڤيه هذه الرسالة الصاعقة :

«إلى السيد سيشار الطبّاع في أنغوليم

نسيبك السيد شاردون رجل سيء النية إلى درجة دفعت به إلى تسجيل أثاث منزله باسم الممثلة التي يعايشها ، وكان من الواجب عليك ياسيدي ، أن تعلمني بصدق عن تلك الظروف كيلا أجري تلك الملاحقات التي لم تجد نفعًا ، إذ أنك لم تجبني على رسالتي الموجهة إليك في العاشر من أيار الفائت . أرجو إذن ألا تستاء من مطالبتي لك بتسديد السندات الثلاثة مباشرة مع جميع ما تكبدته من نفقات» .

إقبل تحياتي

«ميتيڤيه»

اعتقدت إيف، وهي غير الخبيرة بالقانون التجاري، عندما لم يثُر الموضوع معهما مجدّداً أن أخاها قد تدارك جريمته ودفع السندات المزوّرة.

قالت لزوجها: «أسرع ياعزيزي، قبل كل إجراء إلى پتي - كلو واشرح له وضعنا، واستشره» أسرع الطباع المسكين إلى مكتب رفيقه وبادره متلهفًا بالقول: «ياصديقي، لم أكن أعلم عندما أعلنت لي نبأ تسميتك محاميًا مرخصًا وعرضت عليّ خدماتك أنني سأحتاج إليك سريعًا». تأمّل پتي - كلو وجه المفكر الوسيم الذي يبديه هذا الرجل الجالس على كنبة في مواجهته، لأنّه لم يكن يستمع إلى تفاصيل القضية التي يعرفها أكثر من هذا الذي يحاول شرحها له، وقال في نفسه «تمت الحيلة». يدور هذا المشهد غالبًا في زوايا مكتب المحامين. تساءل پتي - كلو: «لماذا يضايقه الأخوان كوانته؟....» في خاطر المحامين المرخصين النفاذ إلى نفوس زبائنهم مثل نفاذهم إلى نفس خصومهم. إنّهم يرون ضرورة معرفة وجه القضية الحقوقية وظهرها بعد أن أنهى دافيد شرح قضيته، سأله پتي - كلو: «تريد أن تربح بعض الوقت، كم يلزمك ثلاثة أو أربعة أشهر؟».

هتف دافيد وقد بدا له پتي - كلو ملاكًا منقذًا: إيه. أربعة أشهر! مهلة تنقذني تمامًا.

قال بتي - كلو: «وبعد، تريد ألا يُمسّ أي من أثاث منزلك، وألا تجري محاولة لتوقيفك قبل ثلاثة أو أربعة أشهر... لكن هذا يكلّفك غاليًا جداً».

- هتف سيشار: «إيه! وماذا يهمني؟»

- سأل المحامي وهو شبه مندهش من السهولة التي انقاد فيها زبونه إلى الدسيسة التي حاكها له:

هل تتوقّع حصولك على بعض المبالغ المالية؟ وهل أنت متأكد من ذلك؟

- أجاب المبتكر بيقين الواثق: خلال ثلاثة أشهر سأكون غنيّاً.

قال بتي - كلو: لكن والدك مايزال في صحة جيّدة، وهو حريص على البقاء في كرومه.

- هل اعتمد على موت والدي للحصول على الثروة؟ إنني أسعى إلى طريقة صناعية تتيح لي إعداد ورق دون اللجوء إلى أي خيط قطن، وهو بمثل متانة ورق هولندة، وبسعر كلفة لا يتجاوز نصف سعر كلفة عجينة الورق القطنية الحاليّة.

- هتف بتي - كلو الذي أدرك مشروع كوانته الطويل: هذا ابتكار يدرُّ ثروة.

- ثروة كبيرة ياصديقي، إذ سيلزمنا خلال عشر سنوات عشرة أضعاف الورق الذي نستهلكه حاليّاً، فالصحافة ستكون جنون عصرنا!.

- هل كشفت سرك لأحد؟...

- لم يطلع عليه أحد، باستثناء زوجتي.

- لم تحدث أحداً عن مشروعك، أو عن برنامجك، مثل الأخوين كوانته مثلاً؟.

- حدثتهما عنه، إنما بشكل مبهم، على ما أعتقد!.

أشرقت بارقة شهامة في نفس بتي - كلو الممتلئة حقداً دفعته إلى أن يفكر بالتوفيق بين مصلحة الأخوين كوانته ومصلحته ومصلحة سيشار، وقال:

«اسمع، ياداڤيد، إننا رفاق مدرسة، سأدافع عنك، وهذا الدفاع المعارض للقوانين سيكلفك من خمسة آلاف إلى ستة آلاف فرنك!... فلا تجازف بثروتك.

أعتقد بأنك ستكون مضطراً لتقاسم أرباح ابتكارك مع أحد صناعيينا، ألا تفكر بذلك؟

راجع نفسك مرتين قبل شراء أو إنشاء مصنع ورق . . . يجب أن تحصل على براءة اختراع . . . وكل هذا يتطلب وقتًا ومالاً . وقد ينقض عليك مأمورو الحجز رغم العوائق التي سنقيمها أمامهم . . .

أجاب دافيد ببراءة العالم : إنني أحافظ على سري!

استأنف پتي - كلو مرتداً عن نيته المخلصة الأولى في تجنب دعوى مخالصة : سيكون سرك خشبة خلاصك، وأنا لا أريد أن أعرفه، لكن اصغ إليّ جيدًا : حاول أن تعمل في باطن الأرض حتى لا يراك أحد ولا يستطيع أن يخمن وسائل تنفيذك فخشبتك ستُسرق من تحت قدميك عندئذ . . . تنطوي تحت جلد المبتكر براءة نفس ساذجة! وأنت مستغرق في التفكير بأسرارك مما يحول دون أخذك الاحتياط من كل شيء، إنك محاط بالمصنعين! والأعداء بقدر المصنعين! إنني أراك مثل حيوان القندس وسط الصيادين، فلا تتيح لهم أن يسلخوا جلدك . . .

- هتف سيشار : شكراً يارفيقي، قلت لنفسي كل هذا، لكنني مدين لك بالشكر على تنبيهي إلى التزام الحذر والعناية! . . . بالنسبة لي أكتفي بدخل ألف ومئتي فرنك سنويًا، وسيترك لي أبي ثلاثة أمثال هذا المبلغ في يوم ما . . . وأنا أحيا بالحبّ وبفكري! . . . حياة سماوية . . . إن الأمر يتعلق بلوسيان وزوجتي، وأنا أعمل من أجلهما . . .

- هيّا وقّع لي هذا التفويض، ولاتهتمُ أبدًا إلا باكتشافك، وفي اليوم الذي يجب أن تختبىء فيه خشية الملاحقة والحبس للإلزام بوفاء الدين، سأنذرك عشية اليوم، إذ يجب توقع كل شيء . واسمح لي أن أوصيك بألاّ تسمح لأحد بالدخول إلى منزلك ما لم تكن واثقًا منه كثقتك بنفسك .

- لم يُرد سريزه تجديد آجار استثمار مطبعتي، ومن هنا ما نشعرُ به حاليًا من ضيق مالي . هكذا لم يبق لديّ إلا ماريون، وكولب وهو وفيٌّ لي مثل كلب جعد، إلى جانب زوجتي وحماتي .

- قال بتي - كلو: أنصحك بالحذر ممن تعده وفيًّا مثل كلب جعد.

- هتف دافيد: إنك لا تعرف كولب، إنه مثال الإخلاص والوفاء.

- هلاً سمحت لي بإخضاعه للاختبار.

- نعم.

- هيّا وداعًا، لكن بلّغ السيدة سيشار الجميلة أن تأتي بدورها إلى مكتبي، فمن الضروري أن توقّع زوجتك بدورها تفويضًا لي. استأنف بتي - كلو منذراً رفيقه بجميع المصائب القضائية التي يمكن أن يتعرض لها مختصراً ذلك بقوله: «ياصديقي فكّر أن لهب النار يحيط بقضاياك».

رافق بتي - كلو صديقه مودّعًا حتى باب المكتب وهو يقول في نفسه: «ها أنا أكسب ثقة الطرفين كوانته وسيشار».

مع معاناة دافيد لهموم نقص المال، ومشاركته أحزان امرأته المتألمة من تصرف أخيها الشائن، كان يفكر بابتكاره، وقد انطلق من منزله باتجاه مكتب بتي - كلو وهو يعلك متلهيًا ساقًا من نبات القراص كان قد وضعه في الماء للتوصل إلى تعطين[١] بعض السوق النباتية التي يفكر باستخدامها عجينة لصناعة ورقه، ويريد أن يستبدل بمختلف وسائل التكسير التي تلجأ إليها عمليات المرث[٢]، أو النسيج أو كل ما يحوّل إلى خيوط أو قماش أو خرق طرقًا مماثلة، وعندما انطلق في الشوارع، وهو راض عن نتيجة مداولته مع صديقه بتي - كلو، وجد بين أسنانه كريّة عجينية وضعها في يده وبسطها ولا حظ امتدادها الذي يفوق كل المركبّات التي حصل عليها

(١) - التعطين: نقع سوق النباتات النسيجية كالقنب والكتان لتحرير الألياف التي يراد تحويلها إلى خيوط بحيث تزاح عنها المواد الصمغية وغيرها من المواد غير الصالحة للغزل بنوع من التخمّر.

(٢) - المرث: عملية نقع مشابهة للتعطين لكنها تجري على خُرَق القماش المعدّة لصناعة الورق وقد استخدمت حتى بداية القرن الثامن عشر في هذه الصناعة وهي تسبق عملية الهرس. وقد كان هدف دافيد أن يعالجُ خُرقهَ الخضراء - وفقًا لتسمية والده العجوز. أي سوقًا مختارة من النباتات بوسائل مماثلة لعمليتي التعطين والمرث لتحضير عجينة ورقية رخيصة الكلفة.

سابقًا إذ أن العائق الرئيس في المعاجين السابقة نقصُ المادة الرابطة، فالقش يعطي ورقًا متقصّفًا شبه معدني، رنّانًا. مثل المصادفة التي حَدَثت له بعلك القرّاص لا تحدث إلا للباحثين الشجعان المثابرين، والمفكرين بالأسباب الطبيعية! قال في نفسه: «سأحقق العملية التي حدثت بتأثير أسناني ولُعابي على النطاق الصناعي بماكنة وعامل كيميائي». وانطلق لرؤية زوجته فرحًا، واثقًا من نجاحه.

قال داڤيدوهو يرى إيڤ وآثار الدموع في عينيها: إيه! ياملاكي، لا تقلقي! سيضمن لنا پتي - كلو مهلة عدة أشهر، وسيترتب على ذلك بعض نفقات إضافية، لكنه أكدّ لي وأنا أغادر مكتبه «إن جميع الفرنسيين يملكون حق تأجيل ديونهم لمدة شريطة تعهدهم بتسديد رأس المال وفائدته والنفقات عند انقضاء المهلة! . . .» إذن سنتعهد بالتسديد ونحصل على مهلة . . .

- قالت إيڤ المسكينة المفكّرة بكل شيء: ومن أين نعيش؟

- أجاب داڤيد وهو يرفع يده إلى أذنه بحركة مبهمة لكنها مألوفة لدى جميع الأشخاص القلقين: آه! هذا صحيح.

- قالت: سترعى أمّي طفلنا لوسيان مما يمكنني من العمل مجددًا.

هتف دافيد وهو يضمّ امرأته إلى صدره: إيڤ! حبيبتي إيڤ! على بُعد خطوتين من هنا، في سانت(*)، وُجد أحد كبار رجال فرنسة خلال القرن السادس عشر، وقد ابتكر صناعة الميناء، وكان السابق الماجد لبوفون وكوڤيه، فقد اكتشف الجيولوجية قبلهما، هذا الرجل الساذج! إنه برنار دي باليسي[1]، وقد آلمه هوى بحّاثة الأسرار، فزوجته وأولاده، وأهل ضاحيته يعاكسونه، حتى أن زوجته باعت

(*) - سانت Saintes: بلدة فرنسية جنوب غرب مدينة آنغوليم.

(١) - باليسي، برنار B. pALISSY (١٥١٠ - ١٥٩٠) خزاف ومبتكر ميناء ملوّن، ورسام، وكاتب، وعالم فرنسي، قام بملاحظات خاصة عن المستحاثات والصخور، وأعطى محاضرات عنها في باريس العام ١٥٧٥ وبذلك يكون سابقًا بنحو قرنين للعالم بوفون (١٧٠٧ - ١٧٨٨) مؤلف التاريخ الطبيعي والعالم كوڤيه (١٧٦٩ - ١٨٣٢) مؤسس علم المستحاثات.

أدوات عمله . . . كان يهيم على وجهه، غير مقدّر! . . . مطروداً، يشار إليه بسخرية! . . . أمّا أنا فإنني محبوب . . .

- أجابت إيڤ بكل وداعة الحب والثقة بالنفس: محبوب جداً.

- يمكن تحمل الألم إذن كما تحمّل هذا الرجل المسكين برنار دي باليسي مبتكر قيشاني إكوان الذي بدا أخيراً أمام أوروبة شيخاً غنيّاً ومحترماً يعطي دروساً عامة في علوم الأرض وفقاً لما سمّاها، حتى أن شارل التاسع استثناه من مذبحة سان بارتلمي[1].

- هتفت المرأة المسكينة بنبرة التضحية والإخلاص الأكثر عمقاً: مادامت أصابعي تملك القوة على تحريك المكواة لن ينقصك شيء، عندما كنت أعمل لدى السيدة بريور توطدت صداقتي مع بازين كليرجه، إحدى العاملات الوديعات، ونسيبة السيد بوستيل، وقد أعلمتني منذ مدة قريبة وهي تحضر لي بياضاتي بعد كيّها بأنها ستحلّ محل السيدة بريور وسأذهب للعمل عندها! . . .

- أجاب سيشار: «لن تستمري في هذا العمل طويلاً! فقد اكتشفت . . .»

لأوّل مرّة قابلت إيڤ بابتسامة شبه حزينة الإيمان السامي بالنجاح الذي يدفع المبتكرين إلى المثابرة، ويمنحهم الجرأة على الانطلاق في غابات الاكتشاف العذراء، وأطرق داڤيد برأسه بشكل كئيب.

صاحت إيڤ الجميلة وهي تجثو على ركبتيها أمام زوجها: «إيه! ياعزيزي، أنا لا أسخر، ولا أضحك، ولا أشكّ، لكنني أقدّر بحقّ حرصك على الصمت العميق وكتمان تجاربك وآمالك. نعم، ياعزيزي، على المبتكرين أن يخفوا ولادة

(١) - **مذبحة سان بارتلمي**: هي المذبحة التي حدثت ليل ٢٣ آب ١٥٧٢ في باريس أيام الملك شارل التاسع، بتحريض من والدته كاترين دي مديسي وراح ضحيتها ٣٠٠٠ من الهوغنوت البروتستنت الفرنسيين وألقي القبض على الكثير منهم بعد ذلك ومنهم باليسي الذي حكم عليه بأن يُحرق حيّاً لكن كاترين دي مديسي حمته من الموت فأودع سجن الباستيل حيث توفي العام ١٥٩٠.

مجدهم العسيرة عن جميع الناس، حتى عن نسائهم! . . . فالمرأة هي المرأة دائماً، وزوجتك إيف لم تستطع أن تكتم ابتسامة، وهي تسمعك تقول: اكتشفت! . . . ثم تصمت، وذلك للمرة السابعة عشر خلال الشهر».

راح داڤيد يضحك صراحة من نفسه، حتى أن إيڤ تناولت يده وقبّلتها بوقار، وكانت لحظة عذبة، إحدى هذه الورود المعبّرة عن الحبّ والحنان التي تزهر على جوانب طرقات البؤس القاحلة بل وأحيانًا في قاع هوة المصيبة.

ضاعفت إيف من شجاعتها وهي ترى التعاسة تقترن بالهيجان، فكبَر زوجها، وسذاجته كمبتكر، والدموع التي تلحظها فجأة في عيني هذا الرجل المُفَعم عاطفة وشعراً، كل هذا كان يُنمي لديها قوة مقاومة خارقة، مما دفعها إلى اللجوء مرة أخرى إلى وسيلة سبق نجاحها، فكتبت إلى السيّد ميتيڤيه تنبئه بعزمها بيع المطبعة وتعده بتسديد ديونه من الثمن الذي ستحصل عليه، وهي تطلب منه عدم اتّخاذ إجراءات تزيد من النفقات المترتبة على دافيد. لكن ميتيڤيه لزم أمام هذه الرسالة السامية صمت الأموات، وتلقت جوابًا من كاتبه الأوّل يفيد بأنّه لا يستطيع في غياب معلمه ميتيڤيه أن يوقف إجراءات الملاحقة فسيّده لا يتبع هذه الطريقة في قضاياه. اقترحت إيف تجديد السندات مع دفع كل المصاريف، ووافق الكاتب شريطة تقديم كفالة مسبقة من والد داڤيد سيشار. انطلقت إيف ترافقها أمّها وكولب على الأقدام إلى مارساك لمقابلة الكرام العجوز، ونجحت بلطفها في بسط أسارير الكرام العجوز لكن سرعان ما لاحظت تلك السحنة المميزة للسكارى تتغير كليّـاً عند ذكر الكفالة، صاح: إذا منحت ابني حرية وضع يده لإطباق شفتي قرب صندوقي، فسيغرزها حتى عمق أحشائي، ويستولي على كل شيء. إن الأولاد قادرون على أن يلتهموا كل ما تحويه المحفظة الأبويّة. هل فعلت أنا مثل هذا؟ لم أكلّف أهلي فلسًا واحداً. هاهي مطبعتكم فارغة، والجرذان والفئران وحدها تطبع آثار قوائمها على مكابسها . . . أنت جميلة، وأنا أحبك لأنك معتنية ومجدّة، لكن ابني! . . . هل تعلمين من هو داڤيد؟ . . . إنّه عالم خامل. لو أنني أهملته كما

أهملت، دون أن أعرف القراءة، لو أنني جعلت منه دبّاً، عامل مكبس كأبيه لحقق دخلاً مجزياً... إيه! هذا الفتى صليبي، كما ترين! وللأسف فهو وحيد، بعكس الورقة الطباعية التي يتوفر منها وجهان(*)! أخيراً إنه يسبب لك التعاسة... (اعترضت إيف بحركة نفي مطلق) واستأنف العجوز رداً على حركتها، نعم، اضطررت للاستعانة بمرضع، فالهم جفف حليبك. أنا مطلّع على كل شيء، هيا! إنكم أمام المحكمة، وخبركم منتشر في المدينة. ما أنا إلا عامل مكبس، لست عالمًا، ولم أكن ناظر عمال في مطبعة آل ديدو، فخر صناعة الطباعة، لكنني لم أتلق يوماً ورقة استدعاء إلى محكمة! هل تعلمين بماذا أفكر وأنا ذاهب إلى كرومي لأعتني بها وأجمع محصولها، وأتابع قضاياي الصغيرة؟... أقول في نفسي: أيّها العجوز المسكين، إنك تبذل كثيراً من الجهود، تقتّر على نفسك وتضمُّ الفرنك إلى الآخر، وستترك أملاكًا جيّدة لتكون عرضة لمأموري الحجز والمحامين المرخصين... أو للمشاريع الوهمية... والأفكار الخيالية... هيا يابنتي، إنك أم لهذا الطفل الصغير الذي رأيت في ملامح وجهه سيماء جدّه عندما وقفت مع السيّدة شاردون أمام جرن المعمودية عرأبين له. فكّري بهذا الطفل أكثر من تفكيرك بداڤيد سيشار... وأنا واثق بك، إذ يمكنك أن تحولي دون هدر أرزاقي... أرزاقي البائسة...

– لكنك أيها الأب العزيز سيشار ستفخر بابنك، وستراه يحقق الثراء والمجد ووسام جوقة الشرف يرصّع بزرّه عروة سترته.

– سأل الكرّام: ماذا سيفعل لتحقيق ذلك؟

– سترى!... إنما بانتظار ذلك، هل ستدمّرك ألف إكو؟... إن ألف إكو ستحول دون ملاحقة داڤيد... وبعد إن لم تكن واثقًا منه. أعرني هذا المبلغ، وسأعيده لك، سأرهن لك دوطتي، وتعويض عملي...

– صاح الكرام وهو منذهل لسماعه صحة الخبر الذي كان يعتقده مجرّد نميمة: «داڤيد سيشار ملاحق إذن؟ هاهي نتيجة من يعلم توقيع اسمه!... وأجور

(*) – يلاحظ استخدام سيشار العجوز وهو عامل المطبعة السابق للمصطلحات السائدة في المطبعة.

مطبعتي! . . . إيه! يجب أن أعجل بالذهاب إلى أنغوليم ياصغيرتي لأرتب أموري وفق الأصول القانونية واستشير كاشان محاميَّ . . . أحسنت بمجيئك إلى هنا . . . فالحذر يُنجي من الخطر! . » بعد جدل استمر ساعتين، اضطرّت إيف للمغادرة وقد أرهقتها تلك الحجة التي لا تدحض . «النساء لا يفقهن شيئًا في الأمور المالية» . جاءت إلى مارساك بأمل مبهم في النجاح . وعادت منها إلى أنغوليم تجرُّ أذيال الفشل، ووصلت إليها في الوقت المناسب لتتلقى مضمون الحكم بإلزام سيشار بدفع قيمة السندات والنفقات المترتبة عنها لميتيڤيه . وقد حضر دوبلون مأمور الحجز أكثر من مرة إلى منزل سيشار ومثل ذلك الحدث يثير الأقاويل في المقاطعات حتى أن إيف لم تعد تجسر على الخروج من بيتها خشية من الهمسات والتساؤلات عند مرورها .

صاحت إيف المسكينة وهي تجتاز الممر وتصعد السلّم : إيه! ياأخي، ياأخي! لايمكنني أن أسامحك إلا إن كان الأمر يتعلق . . .

- قاطعها داڤيد وهو يقف أمامها : للأسف كان الأمر يتعلّق بتجنيبه الانتحار .

- أجابت عند ذلك بهدوء : لنتجنّب الحديث عن كلّ ذلك إذن . إن المرأة التي قادته إلى تلك الهاوية في باريس مجرمة! . . . ووالدك ياعزيزي داڤيد رجل لا يرحم! . . . فلنتألم بصمت .

توقفت بعض كلمات مواسية على شفتي داڤيد عندما طُرق الباب بحَذَر ودخلت ماريون وهي تمسك بيد كولب الضخم الجثة وقالت :

- «سيدتي، عرفت أنا وكولب أنَّ السيد والسيدة في ضيق، وبما أنني ادخرّت مع كولب ألف ومئة فرنك وفكّرنا أن أفضل مكان لإيداعها يدا سيدتي» .

ردّد كولب بحماس : سيدتي .

هتف دافيد سيشار: «كولب لن نفترق أبدًا خُذ ألف فرنك إلى كوشان على الحساب واطلب منه وصلاً لقاء تسليمها له، وسنحتفظ بالباقي. احرص ياكولب على أن لا تتمكن أيّة قوة بشرية من أن تنتزع منك كلمة عمّا أفعل، أو عن ساعات غيابي، وما يمكن أن تراه معي، وعندما أرسلك لتجمع لي بعض الأعشاب فيجب ألا تراك عين بشرية. . . ستجري محاولات لإغرائك ياصديقي الطيّب، وسيقدّم لك ألف أو حتى عشرة آلاف فرنك لتتكلم.

- ردّ الألزاسي برطانته الألمانية: لو عرضت عليّ الملايين لما تفوّهت بكلمة، ألا أعلم الأوامر العسكرية.

- لقد نبهتك، فاذهب واطلب من السيد بتي - كلو أن يكون حاضراً عند تسليم هذا المبلغ للسيد كاشان.

- نعم، وآمل أن نصل إلى درجة من الغنى تمكننا من اقتلاع جبّة رجل القضاء هذا، لأنني أكره رؤية وجهه.

- قالت ماريون: كم هو طيّب هذا الرجل ياسيدتي، وهو قوي مثل تركي، ووديع مثل الحمل، إنّه الرجل الذي يحقق سعادة امرأة. وهو الذي خطرت له فكرة تسليمك مدخراتنا. إنه يرطن بلهجة ألمانية! الرجل المسكين، لا يحسن الكلام لكنه يجيد التفكير، وأنا أفهمه جيّدًا إنه يريد أن يعمل لدى الآخرين حتى لا يكلّفنا شيئًا. . .

قال سيشار وهو ينظر إلى زوجته: أودّ الحصول على الثروة لأتمكن من مكافأة هؤلاء الأشخاص الطيّبين.

رأت إيف في ذلك منتهى البساطة، ولم تندهش لمصادفة أرواحًا على مستوى روحها ففي موقفها تعبير عن كل جمال طبعها للكائنات الأكثر غباء وحتى للآمبالين.

هتفت ماريون: «ستغدو غنيًّا ياسيدي العزيز، فغدك مضمون إذ أن والدك قد اشترى مزرعة وسيؤمن لك مداخيل سنويّة، فكن مطمئنًا! . . .».

ألا تكشف تلك العبارات التي نطقت بها ماريون في ذلك الظرف لتخفف، إن صحّ القول، من فضل تضحيتها، عن رهافة شعور فائقة؟

للإجراء القضائي الفرنسي، مثل جميع الأمور البشرية، عيوبه، فهو مثل سلاح ذو حدين يستخدم للدفاع والهجوم، عدا عن ذلك فإن له هذا الجانب الممتع في حال اتفاق المحاميين (ويمكنهما الاتفاق دون أن يحتاجا لتبادل كلمتين، فهما يتفاهمان بطريقة تسيير إجراءاتهما!)، وتشبه الدعوى عندئذ تلك الحرب على طريقة المارشال دي بيرون الذي اقترح عليه ابنه عند حصار روان طريقة للاستيلاء على تلك المدينة خلال يومين، فأجابه «أنت مستعجل إذن للذهاب إلى زراعة الملفوف»[1]. يمكن لقائدين إطالة أمد الحرب بعدم التخطيط لمعركة حاسمة ومراعاة توازن القوى في جيشيهما وفق طريقة القادة النمسويين الذين لا يلومهم المجلس الاستشاري الملكي لأنّهم تواطؤوا على تدبير يمكّن جنودهم من تناول حساءهم بطمأنينة، ورجال القضاء كاشان وبتي - كلو ودوبلون يتصرفون بشكل أفضل من الجنرالات النمسويين لأنهم يسيرون على نهج نمسوي من العصر القديم، نهج **فابيوس المتمهل**[*]!

---

(١) - **البارون دي بيرون** (١٥٢٤ - ١٥٩٢) هو أرمان دي غونتو، خدم بإخلاص وبسالة هنري الرابع وقتل في حصار إيبناي، أما ابنه شارل، دوق دي بيرون (١٥٦٢ - ١٦٠٢) فقد خدم بدوره هنري الرابع لكنه شعر بأنه لم يكافأ على خدماته فتآمر مع دوق سافوا وملك اسبانية على هنري الرابع لكن المؤامرة فشلت وحكم على الدوق بالموت وأعدم في فناء سجن الباستيل. وحكاية الأب والابن الواردة أعلاه مذكورة في سيرة الحياة الشاملة لميشو كما ذكرها بلزاك في مقدمة رواية **قضية غامضة**.

(*) - **فابيوس المتمهل** Fabius Cunctator: (٢٧٥ - ٢٠٣ ق.م) رجل دولة روماني، سُمي قنصلاً خمس مرات ثم أعلن دكتاتورًا بعد هزيمة تراسيمين (٢١٧ ق.م) التي انتصر فيها هانيبعل. اتبع خطة حذرة أوقف بموجبها هانيبعل لكنه لم يستطع منع القناصل من خوض معركة كان في ايطالية (٢١٦ق.م) التي انتصر فيها هانيبعل مرة أخرى.

عرف بتي - كلو، الماكر كسمك البوري، جميع ميّزات وضعه، فما أن ضمن دفع النفقات من قبل كوانته الطويل حتى وعد نفسه بأن يتحايل مع كاشان وأن يظهر براعته أمام عيني الوراق بافتعال أحداث تقع على عاتق ميتيڤيه، لكن لسوء حظّ زهو هذا الشاب، فيغارو الهيئة القضائية، لايمكن للمؤرخ أن يمرّ على منطقة استثماراته إلا كما يمرّ على جمر النار الملتهب ففاتورة نفقات واحدة مثل تلك التي أُعدت في باريس تكفي دون شك لتاريخ الطبائع المعاصرة، فلنقلّد إذن أسلوب نشرات الجيش الكبير إذ أن سرعة عرض وقائع بتي - كلو وحركاته تحسن هذه الصفحة القضائية حصراً وهي أفضل لفهم هذه الرواية.

استدعى دافيد إلى المحكمة التجارية في أنغوليم في ٣ تموز فلم يحضر وحُكم غيابيّـا في ٨ تموز، وفي العاشر من الشهر استصدر دوبلون أمراً بالدفع، وحاول في الثاني عشر منه الحصول على أمر بالحجز اعترض عليه بتي - كلو طالبًا من ميتيڤيه تأجيل أمر الدفع مدة خمسة عشر يومًا، ووجد ميتيڤيه هذه المدة طويلة جداً، وطلب في اليوم التالي تقصيرها وحصل في التاسع عشر من الشهر على حكم بردّ اعتراض سيشار يُعَدُّ نافذاً في ٢١ من الشهر ووجوب الدفع في ٢٢ منه وإعلان الملاحقة بالحبس في ٢٣ منه عند عدم التسديد، وتنظيم محضر حجز في ٢٤ منه.

كبح بتي - كلو هذا الاندفاع نحو الحجز باستئناف إلى مجلس القضاء الملكي. قاد هذا الاستئناف المقدّم في الخامس والعشرين من الشهر ميتيڤيه إلى بواتيه، وقال بتي - كلو في نفسه «هيا، سنبقى هنا بعض الوقت». وما أن توجهت العاصفة نحو بواتيه حتى قدّم بتي - كلو تحقيقاته إلى محام مرخّص لدى مجلس القضاء الملكي، وأنذر هذا المدافع ذو الوجهين دافيد سيشار بطلب السيّدة سيشار فصل أموال الزوجين، ووفقًا لتعبير القضاء تعجيل المدين بالحكم بالفصل في ٢٨ تموز وإعلانه في صحيفة «**بريد شارنت**» وتبليغه أصولاً، في الأوّل من شهر آب

كلّف كاتب عدل بتصفية ما يحق للزوجة ارتجاعه من أموالها بعد أن ادّعت بأنها دائنة لزوجها بمبلغ عشرة آلاف فرنك اعترف لها به داڤيد دوطة في عقد الزواج، وتخلى لها لقاءه على أثاث بيت الزوجية وأدوات المطبعة. بينما كان پتي - كلو يؤمّن على أثاث الزوجين في أنغوليم عمل على إنجاح دعوى استئنافه في بواتيه، ففي رأيه أن داڤيد يجب ألا يتكبد النفقات الناتجة عن ملاحقة لوسيان دي روبمبره لتسديد السندات، وهي النفقات التي وضعتها محكمة السين المدنية على عاتق ميتيڤيه. ثبّت مجلس القضاء الملكي في دعوى الاستئناف أحكام محكمة التجارة في أنغوليم ضد سيشار الابن بعد حسم ستمئة فرنك من النفقات الجارية في باريس وإبقائها على عاتق ميتيڤيه، مع إجراء تقاص في النفقات بين المتخاصمين نتيجة الطعن المبرّر لاستئناف سيشار. بُلّغ هذا القرار لسيشار الابن بتاريخ ١٧ آب، ونتج عنه في ١٨ آب إصدار أمردفع يلزم داڤيد بتسديد المبالغ المذكورة في السندات، وفوائدها والنفقات، وتبع ذلك محضر حجز في ٢٠ آب، واعترض بتي - كلو باسم السيدة سيشار مبيّنًا ملكيتها لأثاث المنزل بموجب قرار الفصل بين أموال الزوجين، إضافة إلى أن پتي - كلو أظهر اعتراض سيشار الأب بعده أحد موكليه. غداة الزيارة التي قامت بها إيڤ لحميّها، حضر الكرّام إلى أنغوليم وطلب من كاشان محاميه أن يحصّل له أجور المطبعة المعرّضة للضياع في الدعوى المقامة على ابنه.

قال له كاشان: «لا يمكنني أن أتدخل لمصلحة الأب وأنا ألاحق الابن وكيلاً عن دائنيه، لكن راجع پتي - كلو، فهو ماهر جدًّا، وقد يتمكن من خدمتك بشكل أفضل من خدمتي لك...».

قال كاشان لپتي - كلو في قصر العدل: «أرسلت إليك الأب سيشار، فاهتمّ بموضوعه شريطة المعاملة بالمثل».

هذا النوع من تبادل الخدمات مألوف في المقاطعات كما هو سائد في باريس.

غداة اليوم الذي منح الأب سيشار فيه ثقته لبتي - كلو، حضر كوانته الطويل لرؤية عميله وقال له: حاول أن تعطي درسًا للأب سيشار! إنّه لا يسامح ابنه أبدًا إذا سبب له خسارة ألف فرنك، وخشيته من ذلك تنتزع من نفسه كل فكرة نبيلة!

قال بتي - كلو لزبونه الجديد: «عُد إلى كرومك، فابنك في وضع حرج، فلا تزد من إحراجه وسأستدعيك في الوقت المناسب».

ادّعى بتي - كلو باسم سيشار أن المكابس المختومة تُعَد عقارات متخصصة فهي منذ عهد لويس الرابع عشر تعود إلى المطبعة؛ واغتاظ المحامي كاشان دفاعًا عن ميتيڤيه الذي لم يتمكن من تحصيل دينه في باريس من لوسيان لأن الأثاث يعود لكورالي، كما لم يتمكن من تحصيله في أنغوليم لأن أثاث داڤيد يعود إلى زوجته وإلى أبيه (وفي هذه أشياء جميلة للقول في جلسة المحاكمة) وأشار إلى الأب والابن لإسقاط مثل هذا المزاعم. صاح: «نريد أن نكشف خداع هذين الرجلين اللذين يبسطان التحصينات الأكثر رهبة التي تكمن النية السّيئة خلف أسوارها فيجعلان من مواد القانون الأكثر براءة والأكثر وضوحًا أحصنة إفريز للتراخي! والتهرّب من ماذا، من دفع ثلاثة آلاف فرنك! من أين أخذت... من صندوق ميتيڤيه المسكين. ويتُجرأ على اتهام الحاسمين!... في أي زمن نعيش!... لن تصدّقوا ادّعاءً يحاول تسريب فساد الأخلاق إلى قلب العدالة، ولن تيسّروا الهرب لمن يأخذ المال من صندوق جاره!»... تأثرت محكمة أنغوليم من مرافعة كاشان وأعطت حكمًا وجاهيًّا بحضور جميع الفرقاء مُنحت بموجبه ملكية الأثاث الخاص بالبيت للسيدة سيشار ورفضت ادّعاءات سيشار الأب وحكمت عليه صراحة بدفع أربعمئة وأربعة وثلاثين فرنكًا وخمسة وستين سنتيمًا نفقات محاكمة.

قال المحامون المرخّصون في أنفسهم ضاحكين: «الأب سيشار طيّب، وقد أراد نصيبه من الغنيمة فليشارك في نفقاتها!...».

بُلِّغ هذا الحكم بتاريخ ٢٦ آب بطريقة يمكن من مصادرة مكابس المطبعة وأدواتها الثانوية بتاريخ ٢٨ آب، ووُضعت الإعلانات المشيرة إلى الحكم! . . . وصدر حكم، بناءً على التماس بإمكان بيعها في ذات الأمكنة، ونُشر إعلان البيع في الصحف، وتباهى دوبلون بإمكانه المباشرة بالكشف على الأشياء المحجوزة والقيام بعملية البيع في ٢ أيلول؛ وترتب في تلك المدة على دافيد سيشار بموجب أحكام قطعية وأوامر تنفيذية بتحديد النفقات قانونًا أن يدفع لميتيفيه مبلغًا إجماليًّا قدره خمسة آلاف ومئتين وخمسة وسبعين فرنكًا وخمسة وعشرين سنتيمًا، عدا الفوائد. وهو مدين لبتي - كلو بألف ومئتي فرنك وبالأتعاب التي تُرِك تقديرها لأريحيته، على مبدأ الحوذي الذي يقلّك بكلّ همّة ونشاط في عربته، كما أن السيّدة سيشار مدينة لبتي - كلو بثلاثمئة وخمسين فرنكًا وأتعابه. كما أن على الأب سيشار أن يدفع بموجب الحكم الصادر أربعمئة وأربعة وثلاثين فرنكًا وخمسة وستين سنتيمًا كما يطالبه بتي - كلو بثلاثمئة فرنك أتعابًا. وهكذا تصل القيمة الإجمالية إلى نحو عشرة آلاف فرنك. ما عدا فائدة هذه الوثائق للأمم الأجنبية التي يمكن أن ترى فيها لعبة المدفعية القضائية في فرنسة، من الضروري للمشرع، إن توفر الوقت لذلك المشرّع للقراءة، أن يعرف إلى أي مدى تصل قذيفة الإجراءات. بالتالي ألا يجب استدراك قانون صغير يمنع المحامين المرخصين أن يتجاوزوا، في بعض الحالات، **نفقات** إجراءات وأتعاب تفوق المبلغ موضوع الدعوى؟ أليست مدعاة للسخرية تطبيق إجراءات قضائية على متر مربع من الأرض تماثل الإجراءات المطبقة على مليون متر مربّع! ندرك بهذا البيان الجاف جداً إجراء جميع المراحل التي مرّ بها النزاع قيمة هذه الكلمات: **الشكل، العدالة، النفقات!** التي يجب ألا تشكّ بها الغالبية الواسعة من الفرنسيين. هوذا ما يسمى في مصطلحات قصر العدل، وضع النار في شؤون إنسان؛ فالأحرف الطباعية التي يصل وزنها إلى خمس آلاف ليبرة لن تصل قيمتها بسعر معدن صبّها إلى أكثر من ألفي فرنك(١)، وقيمة المكابس

---

(١) - سبق لبلزاك أن أسس مطبعة كلفته ليبرة الأحرف الطباعية فيها ١,٦٠ ف وبيعت عند تصفية المطبعة بسعر الليبرة ٥٥ سنتيمًا.

الثلاثة ستمئة فرنك، أما المواد الأخرى فستُعدُّ خردة حديدية أو خشبًا عتيقًا ولا تتجاوز قيمة أثاث المنزل ألف فرنك، وهكذا لن تصل قيمة جميع ممتلكات سيشار الابن إلى أربعة آلاف فرنك جعلها كاشان وبتي - كلو ذريعة لاستجرار سبعة آلاف فرنك نفقات دون حساب لمستقبل الزهرة التي تعد بثمار جميلة أخرى، كما سنرى لاحقًا.

من المؤكّد أن مهرة المتمرسين في فرنسة وناڤار وحتى في النورماندي سيبدون تقديرهم وإعجابهم لبتي - كلو، لكن ألا يذرف أصحاب القلوب الكبيرة دمعة تعاطف على كولب وماريون؟

خلال تلك الحرب المستعرة كان كولب الجالس على كرسي عند مدخل الممرّ يقوم بمهام الحراسة طوال الوقت الذي لا يحتاج إليه داڤيد، وكان يتلقى الإشعارات القضائية المدّقق استلامه لها من أحد كتبة بتي - كلو، وعندما وضعت الإعلانات المشيرة إلى بيع معدّات المطبعة قام كولب باقتلاعها في لحظة الصاق المُعلِن لها، وأسرع إلى المدينة ينتزع ما ألصق منها فيها، وهو يصيح: ياللؤماء!... يعذبون هذا الرجل الطيب! ويسمون فعلتهم عدالة!... أما ماريون فهي تعمل طوال ساعات ما قبل الظهر في مصنع ورق لقاء عشرة فلوس تنفقها على حاجات اليوم، بينما عادت السيدة شاردون للسهر على المرضى دون أن تتذمّر من تعب الليالي وتحمل إلى ابنتها في نهاية الاسبوع ما تحصل عليه من أجر، وقامت بصلوات تساعيتين دون أن تلقى من الرب الإله أذنًا صاغية لصلواتها أو عينًا واعية لوضوح الشموع التي توقدها.

في الثاني من أيلول تلقت إيڤ الرسالة الوحيدة التي كتبها لوسيان بعد تلك التي أعلن فيها لصهره داڤيد تزويره لتوقيعه على السندات الثلاثة.

قالت الأخت المسكينة في نفسها وهي تتردّد في فضّ الرسالة المشؤومة: «إنّها الثالثة التي أتلقاها منه بعد رحيله. كانت في تلك اللحظة تمسك بزجاجة الرضاعة

التي تغذي بها طفلها بعد أن اضطرت للاستغناء عن المرضع توفيراً للنفقات. أيقظت بعدها داڤيد الذي قضى ليلته يجرب إحدى عجائن الورق وقرأا معًا الرسالة التالية:

باريس، ٢٩ آب

«أختي العزيزة

منذ يومين وعند الساعة الخامسة صباحًا لفظت إحدى أجمل مخلوقات الله أنفاسها أمام ناظريّ إنّها المرأة الوحيدة التي أمكنها أن تحبني كحبك وحب داڤيد وأمّي، مع اقتران هذه العواطف المجرّدة من كل غرض، ما لا تتمكن أم أو أخت منحه: جميع مُتَع الحبّ! وبعد أن ضحّت من أجلي بكل شيء، فإن كورالي المسكينة ماتت من أجلي على الأرجح! من أجلي وأنا لا أملك في هذه اللحظة نفقات دفنها... واستني في الحياة، وأنتم وحدكم، ياملائكتي الأعزاء تتمكنون من مواساتي بموتها. أعتقد أن هذه الفتاة البريئة قد حصلت على المغفرة الإلهية لأنها ماتت بتقوى المسيحية. إيه! باريس!... ياعزيزتي إيڤ. باريس هي كل مجد فرنسة وكل عارها، فقدت فيها كثيراً من الأوهام، وسأفقد أيضًا غيرها وأنا استجدي بعض المال الذي احتاج إليه لأضع تحت التراب المقدس جثمان ملاك!».

أخوك التعيس

«لوسيان»

حاشية: كم سببت لكم من الأحزان بخفتي، ستعرفين الأسباب يومًا، وتعذرينني. مع ذلك يمكن أن تطمئني، فبعد أن لاحظ أحد التجار الطيّبين الذي سببت له هموماً ممضة ما نعانية أنا وكورالي، تكفل هذا التاجر، السيد كاموزو بإجراء كل ما يلزم على نفقته.

قالت إيڤ لداڤيد وهي تنظر بمزيد من الشفقة إلى عينيه وقد أبرقتا بألق المودة القديمة التي يكنها للوسيان: «ما تزال آثار دموعه على الرسالة!»

هتف زوج إيف السعيد: «ياللفتى المسكين، كم تألّم!»

نسي الزوجان جميع آلامهما أمام ذلك الألم السامي. وفي تلك اللحظة دخلت ماريون مسرعة وهي تقول: «سيّدي، ها هم آتون!... ها هم!...»

- من؟

- دوبلون ورجاله، ياله من شيطان، ها هو كولب يتعارك معهم. سيتمُّ البيع.

- رنّ صوت بتي - كلو في البهو المجاور لغرفة النوم: كلا، كلا، لن يتم البيع، اطمئنوا رفعت طلب استئناف. يجب ألا نبقى تحت وطأة حكم يتهمنا بسوء النية. لم أرد أن أدافع هنا، ولأربح لكم مزيداً من الوقت تركت كاشان يثرثر على هواه، وأنا متأكّد من كسب القضية مرة أخرى في بواتيه...

- سألت السيّدة سيشار: لكن كم سيكلّفنا هذا المكسب؟

- الأتعاب إن ربحتم، وألف فرنك إذا خسرنا

- هتفت إيف المسكينة: ياإلهي، أليس الدواء أمرّ من الداء؟...

ذُهل بتي - كلو عند سماع هذه الصرخة البريئة المعبّرة عن المعاناة من لهب نار المقاضاة الكاوية، وبدت له إيف بكامل بهائها، وحضر في هذه الأثناء الأب سيشار المستدعى من بتي - كلو، واكتمل هذا المشهد بوجود العجوز في غرفة نوم عائلة ابنه وحفيده في المهد يبسم للشقاء.

- قال المحامي الشاب: «بابا سيشار، أنت مدين لي بسبعمئة فرنك لتدخلك، لكنك ستضيفها إلى مجموع الإيجارات المترتبة لك على ابنك».

أذرك الكرّام العجوز السخرية اللاذعة التي بدت في لهجة بتي - كلو، وفي ملامحه، وهو يوجه إليه هذه الكلمات.

قالت إيف وهي تترك مهد طفلها لتقبل حميّها : «لو كفلت ابنك لكانت الكلفة أقل!».

بدا الإعياء على داڤيد وهو يرى الناس يتجمهرون أمام منزله وقد استثار فضولهم شجار كولب مع جماعة دوبلون، ومد يده إلى والده دون أن ينطق بكلمة تحية سأل العجوز پتي - كلو : «وكيف ترتب عليّ مبلغ سبعمئة فرنك؟».

- لأنني اهتممت بموضوعك، وهو متعلق بإيجاراتك، فأنت بالنسبة لي متضامن مع مدينك وإذا لم يدفع لي ابنك هذه النفقات فعليك أنت دفعها. . . لكن هذا لايعدّ شيئًا أمام ما سيحدث خلال بضع ساعات، فداڤيد ملاحق لإدخاله السجن في حال عدم التسديد، فهل ستتخلّى عنه في محنته؟

- ما هو المبلغ المترتب عليه؟

- حوالي خمسة آلاف أو ستة آلاف فرنك عدا عن الإيجارات المترتبة لك ودوطة زوجته».

خامر الشك العجوز ونظر إلى اللوحة المؤثّرة المرتسمة أمام عينيه في تلك الغرفة الزرقاء والبيضاء: امرأة جميلة تبكي قرب مهد، وداڤيد يرزح تحت ثقل همومه، والمحامي الذي يرجح أنّه استدعاه لينصب له شركًا، واعتقد «الدب السابق» أنهم يتلاعبون بعاطفة أبوّته، وخشي من أن يكون معرّضًا للابتزاز، فذهب يداعب الطفل الذي مدّ إليه يديه الصغيرتين وبدا وهو محاط بمزيد من العناية وقبعة صغيرة مطرزة بالورد تعلو رأسه كأنه أحد لوردات إنكلترة.

هتف الجدّ العجوز : «إيه! فليتدبّر داڤيد شؤونه كما يستطيع، فأنا لا أفكر إلاّ بهذا الطفل وستوافقني والدته. وعلى داڤيد العالم أن يهديه علمه إلى طريقة لتسديد ديونه».

- قال المحامي بلهجة ساخرة: سأفسّر عواطفك بلغة فرنسية صريحة. عجيب أمرك يا بابا سيشار، إنك تغار من ابنك. أليست هذه هي الحقيقة؟ أنت من

أوصل داڤيد إلى هذا الوضع، فقد بعته المطبعة بثلاثة أمثال قيمتها، وسبّبت إفلاسه بهذا الثمن الباهظ. نعم، لا تهزّ رأسك كثيراً، فالصحيفة المباعة للأخوين كوانته، التي وضعت كامل ثمنها في جيبك هي كل قيمة المطبعة... إنّك تكره ابنك، ليس لأنك جرّدته من ماله فقط، بل لأنك جعلت منه أيضًا رجلاً أفضل منك. تظهر المزيد من الحب لحفيدك لتخفي جفاف العواطف التي تظهرها لابنك وكنّتك اللذين يكلفانك بعض المال هنا **وفي هذا الظرف** بينما لا يكلفك فيض العاطفة لحفيدك شيئًا ويمنحك مظهر من يحب أحد أفراد عائلته فلأيتهم بفقدان الحسّ. هذه هي دخيلة نفسك أيّها الأب سيشار...

- بدا الغيظ على العجوز وهو ينظر بالتناوب إلى محاميه وكنّته وابنه وقال حانقًا: أمن أجل أن أسمع هذا الكلام استدعيتموني؟

- صاحت إيڤ المسكينة موجّهة الكلام إلى پتي - كلو: «لكن إيّها السيّد، هل أنت مقسم على أن تسبّب دمارنا؟ لم يَشكُ زوجي يومًا من أبيه...» نظر الكرّام إلى كنّته نظرة مراوغة، فاستأنفت كلامها قائلة للعجوز وقد أدركت ما يخامره من شكوك: «ذكر لي داڤيد مئة مرة أنك تحبّه على طريقتك».

تمكّن پتي - كلو، وفقًا لتعليمات كوانته الطويل أن يوقع الخلاف بين الأب والابن حتى لا يعمل الأب على إنقاذ داڤيد من الوضع القاسي الذي يعاني منه.

قال كوانته الطويل في العشيّة لپتي - كلو: «في اليوم الذي سنودع فيه دافيد السجن ستقدّم إلى السيّدة سينونش».

نوّرت الفطنة الناتجة عن المحبة السيّدة سيشار التي خمنت هذه الكراهية في التوجّه مثلما أحسّت سابقًا بخيانة سريزه، ويمكن لكل واحد أن يتصوّر بسهولة دهشة داڤيد الذي لم يستطع أن يفهم كيف توصّل پتي - كلو إلى التعرُّف جيداً على أبيه وقضاياه، والطبّاع المستقيم لا يعلم شيئًا عن علاقات محاميه بالأخوين كوانته، كما أنه كان يجهل أن هذين الأخوين هما المحرّضان لميتيڤيه، وكان صمت داڤيد بمثابة إهانة للكرام العجوز، وهكذا استغلّ المحامي دهشة زبونه ليغادر المكان قائلاً:

«وداعًا ياعزيزي داڤيد، أنت على بيِّنة الآن، وملاحقة المدين بالحبس غير قابلة للدحض بالاستئناف. لم تبق إلا هذه الوسيلة أمام دائنيك، وسيلجؤون إليها، وعليك أن تهرب!... أو بالأحرى، إن تأخذ بنصيحتي. توجّه لرؤية الأخوين كوانته، فلديهما رأسمال، وإذا تمّ اكتشافك، وكان محققًا لآمالك، تشارك معهما، فهما ولدان طيّبان جداً...».

- سأل الأب سيشار، أي اكتشاف؟

- هتف المحامي: لكن هل تعتقد أن ابنَك مغفل ليهمل مطبعته دون أن يفكّر بشيء آخر؟ إنّه يعمل وفقًا لقوله، لإيجاد وسيلة لصنع ورق لا تتجاوز كلفة ماعونه ثلاثة فرنكات بينما هي في الوقت الحاضر تصل إلى عشرة فرنكات[1]...

- صاح الأب سيشار: «هي وسيلة أخرى لخداعي! إنكّم متفاهمون هنا كلّ التفاهم. إذا كان داڤيد قد توصل إلى هذا الاكتشاف فهو ليس بحاجة لي، وسيغدو مليونيراً، وداعًا يا أصدقائي الأعزاء» وتوجه العجوز مسرعًا إلى السلّم.

هرع پتي - كلو راكضًا خلف سيشار الأب ليزيد من سخطه وهو يقول لداڤيد: «فكر بالاختباء» أدرك المحامي الكرّام وهو يتمتم في ساحة موريه، فرافقه حتى هومو وهو يهدّده باتّخاذ إجراء تنفيذي لتحصيل نفقاته وبدل أتعابه إن لم يسدّد له خلال أسبوع.

- قال العجوز سيشار وهو يبتعد فجأة عن پتي - كلو: «سأدفع لك إن وجدت لي وسيلة لحرمان ابني من الميراث دون أن ألحق الضرر بكنّتي وحفيدي!...».

هتف المحامي وهو يقفل عائداً إلى أنغوليم: «ياالخبرة كوانته الطويل بعالمه!... آه! توقّع جيّداً أن تحول هذه السبعمئة فرنك بين الأب سيشار وتسديد

(١) - لا نعلم عن أي ورق يتحدّث بلزاك بلسان المحامي، وقد اشتهرت أنغوليم بصناعة ورق أبيض مصقول ذكر آ. لاكروا في مؤلفه «تاريخ صناعة الورق في أنغوليم - العام ١٨٦٣» أن الماعون منه يباع في باريس بسعر ٢٨ - ٣٠ فرنكًا.

سبعة آلاف فرنك عن ابنه، غير أنني لن أترك هذا الورّاق الماكر العتيق يتفوّق عليّ، وقد حان الوقت لأحصل منه على شيء آخر غير الوعود».

قالت إيف لزوجها بعد أن غادر الأب سيشار والمحامي المنزل: وبعد ياعزيزي داڤيد، ماذا تنوي أن تفعل؟ . . .

- هتف داڤيد موجّهًا كلامه لماريون: ضعي أكبر قدر لديك على النار يابنتي. سأتابع التحقق من نتائج أبحاثي.

تناولت إيف، عند سماع هذه الكلمات قبعتها، وشالها، وانتعلت حذاءها بحيوية محمومة وقالت لكولب: تهيأ للخروج ياصديقي، فسترافقني لأنني أريد أن أعرف إن كان بمقدورنا الخروج من هذا الجحيم. . .

- صاحت ماريون بعد خروج إيف: «سيدي، كن حكيمًا، وإلا ماتت سيدتي كمدًا، اسع لكسب المال اللازم لتسديد ديونك، وبعد ذلك يمكنك أن تفتش كما تشاء عن كنوزك».

- أجاب داڤيد: اصمتي ياماريون، سأتغلب على العقبة الأخيرة وسأحصل على براءة الاختراع وبراءة تحسين المنتج في آن معًا».

كانت براءة تحسين المنتج هي جرح المخترعين الممضّ. يقضي إنسان عشر سنوات من عمره وهو يسعى إلى سرّ صناعي، آلة أو اكتشاف ما، ويأخذ براءة باختراعه بعد التحقق منه، ويعتقد أنه سيّد ابتكاره. ويأتي منافس له، إن لم يتخذ احتياطاته، يحسن اختراعه بإضافةٍ ما إليه، برغي مثلاً، ويستحوذ على الاختراع وينتزعه من مبتكره(١). فاختراع عجينة رخيصة الكلفة لإنتاج الورق لا تنهي

(١) - أحدثت البراءة بموجب قانون ٧ كانون الثاني ١٧٩١، وحتى أول كانون ثاني ١٨٣١ صدرت ٤٧٢٣ براءة منها ٩٨٦ براءة **تحسين منتج** وفي المدة التي أنهى فيها بلزاك مؤلفه **آلام المبتكر** في شباط ١٨٤٣ كان موضوع البراءة قيد البحث في مجلس الأعيان وأقر المجلس المادة ١٨ في مشروع القانون لحماية المخترع من **تحسينات الآخرين**.

الموضوع! إذ يمكن أن يحسن آخرون الطريقة ويستولون على الابتكار، وقد أراد داڤيد سيشار أن يحتاط لكل شيء حتى لا يفاجأ بانتزاع اختراعه واستغلال جهوده وسط الكثير من المعاكسات. فورقُ هولندة (يبقى هذا الاسم مطلقًا على الورق المصنّع بكامله من خُرق خيوط الكتان، رغم أن هولندة لم تعد تُصنّع هذا الورق) قليل الغَراء، وهو يُغرّى ورقة، ورقة يدويّـًا، مما يزيد من كلفة الورق. فإذا أمكن تغرية العجينة في الحوض، وبغراء قليل الكلفة (وهذا ما يحصل حاليّـًا، إنما بشكل غير متقن) يُستكمل الابتكار ويُحَسّن، وهذا ما يسعى إليه داڤيد منذ شهر، فهو يهدف إلى تحقيق الاكتشافين معًا.

ذهبت إيڤ إلى رؤية أمّها وبمصادفة مؤاتية كانت السيدة شاردون تعنى بزوجة وكيل النيابة العامة الأوّل التي ولدت طفلاً يحتمل أن يغدو الوريث المحتمل لآل ميلو دي نيڤر، ورأت إيف، رغم احتراسها من جميع الموظفين الرسميين أن تستشير المحامي القانوني عن الأرامل واليتامى في وضعها وتسأله عن إمكان إيقاف ملاحقة داڤيد بالتزامها ببيع حقوقها، لكنها كانت تريد أن تعرف حقيقة تصرفات پتي - كلو المبهمة ودُهِش رجل القضاء من جمال السيدة سيشار واستقبلها بمزيد من الترحاب إضافة إلى واجبه في إكرام سيدة زائرة ورأت الشابة المسكينة في عينيّ رجل القضاء ذلك التعبير الذي لم تجده بعد زواجها إلاّ لدى كولب، وهو تعبير بالنسبة للنساء الجميلات مثل إيڤ **معيار** لحكمهن على الرجال. عندما يجمد الانفعال أو المصلحة أو العمر في عينيّ رجل بريق الامتثال المطلق للجمال الذي يلهبهما في مطلع الشباب، تحترس المرأة من ذلك الرجل وتبدأ بملاحظته. فالأخوان كوانته وپتي - كلو، وسريزه وجميع الأشخاص الذين خمنت إيف عداوتهم نظروا إليها بعين جافة باردة. هكذا اطمأنت إلى وكيل النيابة الذي استقبلها بلطف، لكنه حطّم بقليل من الكلمات جميع آمالها.

قال لها: «من غير المؤكّد ياسيدتي، أن يعدّل مجلس القضاء الملكي حكمًا يحصر بأثاث المنزل فقط تنازل زوجك لقاء ارتجاع أموالك[1] إذ يجب ألا يتخذ هذا الحق وسيلة لتغطية تحايل وتهرب من تسديد ديون الآخرين. لكن بما أنك قبلت بصفة دائن ذي امتياز في تقسيم قيمة الأشياء المصادرة، كما قبل حموك بذات الصفة لقاء الإيجار المستحق له، فسيكون عند صدور حكم الاستئناف، مجال لادّعاءات ومنازعات أخرى بخصوص ما نسميه نحن في الاصطلاحات الحقوقية قسمة المحاصّة[2].

- صاحت إيف، إذن فيتي - كلو يسعى لدمارنا؟...

- استأنف وكيل النيابة: إن سلوك يتي - كلو مطابق لتوكيل زوجك له، إذ أنه أراد، وفقًا لقول المحامي، كسب الوقت. وفي رأيي من الأفضل لكم العزوف عن الاستئناف، واختيارك لقاء دين دوطتك واختيار حميّك لقاء إيجار المطبعة المعدات الضرورية لاستثمارك لكن هذا يعني توجهكما مباشرة إلى الهدف وسيعمد المحامون إلى استغلالكم.

- لكنني سأكون عندئذ بين يدي الأب سيشار الذي سيرتّب عليّ إيجار المعدات والمنزل، وسيبقى زوجي ملاحقًا بالحبس من قبل ميتيفيه الذي لن يستوفي إلا جزءًا بسيطًا من ماله.

- نعم، ياسيدتي.

- إيه! سيكون وضعنا أسوأ مما نحن فيه الآن.

---

(١) - ارتجاع أموال الزوجة Reprises: مايحق للزوجة أخذه من مال الشراكة الزوجية قبل توزيع الشراكة أو إفلاس الزوج: مثل مال الدوطة وغيرها من أموال ثابتة لها قبل شراكة الزواج.

(٢) - قسمة المحاصّة Contribution: قسمة أملاك المدين العاجز عن الوفاء على مجموع الدائنين حسب نسبة ديونهم.

- إن قوة القانون، ياسيدتي تعود في النهاية لمصلحة الدائن. تلقيتم ثلاثة آلاف فرنك، يجب قطعاً أن تسدّدوها...

- إيه! ياسيدي، هل تعتقد أننا نتعمد...؟

وتوقفت مستدركة ما يمكن أن يسبب تبريرها من خطر على أخيها.

- استأنف وكيل النيابة: «إيه! إنني أعلم ما يكتنف هذه القضية من غموض، فمن جهة المدينون وهم مستقيمون، مرهفو الحس، بل وكبار أيضاً!... ومن جهة أخرى الدائن وهو مجرّد مسخّر(*)...» نظرت إيف المذعورة إلى رجل القانون بمظهر أبله، فقال وهو ينظر بدوره إليها بمنتهى الرقة: «هل تعرفين أننا كنا نستغرق وقتاً طويلاً في الاستماع إلى مرافعات المحامين ونحن نفكر فيما يحدث أمام أعيننا».

عادت إيف قانطة لعدم تمكنها من اتخاذ أي إجراء مفيد، وفي الساعة السابعة مساءً جاء دوبلون يبلغ الأمر المتضمن حبس المدين لإجباره على الوفاء. وبدءاً من تلك الساعة بلغت الملاحقة ذروتها.

قال داڤيد: «بدءاً من غدٍ لن أستطيع الخروج إلا ليلاً(١)».

انهمرت الدموع من عينيّ إيف والسيدة شاردون، فالهرب والاختباء عن الأعين بالنسبة إليهما عار، واستنفر كولب وماريون عندما علما أنّ حرية معلمهما مهدّدة، خاصة وهما يعلمان منذ مدة طويلة أنه لا يعرف الحيلة والمكر، وارتعدا خشية أن يناله أي أذى، مما دفعهما للمثول أمام السيّدة شاردون وإيف وداڤيد مبديان استعدادهما لبذل كل تضحية تفيد ربّ المنزل ووصلا في لحظة دفع اليأس بهؤلاء الأشخاص الثلاثة إلى البكاء بعد أن تبينوا ضرورة تخفي داڤيد، لكن كيف

(*) - مسخّر Prête - nom: شخص يعير اسمه لآخر، ولا يريد التعاقد باسمه.

(١) - تنص المادة ٧٨١ من قانون المرافعات المدنية الفرنسي على عدم جواز توقيف المدين قبل طلوع الشمس أو بعد غيابها.

يمكن النجاة من الجواسيس غير المنظورين الذين يتتبعون منذ الآن أقل الحركات التي يقوم بها هذا الرجل الشارد الفكر للأسف؟

- قال كولب برطانته الألمانية: «إذا أرادت سيّدتي الانتظار ربع ساعة فأنا أريد القيام بجولة استطلاعية في معسكر الأعداء، وسترين بالرغم من أن لي مظهر الألماني أنني أتمتع بدهاء فرنسي حقيقي.

- قالت ماريون: إيه! ياسيدتي، دعيه يذهب، فهو لا يفكر إلا بحماية سيدي، ولاتبدر منه أية خواطر أخرى. كولب ليس ألزاسيًّا. من يكون... إذن؟ إنّه ابن الأرض الجديدة(*).

- قال له داڤيد: اذهب ياصديقي الطيّب كولب، فما يزال لدينا الوقت لنقرّر.

هرع كولب إلى محضر المحكمة حيث اجتمع لديه أعداء داڤيد في جلسة يتداولون فيها عن الوسائل الممكنة للقبض عليه.

يُعَدُّ توقيف المدينين في المقاطعات أمراً غير مألوف، وغير طبيعي. هذا إن تمّ. إذ أن كلّ واحد يعرف ذلك فلا يلجأ إلى هذا الإجراء الممقوت، وهكذا يمكن أن يبقى الدائنون والمدينون وجهًا لوجه طوال الحياة، وعندما لا يتوافق تاجر، مفلس، وفق تعابير المقاطعات، مع هذا النوع من السرقة المشروعة، وينوي إجراء تفليسة واسعة، فإنه يسعى إلى ملجأ له في باريس، فباريس هي بلجيكة المقاطعات، توجد فيها أماكن اعتكاف لا يمكن اختراقها، وأمر التوقيف الذي يستند إليه المحضّر الملاحق لا يسري مفعوله إلا ضمن حدود دائرة اختصاصه القضائية. عدا عن ذلك توجد معوقات أخرى شبه مانعة مبطلة، فالقانون الذي يصون حرمة المساكن يسود دون استثناء في المقاطعات، وليس للمحضّر الحق، كما في باريس بالدخول إلى

(*) - ابن الأرض الجديدة Terre - neuvien: تعبير مجازي يطلق على الشخص الشهم، المستعد دومًا للمساعدة، وإنقاذ الآخرين.

منزل الغير للقبض على مدين[1]. ويبدو أن المشرّع وجد من واجبه استثناء باريس بسبب اجتماع عدة عائلات في البيت الواحد باستمرار. أما انتهاك حرمة مسكن المدين في المقاطعات فيتطلب حضور قاضي الصلح الذي يتبع المحضرّون لسلطته، وهو السيّد تقريبًا في الموافقة على تقديم مساعدته أو رفضها، ومن حق قضاة الصلح أن نشيدَ بمواقفهم، فهذه المهمة تثقل عليهم، فهم لا يريدون خدمة الأهواء العمياء أو التدابير الانتقامية. توجد أيضًا صعوبات أخرى ليست أقل أهميّة وهي تنزع إلى تعديل قسوة لا جدوى منها لقانون حبس المدين وذلك بتأثير التقاليد التي تبدّل غالبًا في القوانين إلى حدّ إلغائها. ففي المدن الكبرى يوجد عدد كاف من البؤساء، والأشخاص المنحطين، عديمي الضمير والخلق، المستعدين للتجسّس أمّا في المدن الصغيرة فكلّ فرد معروف ولا يجرؤ على تسهيل مهمة المحضرين في هذه الملاحقة المستهجنة، وإذا وُجد من يرتضي هذا النوع من الانحطاط فهو مضطر لمغادرة المدينة، وهكذا فإن توقيف مدين مختلف فيها عما يُعتبر في باريس أو المراكز الكثيفة السكان مهمة مفضّلة لخفراء محكمة التجارة ويغدو موضوع مشروع بالغ الصعوبة، وصراع حيل بين المدين والمحضر تهيء ابتكاراتها أحيانًا قصصًا فكاهية لوقائع باريس في الصحف. لم يشأ كوانته البكر أن يظهر نفسه، غير أن كوانته البدين الذي يدّعي أن ميتيفيه كلّفه بهذه القضية فقد جاء إلى مكتب دوبلون مع سريزه الذي غدا

---

(١) - يبدو هذا المقطع مبهمًا وغير صحيح فوفقًا لروغرون (قانون المرافعات المدنية المشروع، ١٨٣٨، المادة ٧٨١) لا يمكن توقيف المدين في منزل ما إلا بأمر من قاضي الصلح الواجب حضوره مع الموظف الوزاري إلى المنزل وهذا ما يطبق في باريس والمقاطعات، والاستثناء الوحيد بالنسبة لباريس هو الحالة التي يوجد فيها المدين الملاحق في منزله: فيمكن للضابطة التجارية الدخول منفردة. ويبدو أن بلزاك أعطى تكذيبًا مسبقًا لذلك، ففي مطلع تموز ١٨٣٧ لوحق من قبل دائنه دوكيت واكتشف وجوده في منزل الكونتيسه غيدوبوني - فيسكونتي. وقد نمت صحيفة القرن Le Sie`cle عن ذلك (في ٢٨ تموز) وردّ بلزاك في ٢٩ منه: «إعلم أيها السيد، أنه لا يحق لخفير محكمة التجارة أن ينتهك حرمة منزلي، وأن لي الحق في قتله فورًا إن لم يكن قاضي الصلح برفقته كما يتطلب القانون ذلك في مثل هذه الأحوال».

مراقب عمال في مطبعته، وضمن تعاونه لقاء وعد مكافأة بألف فرنك. اعتمد دوبلون على اثنين من عملائه، وهكذا فإن للأخوين كوانته ثلاثة متعقبين لطريدتهم، كما يستطيع دوبلون الاستعانة بالدرك الذين يجب عليهم تقديم معونتهم للمحضرّ الذي يستدعيهم وفقًا لقرار المحكمة. كان الأشخاص الخمسة مجتمعين في تلك اللحظة في مكتب السيد دوبلون الواقع في الطابق الأرضي من منزله ملاصقًا للبهو.

يقع المكتب في نهاية ممر طويل مرصوف. وللمنزل باب بسيط مشترك يُرى على جانبيه الشعاران الوزاريان المذهبّان، وفي مركزهما الكلمة المكتوبة بأحرف سوداء: «**محضّر**». كان للبهو نافذتان تطلان على الشارع وهما محميّتان بقضبان حديدية متينة، أما المكتب فيطلّ على حديقة تنتظم فيها صفوف من الأشجار المثمرة يعنى بها المحضرّ بنجاح كبير. ويواجه البهو المطبخ، وخلفه سلّم يصل إلى الطابق الأول. يقع هذا المنزل في شارع جانبي صغير خلف قصر العدل الجديد وكان قيد البناء آنذاك، ولم يكتمل بناؤه إلا في العام ١٨٣٠. هذه التفاصيل ستكون مفيدة لفهم ما سيحدث بعد ذلك لكولب، الذي فكّر بادعاء خيانته لسيده وعزمه على مساعدة المحضرّ في القبض عليه ليعرف الأشراك التي تنصب له ليحتاط منها. جاءت الطاهية تفتح الباب لكولب الذي أبدى رغبته في مقابلة دوبلون بشأن إحدى القضايا. تضايقت الطاهية لتركها عملها في المطبخ وفتحت لكولب الذي لا تعرفه، باب البهو طالبة منه الانتظار بعد أن اعتقد سيّدها أن الطارق أحد الفلاحين، وبالتالي يمكنه الانتظار حتى نهاية الاجتماع.

وجلس كولب قرب باب المكتب يستمع إلى مايدور في الداخل.

- قال كوانته البدين: «أيّة طريقة ستتبعون للقبض عليه؟ إذ أننا نربح وقتًا ثمينًا بإتمام هذه العملية غداً صباحاً.

- هتف سريزه: «لم يُسمَ عبثًا الساذج، الأمر بمنتهى السهولة معه».

تعرّف كولب على صوت كوانته البدين، وأدرك من العبارتين المتبادلتين أن الحديث يدور حول معلمه، وكانت دهشته كبيرة عندما ميّز صوت سريزه، وقال في نفسه مذعوراً: «إنّه الفتى الذي أكل خبز سيّده».

قال دوبلون: «اسمعوا ياأبنائي ما يجب فعله، سنوزع جماعتنا على مسافات واسعة من شارع بوليو وساحة موريه، وفي جميع الاتجاهات بحيث يمكن تتبّع أثر الساذج، وهذا اللقب يعجبني، دون أن يلاحظنا، ولن نتركه قبل أن يدخل إلى المنزل الذي يعتقد أنه آمن فيه، سنتركه عدة أيام ثم ننقضّ عليه قبل غروب الشمس أو بعد طلوعها.

- قال كوانته البدين: لكن ماذا يفعل الآن؟ يمكن أن يهرب منا.

- قال دوبلون: إنه في منزله، لو خرج لعرفت، فأحد عملائي في ساحة موريه يراقب، وآخر عند زاوية القصر، وثالث على بعد ثلاثين متراً من منزلي، فإذا خرج رجلنا صفَّروا، ولن يسير ثلاث خطوات حتى أعرف اتجاهه بواسطة هذه الاتصالات البرقية.

يعطي المحضّرون لعملائهم اسم المعاون الأكثر لياقة.

لم يكن كولب يأمل بهذه المصادفة السانحة التي خرج بعدها من البهو بكل هدوء وقال للطاهية: «يبدو أن اجتماع السيد دوبلون سيطول، سأعود في ساعة مبكرة غداً».

خطرت للألزاسي بصفته فارساً فكرة عمل على تنفيذها في الحال، فهرع إلى مؤجّر خيول يعرفه وأسرج حصاناً امتطاه وأسرع إلى معلمه فوجد السيدة إيف في لجّة همّ عميق.

بادره دافيد بالسؤال وقد وجده مذعوراً وفرحًا في آن معًا: «ماوراءك ياكولب؟»

- أجاب الألزاسي برطانته الألمانية كالمعتاد: إنكم محاطون بالأوغاد، والأفضل أن يختبئ معلمي، فهل فكرت سيدتي في مكان آمن له؟

بعد أن ذكر كولب خيانة سريزه والحصار الذي يطوّق المنزل، واشتراك كوانته البدين في تلك القضية، وبيّن الحيل التي يفكّر بها هؤلاء الأشخاص ضد معلمه أبرقت ومضات مفجعة توضح وضع داڤيد.

صاحت إيف المسكينة متلاشية: «الأخوان كوانته هما اللذان يلاحقانك، ولهذا السبب ظهر ميتيڤيه بمنتهى القسوة، إنهما مصنّعا ورق ويريدان الحصول على سرّ أبحاثك.

- سألت السيدة شاردون: لكن كيف السبيل للهرب منهم؟

قال كولب: إذا كانت سيدتي تعرف مكانًا ما يمكن أن يحتجب فيه سيدي عن الأنظار، فأنا اتعهد بنقله إليه دون أن يدري أحد.

- أجابت إيف: سأذهب ليلاً إلى بازين كليرجه، وسأتفق معها على كل شيء، وبازين في هذا الظرف مخلصة لي كأخت.

- قال داڤيد أخيراً وقد أدرك وضعه الحَرِج: سيتبعك الجواسيس، يجب إيجاد وسيلة لإخطار بازين دون أن يذهب إليها أحد منا.

- قال كولب: يمكن لسيدتي الذهاب، وإليك الترتيب الذي سأتخذه، سأخرج مع سيدي، وسيتبعنا المصفّرون، وعندها ستخرج سيدتي للاجتماع بالآنسة كليرجه دون أن يتبعها أحد، لدي حصان وسأردف سيدي ورائي، ولن يتمكن أي شيطان اللحاق بنا!

- هتفت المرأة المسكينة وهي تعانق زوجها: وداعًا ياعزيزي، لن يذهب أحد منا لرؤيتك، ففي ذلك مجازفة قد تكشف مكان وجودك وسنتباعد طوال الوقت الذي يتطلبه هذا السجن الإرادي. وسنتراسل بواسطة بازين.

سمع دافيد وكولب عند خروجهما الصفير، وقادا الجواسيس حتى باب پاليت مكان وجود مؤجر الخيل. وهنا أردف كولب معلمه خلفه وانطلقا وكولب يصيح: «اصفروا، اصفروا، إنني أسخر منكم، لن تدركوا خيّالاً عريقًا».

وانطلق الحصان براكبيه بأقصى سرعة في الريف دون أن يستطيع الجواسيس اللحاق به أو معرفة وجهته.

ذهبت إيڤ أولاً إلى بوستيل بذريعة استشارته، وبعد أن تعرضت إلى مظهر تلك الشفقة التي لا تسخو إلا بالكلام، تمكنت بعد زيارة عائلة بوستيل أن تلتحق بمنزل بازين دون أن يراها أحد، وباحت لصديقتها بمتاعبها وطلبت منها العون والحماية. كانت بازين زيادة في الكتمان قد أدخلت إيڤ إلى غرفتها، وفتحت باب غرفة صغيرة مجاورة يأتيها النور من كوة عليا لا يمكن أن تصل إليها الأعين. نظفت الصديقتان مدفأتها الصغيرة ذات الأنبوب المتصل بمدخنة المحترف حيث توقد العاملات النار اللازمة للمكاوي. مدّت إيڤ وبازين أغطية قديمة على البلاط لتخميد الضجة التي قد يحدثها داڤيد دون انتباه منه، ووضعتا سريراً ميدانيًا للنوم ومنضدة للكتابة وكرسيًّا للجلوس وفرنًا لإجراء التجارب، ووعدت بازين بتقديم الطعام لزوج صديقتها مساءً، وهكذا يمكن لداڤيد أن يتحدّى جميع أعدائه، وحتى رجال الشرطة.

قالت إيڤ وهي تقبّل صديقتها: «أخيراً سيكون في أمان هنا».

عادت إيڤ إلى بوستيل مدعية أنها تريد أن تستوضح منه وهو عضو محكمة التجارة الماهر عن بعض القضايا. وصحبها إلى منزلها وهي تستمع إلى معاتباته: «لو تزوجتني، أكنت تتعرضين لهذه المتاعب؟...» كان هذا الشعور خلاصة جميع عبارات الصيدلي التافه، وقد وجد عند عودته زوجته والغيرة تنتابها من جمال السيدة سيشار الرائع والحَنَق لما أظهره زوجها من مجاملة لزائرتهما، غير أن غيظ ليوني هدأ عندما ادّعى الصيدلي أنه يفضل النساء الصهباوات صغيرات القامة على

السمراوات الطويلات شُبيهات الأفراس الجميلة التي تختال في الاسطبلات، وقدّم على الأرجح بعض البراهين على إخلاصه إذ بدت السيدة بوستيل في اليوم التالي راضية ملاطفة.

قالت إيف لأمها ولماريون عندما وجدتهما ماتزالان مضطربتين: «يمكننا أن نطمئن».

قالت ماريون لإيف عندما وجدتها تنظر بشكل آلي إلى غرفتها: «إيه! لقد غادرا».

- سأل كولب معلمه بعد أن أصبحا على بعد فرسخ من طريق عام باريس «إلى أين نذهب؟»

- أجاب دافيد: بما أنك سلكت بي هذا الطريق، فتوجّه بي إلى مارساك، سأجري محاولة أخيرة لتليين قلب والدي.

- «أفضل أن أهاجم بطارية مدفعية، فالسيد والدك لا قلب له».

كان عامل المكبس القديم لا يؤمن بقدرة ولده، فهو يحكم عليه كحكم الشعب بناء على النتائج، وهو أولاً لا يعتقد أنه أساء معاملة داڤيد في بيعه المطبعة وإيجار المعدات دون أن يأخذ في حسابه فرق الزمن. كان يقول في نفسه: «وضعته في مطبعة كما سبق لي أن وجدت نفسي فيها، فلم يستطع وهو الأكثر علمًا مني ألف مرة، من تسييرها. كان عاجزاً عن فهم ابنه، وهو يدينه، ويبرّر تقتيره عليه بقوله: «إنني أدّخر له خبزه». لن يتمكن الباحثون في علم الأخلاق من فهم التأثير الذي تمارسه العواطف على المصالح، فهذا التأثير قوي مثل تأثير المصالح على العواطف. لجميع قوانين الطبيعة تأثيرات مضاعفة ومتعاكسة في الاتجاه. كان داڤيد يفهم والده، وهو يجد الأعذار له بكثير من التسامح. وصل داڤيد وكولب إلى مارساك عند الساعة الثامنة مساءً ووجدا الكرّام قد أنهى عشاءه وهو يتهيأ للنوم.

قال الأب لابنه مبتسماً بمرارة: «إنّ ملاحقة العدالة تدفعك للقائي»

- صاح كولب حانقًا: كيف يمكن أن تتلاقى مع معلمي فهو محلّق في السماوات، وأنت دائمًا في كرومك. ادفع. ادفع! فهذا واجب الأبوة. . .

- قال دافيد: هيّا ياكولب، اذهب وضع الحصان في اسطبل السيدة كورتوا، ولا تربك والدي به، واعلم أن الآباء على حقّ دومًا.

ذهب كولب وهو يهمهم مثل كلب نهره سيّده على احتراسه، فأطاع مع استمراره في الاحتجاج.

عرض داڤيد، دون أن يكشف أسراره، على والده، أن يقدم له برهانًا بيّنًا عن اكتشافه، مقترحًا عليه فائدة يتقاضاها من ذلك المشروع لقاء المبالغ، التي يقدّمها له، الضرورية سواء لتسديد دينه والحصول على حريته مباشرة أو لانصرافه إلى استثمار ابتكاره.

سأل الطباع القديم وهو يوجّه لابنه نظرة تبرق بنشوة السكر، لكنها ماكرة، فضولية، جشعة:

«ايه! كيف تبرهن لي أنك تستطيع أن تحضّر من لاشيء ورقًا جيّدًا لا يكلف شيئًا؟».

انطلقت كلماته كبرق يلتمع من سحابة ممطرة لأن «الدب» العجوز لا ينام أبدًا دون أن يعتمر طاقية الليل، وطاقيته تتكون من محتوى زجاجتين من الخمر الفاخر المعتق يرتشفه متلمظًا وفقًا لتعبيره.

أجاب دافيد: «لا شيء أسهل من ذلك. أنا لا أحمل ورقًا معي، وقد جئت إلى هنا هاربًا من دوبلون وعندما وجدت نفسي على طريق مارساك، فكرت أن بإمكاني أن أجد عندك التسهيلات التي أجدها عند أحد المرابين. ليس على جسمي إلا ثيابي. ضعني في مكان محكم الإغلاق لا يتمكن أحد أن يدخل إليه، أو أن يرى ما أعمل فيه و. . .

- قال العجوز وهو يلقي على ابنه نظرة مُرعبة: كيف. ألا تسمح لي برؤية العمليات التي تجريها. . .

- أجاب دافيد: أعربت لي أن المصالح لا تعرف أبًا. . .

- آه! أنت تحترس ممن منحك الحياة.

- كلا، بل ممن نزع مني وسائل العيش.

- قال العجوز: أنت على حق، فليعمل كلٌّ واحد لمصلحته. هيّا، سأضعك في قبوي.

- سأدخل إليه مع كولب، وستعطيني قدراً أُحضّر فيه عجينتي، واستأنف دون أن يلحظ بريق عينيّ الأب: وستذهب لتحضر لي سوقًا من نباتات الأرضي شوكي، والهليون، والقراص الشائك، والقصب الذي تقطعه من ضفة النهر، وغداً صباحًا سأخرج من قبوك أحمل إليك رزمة من أجود أنواع الورق. . .

هتف الدب وهو يتجشأ: إن أمكن ذلك. . . قد أعطيك. . . سأرى إن كان بإمكاني أن أعطيك. . . آه! . . . خمسة وعشرين ألف فرنك شرط أن تجعلني أكسب مثلها كل سنة. . .

- هتف دافيد: اختبرني فأنا موافق! كولب، أسرج جوادك وانطلق حتى مانسل، اشتر منخلاً كبيراً من عند صانع مكاييل، وغراءً من أحد العطارين وعد بسرعة.

- قال الأب وهو يضع أمام ابنه زجاجة خمر، وخبزاً، وبقايا لحوم مجففة باردة: «هيّا، اشرب. . . جدّد قواك، سأذهب لأحضّر لك مؤونتك من الخرق الخضراء، إذ أنّ خرقك خضراء، بل أخشى أن تكون كثيرة الخضرة».

بعدَ حوالي ساعتين، أي في الساعة الحادية عشرة مساءً حبس العجوز ابنه وكولب في غرفة صغيرة ملاصقة لقبوه ومغطاة بقرميد مفرغ وتحتوي على جميع

الأدوات اللازمة لتقطير خمور منطقة أنغوليم، التي تشتهر بالكحول الخاص بصنع الكونياك.

هتف داڤيد: «إيه! إنني هنا كما في معمل، ها هو الحطب والقدور الكبيرة».

قال الأب سيشار: «إذن إلى الغد، سأقفل عليكما، وأطلق كلبي، وأنا واثق أنّ ما من أحد سيأتيكما بورق. هيا يادافيد، أرني ورقك غداً، وسأعلن أنّك شريكي ويغدو المشروع واضحًا ومهيأ للتنفيذ...»

ارتضى كولب ودافيد أن يحبسا، وقضيا ساعتين تقريبًا في تفتيت سوق النباتات وتحضيرها مستخدمين رافدتين خشبيتين. وتوهجت النار، وغلى الماء. ونحو الساعة الثانية صباحًا سمع كولب، الأقل انشغالاً من دافيد تنهدة وفواق سكير، فتناول أحد المصباحين وبدأ ينظر في كل مكان، رأى عندئذ وجه الأب سيشار في حمرة بنفسجيه يملأ كوّة صغيرة مربعة فوق الباب الواصل بين القبو والمحمصة والمغطّى بالبراميل الفارغة.

كان العجوز الماكر قد أدخل ابنه وكولب إلى محمصته من الباب الخارجي المستخدم لإخراج البراميل لتسليمها. أمّا هذا الباب الداخلي فيتيح دحرجة البراميل من القبو إلى المحمصة دون الحاجة لإجراء الدوران في القبو.

صاح كولب برطانته الألمانية: «آه! بابا! ليست هذه لعبة، تسعى إلى اختلاس ابنك... هل تعلم ماذا تفعل عندما تحتسي زجاجة نبيذ، إنك تقر التجسس السافل.

- قال دافيد: إيه! ماذا تفعل يا أبي!

- قال الكرّام وهو شبه ثمل: جئت لأرى إن كنتما بحاجة لشيء ما.

- قال كولب وهو يفتح الباب بعد أن أزاح العوائق عنه ووجد العجوز واقفًا على سلّم صغير وهو في قميص داخلي: هل صعدت على هذا السلّم الصغير لترى حاجتنا؟

- صاح داڤيد: وتعرّض نفسك للسقوط.

- قال العجوز خجلاً وهو ينزل عن السلم: أعتقد أنني مُسَرْنَم(*). فعدم ثقتك بأبيك جعلتني أحلم، واعتقد أنك تتفاهم مع الشيطان لتحقيق المستحيل.

- هتف كولب: الشيطان، إنّه هواك للقطع الصغيرة الصفراء الذهبية.

- قال داڤيد: «عُد إلى نومك ياأبي، أغلق الباب على نفسك إن أردت، لكن تجنّب العودة إلى هنا: فكولب سينتصب حارساً».

في الساعة الرابعة من اليوم التالي، خرج دافيد من المحمصة بعد أن أزال آثار جميع عملياته، وحمل إلى أبيه نحو ثلاثين ورقة هي مثال النعومة، والبياض، والتماسك، والقوة، وهي تحمل في صياغتها السلكية آثار أشعار المنخل، تناول العجوز هذه العينات، وألصق عليها لسانه، وفقًا لعادة «دب» يجري هذا الاختبار منذ مطلع شبابه مستعيناً بسقف حلقه، حركها بعد ذلك، وجعّدها، وطواها، وعرضها لجميع اختبارات الطباعين للورق لمعرفة نوعيته ورغم أنّه لم يجد فيها أيّ عيب، لم يُرد الاعتراف بأنه مقتنع.

قال ليعفي نفسه من مدح ابنه: يجب معرفة ما يطرأ عليها تحت مكبس الطبع!...

- هتف كولب: «ياله من رجل غريب الطبع!»

أظهر العجوز البرود، وحجب تحت مظهر وقار أبوي تردّدًا مصطنعًا.

- قال داڤيد: «لاأريد أن أخدعك ياأبي، فهذا الورق مايزال ذا كلفة عالية، ويجب أن أتوصل إلى حلّ لمشكلة التغرية على العجينة في الحوض... لم يبق عليّ إلا تحقيق هذه الميزة...»

- آه! تريد خداعي!

(*) - المسّرنم Somnambule: من يسير في نومه أو يقوم بأعمال لا إرادية أو يتكلم دون وعي منه وهو نائم. (المترجم)

- ألم أقل لك؟ إنني أغري العجينة جيدًا في الحوض، لكن تشربُها للغراء ليس منتظمًا ولها خشونة فرشاة.

- إذن ستحصل على نقودي بعد تغلبك على مشكلة التغرية.

علق كولب برطانته المعتادة: لن يرى معلمي أبدًا لون نقودك.

قال دافيد لأبيه بعد أن صرف كولب: لم أحقد عليك يومًا لأنك قدرت ثمنًا باهظًا لمطبعتك، وبعتني إياها وفقًا لتقديرك، نظرت إليك دومًا كأب. قلت في نفسي: من حقك أن تعيش مرتاحًا في شيخوختك بعد معاناة أعمال قاسية يجب أن تقطف ثمارها الآن، واكتفيت بما بذلت في سبيل تربيتي وتعليمي، وتخليت لك عن ميراث أمي، ومارست دون تذمر حياة مثقلة بالديون فرضتها عليّ، ووعدت نفسي أن أجني ثروة معتبرة دون أن أثقل عليك، وسعيت إلى ابتكار كشفت سره وأنا في ضيق شديد، بيتي خال من رغيف خبز وأنا ملاحق لتسديد دين لست سببه... نعم كافحت مثابراً حتى استنفذت قواي. قد تكون ملزمًا بمساعدتي!... لكن لا تفكر بي، إنّما فكر بامرأة وطفل!... (هنا، لم يستطع دافيد أن يحبس دموعه) ساعدهما وارحمهما. هل أنت أقلّ حنانًا علينا من ماريون وكولب اللذين قدما لنا مدّخراتهما؟

صاح الابن وهو يرى أباه متجمد العاطفة كرخام مكبس الطباعة.

- صاح العجوز بلا حياء: ولم يكفك هذا... لكن بإمكانك أن تلتهم مال فرنسة، أسعدت مساءً! لم أصل إلى درجة من الغباء لأحشر أنفي في استثمارات أنا فيها المُستَثمَر الوحيد. وأردف ملّمحًا إلى لقبيهما كمنضد وعامل مكبس في المطبعة: لن يتمكن القرد من أكل الدب. أنا كرّام ولست صاحب مصرف... ثم إن المشاريع المشتركة بين أب وابن لا تنجح. فلنتعش معًا حتى لا تقول إنني لم أقدم لك شيئًا!...

كان دافيد من هؤلاء الأشخاص ذوي العواطف العميقة الذين يستطيعون أن يكتموا آلامهم حتى أنها لتغدو لغزًا لأحبائه وهكذا فعندما يفيض ألمه فهذا يعني أنه

بلغ حداً يفوق طاقة احتماله، وقد فهمت إيف جيّداً هذا الطبع الجميل فيه كرجل. لكن الأب رأى في هذا الفيض من الألم الذي عبر عنه داڤيد بحرقة شكوى عادية كتلك التي يظهرها الأولاد الذين يريدون استدرار عطف آبائهم، بل وعدَّ الخجل من الفشل مرد خور ابنه المفرط، وافترق الأب وابنه مختلفين. عاد داڤيد وكولب عند منتصف الليل تقريبًا إلى أنغوليم ودخلا المدينة سيراً على الأقدام وبمنتهى الاحتراس فكأنهما لصّان ينويان القيام بعملية سطو، ونحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل توجه دافيد بمفرده إلى المخبأ الخفي الذي أعدته زوجته لدى الآنسة بازين كليرجه، وبوجوده في ذلك المكان حظي بالحماية الأكثر براعة، حماية فتاة عاملة لعوب. في اليوم التالي ادّعى كولب أنه ساعد على هرب معلمه مستعيناً بحصان ولم يفترق عنه إلا بعد أن استقل عربة تقله إلى جوار مدينه ليموج، وحُضّرت في قبو بازين مؤونة كافية من المواد الأولية حتى ليمكن لكولب وماريون والسيدة سيشار ووالدتها عدم إجراء أي اتصال مع الآنسة كليرجه.

رأى العجوز سيشار بعد يومين من زيارة ابنه له أن موعد قطاف كرومه لن يحين قبل عشرين يومًا فهرع إلى كنّته مدفوعًا ببخله وجشعه. جفا الكرى عينيه، وهو يريد أن يعرف مدى حظ ابتكار ابنه من النجاح، وهو حريص على رعاية هذه البذرة وفقًا لتعبيره، وأقام في إحدى غرفتي السقيفة اللتين احتفظ بهما فوق شقة كنته، وتجاهل الأزمة المالية التي تعصف بعائلة ابنه، فله عليها إيجارات، ويجب أن تقدّم له الغذاء، ولم يستهجن أن يُقدّم له الطعام في آنية من حديد مُقَصْدَر.

أجاب كنته عندما اعتذرت له عن عدم وجود أدوات مائدة فضية لديها:

«هكذا بدأت» تعهدت ماريون أن تسدّد للبقالين ما تستجّره من مواد غذائية لعائلة سيشار، وقام كولب بالعمل لدى البنّائين لقاء عشرين فلسًا يوميّـاً. أخيراً، سرعان مانضبت الموارد المالية لدى إيف المسكينة، ولم يبق معها إلا عشرة فرنكات، فقد رأت أن تنفق ما لديها لإكرام الكرّام لمصلحة طفلها وداڤيد، وهي تأمل دائمًا أن

تحنّن بمداراتها، ومودّتها، ومراعاتها للقيام بواجب الضيافة، واستكانتها، قلب البخيل، لكنها وجدته على الدوام عديم الحس. أخيراً أشارت له إلى العين المتحجرة التي يبديها نحوهم الأخوان كوانته، وپتي - كلو وسريزه لتلاحظ طبعه، وتخمّن نواياه لكن إشارتها لم تلق صدى، وبقي الأب سيشار عصيّاً على الفهم وهو غارق بين كأسي خمر، فالسكر حجاب مضاعف، وتذرّعًا بنشوته الحقيقية، والمصطنعة غالبًا أراد العجوز أن ينتزع أسرار داڤيد من إيڤ، فتارة يتودّد إليها، وتارة يخيفها، وعندما تجيبه بأنها تجهل كل شيء عن أبحاث زوجها يقول لها: «سأحتسي كل أملاكي، وسأتنازل عنها مقابل دخل عمري(*)». هذه الصراعات المعيبة أتعبت الضحية المسكينة التي كانت تلتزم الصمت حتى لا تتهم بقلة الاحترام لحميّها، إنّما ضاق ذرعها في أحد الأيام فقالت له: «يا أبي، توجد طريقة بسيطة جداً لمعرفة كل شيء. سدّد ديون دافيد، وسيعود إلى هنا وتتفاهم معه».

- هتف الكرّام: «آه! هذا كل ما تريدون مني، أمر جيد أن أعرفه».

كان الأب سيشار يثق برأي الأخوين كوانته أكثر من ثقته بأبحاث ابنه، وقد بهراه عمداً عندما ذهب يستشيرهما، أوهماه أن الأمر يتعلق بالملايين.

قال له كوانته الطويل: «إذا استطاع داڤيد أن يبرهن عن نجاحه فلن أتردّد عن مشاركته أعدُّ ابتكاره معادلاً لمصنع الورق الذي أملكه».

تمكن العجوز المتشكك أن يجمع كثيراً من المعلومات وهو يتناول بعض كؤوس المشروبات الكحولية مع العمال وتظاهر بالغباء وهو يكثر من أسئلته لپتي - كلو إلى أن أيقن بأن الأخوين كوانته هما المحرّضان لميتيڤيه، ونسب إليهما مخطط إفلاس مطبعة سيشار، ودفعه إلى تسديد دينهما، بإغرائه بقيمة ابتكار ابنه، لأن الرجل العجوز الساذج لا يمكنه أن يكتشف تواطوء پتي - كلو، ولا المؤامرات المحاكة للاستيلاء عاجلاً أو آجلاً على هذا الابتكار الصناعي الجميل.

(١*) - تنازل عن أملاكه مقابل دخل عمري: Mettre Son bien en Viager: تنازل شخص عن أملاكه لطرف آخر أو لإحدى المؤسسات لقاء راتب شهري أو دخل سنوي يتفق عليه ويقدم إليه مادام حيّاً. (ملاحظة المترجم)

أخيراً، وفي يوم قرّر العجوز، الساخط من عجزه عن التغلب على صمت كنته، وعدم معرفة مكان اختباء داڤيد، أن يخلع باب المشغل الذي يصهر فيه ابنه اسطوانات التحبير، بعد أن علم أن ابنه كان يجري تجاربه في هذا المشغل. نزل في الصباح الباكر وبدأ يعالج القفل.

صاحت ماريون التي تنهض مع الفجر استعداداً للذهاب إلى المصنع الذي تعمل به وقد فاجأته على الباب: «وبعد ماذا تفعل هنا بابا سيشار؟...».

قال العجوز خجلاً: ألست في منزلي يا ماريون؟

- آه! أتغدو لصًا في أواخر أيامك، مع أنك صاحٍ دون سُكرٍ، الآن... سأذهب لأروي مارأيت مباشرة لسيدتي.

- قال العجوز وهو يخرج من جيبه قطعتين نقديتين من ذات الستة فرنكات: خذي... واصمتي.

- قالت له ماريون وهي تشير بإصبعها مهددة: «سأصمت، لكن لاتعد إلى هذه الفعلة، وإلا سأخبر عنها كل أنغوليم».

بعد انصراف العجوز، صعدت ماريون إلى غرفة سيدتها وقالت لها:

«خذي، ياسيدتي، ها هي اثنا عشر فرنكًا تمكنت سحبها من حميك».

- كيف توصلّت إلى هذا؟...

- كان يريد رؤية الأحواض والمواد التي يجري سيدي تجاربه عليها ليطّلع على سره، وأنا أعلم أنّه لن يجد شيئًا في المطبخ، لكنني أخفته مدّعية أنه يسعى إلى سرقة ابنه فأعطاني هذا المبلغ لقاء سكوتي...

في تلك اللحظة حملت بازين رسالة من داڤيد إلى صديقتها وهي مكتوبة على ورق رائع وهذا ماورد فيها:

«معبودتي إيڤ. أكتب إليك على أوّل ورقة نتجت عن طريقتي المبتكرة. نجحت في حلّ مشكلة التغرية في الحوض! ولن تكلف ليبرة معجون الورق، حتى

لو لزم الأمر الحصول على المواد الأولية النباتية زراعتها في أراض جيّدة، أكثر من خمسة فلوس، وهكذا فإن كلفة ماعون ورق بوزن اثنتي عشرة ليبرة لن تتجاوز ثلاثة فرنكات لعجينته المغراة[1]. أنا متأكد أنني سأستطيع تخفيض الوزن إلى نصفه. الغلاف، والرسالة، والعينات المرافقة من مراحل تصنيع مختلفة. أقبلك واعداً بتحقيق سعادتنا بالحصول على الثروة وهي الشيء الوحيد الذي ينقصنا».

قالت إيف لحميّها، وهي تقدّم له العينات المرافقة للرسالة: «انظر النتيجة، وتشجع على منح ابنك ثمن محصول هذاالعام من كرومك ليحقق ثروته وسيعيد لك عشرة أضعاف ما أعطيت، فقد نجح في تحسين منتجه! . . .».

هرع الأب سيشار إلى الأخوين كوانته حيث جرت لديهما اختبارات على كل عينة بعد الفحص الدقيق: كانت بعض العينات مغراة وبعضها دون تغرية، وهي مصنفة وفق أسعار كلفة الماعون التي تتراوح بين ثلاثة فرنكات وعشرة فرنكات. كانت بعض العينّات ذات نقاوة ميكانيكية، وبعضها الآخر ناعمة مثل ورق الصين، وقد تجلّت فيها مختلف درجات البياض. كانت أعين الأخوين كوانته والعجوز سيشار تبرق وهي تقلّب هذه العينات كبريق أعين اليهود أمام مرأى جواهر الألماس.

قال كوانته البدين: «ابنك في الاتجاه الصحيح».

رد الطبّاع العجوز: «إذن، سدّدا عنه ديونه».

أجاب كوانته الطويل: بكل طيبة خاطر، إذا رضي أن يتخذنا شريكين له.

هتف الدبُّ المتقاعد: لستما إلا وقادين[2]. أنتما تلاحقان ابني بتحريضكما ميتيڤيه، وتريدان أن أسدّد لكما ديونه، هذا هو هدفكما، لكنكما لن تخدعاني».

---

(١) - يعطي الغراء للورق الإمكانية الضرورية لتثبيت الحبر: وهكذا تمكن دافيد أن يكتب لإيف رسالته على الورق المكتشف بعد تغريته. أما ماعون الورق من قياس ٢٠×١٦ بوصة فهو بوزن ١٣ ليبرة في العام ١٨٣٣.

(٢) الوقادون: هم قطاعو الطرق أثناء الحرب الدائرة بين الڤانديين والجمهوريين الذين كانوا يحرقون أرجل أسراهم بعد نهبهم.

تبادل الأخوان نظرات الدهشة لكنهما سيطرا على المفاجأة التي اعترتهما من فطنة العجوز وكشفه لخدعتهما وعقب كوانته البدين : «لم نصل إلى درجة من الثراء تسمح لنا بحسم السندات والتسلية بملاحقة المدينين، ونحن مكتفيان بقدرتنا على تسديد ثمن الخرق اللازمة لتسيير معمل ورقنا نقداً ومنح التاجر الذي نتعامل معه بعض السُلَف.

- وأجاب كوانته الطويل ببرود : يجب إجراء تجربة صناعية إذ أن من المحتمل لتجربة ناجحة في قدر أن تفشل عند تطبيقها على النطاق الواسع. حرّر ابنك أولاً.

- سأل العجوز سيشار : نعم، لكن هل سيرضى بي ابني، بعد تحريره، شريكًا له؟

- قال كوانته البدين : هذه مشكلتك أيّها العجوز، لكن هل تعتقد أنك مع ابنك ستفتحان مصنعاً عندما تقدّم له عشرة آلاف فرنك؟ براءة الاختراع تكلف ألفي فرنك، ويجب إجراء عدة سفرات إلى باريس، وقبل الانطلاق في قروض، من الحكمة، كما قال أخي، صنع ألف ماعون، والمجازفة بكميات من العجينة المبتكرة قبل تقييم المنتج، وهكذا ترى مدى الحذر الذي يجب إظهاره للمبتكرين.

- قال كوانته الطويل : «أما أنا فأفضل الخبز جاهزاً».

قضى العجوز الليل وهو يفكر في الاختيار الأفضل للخروج من هذا المأزق. كان يقول في نفسه : إذا دفعت ديون داڤيد سيغدو حراً، ولن يحتاج إلى مشاركتي في استغلال اكتشاف خاص به ويدرّ ثروة. إنه يعلم جيّداً أنني خدعته في شراكتنا الأولى(*). ولن يرغب في مشاركتي مرة ثانية. من مصلحتي إذن أن يبقى هارباً، تعيساً مهدّداً بإيداعه السجن.

كان الأخوان كوانته يعرفان جيّداً الأب سيشار ليخمنا ما يدور في خاطره وهما يسعيان إلى اقتناص الغنيمة نفسها. فهؤلاء الأشخاص الثلاثة قد توصلوا إذن

(*) - المقصود بهذه الشراكة بيع المطبعة وتأجير المكان ثم التخلي عن امتياز الصحيفة للأخوين كوانته (المترجم)

إلى النتيجة نفسها: «لتأسيس شركة لاستغلال اكتشاف داڤيد، يجب إجراء تجارب وهذا الإجراء يتطلب تحرير داڤيد بتسديد ديونه. لكن داڤيد قد يفلت من أيدينا بعد تحرّره». إضافة إلى ذلك فكلّ واحد يضمر فكرة خفية يسعى إليها، فپتي - كلو يقول في نفسه: «بعد زواجي سأتحرّر من نير الأخوين كوانته، لكنني حتى ذلك الحين مرتبط معهما». وكوانته الطويل يفكر: «أفضل أن أرى داڤيد سجينًا لأبقى سيّد الموقف». أما الأب سيشار فما يزال عند رأيه: «إذا سدّدت ديون ابني فسيصرفني شاكرًا» وأراد رغم ذلك أن يعرف مكان اختباء داڤيد علّه يتوصل إلى اقناعه بالبوح له بسرّ اكتشافه، ومارس مختلف الضغوط على إيڤ، حتى أنّه هدّدها بطردها من المنزل، لكنها أبت أن تكشف له عن مخبأ زوجها، أو أن تقترح على داڤيد الانتقال سرًا لرؤية والده، لأنها تخشى ألا تستطيع تأمين مخبأ آخر مماثل للأول. وهكذا كان جوابها لحميّها دومًا: «حرّر ابنك من الملاحقة، وستعرف كل شيء». لكأن هؤلاء الأشخاص الأربعة الطامعين موجودون أمام مائدة عامرة ولا يجسر أيّ منهم أن يمدّ يده إلى الطبق الشهي خشية أن يسبقه الآخرون إليه، وكل واحد يراقب الأخرين بحذر وريبة.

بعد عدة أيام من صدور أمر ملاحقة داڤيد وهربه، قام پتي - كلو بزيارة كوانته الطويل في مصنع ورقه وقال له:

«نفّذت المهمة التي طلبتها، ودخل داڤيد طوعًا سجنًا نجهل مكانه، وهو يسعى مطمئنًا إلى تحسين ابتكاره، وإذا لم تتوصل إلى هدفك فليس مرد ذلك خطأ مني، فهل ستفي بوعدك؟

- أجاب كوانته الطويل: نعم، إذا نجحنا، فالأب سيشار هنا منذ عدة أيام، وقد جاء يطرح عليّ بعض الأسئلة عن صناعة الورق، ويبدو أن العجوز البخيل قد أحسّ بابتكار ابنه وهو يريد أن ينال نصيبه من مكاسبه. إذن لدينا أمل في التوصل إلى شراكة، وبما أنّك محامي الأب والابن...

- قاطعه پتي - كلو مبتسماً: كن الروح القدس وخلّصه.

- أجاب كوانته: نعم، إذا نجحت في إيداع داڤيد السجن أو وضعه رهن أيدينا بإقناعه بتنظيم عقد مشاركة فستكون زوج الآنسة دي لاهاي.

- قال پتي - كلو: أهذا هو إنذارك النهائي؟

- أجاب كوانته: بما أننا نتكلم بلغتين مختلفتين، أقول لك بالإنكليزية: نعم.

- أجاب پتي - كلو بلهجة غاضبة: سأوجّه لك بدوري إنذاري إنّما بلغة فرنسية سليمة.

- عقب كوانته وقد بدا عليه الفضول: آه! لنرَ.

- «قم بتقديمي غداً للسيّدة دي سينونش، حدثّها عن النواحي الإيجابية في وضعي، أخيراً نفذ وعدك، وإلا فسأسدّد ديون سيشار وأشاركه بإعادة بيع مكتبي، فأنا لا أذعن لخدعة حدثّتني حديثًا صريحًا، وأنا أستخدم اللغة نفسها، برهنتُ عن تنفيذ ما وعدتُ به، فبرهن عن تقيدك بوعدك. أنت تملك الكثير وأنا لا أملك شيئًا. إذا لم تقدّم الدليل على صدقك، فسأقابل لعبتك بلعبة مماثلة».

تناول كوانته الطويل قبعته، ومظلته، ومظهره المراوغ، وخرج طالبًا من پتي - كلو أن يتبعه.

قال التاجر للمحامي: «سترى، ياصديقي العزيز، إذا كنت لم أمهّد لك الطريق؟ . . .»

في لحظة أدرك مصنِّع الورق الماكر والمراوغ خطر موقفه ورأى في پتي - كلو أحد هؤلاء الرجال الذين يجب التعامل معهم دون مواربة. سبق له ليكون قادراً على طرح موضوع المحامي وتبرئة لذمته، وبذريعة بيان الوضع المالي للآنسة دي لاهاي، أن همس ببضع كلمات للقنصل العام السابق.

قال مبتسماً: «سأهتم بموضوع زواج فرانسواز، إذ أن فتاة بدوطة ثلاثين ألف فرنك يجب ألا تكون متشدّدة في الوقت الحاضر.

- أجاب فرنسيس دو هوتوا: سنتحدث عن ذلك، فوضع السيّدة دي سينونش قد تغيّر كثيراً منذ رحيل السيدة دي بارجتون: يمكننا تزويج فرانسواز إلى أحد النبلاء الريفيين الهرمين.

- قال مصنّع الورق مظهراً اللامبالاة: وسيسوء سلوكها، إيه! أحرى بك أن تزوّجها من شاب قادر، طموح، تشدُّ أزره وتساعده ليؤمن لزوجته مكانة طيّبة.

- ردّد فرنسيس: «سنرى، يجب أولاً استشارة عرابتها».

بعد موت السيد دي بارجتون، باعت لويز دي نغربليس قصرها في شارع ميناج، ودفعت السيّدة دي سينونش، غير الراضية عن منزلها الصغير، إلى شراء ذلك القصر، مهد طموحات لوسيان حيث بدأت هذه الرواية، ووضعت زفيرين دي سينونش خطه لتحتل المركز الذي كانت تشغله السيّدة دي بارجتون، عميدة لزمرة نبلاء أنغوليم، لها صالونها، ومقامها الرفيع. وكان قد نتج عن مبارزة السيد دي بارجتون والسيد دي شاندور انشقاق في طبقة نبلاء أنغوليم، ففريق يتمسك ببراءة لويز دي نيغربليس، وفريق مؤيّد لافتراءات ستانيسلاس دي شاندور. أعلنت السيدة دي سينونش وقوفها إلى جانب الفريق الأول، وجمعت حولها كل أنصار آل بارجتون وبعد أن استقرت في قصرهم استغلت ما اعتاد عليه روّاد ذلك القصر منذ سنوات في الحضور يومياً للسهر حول موائد لعب الورق، وهكذا تفوّقت على أملي دي شاندور منافستها. توجّهت آمال فرنسيس دي هوتوا الذي يعيش ضمن الطبقة الأرستقراطية في أنغوليم إلى تزويج فرانسواز من النبيل الهرم دي سيڤراك بعد أن فشلت جهود السيّدة دو بروسار في اصطياده لابنتها. زادت عودة السيدة دي بارجتون، بعد أن غدت الكونتة سكست دو شاتليه المعيّن محافظاً لأنغوليم، من أطماع زفيرين في تأمين زواج لائق لربيبتها المحبوبة.

قالت في نفسها إن الكونتة سكست دو شاتليه ستستخدم نفوذها لدعم تلك التي نصّبت نفسها مدافعة عنها. أدرك الورّاق في لمحة عين هذه الصعوبات، وهو من يعرف أنغوليم تمام المعرفة، لكنه صمّم أن يتغلّب على هذه العقبات بجرأة لم يتميّز بها إلا طرطوف. دُهش المحامي الشاب من وفاء شريكه الموصي بعد نزاعهما، وصحبه وهو مستغرق في أفكاره من مصنع الورق إلى قصر شارع ميناج حيث اعترضهما البواب بقوله: «السيّد والسيّدة على مائدة الغداء».

- ردّ كوانته بقوله: «مع ذلك أعلن قدومي في زيارة».

دعي التاجر المحترم عقب إعلان اسمه للدخول، فقدم المحامي لزفيرين المتحذلقة، وهي على المائدة مع فرنسيس دي هوتوا والآنسة دي لاهاي، وكان السيد دي سينونش غائبًا، كعادته، في رحلة صيد مع السيد دي بيمنتل.

قال كوانته: «ها هو، ياسيدتي، المحامي المرخّص الشاب الذي حدّثتك عنه، الذي سيتكفل بتحرير ربيبتك القاصر الجميلة».

تأمّل الدبلوماسي السابق پتي - كلو، الذي نظر من جهته، خفية، إلى الربيبة الجميلة، أمّا زفيرين التي لم يسبق أن حدّثها كوانته أو فرنسيس عن هذا المحامي فقد انتابتها الدهشة حتى أن الشوكة التي تتناول بها طعامها سقطت من يدها. كانت الآنسة دي لاهاي أشبه بطائر الصُرَد(*)، ذات وجه عابس، وقامة قليلة الرشاقة، نحيلة، بشعر أشقر باهت، وهي رغم مسحة ارستقراطية في مظهرها يصعب جداً تزويجها فهذه الكلمات: **مجهولة الأب والأم** المسجلة على بطاقة هويتها تمنع عنها الجو والصداقة اللذين يريدهما لها فرنسيس وعرّابتها، وقد أظهرت الآنسة دي لاهاي، التي تجهل وضعها، أنها صعبة الإرضاء: فقد رفضت الموافقة على أغنى تاجر في هومو خطيبًا لها. وكانت التقطيبة العابسة التي بدت على ملامح الآنسة دي لاهاي لمرأى المحامي النحيل مماثلة، كما لاحظ كوانته، لما ارتسم على شفتي پتي - كلو من انقباض ينمّ عن خيبة أمل. بدا فرنسيس والسيّدة دي سينونش

(*) - طائر الصُرَد: طائر أبقع، ضخم الرأس والمنقار.

وكأنهما يتشاوران بالنظرات عن الوسيلة التي يمكن بها صرف كوانته والمحامي المقرّب منه. ولاحظ كوانته كل شيء، فطلب من السيد دو هوتوا الاجتماع به على انفراد وانتقل معه إلى الصالون.

قال كوانته للدبلوماسي صراحة: «سيدي، إن أبوّتك تعميك، ومن الصعب عليك تزويج ابنتك، لكنني لمصلحتكم جميعًا وضعتكم أمام استحالة رفض هذا الخطيب، لأنني أحبّ فرانسواز مثل ربيبة لي، وپتي - كلو يعلم كل شيء! . . . وطموحه المفرط يضمن السعادة لصغيرتك العزيزة. ستتمكن فرانسواز أن تكيّف زوجها وفق إرادتها، أما أنت فيمكنك بمساعدة زوجة المحافظ التي وصلت إلى المدينة حديثًا أن تؤمنا له منصب النيابة العامة. فقد تقرّر نقل السيد ميلو إلى نيڤر، ويمكن لپتي - كلو بيع مكتبه بعد أن تحصلا له على وظيفه الوكيل الثاني للنائب العام ويتدرج بعدها حتى الوصول إلى نائب عام، ثم رئيس محكمة، وبعد ذلك إلى نائب في المجلس التشريعي. . . »

عاد فرنسيس إلى قاعة الطعام، وأظهر الودّ لخطيب ابنته، ونظر بطريقة معيّنة إلى السيّدة دي سينوتش مما أنهى مشهد التعارف بدعوته پتي - كلو إلى العشاء في اليوم التالي لمناقشة بعض القضايا، ثم رافق التاجر والمحامي حتى الباب الخارجي حيث صرّح لپتي - كلو أنه، بناءً على توصية كوانته، مستعد وكذلك السيدة دي سينونش على التصديق على كل ما يرتّبه القيّم على ثروة الآنسة دي لاهاي من أجل سعادة هذا الملاك الصغير.

هتف پتي - كلو وهما يغادران القصر: «آه! كم هي دميمة! أخذت على حين غرّة! . . . »

- أجاب كوانته: لكن لها مظهراً محترمًا، هل كانت ستعطى لك لو أنّها جميلة؟ . . . إيه ياعزيزي يوجد أكثر من ملاك صغير يرى في دوطة ثلاثين ألف فرنك، وحماية السيدة دي سينونش والسيدة دو شاتليه ما يناسبه، خاصة وأن السيّد

دي هوتوا لن يتزوج، وستكون هذه الابنة وريثته. . . إن زواجك قيد الإنجاز! . . .

- وكيف؟

- ردّ كوانته الطويل على الفور معبرًا للمحامي عن بادرته الجريئة: إليك ما قلته ياعزيزي، إن السيد ميلو سينقل نائبًا عامًا إلى نيڤر: وستبيع مكتبك لتحلّ محله. وخلال عشر سنوات ستغدو وزيراً للعدل، فلك من الجرأة ما يدفعك إلى عدم التراجع أمام أية خدمة سيطلبها البلاط الملكي. . .

- أجاب المحامي المتحمس لاحتمالات هذا المستقبل: إذن توجّه في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر غدٍ إلى ساحة موريه. سأكون قد رأيت الأب سيشار، وسنتوصل إلى عقد شركة ينتمي بموجبها الأب والابن إلى روح قدس كوانته».

بينما كان كاهن مارساك العجوز يصعد منحدر أنغوليم لينبيء إيڤ بالحالة التي وصل إليها أخوها، كان داڤيد مختبئًا منذ أحد عشر يومًا[1] على مسافة لا يفصلها إلا بابان عن الباب الذي غادره الكاهن المحترم.

عندما وصل الأب مارُون إلى ساحة موريه وجد فيها الرجال الثلاثة الذين يضغطون بكل ثقلهم على مستقبل وحاضر داڤيد السجين الطوعي المسكين، وكل منهم فريد في طرازه: الأب سيشار، وكوانته الطويل، وپتي - كلو المحامي النحيل. ثلاثة رجال، ثلاثة أطماع! إنّما ثلاثة أطماع بمثل اختلاف الرجال. عزم الأوّل منهم أن يساوم على ابنه، والآخر على موكله، وأن يشتري كوانته كل هذه السفالات متباهيًا بأنه لن يدفع فلسًا من ماله. كانت الساعة قد قاربت الخامسة

(١) - تلقت إيڤ رسالة أخيها، في ٢ أيلول، وانطلق داڤيد مع كولب في اليوم نفسه لرؤية الأب في مارساك حيث قضيا يومين. نحن إذن في ١٣ أيلول. وقد اشارت رسالة لوسيان إلى أن كورالي توفيت في ٢٧ آب وبقي لوسيان شهرين في باريس بعد وفاة كورالي، إذن فالتناقض في التاريخ الذي أشرنا إليه في الصفحة الأولى من هذه الرواية مايزال مستمراً.

مساءً، ومعظم أولئك العائدين لتناول العشاء في بيوتهم يتوقفون لحظة يلقون خلالها نظرة على هؤلاء الرجال الثلاثة. «ماذا يوسوس الشيطان من أقوال يتبادلها العجوز سيشار وكوانته الطويل؟ . . . فكّر الأكثر فضولاً من المارّة - وكان الجواب: الأمر يتعلق دون شك، بهذا التعس المسكين، الذي ترك زوجته، وحماته، وطفله، دون خبز - وقال أحد المتميزين في المنطقة بسرعة البديهة: أرسلوا إذن أبناءكم لتعلم مهنة في باريس!

هتف الكرام العجوز وهو يشاهد الكاهن مارون مطلاً على الساحة: «ماذا جئت تفعل هنا، ياسيدي الخوري؟»

- أجاب الكاهن: حضرت لأمر يتعلق بأنسبائك.

- قال الأب سيشار: أمر آخر يتعلق بابني! . . .

قال الكاهن وهو يشير إلى النوافذ التي تُظهر السيدة سيشار بين الستائر رأسها الجميل: «كان بإمكانك أن تسعد الجميع بقليل من البذل والتضحية».

كانت إيف في تلك اللحظة تهدئ بكاء طفلها وهي تهدهده، وتترنّم له بإحدى الأغنيات.

- قال الأب سيشار: «هل تحمل بعض أخبار ابني، أو ما هو أفضل من ذلك، أعني بعض المال؟

- قال الكاهن: كلا، أحمل إلى الأخت أخبار أخيها.

- صاح پتي - كلو: «أخبار لوسيان؟»

- أجاب الكاهن: «نعم، حضر الشاب المسكين سيراً على قدميه من باريس، ووجدته لدى كورتوا وهو يكاد يموت من الفاقة والإعياء . . . إيه! إنه في وضع تعيس جداً!»

حيّا پتي - كلو الكاهن وتأبّط ذراع كوانته الطويل وهو يقول بصوت مرتفع: «نحن مدعوون للعشاء لدى السيّدة دي سينونش. وقد حان الوقت لارتداء ثيابنا!...» وبعد خطوتين، همس في أذنه: «عندما يغدو الصغير في حوزتنا، سنحصل على الأم سريعًا. سنقتنص داڤيد... قال كوانته وقد بدرت منه ابتسامة متكلّفة: زوّجتك، فزوّجني».

- لوسيان زميلي في الكلية، وكنا رفيقين!... خلال ثمانية أيام سأعرف شيئًا عنه. إعمل على نشر إعلان الزواج وسأقابلك بوضع داڤيد في السجن، وستنتهي مهمتي بموافاتك بمحضر الإيداع.

- هتف كوانته الطويل بمزيد من العذوبة: آه! كم ستكون نهاية هذه القضية جميلة بالحصول على براءة اختراع تحمل اسمنا!

بسماع هذه العبارة الأخيرة، ارتعش المحامي النحيل.

في تلك اللحظة رأت إيڤ الأب مارون يدخل المنزل وبرفقته حميّها الذي اكتشف سرّ المأساة القضائية.

قال الدب العجوز لكنّته: هوذا كاهننا، ياسيّدة سيشار، وقد حضر، دون شك، يحمل إليك أنباء مزعجة عن أخيك.

- صاحت إيڤ المسكينة مذعورة: «إيه! أيّة مصيبة أخرى يمكن أن تحلّ به!»

عبّرت هذه الآهة عن مزيد من مشاعر الألم، ومزيد من المخاوف، وأنواع شتى من العذاب، مما دفع الأب مارون إلى الإسراع في القول: «اطمئني ياسيدتي، إنه حيّ».

- قالت إيڤ للكرّام العجوز: «هل تتكرّم ياأبي بالذهاب لدعوة أمي للمجيء لتستمع إلى ما يريد سيدي الكاهن قوله عن لوسيان».

ذهب العجوز يبلغ السيدة شاردون قائلاً: «أمامك جلسة عراك مع الأب مارون، الرجل الطيب رغم أنه كاهن. سيتأخّر العشاء دون شك، سأعود بعد نحو ساعة.

تُرِكَ العجوز اللامبالي بكل ما لايُحدث رنين الذهب أو يعطي لمعانه دون أن ينظر إلى تأثير الطعنة التي وجهها إليها. فالنكبة التي حلّت بولديها، وخيبة الآمال التي عقدت على لوسيان والتغيُّر غير المتوقع لطبع بدا لمدة طويلة فعّالاً ومستقيماً، أخيراً جميع الأحداث التي مرّت خلال ثمانية عشر شهراً، غيّرت ملامح السيدة شاردون حتى يكاد لا يعرفها المقرّبون إليها. لم تكن نبيلة محتدٍ فقط، بل نبيلة قلب أيضًا. وهكذا فقد تعرّضت خلال الأشهر الستة الأخيرة لهموم لم تعرف مثلها طوال السنوات الماضية التي أعقبت ترمّلها. كان مقدّرًا للوسيان أن يحمل لقب دي روبمبره وراثة عن ذوي أمّه وبناءً على براءة ملكية، وأن يجدّد مجد تلك العائلة، ويحيي اسمها النبيل وشعارها، ويغدو رجلاً كبيراً! لكنه سقط في الحمأة! وبما أن الأم أكثر قدرة في الحكم من الأخت، فقد رأت لوسيان ضالاً يوم علمت بقضية السندات، إن الأمهات يردن أحيانًا أن يكنّ مخدوعات، لكنهن يعرفن الأولاد الذين أرضعنهم، وتربّوا في أحضانهن، وفي المناقشات التي دارت بين داڤيد وزوجته حول مستقبل لوسيان في باريس، كانت السيدة شاردون، رغم تظاهرها بمشاركة إيف في أوهامها عن أخيها، ترتعش من صحة رأي داڤيد لأنه كان يتكلم بما يختلج في أعماق ضمير الأم. كانت تدرك تماماً رهافة حس ابنتها فلا تستطيع أن تعبر لها عن آلامها وتكبتها بهذا الصمت الرهيب الذي تقدر عليه فقط الأمهات اللواتي يعرفن كيف يحببن أولادهن. وكانت إيف من جهتها تتابع برعب المضار التي تلحقها الهموم بأمها، وهي تراها تنتقل من الشيخوخة إلى العجز، دون توقف! وهكذا كانت الأم والابنة تبدي كل منهما للأخرى تلك المظاهر الكاذبة النبيلة التي لاتخدع أبدًا. كانت عبارة الكرّام المتوحش في حياة تلك الأم مثل قطرة الماء التي تُطفح كأس الأشجان، فقد أحسّت بها السيّدة شاردون طعنة في صميم القلب.

هكذا، عندما قالت إيف للكاهن: «سيدي، هي ذي أمّي!» وعندما رأى الراهب هذا الوجه المعروق مثل وجه راهبة عجوز، وما يحيط به من شعر أبيض كليّاً، إنما زادته جمالاً مسحة الوداعة والهدوء المميزة للنساء المستسلمات لأقدارهن

بورع، السائرات على مشيئة الله، أدرك كل حياة هاتين المخلوقتين، فزالت من قلبه كل شفقة على الجلاد، على لوسيان، وارتعش وهو يخمن كل العذابات التي تعرضت لها الضحيتان.

قالت إيف وهي تمسح دمعة تدحرجت من عينها: «أمي، إن أخي المسكين قريب جداً منّا إنّه في مارساك».

- سألت السيدة شاردون: ولماذا لم يصل إلى هنا؟

قصّ الأب مارون كل صنوف العذاب التي مرّت على لوسيان خلال سفره والمحن التي تعرّض لها خلال أيامه الأخيرة في باريس، وصوّر القلق الذي ألمّ بنفس الشاعر عندما علم بآثار طيشه على عائلته، وهواجسه من الاستقبال الذي يمكن أن يلقاه في أنغوليم.

قالت السيّدة شاردون: «هل وصل به الأمر إلى الشك بنا؟»

- توجّه إليكم هذا الابن التعس سيراً على الأقدام، وقد تعرّض لأقسى أنواع الحرمان، وهو يعود مبدياً استعداده لسلوك دروب الحياة الأكثر تواضعاً... ولتصحيح جميع أخطائه.

- قالت الأخت: «سيدي، رغم ماألحقه أخي بنا من أذى، فإنني أحبه، كما يُحَبُّ جسم كائن لم يعد موجوداً، وحبي هذا يفوق حبّ كثير من الأخوات لأخوتهن. لقد أفقرنا، لكن ليأت وسيقتسم معنا كسرة الخبز الهزيلة الباقية لنا، أخيراً تلك التي تركها لنا. آه! لو لم يتخل عنا، ياسيدي، لما كنا فقدنا أحد أعز كنوزنا.

- صاحت السيدة شاردون: وعربة المرأة التي انتزعته منّا أعادته. غادرنا إلى جانب السيدة دي بارجتون في عربتها، وعاد متعلّقاً خلفها!

- قال الخوري الطيب وهو يسعى إلى إنهاء مهمته بكلمة مواساة: كيف يمكنني مساعدتكم في الوضع الذي أنتم فيه؟

- أجابت السيّدة شاردون: «إيه! ياسيدي، جرح المال ليس قاتلاً، كما يقولون، لكن هذه الكلوم ليس لها طبيب إلا الكليم نفسه.

- قالت السيدة سيشار: إن كان لك التأثير الكافي على حميّي فأقنعه بمساعدة ابنه تنقذ عائلة كاملة.

- قال الكاهن الذي جعلته شروح الكرام يرى قضايا سيشار وكر زنابير، من الأفضل عدم الاقتراب منه: «إنّه لا يثق بكم، وبدا لي مغتاظًا جداً من زوجك».

ذهب الكاهن بعد أن أنهى مهمته لتناول طعام العشاء عند نسيبه بوستيل الذي بدّد القليل من الإرادة الطيّبة الباقية لدى نسيبه العجوز وأيّد موقف الأب ضد ابنه على نسق ما يراه معظم أهل أنغوليم.

قال بوستيل منهيًا كلامه: «تبقى بعض الموارد للمبذرين، أمّا أولئك الذين يجرون التجارب فمصيرهم الإفلاس».

أُشبع فضول كاهن مارساك كليّا، وهذا ما يُعَدُّ الهدف الرئيس في جميع المقاطعات الفرنسية لما يبديه الآخرون من اهتمام مفرط. في المساء أطلع الشاعر على جميع ما جرى لدى آل سيشار، معتبراً رحلته مهمة أملاها الإحسان الخالص.

قال منهيًا كلامه: «ركبّت ديونًا على أختك وصهرك تتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف فرنك، ولا يوجد أحد أيّها السيد العزيز مستعد لأن يقرض جاره أي مبلغ مهما كان تافهًا، فنحن في هذه المنطقة لسنا أغنياء، وكنت أعتقد أن الدين أقل من ذلك بكثير عندما حدثتني عن سنداتك».

شكر الشاعر الكاهن العجوز على طيبته قائلاً: «إن كلمة الصفح التي حملتها لي كنز حقيقي» مع فجر اليوم التالي غادر لوسيان مارساك متوجّها إلى أنغوليم، فوصلها نحو الساعة التاسعة صباحًا، أطل وعصاه في يده، وهو يرتدي معطفًا قصيراً دعكته مشاق الرحلة الطويلة وبنطالاً أسود حال لونه إلى بياض، وجزمة بالية تشير إلى انتمائه إلى طبقة تعساء المشاة، وهكذا لم يستطع أن يخفي عن مواطنيه

التباين بين عودته ورحيله. لكنه، وما يزال قلبه يخفق تحت كابوس تبكيت الضمير الذي سببه حديث الكاهن العجوز، ارتضى للحظة العابرة تلك العقوبة، وهو مصمم على مجابهة نظرات معارفه قائلاً في نفسه: «إنني في مظهر بطولي!». على نسق جميع تلك الطبائع الشاعرية التي تبدأ بخداع نفسها، وكلما تقدّم في ضاحية هومو ازداد الصراع في نفسه بين خجل تلك العودة وشاعرية ذكرياته. خفق قلبه وهو يمرّ أمام باب بوستيل، حيث كانت ليوني مارّون، لحسن حظه، وحدها مع طفلها في الصيدلية، ورأى بسرور (بقدر ما حافظ غروره على قوته) اسم أبيه الممسوح، فقد أعاد بوستيل، بعد زواجه، دهان المحلّ ووضع أعلى الباب، كما في باريس، لوحة تحمل كلمة **صيدلية** بأحرف كبيرة، وبارتقائه صعدة باب پاليت، أحسّ لوسيان بهواء الوطن مما أزاح عنه ثقل محنته، وقال في نفسه بابتهاج: «سأراهم الآن إذن» وعندما وصل إلى ساحة مورية دون أن يلتقي بأي شخص، أحسّ بسعادة لم يكن يحلم بها وهو الذي كان يتنزّه منتصراً في مدينته سابقًا! كان كولب وماريون يحرسان الباب، فأسرعا نحو السلم صائحين: «ها قد وصل!». رأى لوسيان الورشة القديمة والفناء السابق ووجد على عتبة المنزل أمّه وأخته اللتين عانقتاه بحرارة متناسيتين للحظة جميع المحن. ففي اجتماع العائلة يتم التصالح على الدوام تقريباً مع المحنة، يدفع الأمل إلى التلاؤم معها كسرير والرضى بقساوتها. وإذا كانت صورة القنوط تتجلى في مظهر لوسيان، فقد كانت الشاعرية أيضاً تتجلى فيه، فشمس الطرقات الطويلة لوّحت بشرته، وكآبة عميقة تجلّت في قسماته، ورمت بظلالها على جبين الشاعر.

كان هذا التغيّر يعبر عن كثير من المعاناة حتى أن مظهر آثار الشقاء الباقية على وجهه لا تترك مجالاً إلا للشفقة كإحساس وحيد ممكن، وقد وجد الإحساس المنطلق من صميم العائلة في ارتداده حقائق محزنة، فظهرت على إيف، وسط سرورها، ابتسامة القديسين الشهداء في عذابهم، فالكآبة أظهرت سموُ وجه امرأة شابة رائعة الجمال، والرصانة التي حلّت على محيّا أخت لوسيان محل البراءة التي رآها عند رحيله إلى باريس، كلّمته بفصاحة حتى لا يحسّ بأي انطباع مؤلم، وهكذا أعقب أول فيض عواطف باضطرامه وعفويته، من طرف وآخر، ردةُ فعلٍ:

كل طرف يخشى الكلام. غير أن لوسيان لم يستطع أن يمنع نظره من التجول في تحرٍ عمن ينقص هذا الاجتماع، وأدركت إيف معنى هذه النظرة فانخرطت في البكاء وأعقبها لوسيان بردة فعل مماثلة، بينما بقيت السيدة شاردون شاحبة، متجمدة الإحساس ظاهريّاً. ونهضت إيف لتجنب أخاها كلمة قاسية، وقالت لماريون: «يا ابنتي، لوسيان يحب توت الأرض، تدبري أمر الحصول على شيء منه!».

- «أوه! فكرت جيّداً برغبتك في الاحتفاء بلوسيان. كوني مطمئنة، ستحصلين على إفطار جيد وعلى عشاء شهيّ أيضًا».

قالت السيدة شاردون لابنها: «لوسيان عليك أن تصحّح كثيراً من الأمور هنا. انطلقت لتكون موضوع فخر لعائلتك، فأغرقتنا في البؤس، وقد حطمت تقريبًا بين يدي صهرك وسيلة لثراءٍ كان يسعى إليه من أجل عائلته الجديدة. ولم يقتصر تحطيمك على هذا فقط...»

مرّت فترة توقف مريعة، كان صمت لوسيان خلالها بمثابة قبول هذه الملامات الأمومية، واستأنفت السيدة شاردون بهدوء: «ادخل مجال العمل، فأنا لا ألومك لأنك حاولت أن تحيي العائلة التي خرَجتُ منها، لكن مثل هذه المشاريع تحتاج قبل كل شيء إلى ثروة، وإلى مشاعر إباء: وأنت لا تملك هذه ولا تلك، وقد أحللت الشك لدينا محل الإيمان، ودمّرت طمأنينة هذه العائلة المجدّة القانعة، التي كانت تتقدّم في طريق صعب... للأخطاء الأولى يجب غفران أول. فلا تَعُد إليها. إننا نعاني من ظروف صعبة هنا، فكن حذراً، واستمع إلى نصح أختك: إنّ الشقاء معلم أينعت ثمارُ دروسه القاسيّة في نفسها، فغدت رصينة حكيمة، وهي أم تتحمل كلَّ أعباء العائلة لتهيء فرص النجاح لعزيزنا دافيد، كما أنها غدت، نتيجة تقاعسك، عزائي الوحيد.

- قال لوسيان وهو يعانق أمّه: «كان من حقّكِ أن تكوني أكثر قسوة، وأنا أقدّر غفرانك فهو الأمل الوحيد الذي كنت أهفو إليه وأنا أعرف أنني لا أستحقه».

عادت إيڤ وأدركت من وضع أخيها المستخزي مصارحة أمهما ولومها له، وأبت طيبتها إلاَّ أن ترتسم في ابتسامة مواساة على محياها، قابلها لوسيان بدموع مكبوتة. إن للتواجد سحره، فهو يدبّ الحرارة في الحالات الأكثر برودًا بين عاشقين أو في الأوساط العائلية، أيًّا كانت أسباب الجفاء. هل تخطّ المودّة في القلب طرقات تحلو العودة إليها؟ هل تتعلق هذه الظاهرة بعلم المغناطيسية؟ هل يملي العقل وجوب المقاطعة نهائيًا أو الصفح؟ سواء أكان هذا التأثير يعود إلى المحاكمة، أو إلى سبب فيزيائي، أو إلى الروح، فقد سبق لكل شخص أن تحقّق من أن نظرات كائن محبوب ومبادرته، وأفعاله تجد لدى أولئك الذين زاد في الإساءة إليهم، أو في تكديرهم، أو في تعذيبهم، بقايا حنان، وإذا كان العقل لا ينسى إلا بصعوبة، والمصلحة ماتزال تعاني الضرر، فإن القلب يستعيد حنانه. وهكذا فإن الأخت المسكينة لم تتمكن، وهي تستمع حتى ساعة الغداء إلى اعترافات أخيها، من السيطرة على مآقيها عند النظر إليه، ولا على نبرة صوتها عندما تركت قلبها يتحدث، وعندما استوعبت عناصر الحياة الأدبية في باريس، فهمت أسباب انهيار أخيها في الصراع. كان فرح الشاعر وهو يداعب ابن أخته، ويجاريه في حركاته الطفولية، وسعادته في رؤية بلده وأهله مع ما شابها من حزن عميق لغياب داڤيد القسري، وكلمات لوسيان المعبّرة عن أسفه لذلك، وتأثره وهو يرى أخته وسط ما تعانيه من ضيق تتذكّر استطابته لفاكهة توت الأرض، كل شيء، حتى ترتيبات سكن الأخ الضال، والاهتمام به، حولّت ذلك اليوم إلى احتفال كان بمثابة محطة استراحة من البؤس حتى أن الأب سيشار نفسه سخر من فيض عواطف المرأتين قائلاً: «إنكما تحتفلان به وكأنه يحمل إليكما الآلاف والمئات! . . .»

- صاحت السيدة سيشار، وهي الحريصة على أن تجنب أخاها الشعور بالخجل: «لكن ماذا فعل أخي حتى لا يستحق هذا الاحتفال؟ . . .»

غير أن دقائق الوضع الحقيقي تجلّت مع انقضاء البهجة الأولى باللقاء، ولاحظ لوسيان فرق مودة إيڤ الحالية عن تلك التي كانت تكنّها له سابقًا. داڤيد

مبجّل بعمق، أمّا لوسيان فتقضي صلة الرحم حبّه، إنه يُحَبُّ مثل خليلة رغم الدمار الذي تسبّبه. لكن التقدير، الذخيرة الضرورية لعواطفنا، وهو اللحمة المتينة التي تعطيها مالا أدري من يقين، ومن أمان تحيا به، غاب عن علاقة السيدة شاردون بابنها، وعن صلة الأخ بأخته. شعر لوسيان أنّه قد حرم من تلك الثقة الكاملة التي كان يتمتع بها قبل أن يخلّ بميثاق الشرف. فالرأي الذي كتبه دارتز عنه غدا رأي أخته، وقد ظهر في التصرفات والنظرات ونبرة الكلام، وغدا لوسيان موضع شفقة، أمّا أن يكون فخر العائلة ومجدّد نبلها وبطل بيتها، فكل هذه الآمال الجميلة هربت دون عودة. خشيَ من خفته فلم يُكشف له عن المخبأ الذي يعيش فيه دافيد. لم تتأثر إيف بتوددّات لوسيان المترافقة بفضوله لمعرفة مكان صهره، فإيف الآن ليست تلك الأخت التي عرفها في هومو سابقًا، وهو لم يعد ذلك الأخ الذي تُعَدّ نظرة منه أمراً واجب التنفيذ. تحدّث لوسيان عن إصلاح أخطائه مدعيّاً قدرته على إنقاذ صهره. لكن إيف أجابته: لاتتدخّل، فأعداؤنا من أمهر الناس وأشدّهم مكراً، هزّ لوسيان رأسه كأنه يقول: «لقد جابهت الباريسيين. . . » وعقبت عليه أخته بنظرة تعني: «لكنك قُهرتَ. . . »

فكّر لوسيان: «هل بقي لي حبيب[1]؟ بالنسبة للعائلة كما بالنسبة للناس يجب أن ينجح الإنسان ليُحبّ ويُقدَّر». منذ اليوم الثاني جرّب الشاعر أن يبعد عن نفسه الحقد لكنه أحسّ بالاكتئاب وهو يحاول أن يجد تعليلاً لما أبدته أمه وأخته من عدم ثقة به، وطبق معيار الحياة الباريسية على تلك الحياة العفيفة في المقاطعة ناسيّاً أنه سبب ذلك التقشف الصبور المتجلي في تلك القناعة الداخلية السامية، وقال في نفسه وهو يتجنّب أمه وأخته: «إنّهما بسيطتان لا تستطيعان فهمي»، لكن هل يستطيع تجنب داڤيد الذي يعرف أنّه لم ينخدع بطبعه أو بمستقبله؟

---

(١) - العبارة نفسها التي أطلقها لوسيان بعد عودته من دفن كورالي ووقوفه على الرابية المطلّة على مقبرة الأب لاشيز إذ قال: «من سيحبني بعد الآن؟» (انظر ص ٣٨٥ من الرواية الثانية: رجل كبير من المقاطعات في باريس).

لاحظت إيف والسيّدة شاردون اللتان استيقظ بهما الحس التنبؤي بعديد من الصدمات والمصائب أفكار لوسيان الخفيّة، وأحستّا بأنّه أساء الحكم عليهما، وشعرتا بانعزاله عنهما، وقالتا في نفسهما: «غيرته باريس عنا». قطفتا أخيراً ثمار الأنانية التي زرعتاها في نفسه. من جهة وأخرى، وجب أن تختمر تلك الخميرة الخفيفة وقد اختمرت لدى لوسيان خاصة الذي يستحق اللوم. أما إيف فقد كانت من تلك الأخوات اللواتي يعرفن القول لأخ مخطئ: «أعفني من أخطائك...». عندما تتّحد روحان بشكل تام كاتحاد روحي إيف ولوسيان في بداية حياتهما، فإنّ أيّ مساس بذلك المثال العاطفي الأعلى يكون قاتلاً، وحيث يتصالح الأشقياء بعد التطاعن بالخناجر يختلف المحبّون بسبب نظرة أو كلمة، وفي هذا التذكار المقارب للكمال من حياة القلب يبدو تفسير سرّ التباينات متعذّراً في الغالب. يمكن العيش والريبة في القلب، عندما لا يتضمّن الماضي أيّة لوحة مودة صافية، خالية من كل كدَر، لكن الحياة تغدو غير محتملة بالنسبة لكائنين ساد الانسجام التام بينهما في الماضي، واقتضت الضرورة الآن الاحتراس في النظرة والكلمة. هكذا يتناسى كبار الشعراء عهود مودّات الصبا المماثلة في صفائها لغرام بول وڤرجيني، فهل يمكن تصورّ بول وڤرجيني مختلفين، متخاصمين؟... ما يدعو لفخر إيف ولوسيان أن المصالح المجرّحة بعمق، لم تسبب ضغائن بينهما: فقد سمت العاطفة لدى الأخت المخلصة في ودّها، ولدى الشاعر النادم على ذنوبه. إنما الخشية أن يؤدي أي سوء تفاهم، أو أي شجار مهما قلّ شأنه، أو أي خطأ جديد من لوسيان إلى نزاع بين الأخوين أو أن يوحي بإحدى هذه الخصومات التي تفرّق العائلات نهائيّاً، فمشاكل المال يمكن أن تسوّى، أما العواطف فلا ترحم.

في اليوم التالي تلقى لوسيان عدداً من صحيفة آنغوليم، وبدت عليه علائم السرور وهو يرى على الصفحة الأولى موضوعاً يتعلق به كأحد **أوائل أنغوليم** الذي عدته تلك الصحيفة المحترمة مثل فتاة حسنة التربية لا تترك مجالاً للتحدث عنها وفقًا لكلمة فولتير، جاء في المقال:

«إذا كانت مقاطعة فرانش - كونته تفخر بأنها أنتجت فيكتور هوغو، وشارل نوديه وكوفيه، وإذا تباهت النورماندي بكازيمير دلافيني، والتورين بمؤلف إلوا، فإن مقاطعة أنغوموا، التي جعلت من غويز الشهير، المعروف باسم بلزاك، في أيام لويس الثالث عشر أحد مواطنيها لن تغار من تلك المقاطعات ولا من ليموزين التي أنجبت دوبويترن، أو من أوفرني موطن مونلوزيه، أو من بوردو التي أسعدها أن تشهد ولادة كثير من العظماء، لأن لنا الآن شاعراً! هو مؤلف السونيتات المعنونة **أزهار المرغريت**، الذي ضمّ إلى مجد الشاعر شهرة الناشر الروائي إذ أنّه مؤلف الرواية الرائعة **نبال شارل التاسع**. وسيعتزُّ أبناء أخوتنا وأخواتنا في يوم ما، لأن لوسيان شاردون، نظير بترارك!!!... هو ابن مدينتهم. ونقاط الإعجاب، في صحف المقاطعات هذا الزمن، تشبه هتافات الابتهاج، هورا التي تطلقها الجماهير في انكلترة استحساناً لخطب الاجتماعات. وقد تابعت الصحيفة: «رغم ما لاقاه شاعرنا الشاب من نجاح رائع في باريس، فقد تذكّر أن قصر دي بارجتون كان مهد انتصاراته، وأن الطبقة الارستقراطية في أنغوليم كانت أول من صفق لقصائده، وأن زوجة الكونت دو شاتليه محافظ مقاطعتنا شجّعت خطواته الأولى على دروب ربّات الفنون، فعاد الآن إلينا!... وقد اهتزّت مشاعر ضاحية هومو بكاملها عندما ظهر لوسيان دي روبمبرة البارحة فيها، وأحدث نبأ عودته أبلغ التأثير، ومن المؤكد أن مدينة أنغوليم لن تدع هومو تتفوق عليها في إبداء مظاهر التقدير المزمع إحاطة من مثّل بشكل رائع مدينتنا في باريس. فلوسيان الشاعر المؤمن والمناصر للملكية في آن معًا قد تصدّى لضراوة الأحزاب، وجاء على ما يقال، ليستريح من مشقات صراع يتعب أبطالاً أكثر قوة من رجال الشعر والتأمّلات. بفكرة سياسيّة في منتهى اللباقة، كانت السيّدة الكونتة دو شاتليه أوّل من عبّر عنها، ونحن نحيي بادرتها طرح موضوع منح شاعرنا الكبير اسم ولقب عائلة دي روبمبرة الشهيرة، الذي يعود لأمّه السيدة شاردون وريثة اللقب النبيل الوحيدة، وهكذا فتجديد شباب العائلات

العريقة بالمواهب والأمجاد الجديدة هو برهان آخر من واضع الشرعة الدستورية[1] الخالد، على هدفه الثابت المعبّر عنه بهذه الكلمات: **الوحدة والنسيان**.

إن شاعرنا مقيم لدى أخته، السيّدة سيشار».

وفي الصفحة الخاصة بأخبار المجتمع في أنغوليم نُشر ما يلي:

«سمّي محافظنا الكونت دو شاتليه، النبيل العامل سابقًا في مكتب جلالة الملك، مستشار دولةٍ في مهمة استثنائية».

«اجتمع السيد المحافظ، البارحة، بممثلي السلطات المختصة وأصحاب النفوذ في المنطقة».

«ستستقبل السيدة الكونتة سيكست دو شاتليه الزائرين كل يوم خميس».

«عُيّن عمدة اسكارباس، السيد دي نغربليس، ممثل فرع آل دسبار الأصغر، الحائز حديثًا على لقب كونت، وحامل وسام القديس لويس الملكي من رتبة قائد، ليرأس الهيئة الانتخابية الكبرى في أنغوليم خلال الانتخابات القادمة القريبة[2]».

حمل لوسيان الصحيفة إلى أخته قائلاً: «انظري». وبعد أن قرأت إيف المقال بانتباه، أعادت الصحيفة لأخيها وهي مستغرقة في التفكير. سألها لوسيان وهو مندهش من احتراسها الأقرب إلى البرود: «ما قولك في هذا؟»...

- أجابت: ياصديقي، هذه الصحيفة تعود إلى الأخوين كوانته، وهما المشرفان على المواضيع التي تنشر فيها، ولا يستطيع أحد إرغامهما على نشر أي

(١) - الشرعة الدستورية La charte هي البراءة الملكية الصادرة بعد سقوط امبراطورية نابوليون وعودة الملكية الثانية العام ١٨١٤، وقد أصدرها لويس الثامن عشر.

(٢) - صدر قانون انتخابي جديد في عهد وزارة ريشليو الثانية، بتاريخ ١٢ حزيران ١٨٢٠ وهو ينص على انتخاب النواب ضمن إطار المنطقة وليس المقاطعة. لكن في مركز المقاطعة تجتمع **الهيئة الانتخابية الكبرى** المشكلة من ربع الناخبين الأكثر نفوذًا في المقاطعة، وهذه **الهيئة الكبرى** تنتخب ١٧٢ نائبًا إضافيًا. وقد كان المجلس حتى ذلك الحين مؤلفًا من ٢٥٨ نائبًا ينتخبون من قبل دافعي الضريبة البالغة ٣٠٠ ف أو أكثر سنويًا. وبذلك يرتفع عدد النواب إلى ٤٣٠ عضوًا. وبديهي أن قانون «الاقتراع المضاعف» هذا قد أعد لمصلحة التيار اليميني.

مقال باستثناء المحافظة والمطرانية، فهل تعتقد أن غريمك القديم، المحافظ الحالي يتحلى بشهامة تدفعه إلى التغني بأمجادك؟ وهل نسيت أن الأخوين كوانته يلاحقاننا تحت اسم ميتيڤيه، وهما يريدان دون شك قسر داڤيد على مشاركتهما في استغلال ابتكاراته؟ . . . أيًّا كان مصدر هذا المقال، فإنني أجده مقلقًا، فأنت لا تستثير هنا إلا الحقد والحسد. افتُري عليك تطبيقًا للمثل القائل: «**لا كرامة لنبيٍ في وطنه**»، فهل يمكن أن يتغيّر كل شيء في طرفة عين؟! . . .

- قال لوسيان: أنت لا تعرفين الغرور المزدهي في مدن المقاطعات. انطلقت الجماهير في إحدى مُدُن الجنوب الصغيرة حتى الضاحية تستقبل شابًا حصل على المرتبة الأولى في أحد الامتحانات، إذ رؤوا فيه رجلاً كبيرًا يبشر بمستقبل واعد!

- استمع إليّ، ياعزيزي لوسيان، لا أريد أن أكثر من إسداء النصح لك، أقول لك عبارة واحدة: إحذر هنا من أصغر الأمور.

- أجاب لوسيان مذهولاً من فتور أخته تجاه ما كُتب عنه: «إنك على حق».

كان الشاعر في منتهى الفرح والسرور لرؤية عودته الحقيرة والمخجلة إلى أنغوليم وقد تحولّت إلى انتصار ممجّد.

صاح لوسيان بعد صمتٍ استجمع فيها شتات أفكارٍ تراكمت في نفسه ثم تفجّرت كالعاصفة: «أنت لا تؤمنين ببعض مجدٍ دفعنا ثمنًا باهظًا لقاءه!»

اقتصر جواب إيف على نظرة عابرة كانت كافية ليحمّر خجلاً من تهمته المتسرّعة.

قبل مدة قصيرة من موعد العشاء، حضر ساع من مكتب المحافظة يحمل رسالة للسيد لوسيان شاردون يبدو أنّها بررت زهو الشاعر رغم ما تعرّض له من جدَل في العائلة.

تضمنت تلك الرسالة الدعوة التالية:

السيد الكونت سيكست دو شاتليه والسيدة الكونتة دو شاتليه يرجوان السيد لوسيان شاردون أن يشرفهما بتناول طعام العشاء على مائدتهما في الخامس عشر من شهر أيلول القادم .

أرفق بتلك الرسالة البطاقة الشخصية التالية :

الكونت سيكست دو شاتليه

نبيل عامل في مكتب الملك ، محافظ شارنت ، مستشار دولة

قال الأب سيشار : «إنك محظوظ ، تعتبرك المدينة شخصية كبيرة . . . تتنافس أنغوليم وهومو على ضفر أكاليل الاحتفاء بك . . . »

همس لوسيان في أذن أخته : «عزيزتي إيف ، أجد نفسي تمامًا كما كنت في هومو ، يوم وجب علي زيارة السيدة دي بارجتون : دون بزة تليق بحفل عشاء المحافظ» .

صاحت السيدة سيشار مذعورة : «هل أنت عازم على تلبية الدعوة؟»

قام جَدَل بين الأخ وأخته حول موضوع الذهاب إلى المحافظة أو الامتناع عنه ، وتذرّعت إيف بذوق امرأة المقاطعة السليم الذي يقضي بعدم الظهور في هذا الحفل الرسمي إلا بوجه مشرق باسم . وبزّة لائقة وهندام محترم ، لكنها كانت تخفي السبب الحقيقي لاعتراضها : «إلى أين سيؤدي حفل عشاء المحافظ بلوسيان؟ ماذا يستطيع مجتمع النخبة في أنغوليم أن يؤدي له؟ ألا يُنصبُ أحدٌ الأشراك للإيقاع به؟» .

ختم لوسيان النقاش مع أخته قبل ذهابه إلى النوم بالعبارات التالية :

«أنت لا تعرفين تأثيري : زوجة المحافظ تخشاني كصحفي ، عدا عن أن الكونتة دوشاتليه ما تزال لويز دي نيغربليس ! ويمكن لامرأة حظيت بمثل هذا المقام الرفيع أن تنقذ داڤيد ! سأحدثها عن ابتكار صهري ، ومن السهل جداً على سيدة نبيلة في مركزها أن تحصل للمبتكر على إعانة وزارية بعشرة آلاف فرنك» .

في الساعة الحادية عشرة ليلاً استيقظ كل من في الدار: لوسيان وأخته وأمّه، والأب سيشار وماريون وكولب على الفرقة الموسيقية في المدينة وقد انضمت إليها فرقة مفرزة الجيش، حامية أنغوليم، مع حشد كبير من أهل المدينة، متجمّعٍ في ساحة موريه، وعزفت الموسيقى مختلطة بهتافات الشباب تحية للويس شاردون دي روبمبره، وأطلّ لوسيان من نافذة أخته مستغلاً لحظة صمت ليعبر عن امتنانه بالعبارات التالية: «أشكر مواطنيّ لما أحظى به من تكريم، وآمل أن أكون جديراً بتقديرهم، واستميحكم العذر لعدم استطاعتي قول المزيد لشدة تأثري من هذه البادرة الطيبّة.

علا الهتاف: «يحيا مؤلّف رواية **نبّال شارل التاسع**!... يحيا شاعر سونيتات **أزهار المرغريت**! يحيا لوسيان دي روبمبره!».

بعد هذه الهتافات المنطلقة من حناجر الجموع، قُذِفَت وبمهارة ثلاثة أكاليل من الورد وطاقات أزهار كثيرة عبر نافذة المنزل، وبعد نحو عشر دقائق، خلت ساحة موريه من الناس، وساد الصمت.

قال العجوز سيشار وهو يقلبُ الأكاليل والطاقات وعلائم السخرية تعلو قسماته: كنت لأفضل أن تُقذف بعشرة آلاف فرنك، لكنك أعطيتهم أزهار المرغريت فمنحوك طاقات الورد: فمعاملاتكم لا تتعدى الأزهار.

- هتف لوسيان وقد تجلت على محياه تعابير خلت من كل كآبة وتجلّى البِشرُ في نظراته: إنه الإكرام المعبّر عن تقدير مواطنيّ! لو اختبرت الناس، بابا سيشار، لرأيت أن مثل هذه اللحظات لا تتكرّر في الحياة، فمثل هذه الانتصارات لا يمكن التعبير عنها إلا بحماس حقيقي واحد!...

مثل هذا التعبير يا أمي العزيزة، ويا أختي الطيّبة يمسح كثيراً من الأحزان. عانق لوسيان أخته وأمّه عناق تلك اللحظات التي يفيض فيها الفرح دفقات عريضة تدفع إلى الارتماء في أحضان صديق حميم. (وكما قال بيكسيو يومًا، إن غاب

الصديق، غمر المؤلف الثمل بالنجاح بوآب بنايته بالقبلات). وبعد. لماذا تبكين يا أختي العزيزة إيف؟... آه، إنّها دموع الفرح...

قالت إيف لأمّها قبل الذهاب إلى النوم، وبعد أن انفردت بها: «للأسف، في صميم كل شاعر، على ما أعتقد، امرأة فاتنة من الصنف المنحط...»

- أجابت الأم وهي تهزّ رأسها: أنت على حقّ، نسي لوسيان كل شيء، ولم يقتصر نسيانه على مصائبه فقط بل شملنا نحن أيضًا.

افترقت الأم والابنة دون أن تجسرا على التعبير عن جميع أفكارهما.

في البلدان التي تفترسها عاطفة التمرّد الاجتماعي المستتر تحت كلمة **المساواة**، فإن كل انتصار هو إحدى المعجزات، التي لا تتمّ كمثيلاتها السابقة، دون تعاون متآمرين بارعين: وفي عشرة تهاليل يحصل عليها رجال على قيد الحياة، وتتمّ داخل الوطن، تعود تسعة منها إلى أسباب لا تتعلّق بالممجّد المهلّل له. أليس انتصار فولتير على خشبة المسرح الفرنسي هو انتصار فلسفة عصره؟ لا يمكن الانتصار في فرنسة إلا عندما يُعد تاج المنتصر تتويجًا لجميع الناس. هكذا كانت إيف وأمّها على حقّ في هواجسهما، فالتهليل لنجاح رجل المقاطعات الكبير متنافر مع طبائع أنغوليم المتحجرة دون تعاون غادر بين متآمر متحمس ونفعيين يهدفون إلى تحقيق مصالحهم. ارتابت إيف مثل معظم نساء عصرها بالحدس، دون أن تستطيع تعليل أسباب ريبتها.

قالت في نفسها وهي تحاول النوم: «من بلغت به مودّته لأخي هنا حدًّا يدفعه إلى استثارة البلد ليلاً؟ إن ديوان **أزهار المرغريت** لم يُنشَر حتى الآن، فكيف يمكن التهنئة على نجاح لم يحصل؟...»

في الواقع كانت هذه المسيرة المهلّلة من إعداد پتي - كلو، ففي اليوم الذي أعلن له فيه كاهن مارساك عودة لوسيان، تناول المحامي لأوّل مرّة العشاء لدى السيّدة دي سينونش في حفل عائلي رُتّب فيه طلب يد ربيبتها رسميًّا. كان عشاءً

عائليًّا ينكشف مظهره الرسمي بالاعتناء بالزينة والهندام لا بعدد المدعوين، ورغم الطابع العائلي كانت الغاية معروفة للجميع وتجلت النوايا على الوجوه، وبرزت فرنسواز كأنّها في عرض أزياء، وشرّعت السيّدة دي سينونش أعلام زينتها الأكثر تبرجًا، وكان السيد دي هوتوا في حلة سوداء قشيبة؛ كما عاد السيّد دي سينونش من رحلة بصحبة السيّد دي بيمنتل، بعد أن كتبت له زوجته تعلمه بزيارة السيّدة دوشاتليه، لأول مرة لهم وبتقدّم خطيب يطلب يد فرنسواز رسميًّا. حضر كوانته يرتدي أجمل بزّة بلون كستنائي، وتفصيل إكليروسي، وتلألأت في ربطة عنقه حلية ألماس بقيمة ستة آلاف فرنك، هي دلالة انتقام التاجر الغني من الارستقراطية الفقيرة. أمّا بتي - كلو فلم يستطع رغم نعومة الذقن وحسن تسريحة الشعر، ونظافة الجسم وفوحة العطر أن يتخلّص من مظهره الجاف، وكان من المستحيل عدم مقارنة ذلك المحامي النحيل، المشدود في ثيابه، بثعبان متجمّد، لكن الأمل زاد من حيوية عينيه ولمعانهما كعيني عقعق، بينما تصنّع بروداً في قسماته وتكلف رصانة بلغت حد وقار وكيل نيابة طموح. كانت السيدة دي سينونش قد رجت ذويها عدم التفوّه بكلمة عن هذه المقابلة الأولى بين ربيبتها وخطيب، أو عن الزيارة المرتقبة لزوجة المحافظ إلى أن ترى صالاتها ممتلئة والواقع أن السيد المحافظ وزوجته كانا يعلنان عن زياراتهما الرسمية بإرسال بطاقات، محتفظين بالزيارات الشخصية وسيلة تصرّف متحرر من الرسميات وتعبيراً عن رفع الكلفة وبلغ الفضول بارستقراطية أنغوليم حداً دفع عدة شخصيات من فريق شاندور إلى إعلان عزمهم على المجيء إلى قصر بارجتون، إذا استمرّ التشبث بإطلاق اسم المالك القديم على القصر، والامتناع عن تسميته قصر سينونش. كان هذا أحد الأدلّة على مكانة الكونتة دي شاتليه التي أيقظت كثيراً من الرغبات، وخاصة بعد أن قيل إنّها قد تغيّرت كثيراً إنمّا نحو الأفضل، حتى أن كل واحد أراد أن يحكم بنفسه على ذلك، بالإطلاع من كوانته، خلال الطريق، على النبأ الهام، الدال على حظوة زفيرين، بقبول حضور زوجة المحافظ حفل العشاء الذي ستتم فيه خطبة فرنسواز العزيزة، علّل بتي - كلو نفسه باستغلال وضع لويز دي نغربليس الحرج جراء عودة لوسيان إلى أنغوليم.

كان السيد والسيدة دي سينونش قد دفعا ثمنًا باهظًا في شراء قصر بارجتون حتى أنهما لم يستطيعا ولم يفكرا كعائلة في المقاطعة أن يجريا عليه أي إصلاح أو تغيير. وهكذا كانت أولّ عبارة بدرت من زفيرين وهي تهرع إلى لقاء لويز عندما أعلن لها عن وصولها: «عزيزتي لويز، كما ترين... ما تزالين هنا في قصرك!... وأشارت إلى الثريا الصغيرة ذات الذوائب، وإلى التلبيس الخشبي، والأثاث الذي أثار إعجاب لوسيان سابقًا.

- قالت السيدة زوجة المحافظ بعذوبة وهي تلقي نظرة حولها تتأمل الحضور: هذا ما لاأريد أن أتذكّره أبدًا ياعزيزتي.

اعترف كل فرد من الحاضرين أن لويس دي نيغربليس قد تغيّرت كليًا. غيرها المجتمع الباريسي خلال الثمانية عشر شهرًا التي بقيت فيها هناك، وسعادات الزواج الأولى التي تحوّل المرأة الباريسية كما تحوّل ابنة المقاطعة، والوقار الذي تمنحه السلطة، كل ذلك جعل من الكونتة دوشاتليه امرأة تشبه السيدة دي بارجتون، كما تشبه فتاة في العشرين من العمر أمّها. كانت تعتمر قبعة جذابة من نسيج مخرم وأزهار ربطت بلا مبالاة بدبوس ذي رأس ألماسي، وسُرّح شعرها على الطريقة الإنكليزية مما يناسب وجهها ويكسبه مظهرًا نضرًا بإخفاء تجاعيده، وقد ارتدت ثوبًا حريريًّا ناعمًا، ذا صدار مقرّن، مزين بهدّاب ناعم، وهو من ابتكار الخياطة الشهيرة فيكتورين[١]، وهو يظهر ببراعة جمال خصرها، وقد غطت كتفيها بشال من حرير مخرم بينما أحاطت عنقها الطويل بمنديل من قماش رقيق. أخيرًا كانت تلّهو بإحدى هذه الحلي الصغيرة الباريسية التي تهفو إليها نفوس نساء المقاطعات: حُقّ طيب[٢] يتدلى من سلسلة رُبطت بسوار في يدها وهي تمسك بها مروحتها ومنديلها الملفوف دون أن يبدو عليها أي ارتباك. كشف الذوق المرهف في أدق التفاصيل،

(١) - فيكتورين: خياطة كان مشغلها في رقم (١) شارع هازار في باريس، ذكرت في تقويم التجارة العام ١٨٢٣، كما ذكرها بلزاك في الجزء الثاني من هذه الثلاثية.

(٢) - هذه الحلي التي تعلّق بسلاسل من ابتكار الصياغة الباريسية كانت ماتزال سائدة في عصر ملكية تموز وقد اهدى بلزاك في تشرين أول ١٨٣٦ هذا الحقّ من العطر إلى السيدة هانسكا واقترح عليها أن تُعلّق بسلسلة في خاتمها وقال في خاتمة رسالته بهذا الشأن: «دعي باريس ترسل لك بين وقت وآخر بعض أزهار صناعتها».

والوضع والأساليب المنسوخة عن السيدة دسبار لدى لويز، دراسة متقنة معبرة عن ضاحية سان جرمن. أمّا ظريف الامبراطورية فقد أهرمه الزواج مثل ذلك البطيخ الشمام الذي يغدو في ليلة واحدة أصفر بعد أن كان في العشية في خضرة يانعة. وبرؤية وجه الزوجة المتألق بالنضرة التي فقدها سكست، ونُسجت عنه الفكاهات المعتادة في المقاطعات تتناقلها بكل طيبة خاطر الأفواه إلى الآذان، خاصة وقد اغتاظت جميع نساء المقاطعة من التفوق الجديد الذي حظيت به ملكة أنغوليم السابقة، ووجب أن يدفع المتطفل العنيد ثمن الغيرة من امرأته. باستثناء السيد دي شاندور وزوجته، والمرحوم دي بارجتون، والسيد دي بيمنتل وآل راستينياك، كانت الصالة ممتلئة بجمع مماثل في العدد تقريبًا لذلك الذي وُجد في اليوم الذي أنشد فيه لوسيان أشعاره، لأن سيادة المطران حضر ومعه كهنته، وانتابت الدهشة بتي - كلو من مشهد ارستقراطية المدينة وأعيان أنغوليم الذين لم يكن يحلم أن يظهر بينهم قبل ذلك بأربعة أشهر، وشعر بأن حقده على الطبقات العليا قد بدأ يهدأ وفتنته الكونتة شاتليه بمحاسنها وهو يقول في نفسه: ها هي المرأة التي يمكن أن تصل بي إلى رتبة وكيل نيابة. نحو منتصف السهرة وبعد أن تبادلت الكونتة بعض الأحاديث مع كل من النساء الحاضرات مغيّرة لهجتها وأسلوبها حسب أهمية مخاطبتها والموقف الذي اتخذته منها بخصوص هربها سابقًا مع لوسيان، فضلت أن تنسحب إلى غرفة الجلوس مع سيادة المطران. تبعتها بعد ذلك زفيرين وهي تمسك بيد بتي - كلو وتقوده خافق القلب إلى تلك الغرفة التي بدأت فيها مصائب لوسيان قائلة:

«هوذا السيّد پتي - كلو، ياعزيزتي، أوصيك به بكل حرارة، خاصة وأن كل ما ستفعلينه من أجله ستستفيد منه، دون شكّ، ربيبتي».

- قالت ابنة نغربليس الجليلة وهي ترمق بنظرة متفحصة بتي - كلو: ألست محاميًّا مرخصًا، أيّها السيّد؟

- للأسف! نعم، **ياسيدتي الكونتة**. (لم تسنح الفرصة في السابق أبداً لابن خياط هومو للنطق بهذه الكلمات الثلاث، وهكذا بدا مرتبكاً وكأن حصاة في فمه)، ثم استأنف: لكن يعود إلى سيدتي الكونته أن أحظى بمنصب في ديوان النائب العام، إذ يقال إن السيد ميلو سينتقل إلى نيڤر...

- أجابت الكونتة: لكن ألا يجب التدرّج من وكيل ثان إلى وكيل نيابة أول، وأنا أريد أن أراك الوكيل الأول على الفور... إنمّا لأهتمّ بأمرك، ولأحصل لك على تلك الحظوة، أريد أن أتأكّد من إخلاصك للشرعية، والدين، وولائك خاصة للسيد ڤيليل(*).

- قال پتي - كلو هامساً وهو يقرب فمه من أذنها: آه! باسيدتي، إنني أكن طاعة مطلقة للملك.

- عقبت وهي ترتد إلى الخلف لتفهمه أنها لا تريد أن يحدثها أحد همساً: هذا ما **يلزمنا** حالياً؟

ثم أضافت وهي تبدي حركة ملكية بمروحتها: إذا كنت متفقاً دائماً مع السيدة دي سينونش، فاعتمد عليّ.

- قال پتي - كلو وقد ظهر له كوانته مقبلاً نحو الباب: سيّدتي، إنّ لوسيان هنا.

- أجابت الكونته بلهجة من شأنها أن توقف الكلمة في حلق أي رجل عادي: وما في ذلك، أيها السيد؟

- استأنف پتي - كلو وقد لجأ إلى الصيغة الأكثر إجلالاً: لم تفهم سيدتي الكونتة ما أعنيه، أردت أن أقدم برهاناً عن إخلاصي لشخصها. كيف تريد سيدتي

(*) - ڤيليل، جان J. Villéle: (١٧٧٣ - ١٨٥٤) رئيس حزب الملكيين المتطرفين في عهد الملكية الثانية، غدا رئيساً للوزراء من ١٨٢٢ - ١٨٢٨ سبّب نقمة شعبية بإصدار قوانين رجعيّة مثل تخصيص مليارات الفرنكات لتعويض النبلاء الذين هاجروا خلال الثورة. (م. المترجم)

الكونتة أن يستقبل الرجل الكبير الذي كونّته في أنغوليم؟ إذ لا أرى حدًا وسطًا، فإمّا أن يكون موضوع ازدراء أو تمجيد.

لم تفكّر لويز دي نيغربليس أن يطرح عليها هذا الاختيار المحرج، الذي يهمها بداهة، وخاصة بالنسبة للماضي أكثر منه للحاضر بيد أن نجاح الخطة التي يتصورّها المحامي لتوقيف داڤيد سيشار يعتمد على نوع العاطفة التي تكنّها الكونتة للوسيان.

قالت وهي تتخذ وضع وقار وتعالٍ: «ياسيد بتي - كلو، أنت تريد أن تنتمي إلى الحكومة، إعلم جيّدًا أنّ المبدأ الأول لهذا الانتماء هو ألا تضبط متلبسًا بخطأ، والنساء تفوق الحكومات في غريزة السلطة والشعور بوقار المقام.

- أجاب بحرارة وهو يراقب الكونتة بانتباه عميق خفّي: «هذا ما أفكّر به. وصل لوسيان إلى هنا بمنتهى البؤس. لكن إن وجب الاحتفاء به، فيمكنني أيضًا، بسبب هذا الاحتفاء بالذات، قسره على مغادرة أنغوليم حيث أخته وصهره داڤيد سيشار معرضان لملاحقة محمومة...»

بدا على وجه لويز دي نيغربليس الشامخ حركة خفيفة ناتجة عن كبت سرورها بالذات، وفوجئت بانكشاف خبيئة نفسها، فنظرت إلى بتي - كلو وهي تبسط مروحتها، لأن فرنسواز دي لاهاي دخلت إلى الغرفة، مما منحها الوقت لتجد جوابًا.

قالت مع ابتسامة معبّرة: «ستحظى أيّها السيد سريعًا على منصب النائب العام...»

ألا يعني هذا قول كل شيء دون التورط بأي إلزام.

هتفت فرنسواز مبادرة إلى شكر زوجة المحافظ: «إيه ياسيدتي، سأكون مدينة لك بسعادة عمري». وهمست في أذن حاميتها بحركة تحبّب الشابّة المدلّة: «سأتقلى على نار بطيئة إن غدوت زوجة محام مرخّص في المقاطعة...».

إذا كانت زفيرين قد أجرت هذه الوساطة، ففرانسيس، صاحب الخبرة بالعالم البيروقراطي هو الدافع إليها.

قال القنصل العام السابق لصديقته: « في الأيام الأولى من كل ارتقاء، سواء أكان تولي منصب محافظ، أو وصول سلالة ملكية إلى العرش، أو النجاح في استثمار، فإننا نجد أشخاصًا مستعدّين لأداء خدمات، لكنهم يدركون سريعًا محاذير الحماية وينتابهم البرود. اليوم ستقوم لويز بمساع من أجل بتي - كلو، لن تقوم بها بعد ثلاثة أشهر من أجل زوجك.

- قال بتي - كلو: هل تفكر سيدتي الكونتة بجميع التزامات انتصار شاعرنا؟ سيتوجب عليها استقبال لوسيان خلال الأيام العشرة التي سيدوم احتفاؤنا به.

أشارت زوجة المحافظ برأسها دلالة الموافقة ولتصرِفَ بتي - كلو، ونهضت لتتحدث مع السيدة دي بيمنتل التي أطلّت برأسها من باب غرفة الجلوس، فالمركيزة التي علمت بنبأ ارتقاء النبيل دي نيغربليس وانتخابه عضواً في مجلس الأعيان، رأت من الضروري أن تحضر لتتملّق امرأة تمكنت بمهارتها من زيادة تأثيرها مع ارتكابها شبه غلطة.

قالت المركيزة خلال مسايرة؟ اعترفت فيها بتفوّق **عزيزتها** لويز: «أخبريني ياعزيزتي لماذا بذلت الجهود لإيصال والدك إلى المجلس الأعلى».

- «ياعزيزتي، تمت الموافقة لي على هذه الحظوة، خاصة وأن والدي لم يُرزق بأولاد ذكور، وسيقترع دائمًا لمصلحة العرش، فإذا رُزقتُ أولادًا، فإن ابني البكر سيرث لقب جدّه وشعاره النبيل وعضويته في مجلس الأعيان...»

رأت السيّدة دي بيمنتل بحزن أنها لن تستطيع من أجل تحقيق رغبتها في تسمية السيد دي بيمنتل عيْنًا أن تعتمد على أم يمتدُّ طموحها لتحقيق أمجادٍ لأولاد تتوقّع أن ترزق بهم.

قال بتي - كلو لكوانته عند انصرافهما: «غدت زوجة المحافظ تحت سيطرتي، وأعدك بتحقيق عقد مشاركة استغلال ابتكار داقيد... خلال شهر سأكون وكيل نيابة أوّل، وستكون بدورك متحكماً بسيشار. اعمل الآن على أن تجد لي خلفًا في مكتبي، وسأجعل منه، خلال خمسة أشهر، أوّل مكتب في أنغوليم...

- قال كوانته وهو شبه حاسد لصنيعته على مكره: «بمجرد وضعك فوق سَرجٍ غدوت من أمهر الفرسان». يمكن الآن لأي فرد أن يدرك سبب الاحتفاء بلوسيان في بلده. فلويز، على طريقة ملك فرنسة لم يُرد الانتقام لدوق أورليان[١] لم تُرد أن تتذكّر تلك الإهانات التي لحقت بها في باريس تحت اسم السيّدة دي بارجتون، وأرادت أن تسيطر على لوسيان، وتسحقه بحمايتها، ثم تتخلّص منه **بشرف**. عرف بتي - كلو بكل تفاصيل الدسيسة التي حصلت في باريس، من الثرثرات التي شاعت بعد حدوثها، وقدر الحقد الكامن الذي تكنّه النساء للرجل الذي لم يعرف كيف يصل إلى حبّهن في الوقت الذي تولّدت لديهن الرغبة في أن يكنّ محبوبات.

غداة الاحتفاء الليلي الذي يبرّر ماضي لويز دي نيغربليس، أراد بتي - كلو أن يزيد من نشوة لوسيان ويمكّنه من السيطرة عليه، فحضر لزيارة السيّدة سيشار على رأس فريق من ستة شبان زملاء لوسيان ورفاقه القدامى في كلية أنغوليم، وأعلن هذا الفريق بأنه مكلّف بدعوة مؤلف ديوان **أزهار المرغريت، ونبال شارل التاسع** من قبل جميع زملاء دراسته لحضور مأدبة يقيمونها على شرف الرجل الكبير الذي برز من صفوفهم.

هتف لوسيان: عجبًا، أهذا أنت يا بتي - كلو!

---

(١) - هو لويس بن شارل دي أورليان (١٤٦٢ - ١٥١٥) اعتلى عرش فرنسة بعد وفاة شارل الثامن آخر ملوك سلالة آل فالوا، فتزوج لويس دي أورليان أرملته وغدا أوّل ملك لسلالة آل فالوا - أورليان باسم لويس الثاني عشر (١٤٩٨ - ١٥١٥) وهو القائل: «ليس من اللائق ولا المشرف لملك فرنسة أن ينتقم من خصوم دوق أورليان».

قال پتي - كلو: حفّزت عودتك إلى هنا كبرياءنا، فتباهينا بمجدك، وقررنا بعد أن تقاسمنا النفقات أن نقيم تكريمًا لك مأدبة عامرة يحضرها مدير كليتنا وأساتذتها، ووفقًا لما تجري عليه الأمور ستشاركنا السلطات المحلية في الاحتفاء بك.

- قال لوسيان: هل حددتم اليوم؟

- إنه الأحد القادم.

- أجاب الشاعر: «يتعذّر علي قبول دعوتكم إلا بعد عشرة أيام... فإن استنسبتم ذلك فبكلّ طيبة خاطر...

- قال پتي - كلو: «حَسَن، إننا رهن أمرك، فليكن موعدنا بعد عشرة أيام».

تلاطف لوسيان مع رفاقه القدامى الذين عبّروا له عن إعجاب أقرب إلى الاحترام، وتحدث نحو نصف ساعة بكثير من البراعة، إذ وجد نفسه على نَصَب وأراد أن يُثبت أنه أهلٌ لتقدير بلده، وضع يديه تحت إبطيه، وتحدث تمامًا كشخصية تطلّ من العلو الذي رفعه إليه مواطنوه، تواضع، وبدا ولدًا طيّبًا، كان أشبه بعبقري يُعرّي نفسه دون حرجٍ أمام أنصار يؤمنون بنبوغه، شكا كبطل أتعبه الصراع في باريس، إنمّا أظهر تحررًا من الأوهام خاصة، وهنأ رفاقه لأنهم لم يغادروا مقاطعتهم الطيّبة إلخ... وتركهم معجبين به مسرورين منه. ثم انتحى جانبًا بپتي - كلو وطلب منه أن يصرح له بحقيقة المشكلة التي يعاني منها داڤيد، موجّهًا إليه اللوم على حالة الملاحقة التي يتعرض لها صهره. أراد لوسيان أن يراوغ پتي - كلو، واجتهد پتي - كلو أن يقنع لوسيان برأي متواضع عنه، يتلخص بأنه محام صغير مسكين في المقاطعات، لا حيلة له، فبنية المجتمعات حاليًا هي أكثر تعقيدًا في أجهزتها المسيّرة من المجتمعات القديمة، ومن شأن ذلك أن يشتت قدرات الإنسان، فالأشخاص المرموقون، سابقًا، الملزمون بأن يكونوا ذوي ثقافة شاملة، لا يظهرون إلا بأعداد قليلة، ويبدون كالمشاعل وسط الأمم القديمة. وإذا كانت القدرات قد

تخصّصت، فيما بعد، فإن النوعية بقيت تتوجّه نحو مجمل الأشياء. هكذا فإن شخصاً **غنيّاً بالمراوغة**، كما قال لويس الحادي عشر، يمكن أن يمارس مكره على كل شيء. غير أنّ النوعية نفسها قد تفرّعت في الوقت الحاضر، وعلى سبيل المثال، تعدّد المكّارون على قدر المهن، وغدا لكل مهنة مكر خاص بها، ويمكن في المقاطعات لفلاح مراوغ أو لمحام مرخّص ضعيف أن يمكر في قضية بدبلوماسي ماهر، والصحفي الأكثر دهاء قد يجد نفسه مغفلاً في قضية مصالح تجارية. وكان متوقعاً أن يغدو لوسيان لعبة في يد پتي - كلو، وحدث ذلك فعلاً. فالمحامي الماكر كتب بنفسه طبعاً المقال الذي ذُكِر فيه اتفاق مدينة أنغوليم مع هومو ضاحيتها على الإشادة بلوسيان والاحتفاء به. أمّا مواطنو لوسيان، الذين وفدوا إلى ساحة موريه ليلاً، فهم عمال مصنع ورق كوانته ومطبعته يصحبهم كتبة پتي - كلو وكاشان وبعض رفاق الكليّة، وأعلن پتي - كلو عن نفسه رفيق لوسيان الحميم في الكلية، وهو يفكّر بحقّ، أن رفيقه سيفشي سرَّ صهره ومخبئه في الوقت المناسب، وإذا تدمّر داڤيد نتيجة خطأ لوسيان، فلن يحتمل الشاعر البقاء في المدينة وهكذا وضع المحامي نفسه في مرتبة أدنى من لوسيان ليؤمّن تأثيره عليه.

قال پتي - كلو للوسيان في خلوتهما: «كيف لا أعمل كل ما بوسعي في قضية داڤيد، والأمر يتعلّق بأخت **رفيق الدراسة**؟ لكن في قصر العدل حالات يجب الإذعان لها تحت طائلة الملاحقة، وقد طلب مني داڤيد في أوّل حزيران أن أؤمن له فرصة ثلاثة أشهر يسعى فيها بحرّيّة واطمئنان لتأمين سداد دينه. ولم يُهدّد بالملاحقة فعلاً إلاَّ في شهر أيلول، كما أنني تمكنت من إنقاذ أثاثه من حجز دائنيه، و نجحت في ربح القضية أمام محكمة الاستئناف، وحصلت على حكم يعطي حقّ الزوجة امتيازاً مطلقاً لا يزيله في الدعوى أيّ تحايل... أمّا أنت، فتعود إنساناً تعيساً، لكنك عبقري... (بدرت من لوسيان حركة كأنّ المبخرة وصلت إلى مسافة قريبة جداً من أنفه) نعم، ياعزيزي، قرأت **نبّال شارل التاسع**، إنه أكثر من مؤلّف، إنّه كتاب! لا يستطيع إلاّ رجلان أن يكتبا مقدمته: شاتو بريان أو أنت!.»

قبل لوسيان هذا المديح، دون أن يقول إنّ هذه المقدمة من إعداد دارتز. الواقع أن تسعة وتسعين بالمئة من الكتّاب الفرنسيين يتصرّفون مثل تصرّفه.

استأنف بتي - كلو متظاهراً بالاستنكار: «يبدو أن الناس هنا لا تعرفك، عندما لا حظت اللامبالاة العامة بك، عزمت على أن استنهض همم هؤلاء القوم وأعددت المقال الذي قرأت. . .

هتف لوسيان: ماذا هل أنت كاتب ذلك المقال! . . .

- أنا نفسي! . . . حركّت أنغوليم وهومو وهما متنافستان، وجمعت بعض الشباب من رفاقك القدامى في الكلية، ونظّمت مساء البارحة تلك المسيرة الليلية إلى ساحة موريه، وما أن دَبَّ الحماس حتى أطلقنا الاكتتاب للاحتفاء بك في حفل عشاء، وأنا أقول في نفسي «لئن اضطر داڤيد للاختباء، فليمجّد على الأقل لوسيان!». بعد لحظة توقّف استأنف بتي - كلو: بل فعلت أفضل من ذلك، قابلت الكونتة شاتليه وأفهمتها أن من واجبها بالذات أن تنقذ داڤيد من مأزقه، إنّها تستطيع ذلك ويجب أن تفعله. إذا كان داڤيد قد توصّل فعلاً إلى الابتكار الذي حدثّني عنه، فلن تفلس الحكومة إن مدّت إليه يد العون. كم يحسن المحافظ إن فعل ذلك فسيبدو وكأن له نصف الفضل في اكتشاف بمثل هذا الكبَر. إن شمل المحافظ بحماية كريمة المبتكر سيتحدّث عنه الناس ويعدونه إدارياً بصيراً. . . ذعرت أختك من مناوراتنا القضائية! إنها تخاف من دخان البارود. . . والحرب في قصر العدل تكلّف غالياً مثل الحرب في ميدان القتال، لكن داڤيد صمد في موقعه، وهو محتفظ بسرّ ابتكاره: لا يمكن توقيفه ويجب ألا يوقّف!

- «أشكرك، ياعزيزي، وأرى أنني أستطيع أن أبوح لك بسرّ خطتي، وستساعدني على تحقيقها».

نظر بتي - كلو إلى لوسيان وقد تغيّر شكل أنفه المعقوف فبدا مثل علامة استفهام. واستأنف لوسيان معطياً لعبارته نبرة أهمية: «أريد أن أنقذ سيشار، فأنا سبب مصيبته، وسأصحّح كل شيء. . . إنّ لي تأثيراً نافذاً على لويز. . .

- من هي لويز؟ . . .

- الكونتة شاتليه! . . . (بدرت من بتي - كلو حركة تنمّ عن دهشته) واستأنف لوسيان: «إن لي تأثيراً عليها يخفى عنها هي بالذات، إنمّا، ياعزيزي، إن كان لي سلطة على حكومتكم، فليس لي ثياب لائقة . . .»

بدرت من بتي - كلو حركة أخرى وكأنه يمدُّ يده إلى كيس نقوده.

أمسك لوسيان بيد بتي - كلو وشدّ عليها مصافحًا وهو يقول: «شكراً، خلال عشرة أيام سأذهب لزيارة السيدة زوجة المحافظ، وسأردّ لك زيارتك».

وافترقا وهما يزيدان من حرارة المصافحة شدّة كأفضل صديقين.

قال بتي - كلو في نفسه: يجب أن يكون شاعراً، لأنه مجنون.

فكّر لوسيان وهو يعود إلى غرفة أخته: «أحسَنَ من قال: أفضل الأصدقاء رفاق الدراسة».

- قالت إيف مخاطبة لوسيان: بماذا وعدك بتي - كلو ياعزيزي لتظهر له كلّ هذا الودّ؟ احترس منه!

- هتف لوسيان: منه؟ وصمت كأنما تجول في خاطره فكرة، ثم استأنف: اسمعي ياإيف، أنت ترتابين بي، ويمكنك أن ترتابي جيّدًا من بتي - كلو. ثم أضاف متباهيًا: لكنك خلال اثني عشر أو خمسة عشر يومًا ستغيرين رأيك».

صعد لوسيان إلى غرفته، وكتب الرسالة التالية إلى لوستو:

«ياصديقي

أنا وحدي، من بيننا نحن الاثنان، يمكن أن يتذكر الورقة النقدية ذات الألف فرنك التي أقرضتك إياها: لكنني أعرف جيّدًا، للأسف! الوضع الذي ستكون فيه عندما تفضّ رسالتي. لذلك أسرع لأضيف أنني لا أطالبك بتسديد هذا الدين نقداً

ذهبيًّا أو فضيًّا دفعة واحدة، كلا إنما أطلبه منك تقسيطًا، كما تُطلبُ المسرّات من فلورين. إنّ لنا الخياط نفسه، ويمكنك أن تعدّلي في أقرب فرصة بزّة كاملة لائقة. ودون أن أكون في عري آدم، فإنني لا أستطيع الظهور. ولدهشتي الكبيرة، وجدت أن حفاوة المحافظة الواجبة للمشاهير الباريسيين تنتظرني، وستقام مأدبة كبرى لتكريمي مثل أيّ نائب يساري على الأقل. أتدرك الآن ضرورة بزّة سوداء؟

تعهَّد بالدفع، أمِّن لي طلبي، استخدم الدعاية، وأخيرًا جد مشهدًا مبتكرًا لدون جوان مع ديمانش[1]، إذ يجب أن أظهر بثياب لائقة يوم الأحد، أيًّا كان الثمن، وليس لدي إلا الأسمال البالية: عدا ذلك! نحن في شهر أيلول، والطقس رائع، **إذن**(*). أحرص على أن أتلقى في نهاية هذا الأسبوع ثيابًا ظريفة تليق لقبل الظهر: معطف أخضر برونزي غامق، وثلاث صُدرات إحداها بلون كبريتي، والأخرى مبهرجة من طراز اسكوتلندي، والثالثة بلون أبيض ناصع. مع هذا ثلاثة سراويل ***تستهوي النساء*** الأول من قماش إنكليزي أبيض، والثاني من قماش نانكين، والثالث من قماش صوفي رقيق أسود، أخيرًا بزة سوداء مع صدار من الساتين الأسود للسهرة، وإن كنت الآن في صحبة خليلة أخرى بجمال فلورين، فاعهد لها بأن تختار لي ربطتي عنق طريفتين. إنني اعتمد عليك، وعلى مهارتك في هذا: فالخياط لا يقلقني كثيرًا. ياصديقي العزيز، كم من مرّة ردّدنا بأسف: إنّ ذكاء البؤس هو بالتأكيد السمّ الأكثر فعالية الذي أبدعه الإنسان المتفوق، الباريسي! هذا الذكاء الذي يدهش بفعاليته الشيطان لم يجد حتى الآن الوسيلة التي يحصل بها على قبعة بالدين! إنما عندما يبتكر طراز من القبعات بسعر ألف فرنك للقبعة يغدو من اليسير علينا تأمين قبعة، وحتى ذلك الحين يجب أن يتوفر في جيوبنا بعض

---

(١) - تلميح من مشهد شهير من مسرحية دون جوان لموليير يدفع فيه دون جوان للتاجر ديمانش قيمة مشترياته كلمات معسولة وبلزاك يجري هنا جناسًا لفظيًا بين اسم التاجر ديمانش. ويوم الأحد Dimanche.

(*) - وردت باللاتينية في النص.

النقود لشراء قبعة[١]. آه! أي أذى سببه لنا المسرح الفرنسي بهذه العبارة: **لافلور، ضع لي نقدًا ذهبيًا في جيوبي**[٢]! أنا أشعر، إذن، بمدى الصعوبات التي ستعترض طلبي التالي: أرفق مع إرسالية الخياط: جزمة، وحذاءً خفيفًا، وقبعة، وستة أزواج من القفازات... أنا أعرف أنني أطلب المستحيل، لكن أليست الحياة الأدبيّة المستحيل الذي فرض خوةً؟... لن أقول لك إلا عبارة واحدة: حقّق لي هذه المعجزة بكتابة مقال كبير. أو بحيلة ما، وأبرؤك من دينك، وهو دين شرف، وقد مضى عليه أثنا عشر شهراً: ستخجل إن كنت تعرف الخَجَل. ياعزيزي لوستو، لندع المزاح جانبًا. إنني في ظروف خطيرة، لك أن تحكم عليها من الخبر التالي: لقد سمنت من أطلقنا عليها لقب الحبار، وغدت زوجة من لقبّناه مالك الحزين، ومالك الحزين هو محافظ أنغوليم الآن. وهذان الزوجان الرهيبان يمكنهما فعل الكثير لصهري الذي وضعته في مأزق حرج، فهو ملاحق ومختبئ، بسبب كمبيالة لم تُسدَّد!... والأمر يتعلق بأن أظهر مجدداً أمام زوجة المحافظ، وأمارس عليها بعض التأثير مهما كان الثمن. أليس من المرعب التفكير بأن مستقبل داڤيد سيشار يتعلق بجزمة، وجوارب حريرية رمادية (أرجو ألا تنسها) وقبعة جديدة!... سأدّعي المرض وألازم الفراش كما فعل دوڤيكه[٣] لأعفي نفسي من مبادرات مواطنيّ. قام هؤلاء المواطنون، ياعزيزي، بتظاهرة ليلية على أنغام الموسيقى احتفاء بي وإشادة بمؤلفاتي الأدبية. بدأت أتساءل كم يلزم من الحمقى لتركيب هذه الكلمة مواطنيّ، منذ أن علمت أن حماس أنغوليم قد استثير من قبل بعض الفكهين من رفاقي في الكليّة.

---

(١) - هذه المفارقة تعبّر عن واقع حقيقي: هو ندرة السيولة النقدية في عهد الملكية الثانية، فالتاجر يقبل توقيع كمبيالة عند شراء بضاعة ذات قيمة كبيرة. لكن المشتريات البسيطة تتطلّب توفّر الدراهم لتسديد ثمنها نقدًا. وقد عُرِف عن بلزاك الاستدانة وتوقيع كمبيالات لمرابين يتقاضون فوائد باهظة.

(٢) - لا نعلم في أية مسرحية وردت هذه العبارة.

(٣) - دوڤيكه، بيير (١٧٦٥ - ١٨٣٥): سياسي بارز في عهد الثورة وحكومة المديرين، عمل بعد ذلك ناقدًا في صحيفة المناقشات J. des Débats. ولا نعلم لأيّة مرحلة من حياته يلمّح بلزاك.

إذا أمكنك أن تنشر في صحيفة وقائع باريس بعض الأسطر عن استقبالي في أنغوليم، ستزيد من طول قامتي هنا ما يعادل بعض كعوب الجزمة، سأشعر بذلك الحبّار أنني وإن بَعدت عن أصدقائي في باريس، فما تزال لي بعض المكانة في الصحافة الباريسية، وبما أنني لن أتراجع عن أيّ من الآمال التي أعقدها عليك، أعدك بأنني سأردّ جميلك. وإذا كان يلزمك مقال جميل يُعَدّ أساساً لمجموعة ما، فلدي متسع من الوقت هنا للتفكير به. لن أقول لك إلا كلمة، ياصديقي العزيز: إنني اعتمد عليك، مثلما يمكنك أن تعتمد على من يقول في نفسه.

«إنني رهن إشارتك

لوسيان دي ر.»

«**حاشية**: وجّه ما طلبت بواسطة عربة البريد إلى مكتب الأمانات في هومو».

ذكّرت هذه الرسالة داخليًّا لوسيان، وهو يستعيد فيها لهجة التعالي التي منحه إياها نجاحه، بباريس وبعد أن قضى ستة أيام في هدوء المنطقة المطلق، تحوّل بأفكاره نحو أيام بؤسه الطيّبة، وأحسّ بتحسرات مبهمة بعد أن بقي طيلة الأسبوع منشغلاً بالكونته شاتليه. أخيراً علّق أهمية كبيرة على ظهوره المجدّد، حتى أنه عندما نزل، مع هبوط الليل إلى هومو ليسأل في مكتب البريد عن الإرسالية، التي يتوقع وصولها من باريس، شعر بكل تباريح الشكّ مثل امرأة علّقت آمالها الأخيرة على وسائل زينة قنطت من الحصول عليها.

قال في نفسه وهو يلاحظ حجم الرزمة المعنونة باسمه: «آه! لوستو! سأغفر لك كل خياناتك. وتوقّع أن تحوي كل ما طلبه.

في العلبة الحاوية على القبعة وجد الرسالة التالية:

عن صالون فلورين

لبَّى الخيّاط طلباتك بكل طيبة، لكن كما توقّعت نظرتك العميقة الاستذكارية، سبّبت ربطات العُنق والقبعة وجوارب الحرير الكدر في نفوسنا لأن محفظتنا خالية من كل ما يكدّر. قلنا مع بلونده: هناك ثروة تُجنى بإقامة مؤسسة يجد فيها الشباب الأشياء القليلة الكلفة، إذ أننا ننتهي إلى تسديد أثمان باهظة لترهات لم ندفع قيمتها حين شرائها. زد على أن نابوليون الكبير، الذي أوقف زحفه نحو الهند نتيجة نقص الجزَم قد قال: إن الأشياء البسيطة لا تُفعَل أبداً! إذن كل شيء تأمن باستثناء حذائك. فكرت أن أرسل لك خفًا من الموكاسان(*) أهداه أحد الأمريكيين بدافع الفضول إلى فلورين. قدمت فلورين مبلغ أربعين فرنكًا لك لتقامر بها. كنتُ مع ناتان وبلونده سعداء لأننا لم نقامر لحسابنا ووصلنا إلى درجة من الثراء تتيح لنا أن ندعو الرعّادة راقصة الأوبرا صديقة لوبو إلى العشاء، وكان واجبًا على فراسكاتي أن يؤمّن ذلك. تكفّلت فلورين بتأمين طلباتك، وأضافت إليها ثلاثة قمصان جميلة. قدم لك ناتان عصا. وأرسل لك بلونده، بعد أن ربح ثلاثمئة فرنك، سلسلة ذهبية، ضمت راقصة الأوبرا إلى السلسلة ساعة ذهبية، كبيرة بحجم القطعة الذهبية ذات الأربعين فرنكًا، كان قد قدمها إليها أحد الحمقى، ولم تأبه لها قائلة: «*إنها تافهة مثل مقدّمها!*». رغب بيكسيو الذي تبعنا إلى مطعم **صخرة كانكال** أن يرفق لك مع إرسالية باريس زجاجة من ماء البرتغال. قال فكاهينا الأول بتلك اللهجة الجهيرة والأهمية البورجوازية «ليكن في هذا مايسعده». كل ذلك يبرهن لك، ياعزيزي، مدى ما نكنه من حبّ لأصدقائنا في محنتهم. ترجو فلورين منك، بعد أن بلغ بي الضعف حدّ الصفح عنها، أن ترسل

(*) - الموكاسان: خفٌ لا كعب له يصنع من جلد ناعم غير مدبوغ ينتعله الهنود الحمر في اميركة الشمالية. (م. المترجم)

لنا مقالاً عن مؤلف ناتان الأخير. وداعًا يابنيّ! لا يسعني إلا إبداء الحسرة على عودتك إلى محيطك الضيق الذي خرجت منه بعد أن عددتك رفيقًا عريقًا

لصديقك

«إيتيين ل»

قال في نفسه وهو في غاية التأثّر: «ياللفتيان المساكين! عملوا جهدهم من أجلي!» ترد من البلدان الموبوءة أو من تلك التي حلّ بها مزيد من الشقاء فوحات تشبه شذى الجنّة، فذكرى الآلام في حياة فاترة هي بمثابة متعة لا يمكن تحديدها[1]. ودهشت إيڤ عندما نزل أخوها من غرفته وهو يرتدي ملابسه الجديدة حتى أنّها لم تعرفه.

هتف: «يمكنني الآن أن أذهب للتنزّه في بوليو؛ لن يقال عني: لقد عاد في أسمال بالية! إليك، هي ذي ساعة أقدّمها لك، لأنها ملكي، عدا عن أنها تشبهني، فهي معطلة لا تعمل.

- قالت إيڤ: يالك من طفل! لا يمكن الحقد عليك أيًّا كانت أخطاؤك.

- قال وهو يحرّك عصاه ذات القبضة الذهبيّة المزيّنة بالنقوش: «هل تظنين يا أختي العزيزة، أنني طلبت كل هذا بهدف الزهو التافه أمام أعين أهل أنغوليم، وأنني أهتّم بمثل هذه الصغائر. أريد أن أزيل الأضرار التي سببتها وقد تجنّدت لهذا الهدف».

(١) - تذكّر للكوميديا الإلهية على الأرجح (الكتاب الخامس، الجحيم) إذ يسأل دانتي فرانسيسكا دي رميني المرأة الايطالية من القرن الثاني عشر التي اشتهرت بغرامها مع أخي زوجها فتجيب: «ما من ألم في الأيام السيئة أكبر من تذكّر الأوقات السعيدة» (تعرض ألفريد دي موسيه بشكل مسهب لهذا النص في كتابه ذكرى، المنشور العام ١٨٤١) وهذا التذكر متضمّن في العبارة السابقة، ومقولتا الجنة والجحيم واردتان في المداولات التي يوردها بلزاك على ألسنة لوسيان ولوستو ودارتز مما سيرد تحليله في «دراسة عن الرواية والمؤلف» (الملحقة بالجزء الثالث الحالي من ثلاثية أوهام ضائعة).

كان نجاح لوسيان في التأنّق الانتصار الوحيد الحقيقي الذي حصل عليه، لكنه كان واسع المدى، بالغ التأثير، فالحسد يحلُّ عقدة ألسنة كثيرة، بينما الإعجاب يجمّدها. الرجال يغتابونه، والنساء يفتتن به حتى ليكاد يهتف مثل ذلك القوّال(*): «إيه ياثيابي، كم أشكرك[1]»، وقد ذهب إلى المحافظة حيث وضع بطاقتين، كما قام بزيارة إلى پتي - كلو، لكنه لم يجده. وفي اليوم التالي وهو اليوم المحدّد للمأدبة التي ستقام تكريمًا للشاعر حوت جميع صحف باريس في الزاوية الخاصة بأخبار أنغوليم، الأسطر التالية:

أنغوليم - عودة الشاعر الشاب ذي البدايات البراقة، مؤلّف **نبّال شارل التاسع**، الرواية التاريخية الوحيدة، المعدّة في فرنسة، دون تقليد لنهج والترسكوت، والتي تُعَدُّ مقدمتها حدثًا أدبيًا. لاقت هذه العودة استقبالاً ترحيبيًا عظيمًا جديراً بلوسيان دي روبمبره ويليق بزهو المدينة بشاعرها وقد أسرع مواطنوه بإقامة مأدبة وطنية عامرة تكريمًا له، وشارك المحافظ الجديد، المعيّن حديثًا، في هذه التظاهرة العامة احتفاءً بمؤلّف ديوان أزهار المرغريت التي شُجّعت موهبته منذ بداياتها بكل حرارة من قبل السيّدة الكونته شاتليه».

متى انطلق الحماس في فرنسة، لا يستطيع أحد إيقافه. وفي يوم المأدبة، أرسل العقيد قائد حامية المدينة الفرقة الموسيقية العسكرية إلى نُزُل كلوش الشهير في هومو بديوكه الروميّة المعطرة بالكمأة التي تعبأ في أوان من القيشاني الرائع وترسل حتى الصين. كان صاحب المنزل المكلّف بإعداد المأدبة ورئيس النادلين فيه قد زيّنا الموائد بأكاليل الغار تزينها أجمل طاقات الزهور، وعند الساعة الخامسة مساءً حضر أربعون مدعواً وكلّهم في الثياب الخاصة بالاحتفالات، بينما تجمهر في الفناء أكثر من مئة شخص جذبتهم بصورة خاصة الفرقة الموسيقية وهم يشكلون المواطنين.

(*) - القوال أو الزجال Chansonnier: من يركب أو يرتجل أغاني أو مونولوجات أو اسكتشات فكاهية نقدية أو هجائية يؤديها على مسارح خاصة أو في ملاهي ليلية، وقد اشتهرت حانات مونمارتر في باريس بقواليها (المترجم)

(١) - بيت من الشعر لسيدن Sedaine (١٧١٩ - ١٧٩٧) ورد في كتابه «رسالة شعرية إلى ثوبي ١٧٤٥» كما أنّ ذات المقولة قد وردت لدى الشاعر والقوال بيرانجه (١٧٨٠ - ١٨٥٧) في قصيدة «ثوبي».

أطل ّپتي – كلو من النافذة وقال: «كل أنغوليم هنا!».

قال الصيدلي بوستيل لزوجته التي جاءت لتستمع إلى الموسيقى: «لا أفهم شيئًا، ما سبب حضور المحافظ، ومحصل الأموال العامة، والعقيد، ومدير معمل البارود، ونائب المدينة، والعمدة، ومدير الكلية، ومدير مِسبَك روييل، ورئيس المحكمة، والسيد ميلو النائب العام، وجميع مسؤولي السلطات العامة!...».

عند الجلوس إلى المائدة بدأت الفرقة الموسيقية العسكرية بعزف مقطوعات على نغم *يحيا الملك، تحيا فرنسة*(١) لم تلاق شعبية كبيرة. كانت الساعة الخامسة، وعند الساعة الثامنة مساءً قدمت الحلويات والفاكهة يتوسطها جبل كاتو يَشمخ فوق خارطة لفرنسة صنعت من الشوكولا وبدأ شرب الأنخاب.

وقف المحافظ رافعًا كأسه وقال: نخب الملك!... نخب الشرعيّة! ألسنا مدينين للسلام الذي أعاده البوربونيون في نشوء جيل من الشعراء والمفكرين حفظوا بين يدي فرنسه صولجان الأدب!...

هتف المدعوون وجُلّهم من أنصار الوزارة وهم يرفعون كؤوسهم: يحيا الملك.

نهض مدير الكلية الجليل ورفع كأسه قائلاً: نخب الشاعر الشاب، بطل اليوم، الذي عرف أن يقرن إلى رقة بترارك وشاعريته موهبة النثر المماثل في أسلوبه لبوالو السهل الممتنع!

– هتف الجميع: مرحى! مرحى!...

نهض العقيد قائد الحامية وقال: أيها السادة، نخب الملكي! لأن بطل هذا الاحتفال ملَكَ جرأة الدفاع عن المبادئ الجيدة!

– هتف المحافظ بلهجة تهليل واستحسان: مرحى!

(١) – نشيد فرنسي لبرية وبرسوي.

نهض بتي - كلو: جميع رفاق لوسيان في مجد كلية أنغوليم يرفعون كؤوسهم نخب مدير كليتهم المحترم العزيز على قلوبهم والذي يعود إليه فضل نجاحهم! . . .

لم يكن المدير العجوز يتوقَّع هذا النخب ومسح عينيه من شدة التأثّر، ونهض لوسيان: فساد صمت عميق وغدا الشاعر شاحب الوجه. في تلك اللحظة وضع المدير العجوز الموجود على يسار الشاعر فوق رأسه إكليلاً من الغار، وارتفع التصفيق وانهمرت الدموع من عينيّ لوسيان وتهدّج صوته.

همس السيد ميلو النائب العام المرشح لنيقر: «إنّه ثمل».

- أجاب المحامي: ليست الخمر سبب نشوته.

- قال لوسيان أخيراً: مواطنيّ الأعزاء، رفاقي الأعزاء، أريد أن تشهد فرنسة كلّها هذا الموقف. هكذا تُستنهض همم الرجال، وتحصل بلادنا على المؤلّفات الهامة، والأعمال العظيمة. لكن عندما أرى العمل القليل الذي قمت به، والإكرام الكبير الذي تلقيته، أشعر بالخجل، وأعد أن أحقق في المستقبل ما يصل إلى رفعة هذا الاستقبال الذي أقابل به اليوم. إن ذكرى هذه اللحظة تمنحني القوّة والعزيمة لكفاح جديد، واسمحوا لي أن استرعي انتباه حضراتكم إلى من كانت ملهمتي الأولى وحاميتي مع توجيه التحية للمدينة التي وُلدت وترعرعت فيها: إذن لنشرب نخب الكونتة الجميلة سيكست دو شاتليه، ونخب المدينة النبيلة أنغوليم.

- قال النائب العام وهو يهزّ رأسه موافقًا: لقد أحسن التعبير، فأنخابنا محضّرة سلفًا أمّا نخبه فجاء عفويًّا مرتجلاً.

عند الساعة العاشرة غادر المدعوون النزل زمراً. وقد سمع داڤيد سيشار تلك الموسيقى والجلبة غير المألوفة وهو في مخبئه فسأل بازين: «ماذا يحدث في هومو؟.

- أجابت: يُقام حفل تكريم ومأدبة عشاء رسمية لابن حميك لوسيان.

- قال داڤيد: «إنني واثق من تحسّره على عدم حضوري!»

عند منتصف الليل صحب پتي - كلو لوسيان حتى ساحة موريه، وهناك قال لوسيان للمحامي: «ياصديقي العزيز، عهد وفاء بيننا طوال الحياة، وحتى الممات».

- قال المحامي: غداً، سأوقع عقد زواجي، لدى السيّدة دي سينونش، مع الآنسة فرنسواز دي لاهاي ربيبتها، شرّفني بحضورك، فالسيّدة دي سينونش رجتني أن أصحبك معي، وسترى هناك السيدة زوجة المحافظ، التي ستزهو لإشادتك بها وشرب نخبها في المأدبة الرسمية، وسيتمُّ التطرق إلى ذكر ذلك دون شك.

- قال لوسيان: لدي الرغبة في مقابلتها.

- أوه! ستنقذ داڤيد.

- أجاب الشاعر: هذا مؤكّد.

في تلك اللحظة، ظهر داڤيد كما بفعلِ ساحر. والسبب هو أنه وجد نفسه في وضع صعب تقريباً:

فزوجته قد منعته بشكل جازم من أن يستقبل لوسيان، أو أن يطلعه على مكان اختبائه، بينما كان لوسيان يوجّه إليه الرسائل الأكثر وداً وهو يؤكّد له أنه سيتمكن خلال أيام قليلة من تصحيح خطئه وإزالة الأضرار التي سببها، وهكذا فإن الآنسة كليرجه سلمت داڤيد الرسالتين التاليتين، وهي تذكر له أسباب الاحتفال الذي تصل موسيقاه إلى أذنه.

كانت الرسالة الأولى من إيڤ

زوجي العزيز

تصرف وكأن لوسيان ليس هنا، ولا يقلقك أمر، ضع في عقلك النيّر الفكرة التالية: إن أماننا يعتمد كليّاً على تعذّر معرفة أعدائك بمكانك. من دواعي شقائي أنني أثق بكولب، وماريون وبازين أكثر من ثقتي بأخي. للأسف فإن أخي المسكين

لوسيان لم يعد ذلك الشاعر الرقيق الطاهر الذي عرفنا، وبما أنّه عاقدٌ العزم على أن يتدخّل في شؤونك اعتقاداً منه بأنه قادر على إنقاذنا من الورطة التي أوقعنا فيها، وتأمين تسديد ديوننا (زهواً منه وعجرفة، ياعزيزي داڤيد) لهذا بالضبط أنا أخشاه. لقد تلقى من باريس ثيابًا جميلة، وخمسة قُطعٍ نقدية ذهبية في كيس جميل أعطاني إياه ونحن ننفق منها حاليًّا على معيشتنا. أخيراً نقص أعداؤنا واحداً على الأقل، فقد سافر والدك، ويعود الفضل في رحيله إلى پتي - كلو الذي كشف نوايا الأب سيشار، وقضى عليها في الحال بتصريحه له بأنّك لن تتصرف بأي أمر إلا بمشورته، وهو بصفته محاميك لن يدعك تتخلى عن اكتشافك دون تعويض مسبق يبلغ ثلاثين ألف فرنك: خمسة عشر ألفًا لتحريرك وتسديد ديونك، وخمسة عشر ألفًا تقبضها في جميع الأحوال، سواء نجح المشروع أو فشل. إن پتي - كلو شخص غامض في نظري. أقبلك بشوق الزوجة التي يعاني زوجها الضيق بعيداً عنها. طفلنا في صحة جيّدة، أيّ مشهد أبهى من تلك الزهرة التي تتفتح وتنمو وسط العواصف التي نعاني منها حاليًّا! أمي مثل عادتها دائمًا تبتهل إلى الله متضرّعة ليفرّج كربتنا وتقبلك بمثل حنوّ

حبيبتك

إيڤ

ذُعِرَ پتي - كلو والأخوان كوانته من حِيَل العجوز سيشار القروية فعملوا على إبعاده، كما اقتضى قطاف كرومه رحيله إلى مارساك.

أمّا رسالة لوسيان المرافقة لرسالة إيڤ فهي التالية:

عزيزي داڤيد

كل شيء على مايرام، هيّأت جميع الوسائل، وسأخوض معركة إنقاذك بدءًا من الآن، وسأحقق خلال يومين إنجازًا هامًّا على دروب الانتصار فيها. أيّة سعادة ستغمرني عندما سأعانقك بعد أن تنال حريّتك وتتخلص من الديون التي ورطتك فيها! لكنني أحس بجرح في صميم قلبي وسيبقى طوال حياتي من الريبة التي ما

تزال أختي وأمّي تبديانها لي. ألا أعلم أنك مختبئ لدى بازين؟ بيّنتي أنني أتلقى أخبارك وجواب رسائلي في كلّ مرة تأتي بازين لزيارة إيف، عدا عن أنَّ من البديهي ألا تثق أختي إلا بصديقة عملها السابق. سأكون اليوم قريبًا جداً منك، إنما بشعور مرارة موحشٍ لأنك لا تستطيع حضور حفلة تقام لتكريمي، فغرور أنغوليم أكسبني فوزاً صغيراً سينسى بعد عدة أيام كليًّا لدى من يَعِدُ فرحتك هي الوحيدة الدائمة الصادقة. أخيراً لن تمر عدة أيام إلا وتغفر كل شيء لمن يرى جميع أمجاد العالم تتلّخص في أنه

أخ لك

لوسيان

تجاذبت قلب دافيد بعنف هاتان القوّتان رغم ما بينهما من تفاوت. لقد ازداد هيامًا بامرأته ونقص قليلاً تقديره لصداقة لوسيان. لكن قوّة العواطف تتغيّر في العزلة كليّاً. فالإنسان المنعزل وخاصة من هو فريسة هموم، مثل تلك التي تنهش قلب دافيد، يستكين لأفكار يرفض الانصياع إليها عندما يكون في جو حياة عادية معتمداً على نقاط استناد لا تتوافر له في عزلته. هكذا عندما قرأ دافيد رسالة لوسيان، وهو يستمع إلى موسيقى الجوقة العسكرية تمجّد هذا الفوز غير المتوقّع، تأثّر بعمق لرؤيته يستميح منه العذر والصفح عن أخطائه، فالنفوس الرقيقة لا تقاوم تلك التأثيرات الصغيرة للعاطفة التي تقدّر أنّها لدى الآخرين بمثل شدتها لديهم. أليست هي نقطة الماء التي تُطفح الكأس الممتلئة وتفيض عنها؟... وهكذا، عند منتصف الليل، لم تُجدِ جميع توسّلات بازين في ردْع دافيد عن الخروج من مخبئه والذهاب لرؤية لوسيان.

قال لها: «لا أحد يتجولُ في مثل هذه الساعة عبر شوارع أنغوليم، ولن أُرى، باعتبار تعذُّر توقيفي ليلاً، وفي حال العثور عليَّ يمكنني الاستعانة بوسائل يبتكرها كولب للعودة إلى مخبئي، عدا عن أنني بشوق لمعانقة زوجتي وطفلي.

رضخت بازين أمام جميع هذه الأسباب المعقولة وتركت دافيد يخرج، وهكذا سمع صوته كما بفعل السحر يهتف «لوسيان!» في اللحظة التي كان فيها يتي

- كلو يودّع لوسيان في ساحة موريه بعد منتصف الليل. والتقى النسيبان وهرع كل منهما يعانق الآخر باكيًا؛ فمثل هذه اللحظات لا تصادف كثيراً في الحياة. أحس لوسيان بانبثاق واحدة من هذه الصداقات الصامدة فعلاً رغم كل شيء، ولام نفسه على خداعها، وشَعَر داڤيد بالحاجة لأن يصفح، فهذا المبتكر النبيل الشهم أراد خاصة أن يعظ لوسيان، ويبدّد الغيوم التي تعكّر صفاء الودّ بين الأخت وأخيها. أمام هذه الاعتبارات من العاطفة تزول جميع الأخطار المتولّدة عن نقص المال.

- قال پتي - كلو لموكّله: «إذهب إلى منزلك، واستفد على الأقل من تهوّرك في تقبيل زوجتك وطفلك! واحرص على أن لا يراك أحد!.»

- قال پتي - كلو في نفسه بعد أن بقي وحيداً في ساحة موريه: «ياللمصيبة! آه! لو أن سريزه هنا...» في اللحظة التي كان فيها المحامي يحدّث نفسه على طول سور الألواح الخشبية الذي يحيط بالساحة حيث يرتفع الآن قصر العدل، سمع قرعًا على أحد الألواح مماثلاً لقرع أصبع على أحد الأبواب.

- قال سريزه وصوته يخترق شقًا بين لوحين أسيء وصلهما: «إنني هنا، رأيت داڤيد خارجًا من هومو، وبدأت أشتبه في مكان مخبئه وأنا الآن واثق من موقعه، إنما من أجل إعداد شرك له، من الضروري معرفة مشاريع لوسيان، وقد عَملت الآن على دفعهما إلى دخول المنزل. ابق هنا بأية ذريعة، وعند خروجهما وجّههما إلى قربي: سيعتقدان أنهما وحيدان، وسأسمع الكلمات الأخيرة من وداعهما.

- قال پتي - كلو هامسًا: إنك شيطان متجسّد!

- هتف سريزه: «اللعنة، أي أمر لا أجريه للحصول على ما وعدتني به!»

ابتعد پتي - كلو عن ألواح السور الخشبي وأخذ يروح جيئة وذهابًا في ساحة موريه وهو ينظر إلى نوافذ الغرفة التي اجتمعت فيها العائلة، مفكراً بمستقبله كأنه يستمد منه الشجاعة، فمهارة سريزه ستتيح له أن يوجّه ضربته الأخيرة، فپتي - كلو أحد هؤلاء الرجال الدهاة المرائين بغدر، الذين لا ينقادون لإغراء الحاضر أو لإغواء

أي ولاء بعد أن لاحظ تغيّرات القلب البشري واستراتيجية المصالح. وهكذا فإنه منذ البدء لم يعلّق آمالاً كبيرة على كوانته، واتخذ احتياطه، في حال فشل مشروع زواجه دون أن يحقّ له اتهام كوانته الطويل بالخيانة، لإزعاجه، لكنه منذ نجاحه في قصر بارجتون أخذ يتصرّف بشكل صريح، فالخطوة الأخيرة من مؤامرته غدت دون جدوى، وهي تشكل خطراً على المركز السياسي الذي يصبو إليه، وعليه أن يسعى إلى أسس يوطّد عليها مستقبله. كان غانراك وبعض كبار تجار هومو قد بدؤوا يشكلّون لجنة ليبرالية مرتبطة بعلاقات تجارية مع قادة المعارضة. فتشكيل وزارة ڤيليل التي ارتضاها لويس الثامن عشر المحتضر كانت إنذاراً لتغيّر في سلوك المعارضة، التي تخلّت منذ موت نابوليون عن وسيلة المؤامرات الخطرة[1]، وأقام الحزب الليبرالي في عمق المقاطعات نظام مقاومته الشرعيّة، وعمل على أن يسيطر على العملية الانتخابية ليصل إلى هدفه عن طريق أغلبية شعبيّة. وبتي - كلو ابن هومو، ليبرالي متحمس، وهو الرائد والمستشار السري للمعارضة في المدينة السفلى المضطهدة من قبل ارستقراطية المدينة العليا. وهو أوّل من لاحظ خطر إتاحة المجال للأخوين كوانته للسيطرة بمفردهما على صحافة مقاطعة الشارنت حيث يجب أن يكون للمعارضة صحيفة خاصة بها، كي لا تتخلف عن بقيّة المدن الأخرى.

قال بتي - كلو: «فليقدّم كل منا لغانراك ورقة نقدية بخمسمئة فرنك ليتجمع لديه ما ينوف عن عشرين ألف فرنك لشراء مطبعة سيشار. بهذا الرأسمال الذي نقرضه لشاريها نسيطر عليه ونوجّه بواسطته سياسة النشر والطباعة».

تبنّى المحامي هذه الفكرة ليعزّز موقفه المزدوج المخادع لكوانته وسيشار، وتوجه بأنظاره إلى رجل ماكر ذي مواصفات تؤهلّه ليجعل منه الخادم الوفي للحزب ورآه في شخص سريزه.

---

(١) - تشكلّت وزارة ڤيليل في كانون أوّل ١٨٢١، ولم يكن لويس الثامن عشر أثناءها محتضراً إذ أنه توفي في ١٦ أيلول ١٨٢٤ ولم تتخل المعارضة عن المؤامرة بموت نابوليون في العام ١٨٢١، فكانت أحداث سومور وكولمار ومؤامرة الجنرال برتون، وقضية لاروشيل كلها لاحقة لموته لكن المؤامرات توقفت بعد إعدام رقباء لاروشيل الأربعة التي تمت في ٢١ أيلول ١٨٢٢.

قال لمنضد سيشار السابق: «إن استطعت اكتشاف مخبأ معلمك القديم وتسليمه لنا، نؤمن إقراضك مبلغ عشرين ألف فرنك لشراء مطبعته، ويحتمل أن تغدو على رأس صحيفة تنشرها مطبعتك، وماعليك إلا أن تسعى إلى هذا الهدف».

انطلق پتي - كلو وهو واثق من فعالية سريزه أكثر من ثقته بدُوبلُون وجميع محضري المحاكم ومأموري الحجز، وراح يعد كوانته بإمكان التوصل إلى توقيف سيشار قريبًا، لكن منذ أن داعبت مخيلته الآمال في دخول سلك القضاء، قدّر ضرورة التخلّي عن موالاته لليبراليين، وأشاع في هومو أن رأس المال اللازم لشراء المطبعة قد تحقق، وعزم على أن يترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي.

قال في نفسه: «إيه! لاشكّ بأن سريزه سيرتكب بعض المخالفات الصحفية وسأنتهزها فرصة لإظهار مواهبي. . . ».

رأى پتي - كلو أن الساعة تقارب الواحدة بعد منتصف الليل وهو مستغرق في أفكاره متجولاً في ساحة موريه يراقب نوافذ سيشار فتوجّه نحو باب المطبعة حيث ينتصب كولب حارسًا وقال له: «اصعد وبلّغ داڤيد ضرورة مغادرة المنزل وخذوا احتياطاتكم فأنا ذاهب وقد تجاوزت الساعة الواحدة. . . ».

عندما ترك كولب عتبة الباب، حلّت ماريون محله، ونزل داڤيد ولوسيان وهرع كولب يستكشف المكان ويسبقهما بنحو مئة خطوة بينما تبعتهما ماريون تراقب الناحية الخلفية من الساحة، عندما وصل النسيبان إلى قرب سور الألواح الخشبية، كان لوسيان يحدّث داڤيد بحماس قائلاً: «ياصديقي، إن خطتي بمنتهى البساطة، لكن كيف يمكن التحدّث عنها أمام إيف التي لاتثق أبدًا بوسائلي؟ إنني واثق من أن في صميم قلب لويز رغبة سأعرف كيف أوقظها، وأنا أريدها فقط لأنتقم من هذا المحافظ الأحمق، فإن صفا لنا جوّ الغرام مجرّد أسبوع فسأجعلها تطلب من الوزارة مكافأة تشجيعية لك على ابتكارك لا تقلّ عن عشرين ألف فرنك. غدًا سأرى تلك المخلوقة في غرفة الجلوس الصغيرة التي عرفت بدايات

حبنّا، حيث لم يتبدّل فيها شيء، وفقًا لما ذكره لي بتي - كلو: وسأبدأ فيها تمثيل مسرحيتي. هكذا بعد غد صباحًا، سأرسل لك مع بازين رسالة صغيرة أخبرك فيها بالنتيجة... من يعلم، قد تحرَّر حينها... هل تدرك الآن لماذا أردت الحصول على ثياب جديدة من باريس؟ فدور العاشق المتيّم لا يمكن أن يتمّ في أسمال بالية.

في الساعة السادسة صباحًا حضر سريزه لرؤية بتي - كلو وقال بخبث الباريسي الماكر: «يمكن لدوبلون أن يقوم بضربته غداً عند الظهر للقبض على صاحبنا بشكل مؤكَد، فقد أغريت إحدى عاملات الآنسة كليرجه للتعاون معنا. ألا تثق بوسائلي؟...»

بعد أن استمع بتي - كلو إلى خطة سريزه، هرع إلى كوانته قائلاً:

«اعمل على أن يقرّر السيّد دوهوتوا إعطاء فرنسواز ربع ملكية عقاراته مع احتفاظه بحق الاستثمار وستوقّع بعد يومين عقد شراكة مع سيشار. لن أتزوج إلا بعد ثمانية أيام من إجراء هذا العقد. وهكذا سنحقق شروط اتفاقياتنا الصغيرة: أعطني، **أعطيك**. لكن لنترقب جيّداً ما سيحدث هذا المساء لدى السيّدة دي سينونش بين لوسيان والسيّدة الكونتة دو شاتليه، إذ أن كل شيء يتوقّف على ذلك، فإن أمل لوسيان النجاح مع زوجة المحافظ، أُمسِكُ داڤيد.

- قال كوانته: ستغدو على ما أعتقد وزيراً للعدل.

- قال بتي - كلو الذي لم يتجرّد تمامًا من جلد الليبرالي(١): وما المانع، فقد سبق أن تولّى السيّد بيرونه تلك الوزارة.

---

(١) - الكونت دي بيرونه (١٧٧٨ - ١٨٥٤) محام مُحَدَث نعمة من بوردو اقترن اسمه بالإجراءات الأكثر سوءاً في عهد الملكية الثانية (انتهاك الحرمات، حق البكورية، قرارات تموز ١٨٣٠) وقد أجمعت المعارضة على هجائه بأغان ناقدة، وهو الذي يسمى مشروع قانون صحافة مشين في العام ١٨٢٦ «قانون العدالة والحب» وفي حزيران ١٨٢١ أي قبل أكثر من سنة من هذا المشهد من **أوهام ضائعة** برز في مجلس الأعيان الذي تحوّل إلى مجلس عدلي عمل به نائبًا عامًا مطالبًا بالحكم بالإعدام على قسم من المتهمين بالمؤامرة العسكرية التي جرت في شهر آب ١٨٢٠. وبتي - كلو المتخرّج من مدرسة الحقوق في بواتيه، المعتزل في المقاطعة والطموح يحرق أعصابه ينظر إلى مستقبل مماثل لمستقبل بيرونه.

استحق وضع الآنسة دي لاهاي العائلي المُلتبس، حضور معظم نبلاء أنغوليم، حفل توقيع عقد زواجها. فقد أثار فقر الخطيبين المؤسسين لأسرة مستقبلية، دون تحديد دوطة زواج الاهتمام الذي يحب الناس الإعراب عنه، إذ من الإحسان ما هو بمثابة الانتصار، يرضي الإنعام فيه زهو الكبرياء، وهكذا قام السيد دي سينونش والمركيزة دي بيمنتل، والكونتة دو شاتليه، واثنان أو ثلاثة من المترددين على المنزل بتقديم بعض هدايا لفرنسواز، كانت موضوع حديث البلدة، فهذه الأشياء الجميلة المنضّمة إلى الجهاز الذي حضرته زفيرين خلال سنة، مع حلي العرّاب، وهدايا العريس المعتادة واسَت فرانسواز، وأثارت فضول أمهات كثيرات صحبن بناتهن إلى عقد القران. ولاحظ پتي - كلو وكوانته أن نبلاء أنغوليم قد ارتضوا لوجود في جبل أولمب وارستقراطية شرٌّ لابدّ منها، فأحدهم قيمّ على ثروة فرنسواز ومشرف على الوصي(*)، والآخر لا غنى عنه لتوقيع العقد كالمحكوم بالإعدام لا تتمّ عملية الشنق دون وجوده. لكن لئن كانت السيّدة پتي - كلو قد منحت حقّ زيارة عرّابتها في اليوم التالي لزواجهما، فإن السيد پتي - كلو أحسّ بفتور استقباله وعدم الرغبة في حضوره، مما دفعه إلى أن يعاهد نفسه على أن يفرض احترامه على هذا الوسط المتعجرف. كان المحامي خجلاً من أصله المتواضع فأوعز إلى أمّه بالبقاء في مانسل حيث انعزلت ورجاها أن تدعي المرض وأن تعطيه موافقتها على زواجه كتابيًا، لكنه أحسّ أنه مهيض الجناح دون أهل أو حماة أو إشبين(**) شاهد من جهته. هكذا وجد پتي - كلو نفسه سعيداً جداً أن يقدم الشاعر الشهير صديقًا يعتزّ بوجوده وترغب الكونتة زوجة المحافظ في رؤيته، لذلك حضر إليه في عربة أقلتهما في تلك الأمسية المشهودة إلى منزل العروس. وكان لوسيان قد تأنق وتزيّن وظهر في أحسن هندام منحه دون نزاع تفوّقًا على جميع الرجال

(*) - المشرف على الوصي Subrogé - Toteur : هو الذي يراقب أعمال الوصي على القاصر ويحل محله إذا تضاربت مصالحهما.

(**) - الإشبين Garcon d'honneur : من يقوم بخدمة العريس في رتبة سرّ الزيجة، والكلمة سريانية. (م. المترجم)

الحاضرين، وأعلنته السيّدة دي سينونش المبرّز في تلك المناسبة، وتوقّع الجميع أن تكون مقابلته مع الكونتة أحد تلك المشاهد المشتهاة في المقاطعات، وظهر لوسيان **كالأسد**: قيل عنه إنه في منتهى الجمال، والتغيّر، والروعة، حتى أن نساء النخبة النبيلة في آنغوليم تخلين عن وقارهن وأظهرن الرغبة في رؤيته، ووفقًا للطراز السائد في ذلك العصر الذي يعود إليه الانتقال من سروال الرقص القديم إلى البنطال الحالي القبيح، وكان الرجال ما يزالون يرغبون في إظهار تقاطيع أجسامهم رغم قنوط النحلاء منهم، أو المشوّهي التكوين، وكان جسم لوسيان **أبولينيًا**، وقد ارتدى بنطالاً أسود ملتصقًا بساقيه، وجواربه الحريرية الرمادية، وحذاؤه الصغير وصداره الأسود البرّاق وربطة عنقه مشدودة بدقة وهي ترسم عضلات جسمه وحسن قوامه، إن صحّ التعبير. وشعره الأشقر الغزير المجعّد تتموج حلقاته حول جبينه الأبيض الوضاء بجاذبية لطيفة، وعيناه الممتلئتان كبرياءً تتألقان. ويداه الصغيرتان كأيدي النساء يحتجب جمالهما تحت قفازين ويشتهيهما النظر عاريين. وبدا في مظهره مماثلاً لدي مارسي المتأنق الباريسي الشهير، وهو يمسك بإحدى يديه عصاه وقبعته التي لا يتخلى عنها، ويستخدم الأخرى للقيام ببعض الحركات النادرة التي يشرح فيها عباراته. أراد لوسيان أن ينزلق إلى الصالة على طريقة أولئك الأشخاص المشهورين الذين يحنون الرأس في تواضع كاذب تحت باب سان دنيس. لكن پتي - كلو الذي لم يكن له بين الحضور رفيق غيره، استغلّ صحبته وأمسك بيده في مظهر شبه احتفالي ليتقدم معه إلى صدر الصالة حيث السيّدة دي سينونش، وسمع الشاعر عند مروره همسات إعجاب كان من شأنها أن تثمله سابقًا لكنه قابلها بكل برود، فهو واثق أنّه الآن لوحده يعادل كل أوليمب ارستقراطية أنغوليم.

قال لوسيان للسيدة دي سينونش: «سيدتي، سبق أن هنأت صديقي پتي - كلو، وهو من قماش يُفصَّل منه وزراء العدل، على حظه السعيد في الانتساب إليكم، أيًّا كان ضعف الروابط بين عرّابة وفليونتها (وقد قيلت العبارة الأخيرة بلهجة تهكميّة أحسّت بها جميع النساء اللواتي يستمعن إليه خلسة) أما بالنسبة لي فإنني أبارك هذه المناسبة التي أتاحت لي فرصة تقديم احترامي لك».

قيلت هذه العبارات دون ارتباك، وبوقفةِ سيد كبير يتعالى في زيارة قوم دونه مرتبة. واستمع لوسيان إلى جواب زفيرين المتدلّس وهو يلقي نظرة تطواف على الصالة بهدف تحديد تصرفاته التالية، وهكذا استطاع أن يُحيي برقة وابتسامات مشرقة فرنسيس دو هوتوا والمحافظ اللذين وجها إليه التحية توجّه أخيراً إلى السيّدة دو شاتليه متظاهراً بأنّه فوجئ برؤيتها، وكان هذا اللقاء حَدَث السهرة حتى أن عقد الزواج الذي توجَّهَ الأشخاص المتميزون إلى غرفة النوم لتوقيعه يتقدّمهم الكاتب أو فرنسواز كاد أن ينسى. بعد عدّة خطوات قام بها لوسيان باتّجاه لويزدي نيغربليس، قال لها بتلك الرقة الباريسية، التي غدت بالنسبة لها مجرّد ذكرى بعد وصولها إلى أنغوليم، وبصوت عال: «هل أنت ياسيّدتي من أدين لها بالدعوة التي أسعدني أن أتلقاها إلى مأدبة عشاء المحافظة بعد غد؟...

- أجابت لويز متضايقة من صيغة العبارة التهجمية التي قصد بها لوسيان توجيه طعنة لكبرياء حاميته السابقة: إنك مدين بها إلى ما حققته من مجدٍ ياسيدي.

- قال لوسيان بلهجة اختلط فيها الزهو بالرقة: «آه! ياسيدتي، لايمكنني أن ألزم الشخص المدعوّ بتلبية الدعوة ما دام فاقداً لحظوتك!» وتحول سريعًا عنها وهو يرى المطران فحيَّاه بمنتهى النبل قائلاً بصوت عذب: «ياصاحب السيادة، كنت أقرب إلى النبوءة سابقًا(*)، وسأجهد إلى تحقيق نبوءتك، وأعدُّ نفسي سعيداً لحضوري إلى هنا هذا المساء في مناسبة هيأت لي فرصة تقديم الاحترام لمقامكم الجليل».

جذَب لوسيان المطران إلى محادثة دامت عشر دقائق، وكانت جميع النساء ينظُرن إلى لوسيان كعجيبة فوقاحته غير المتوقّعة جعلت السيّدة دو شاتليه دون صوت أو جواب، وهي ترى لوسيان محطّ إعجاب جميع النساء، وهن يتابعنه

(*) - إشارة إلى ما رأى المطران على جبين لوسيان من علائم الشاعرية في أول جلسة تمت لدى السيدة دي بارجتون (انظر الرواية الأولى من الثلاثية - **الشاعران** - ص ١٠٥).

جماعات، جماعات، وكل منهن تردّد على صاحباتها عباراته الموجهة لزوجة المحافظ بتعال واستخفاف فانقبض قلبها وأحسّت بطعنة تنال من كبريائها.

قالت في نفسها، بعد عبارته الأخيرة: «أيّة فضيحة إن لم يأت غداً! من أين أتته هذه العجرفة؟ هل أغرمت بـه الآنسة دي توش؟... إنّه في منتهى الوسامـة! - يقال إن النساء هرعن إليه في باريس غداة موت خليلته الممثلة!... ربّما أتى إلى أنغوليم لينقذ ابن حميّه واضطر أن يتعلّق بمؤخّرة عربتنا في مانسل نتيجة حادث سير، وقد نظر إلى سيكست وإليّ نظرة تطفح ازدراءً».

تتابعت في خاطر لويز آلاف الأفكار. تاهت بها لسوء الحظ، وهي تنظر إلى لوسيان المنصرف إلى التحدّث مع المطران كأنّه ملك الصالة: فهو لا يحيي أحداً وينتظر أن يأتي الجميع إلى تحيته، ينقّل ناظريه بين الحاضرين مع تنوّع في التعبير، وسهولة ويُسر جديرين بدي مارسي قُدوته. وهو لم يأبه بالسيد دي سينونش الذي ظهر على مقربة منه ولم يتوجّه لتحيّته.

خلال عشر دقائق، فقدت لويز صبرها، فنهضت وتوجّهت إلى المطران قائلة: «بماذا تتحدثان، يا صاحب السيادة، والبسمة تعلو وجهيكما؟»

تراجع لوسيان قليلاً ليفسح المجال للسيدة دو شاتليه لتتكلم على انفراد مع المطران.

- أجاب الأسقف: آه! ياسيّدتي الكونتة، هذا الشاب بمنتهى الذكاء!... إنّه يشرُح لي كيف أنه مدين لك بكل ما يملك من قوّة وموهبة.

- قال لوسيان وهو يلقي نظرة عتب سحرت الكونتة: أنا لا أنكر الجميل ياسيدتي!

- طلبت من لوسيان وهي تشير له بمروحتها أن يقترب منها قائلة: «فلنتفاهم، تعال مع حضرة الأسقف من هنا!... وسيكون سيادته حكماً بيننا» وأشارت إلى غرفة الجلوس وهي تتوجّه مع المطران إليها.

قالت إحدى السيّدات المنحازات إلى زمرة شاندور بصوت عال ليسمعه الحاضرون: «إنّها تكلّف المطران بمهمة تثير السخرية».

قال لوسيان وهو ينقّل ناظريه بين الأُسقف وزوجة المحافظ: «حكَمٌ! هل سيكون بيننا مذنب؟...»

جلست لويز دي نيغربليس على الديوان العريض العائد لغرفة جلوسها السابقة بعد أن دعت الأسقف ولوسيان إلى الجلوس على مقربة منها، وبدأت الكلام، وتكرّم لوسيان على صديقته السابقة بمفاجأة عدم الإصغاء إليها. كان متمتعًا في وقفة لا باستا وحركاتها عندما تقول: **إيه ياوطني**!... بدا وعلى قسماته اللحن القصير المؤثّر: **الأرز**(*). أخيراً توصل تلميذ كورالي إلى أن يُظهر في عينيه بعض الدموع.

همس في أذن الكونتة، في اللحظة التي أدرك فيها أنها شعرت بدموعه، ودون أن يبالي بوجود الأسقف أو الحديث الجاري: «آه! يالويز كم أحبك!».

- قالت وهي تلتفت نحوه في همس تضايق منه المطران: امسح عينيك وإلا ستضيعني مرة ثانية.

كانت هذه العبارة من ابنة عم السيدة دسبار كافية لتجفف دموعًا أشبه بدموع المجدلية واستأنف لوسيان بحرارة: «يكفي واحدة!... إنّما استعدتُ للحظة ذكرياتي، ، وأوهامي، وعمري العشرين، وأنت تضيعيّنها لي...»

غادر الأسقف غرفة الجلوس فجأة وعاد إلى الصالة عندما أدرك أن مقامه يمكن أن يتعرّض للشبهة بين هذين العاشقين السابقين، وتجنّب كل شخص من الحاضرين الدخول إلى غرفة الجلوس كي لا يزعج السيدة زوجة المحافظ في خلوتها مع لوسيان، إنما لم ترُق لسيكست الوشوشات والضحكات، والتجول المتكلّف

(*) - لحن الأرزُ: لحن قصير يُقال إن الموسيقي الإيطالي روسيني (١٧٩٢ - ١٨٦٨) قد أعده وهو ينتظر طبقًا من الأرز يطبخ له في فينيسية، ومن هنا الاسم وقد ورد هذا اللحن في أوبرا تانكرد كما ورد أيضًا في رباعية راقصة في أوبرا حلاق إشبيلية.

أمام باب غرفة الجلوس فدخل إليها بعد نحو ربع ساعة وقد اعتراه قلق شديد حيث وجد لوسيان ولويز في نقاش محتدم.

همس سيكست في أذن زوجته: «يجب أن تفكري، ياسيدتي، وأنت أكثر دراية مني بطبائع أنغوليم، بزوجة المحافظ وبالحكومة».

- قالت لويز وهي ترمق مخاطبها المسؤول بنظرة تعالٍ أرعشته: «ياعزيزي، إنني أتحدث مع السيد دي روبمبرة في أشياء تهمّكم، وهي تتعلق بإنقاذ مُبتكرٍ يكاد يكون ضحية لمناورات منحطة، وعليك أن تقدّم لنا المساعدة... أما هؤلاء السيّدات وما يجول في رؤوسهن فسترى كيف سأتصرف لأجمّد السمّ على ألسنتهن».

خرَجت من غرفة الجلوس تتأبّط ذراع لوسيان وتوجهت معه لتوقيع الشهادة على عقد زواج بتي - كلو شامخة الرأس مثال جرأة السيّدة الكبيرة المهابة.

قالت وهي تناول الريشة للوسيان: «ألا نوقّع معًا؟...» وأشارت إلى مكان توقيعها ليوقّع على مقربة منه.

قالت الكونتة موجهة كلامها إلى السيّد دي سينونش لتلزم الصيّاد الوقح بالمبادرة إلى تحية لوسيان: «سيّد دي سينونش ألم تتعرّف على السيد دي روبمبره؟».

صحبت لوسيان بعد ذلك إلى الصالة وأجلسته بينها وبين زفيرين على الديوان العريض في صدر المكان، ومثلِ ملكة على عرشها، بدأت أولاً تتحدّث بصوت منخفض، وبلهجة تهكمية طبعًا، وانضمّ إليها بعض أصدقائها القدامى وعدة نساء يتملقنها، وغدا لوسيان سريعًا بطل الحلقة بعد أن مهّدت له الكونتة توطئة ليتحدث عن الحياة في باريس فارتجل بقريحة خارقة نقدًا لاذعًا تخلّلته بعض النوادر عن الأشخاص المشهورين شكلّت أطايب حقيقية لحديث يتوق إليه أهل المناطق توقًا شديدًا معبرين عن إعجابهم بفطنة الشاعر وذكائه مثل إعجابهم سابقًا بشخصه ووسامته. انتصرت الكونتة مجددًا على« طبقة النخبة بلوسيان، ولعبت

دورها كامرأة مغتبطة به أداة تستخدمها، تزوّده بالحجج الملائمة، وتلتمس له الاستحسان بنظرات مثيرة لكثير من الشبهات حتى أن عدة نساء بدأن في رؤية تزامن عودة لويز ولوسيان حباً عميقاً ارتكس الآن ليستعيد مجراه بعد أن وقع ضحية خطأ مضاعف، ربما قادت مدة استياء خلاله إلى الزواج المكدّر من شاتليه.

قالت لويز عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل للوسيان بصوت منخفض قبل أن تنهض متهيّئة للانصراف: «حَسَنٌ، يسرُّني جداً أن أراك على الموعد المحدّد بعد غدٍ...».

تركت زوجة المحافظ لوسيان بعد أن ودّعته بانحناءه رأس معبّرة عن ودّ عميق وذهبت تلقي بعض كلمات همساً في أذن الكونت سيكست وهو قرب المشجب يفتش عن قبعته.

قال المحافظ للوسيان قبل أن يلحق بزوجته التي غادرت الصالة قبله كعادتها المتبّعة في باريس:

«إذا كان ما قالته لي السيّدة دو شاتليه، ياعزيزي لوسيان، صحيحاً، فاعتمد عليّ، سيكون ابن حميّك منذ هذا المساء متخلصاً من هذا المأزق وغير ملاحق».

- أجاب لوسيان مبتسماً: «سأكون مديناً لسيدي الكونت بهذه الخدمة».

همس كوانته في أذن پتي - كلو الشاهد على هذا الوداع: «وبعد، أرى الفشل مصيرنا»... صعق پتي - كلو من نجاح لوسيان، ودهش من توقد ذكائه وبراعة ظرفه، ونظر إلى فرنسواز دي لا هاي، وقد بدا على قسماتها إعجاب كبير بلوسيان وكأنها تقول لخطيبها: تشبّه بصديقك. ردّ على كوانته، وقد أبرقت أساريره: «أمامنا يوم كامل قبل موعد مأدبة عشاء المحافظ مساء بعد غدٍ، وسأتكفّل بكل شيء».

قال لوسيان لپتي - كلو وهما يغادران القصر سيراً على الأقدام عند الساعة الثانية صباحاً:

«حسن ياعزيزي، جئت، ورأيت، وانتصرت(*). بعد بضع ساعات سينعم سيشار بالسعادة».

فكرّيتي - كلو قائلاً في نفسه: «هذا كلّ ما أريد معرفته» وأجاب لوسيان وهو يصافحه بحرارة لن تتكرّر: «كنت أعتقد أنك شاعر فقط، لكنك أيضًا لوزون(**)، مما يعني أنّك في مقام شاعرين».

قال لوسيان وهو يوقظ أخته: «عزيزتي إيف، أزفُ إليك خبراً سعيداً، خلال شهر سيتخلّص داڤيد من جميع ديونه!...».

- وكيف؟

- إيه، إنّ في إهاب السيدة دو شاتليه، لويز المغرمةَ بي، وهي تحبني أكثر من أي وقت مضى، وستعمل على أن يقدّم زوجها المحافظ تقريراً لوزارة الداخلية يطلب فيه دعم ابتكار داڤيد ومكافأته!... لن تقتضي هذه الإجراءات أكثر من شهر، سنعاني فيه إلى أن أنتقم من المحافظ وأجعله أسعد الأزواج. (اعتقدت إيڤ أنّها ماتزال ترى أحد الأحلام وهي تستمع إلى أخيها.) فبرؤيتي غرفة الجلوس الرمادية التي ارتعشت فيها مثل طفل منذ سنتين، وبتأمل ذلك الأثاث، وتلك اللوحات والصور، سقطت الغشاوة عن عينيّ! كم تغيّر باريس الأفكار.

- قالت إيڤ وقد استوعبت أخيراً كلام أخيها: أيُسعدك هذا؟

- هيّا، ماتزالين نائمة، إلى الغد، سنتحدث بعد الغداء.

كانت خطة سريزه في غاية البساطة، بالرغم من أنّها تعتمد على الحيل التي يستخدمها مأموري حجز المقاطعات لتوقيف مدينيهم، وبالرغم من أن النتيجة

(*) - هي الكلمات التي أطلقها يوليوس قيصر في القرن الأول قبل الميلاد معلنًا في مجلس الشيوخ الروماني الانتصار السريع الذي حققه قرب زيلا على فارناس الثاني ملك البونت، وقد غدت مثلاً يقال عند كل انتصار أو نجاح يتحقق بسرعة. (م. المترجم)

(**) - لوزون، الدوق انطونين (١٦٣٣ - ١٧٢٣) ضابط ونبيل مغامر لعب دورًا هامًا في بلاط لويس الرابع عشر وتزوّج ابنة عم الملك.

مشكوك بها، فقد توقّع لها النجاح إذ أنّها تعتمد على معرفة طبع كل من لوسيان وداڤيد وعلى آمالهما. بين العاملات اللواتي ينظرن إلى سريزه مثل دون جوان متيم فيسود بإشعال نار غيرتهن، ميّز منضد مطبعة كوانته وهو حالياً في مهمة استثنائية، إحدى عاملات الكوي المستخدمة لدى بازين كليرجه، وهي فتاة بمثل جمال السيّدة سيشار، واسمها هنرييت سينيول، وأهلها من صغار الكرّامين الذين يعيشون على بعد فرسخين من أنغوليم بين كرومهم على طريق سانت، وهم كأغلب سكان الريف ليسوا على درجة من الغنى تمكنهم من الاحتفاظ بابنتهم الوحيدة بينهم، وقد فضلوا تهيّئتها لتعمل خادمة في أحد بيوت الأغنياء، وهذا يقتضي في المقاطعات إجادة تنظيف وكيّ البياضات ودفعت شهرة السيدة بريور - وقد خلفتها بازين - آل سينيول لوضع ابنتهم في ذلك المحترف لتعلّم المهنة لقاء دفع بدل الطعام والمسكن، وكانت السيدة بريور معلّمة عريقة في مهنتها، تعامل صانعاتها مثل بنات لها، تأخذهن إلى قداس الأحد، وتسهر على حسن تربيتهن بكل نزاهة. كانت هنرييت سينيول سمراء جميلة، ممشوقة القوام، ذات عينين جريئتين، وشعر كثيف طويل، وبشرة بيضاء عاجية بياض زهرة المغنولية المميّز لحسناوات الجنوب، وهكذا كانت هنرييت إحدى أوائل اللعوبات اللواتي استهدفهن سريزه، وبما أنها تنتمي إلى عائلة من المزارعين **الأشراف** فإنها لم تستسلم له إلا بعد أن نهشتها أنياب الغيرة، واقتدت بعُشرة سيئة، واطمأنت إلى ذلك الوعد المغري: «سأتزوّجك»، بعد أن غدا سريزه مشرفاً على مطبعة الأخوين كوانته. عندما علم الباريسي أن آل سينيول يمتلكون كروماً بقيمة عشرة آلاف أو اثني عشر ألف فرنك، ومنزلاً صغيراً صالحاً للسكن، عجّل في تحويل هنرييت إلى وضع لا يمكن فيه أن تكون زوجة لأحد غيره. هكذا كان حال غراميات هنرييت الحسناء وسريزه عندما وعده بتي - كلو بأن يجعله مالكاً لمطبعة سيشار بالعمل على تأمين قرض له بقيمة عشرين ألف فرنك هو أقرب إلى مقود وقيد، وسحر هذا المستقبل الموعود المنضد وأدار رأسه، وبدت الآنسة سينيول عائقاً لأطماعه، فأهمل الفتاة المسكينة التي زاد تعلّقها بالمشرف على مطبعة الأخوين كوانته بقدر خوفها من أن يتخلى عنها. وعندما اكتشف الباريسي أنّ داڤيد يختبئ

لدى الآنسة كليرجه، غيّر أفكاره تجاه هنرييت إنّما دون أن يغيّر سلوكه، إذ عزم على أن يستخدم لمصلحته الهيجان الذي يعصف بنفس فتاة عندما تسعى لإخفاء عارها بالزواج من مغويها. وفي صباح اليوم الذي قرّر فيه لوسيان غزو قلب لويز مجدّدًا، أطلع سريزه هنرييت على سرّ بازين، وصرّح لها بأن ثروته وزواجه يتعلّقان بالكشف عن مخبأ داڤيد، ولم تلق هنرييت صعوبة في اكتشاف كون هذا المخبأ في حمام الآنسة كليرجه، ولم تجد حرجًا في القيام بهذه العملية التجسسية دون أن تدرك أن هذه المساهمة هي مشاركة سريزه في خيانته ونكران جميل لمن أحسن لكل منهما.

كان لوسيان مايزال نائمًا عندما روى پتي - كلو لسريزه تفاصيل الأحداث التي مرت على أنغوليم في سهرة اليوم الفائت.

سأل الباريسي بعد أن هزّ رأسه دلالة الرضى: «ألم يكتب لك لوسيان أيّة رسالة صغيرة بعد عودته؟.

- أجاب المحامي وهو يناول لسريزه ورقة من تلك التي تستعملها أخت لوسيان وعليها بضعة أسطر تنتهي بتوقيع الشاعر: هذا كل مالدي.

- قال سريزه: حسن، فلينذر مأمور الحجز دوبلون رجال الدرك ولينصب كمينًا قبل مغرب الشمس بعشر دقائق مع رجاله في باب پاليت وسيكون رجلنا في قبضته.

- قال پتي - كلو وهو يمعن النظر في سريزه: هل أنت واثق من خطتك؟

- أجاب ابن أزقة باريس السابق: إنني اعتمد على الحظّ وهو كما تعلم خبيث متغطرس لا يحبّ الشرفاء.

- قال المحامي بلهجة جافّة: يجب النجاح.

- قال سريزه: سأنجح، وأنت من دفعني إلى هذه الحمأة، ويجب أن تقدم لي بضع ورقات مالية لأمسح أدرانها... ثم استأنف بعد أن لا حظ على وجه

المحامي تعبيراً لم يعجبه: لكن، إن تخدعني، وإن لم تشتر لي المطبعة خلال ثمانية أيام.... تأكّد أنك ستترك أرملة شابة. نطق ابن الزقاق الباريسي بالعبارة الأخيرة والموت يبرق في نظرته.

- أجاب المحامي جازمًا: إن سجنا داڤيد عند السادسة مساءً، فتوجّه عند الساعة التاسعة إلى منزل التاجر غانراك حيث سنرتب لك مشروعك.

- قال سريزه: اتفقنا: «ستصل إلى مأربك، أيها البورجوازي!»

كان سريزه خبيراً بتلك العمليات التي تتمّ على إزالة الحبر عن الورق، والتي تشكل في الوقت الحاضر خطراً على مصلحة الضرائب، وقام بتقليد خط لوسيان باتقان لا يحسد عليه مستقبل مشرف المطبعة الاجتماعي في تزوير الرسالة التالية:

«عزيزي داڤيد

يمكنك الحضور دون أن تخشى شيئًا إلى منزل المحافظ، فموضوعك قد سُوِّيَ، كما أن بإمكانك الخروج في مثل هذه الساعة، وسأسبقك إلى هناك لأشرح لك كيف ستتصرف مع السيد المحافظ

أخوك

«لوسيان»

عند الظهر، كتب لوسيان رسالة لداڤيد يعلمه فيها بنجاح السهرة، ويؤكّد على حماية المحافظ له، وإعداده في هذا اليوم بالذات تقريراً للوزارة حول الاكتشاف الذي استحق كل تقديره. وفي اللحظة التي حملت فيها ماريون تلك الرسالة إلى الآنسة بازين مع قمصان لوسيان التي تحتاج إلى غسل وكي، توقّع پتي - كلو احتمال إرسال تلك الرسالة ونقل إلى سريزه توقعه، وقام هذا بمرافقة الآنسة سينيول في نزهة على ضفاف نهر الشارنت ليقنعها دون شكّ، بمساعدته في المؤامرة التي يعدّها للقبض على داڤيد، ويبدو من طول المدة التي استغرقتها النزهة التي استمرت ساعتين أن ضمير هنرييت قد استيقظ، وقام في أعماق نفسها صراع بين

الاستقامة والمصلحة التي تدفعها إلى أن تؤمّن للجنين المتكوّن في رحمها ولادة ضمن شرعية العائلة كما أنها ترغب بزواج يقيها الفضيحة وتتوقع أن تنعم فيه بالسعادة وبثروة تعقب نجاح خطة سريزه الذي هوّن عليها مهمتها، وحرص ألا يصرّح لها بعواقبها، غير أنّ السعر الباهظ لهذه المهمة التافهة روّع هنرييت إنّما توصّل سريزه في النهاية إلى إقناع خليلته بقبول تنفيذ حيلته، التي تقضي بأن تخرج هنرييت من محترف الآنسة كليرجه لمدة من الوقت تعود بعدها لتنبئها أن السيدة سيشار طلبت منها أن تبلّغ معلمتها بازين ضرورة موافاتها إلى منزلها لأمر عاجل، وبعد ربع ساعة من خروج بازين، تصعد هنرييت وتقرع على باب الحمام وتسلّم داڤيد رسالة لوسيان المزيّفة. ثم ينتظر سريزه ما تأتي به الظروف.

لأوّل مرّة منذ أكثر من عام أحسّت إيڤ بأن القبضة الحديدية التي شدّت الضرورة بها على خناقها قد بدأت تنحلّ قليلاً عنها، وتولّد لديها أخيراً بعض الأمل. هي أيضًا! تريد أن تستمتع بمجد أخيها، وأن تظهر وهي تتأبط ذراع الرجل الذي احتفل به وطنها، وأُغرمت به النساء، وأحبّته الكونتة دو شاتليه المتعجرفة، وتزيّنت إيڤ واقترحت أن تذهب بعد العشاء في نزهة مع أخيها إلى بوليو، فكل سكان أنغوليم ينطلقون في مثل هذا الوقت من شهر أيلول لينعموا باعتدال الجو ونسيم المساء المنعش.

انطلقت بعض الأصوات عند رؤية إيڤ: «أوه! إنّها السيدة سيشار الجميلة».

- قالت إحدى النساء: «لم أكن أعتقد أبدًا أنها ستفعل ذلك.»

- وقالت زوجة بوستيل الصيدلي بصوت عال لتسمعه إيڤ المسكينة: «الزوج يختبئ والزوجة تمرح.»

- قالت إيڤ لأخيها: «أوه! لنعد إلى المنزل، لقد أخطأت في الخروج».

كانت الشمس تتهاوى نحو المغيب ولن تنقضي إلا بضع دقائق إلا وتحتجب خلف الأفق الغربي وفجأة علا الضجيج من الطريق المنحدر نحو هومو، وشاهد

لوسيان وأخته بفضول الناس يتجمعون حول بعض الأشخاص الوافدين من هومو وهم يرددون: «من المحتمل أن يكون الموقوف سارقًا. . . وقال أحد المارة للأخ والأخت اللذين اندفعا عبر الجموع: إنه شاحب كالأموات.

كان لوسيان وأخته ينظران إلى نحو ثلاثين شخصًا من الأولاد والنساء العجائز والعمال العائدين من عملهم دون أية ريبة أو توجس ثم بدت لهما مفرزة من رجال الدرك بقبعاتهم المطرزة الحواف وهم يحيطون بالموقوف وخلفهم رهط من الناس يصل إلى أكثر من مئة شخص يتدافعون كسحابة سوداء في يوم عاصف.

صاحت إيڤ: آه! إنّه زوجي.

وصرخ لوسيان: داڤيد!

- ردّد بعض الناس مفسحين الطريق: إنّها زوجته.

- سأله لوسيان: ما سبب خروجك من مخبئك؟

- أجاب داڤيد وقد بدا شاحب الوجه مكفهر القسمات: إنّها رسالتك.

- قالت إيڤ وهي تتهاوى متصلبة غائبة عن الوعي: «كنت واثقة.»

انهض لوسيان أخته، وحملها بمساعدة رجلين إلى منزلها حيث أرقدتها ماريون في سريرها وانطلق كولب ليستدعي الطبيب، واضطر لوسيان أن يعترف لأمّه بأنّه سبب توقيف داڤيد، لأنّه لم يكن يعرف الالتباس الناتج عن الرسالة المزيّفة، وصُعق لوسيان وهو يتلقى من أمّه نظرة ناطقة باللعنة عليه قبل أن تصعد إلى غرفتها وتعتزل فيها منتحبة.

بقراءة هذه الرسالة المكتوبة خلال الليل والمتقطعة بين لحظات وأخرى، يتبيّن من عباراتها المشتتّة ما عاناه لوسيان من اضطرابات وبلبلة:

منذ لحظة كنا نسير معًا في نزهة. اتخذت قرارًا لا رجعة عنه، ولي أسبابي: يصادف في كثير من العائلات كائن مشؤوم، هو بالنسبة للعائلة نوع من المرض. أنا هذا الكائن بالنسبة لكم. هذه الملاحظة ليست من عندي، إنّما هي من رجل خبر جيّدًا العالم. كنا نتناول العشاء ذات مساء مع أصدقاء في مطعم **صخرة كانكال**، ومن بين الكثير من الفكاهات التي رُويت آنذاك، قصّ علينا ذلك الدبلوماسي أن الشاب فلانًا الذي كنا نلاحظ بدهشة أنه مايزال محافظًا على شكل الفتيات **مريض بأبيه**، وبسط عندئذ نظريته المتعلّقة بأمراض العائلة، وشرح لنا كيف لم يزدهر البيت الفلاني بسبب وجود تلك الأم فيه، وكيف أن الابن الفلاني سبّب إفلاس أبيه، وكيف أن الأب الفلاني دمّر مستقبل أبنائه واحترام الناس لهم، وبالرغم من أنه دعم، ضاحكًا، تلك النظرية الاجتماعية خلال عشر دقائق بكثير من الأمثلة فقد أثارت دهشتي. هذه الحقيقة تبرهن على كل التناقضات الغريبة التي يعلّلها، بظرف، الصحفيون ويتسلون بها فيما بينهم، عندما لا يجدون شخصًا يسخرون منه. وبعد، تحققت الآن أنني كائن الشؤم في عائلتنا، فالحنان الذي يملأ قلبي ينقلب عداوة، وجميع تضحياتكم لي ترتد أضرارًا عليكم، والطعنة الأخيرة الموجّهة لا إراديًا أكثرها قسوة! وبينما كنت أمارس في باريس حياة لا كرامة فيها، مملوءة بالملذات والمآسي، أعد الرفقة صداقة، وأتخلى عن الأصدقاء الحقيقيين لألتحق بأشخاص يريدون استغلالي، نسيتكم ولم أتذكركم إلاّ لأسبب لكم الأذى، كنتم أنتم هنا تسيرون على درب العمل المتواضع، تسعون بمشقة، إنّما بيقين نحو تلك الثروة التي كنت أحاول بطيش اقتناصها، وبينما كنتم تحسنّون أوضاعكم، كنت أدخل في حياتي عنصرًا مشؤومًا. نعم، كانت طموحاتي غير محدودة، وهي تمنعني من قبول حياة متواضعة. كانت لي ميول، وملذات تسمّم ذكراها مسرّات في متناول يدي وكنت في السابق مقتنعًا بها. إيه، ياعزيزتي إيڤ، إنني أحاكم نفسي بقسوة أكثر من أيّ شخصٍ، وأدينها بشكل مطلق دون هوادة. الصراع في

باريس يتطلب قـوّة ثابتـة، وإرادتي لاتعـمـل إلا على مـراحـل، وملكة الـوعي لدي متقطعة، والمستقبل يروّعني حتى أنني لا أفكّر به، والحاضر لا يحتمل. أردت أن أراكم مجـدّدًا، وكـان الأفـضل أن أغـتـرب نهـائيًّـا، غـيـر أن الاغـتـراب دون وسـائل العيش حماقة لا أريد أن أضيفها إلى حماقاتي الأخرى، وأنا أفضّل الموت على عيش ناقص، وغروري المفرط يجعلني، في أيّ وضع أتوقّع وجودي فيه، ارتكب الأخطاء، فأنا من هؤلاء الأشخاص الذين يُعدُّون كالأصفار ويحتاجون إلى رقم يتقدّمهم لتتضاعف قيمتهم عشرّ مرات. لا يمكن أن أكتسب قيمة إلاّ باقتراني بإرادة قوية، لا ترحم، وقد كانت السيّدة دي بارجتون المرأة المناسبة لي، لكنني ضللت وفشلت في حياتي لأنني لم أهجر كورالي لأجلها. وقد كان باستطاعتك مع داڤيد أن تغدُوا ربانين ممتازين لسفينة حياتي، لكنكما لا تمتلكان القوة التي تكبح رعونتي التي تتمرّد بطريقة ما على الترويض. إنّني أحب الحياة السهلة، الخالية من المشاق؛ ولأتخلّص من معارضة ألجأ إلى الهروب الجبان الذي يذهب بي بعيدًا. ولُدت أميرًا، وأنا أمتلك مهارة فكريّة تفوق الحد اللازم للوصول، لكنها لا تظهر إلا للحظة ثم تخمد، والجائزة في مجال يتبارى فيه الكثير من الطامحين هي لمن لا يبدي إلا القدر اللازم للشوط، ويبقى لديه رصيد كاف لبقية اليوم. إنّني أرتكب الشرور المماثلة لما ارتكبته هنا، رغم أنني أكنُّ أفضل النوايا لفعل الخير. يوجد رجال بصلابة شجر السنديان أما أنا فإنني جُنيبةٌ لطيفة سريعة الانقصاف على الأرجح، رغم ادّعائي أنني أرزة ضخمة. هذا هو تقييمي النهائي المسجّل كتابةً. هذا التفاوت بين وسائلي ورغباتي، وهذا الخلل في التوازن يضيّع دائمًا جهودي. يوجد كثير من هذه الطبائع في الطبقة المثقفة بسبب التباينات المستمرة بين الذكاء والمزاج، بين العزيمة والرغبة. ما هو مصيري؟ يمكنني أن أراه مُسبقًا، متذكّرًا بعض الأمجاد الباريسية القديمة التي رأيتها منسيّة. على عتبة الشيخوخة، سأكون هرمًا قبل الأوان، دون ثروة ودون اعتبار. إن كل كياني الحالي يكافح لتجنُب مثل هذه الشيخوخة: أنا لا أريد أن أكون أحد الأسمال الاجتماعية. أختي العزيزة، معبودة

أنت، سواء لقسوتك الأخيرة أو لحنانك الأول، وإذا كنّا قد دفعنا ثمنًا باهظًا لقاء سروري برؤيتكما مجدّدًا، أنت وداڤيد، فستحكمان، على الأرجح، فيما بعد، أنّ كلّ غال كان رخيصًا لقاء النُعميات الأخيرة لـلكائن المسكين الذي يحبكما! . . . لا تحاولا البحث عني، أو عن معرفة مصيري: لقد أفادني تفكيري، على الأقل، في تنفيذ رغباتي، والاستكانة، ياملاكي، انتحار يومي، ولن استكين إلا ليوم واحد، سأستغله الآن. . .

«الساعة الثانية صباحًا.

نعم إنني مصمم. وداعًا إذن، لا لقاء بعده، ياعزيزتي إيڤ. أشعر ببعض عذوبة في التفكير بأنني لن أحيا بعد الآن إلا في قلوبكم، ففيها سيكون قبري. . . ، ولن أريد قبرًا آخر غيره. مرة أخرى وداعًا. هذا هو الوداع الأخير من أخيك»

«لوسيان»

بعد أن كتب لوسيان هذه الرسالة، نزل دون إحداث أيّة ضجّة، ووضعها على سرير ابن أخته، وقبّل جبين أخته النائمة قبلة تغمرها الدموع، وخرج. أطفأ شعلة شمعدانه مع الفجر، وألقى نظرة أخيرة على ذلك المنزل القديم وفتح باب المدخل بهدوء، لكنه، رغم احتراسه، أيقظ كولب النائم على فراش قرب باب المطبعة.

صاح كولب برطانته الألزاسية: من هناك؟

- أجاب لوسيان: أنا ياكولب، إنني ذاهب.

- قال كولب مكلّمًا نفسه إنّما بصوت عال ليسمعه لوسيان: كان الأفضل لو أنك لم تحضر أبدًا.

- أجاب لوسيان: «بل الأفضل لو أنني لم أجئ إلى هذا العالم أبدًا. وداعًا ياكولب، أنا لا أحقد عليك لرأي نطقتُ به قبلك. قل لداڤيد إنني غير آسف إلا على عدم تمكّني من تحقيق رغبتي الأخيرة في أن أعانقه مودّعًا. »

عندما نهض الألزاسي وارتدى ثيابه، كان لوسيان قد خرج وأغلق الباب خلفه واتجه نحو نهر الشارنت عبر منتزه بوليو، وهو في كامل أناقته كأنه ذاهب إلى احتفال إذ أنه جعل ثيابه الباريسية كفنًا له. دُهِش كولب من لهجة لوسيان وكلماته الأخيرة، وأراد أن يعبّر لسيدته عن استغرابه، لكنه وجد المنزل غارقًا في صمت عميق، فقدّر أن هذا الرحيل مُعَدٌّ دون شك في العشيّة، وعاد إلى نومه.

قليلة جداً الكتابات عن موضوع الانتحار ولا تتناسب أبداً مع خطورته، والملاحظات عنه معدومة، فهذا المرض قد يكون غير قابل للملاحظة. الانتحار هو نتيجة عاطفة، سنسميها إذا شئتم **احترام الذات** دفعًا للالتباس مع كلمة **الشرف**. ففي اليوم الذي يحتقر فيه الإنسان نفسه، وفي اليوم الذي يرى فيه نفسه محتقراً، وفي اللحظة التي يرى فيها حقيقة الحياة غير متوافقة مع آماله، فإنّه يفكّر بقتل نفسه. وهكذا يجهر بتقديره للمجتمع الذي لا يريد أن يبقى فيه عاريًا من فضائله أو من تألّقه ومهما قيل أو يقال، فالجبناء، وحدهم بين الملحدين، يرتضون حياة تلطّخت بالعار (يجب استثناء المسيحي المؤمن من فكرة الانتحار). يمكن أن ينتج الانتحار عن ثلاثة دوافع: هناك الانتحار الذي يُعَدُّ العارض الأخير لمرض طويل، وهو ينتمي بالتأكيد إلى دراسة المرضيات، ثم الانتحار بدافع اليأس والقنوط، وأخيراً الانتحار نتيجة محاكمة تنتهي إلى تفضيل الموت. وقد راودت لوسيان فكرة الانتحار بدافع اليأس ونتيجة محاكمة وهما عاملان يمكن العودة عنهما، أما الانتحار المرضي فمردّه تصميم يصعب الرجوع عنه. قد تجتمع الدوافع الثلاثة أحيانًا، كما حدث مع جان جاك روسو[1]. ما أن تسلّطت فكرة الانتحار على لوسيان حتى راح يفكّر بالوسائل، وأراد، وهو الشاعر، أن ينهي حياته بطريقة شاعرية. عزم أولاً بكل سذاجة أن يلقي بنفسه في نهر الشارنت، لكنه عند نزوله منحدر بوليو لآخر مرّة سمع مسبقًا الجلبة التي سيحدثها انتحاره، ورأى بعين البصيرة مشهداً مروّعًا تمثلت فيه جثته تلفظها لُجَج المياه مشوّهة، وما أعقب ذلك

(١) - جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨): ساد الاعتقاد في أيام بلزاك أن روسو مات منتحراً لما طرأ على حياته من حبّ للعزلة وإحساس بالاضطهاد والملاحقة.

من تحقيق قضائي، ولم يُرد على نسق بعض المنتحرين، أن يعاني هذا الذل بعد الوفاة. سبق له خلال نهار قضاه قرب طاحونة كورتوا أن راح يتأمّل صفحة النهر، ولا حظ في مكان غير بعيد عن الطاحون أحد هذه الحواجز الدائرية المماثلة لتلك التي تحدثها المجاري المائية الصغيرة حيث يشير هدوء الماء على السطح إلى تغلغله في الأعماق. كان هذا الماء براقًا مثل مرآة من صفيحة فولاذية مصقولة لا هو بالأزرق أو الأخضر، ولا هو بالصافي أو العكر. ليس على جوانب حوضه أزهار زرقاء ولا زنابق، وليس على السطح أوراق نيلوفر عريضة طافية، وأعشاب الضفة قصيرة متراصة، والصفصاف المتدلي الأغصان يبكي وقد ارتصف بشكل رائع حول الموقع، ومن اليسير الحكم على المكان بأنه هوةٌ عميقة ممتلئة بالماء. ومن يملك الجرأة على أن يملئ جيوبه بالحصى يمكنه أن يجد في الموقع مكانًا لموت محتّم دون العثور على جثته. قال الشاعر في نفسه وهو ينظر بإعجاب إلى المنظر الجميل: «ها هو مكان يثير الشهية للغرق».

تذكّر هذا الموقع في اللحظة التي وصل فيها إلى هومو، فتوجّه مباشرة نحو مارساك، وهو فريسة أفكاره الأخيرة السوداء، وقد عقد العزم على أن يخفي سرّ موته، فلا يكون موضوع تحقيق، وألا يرى وهو في الحالة الرهيبة التي يظهر فيها الغرقى عندما تطفو جثتهم على سطح الماء، فلا يُدفن، ووصل عندها إلى قاعدة أحد هذه السفوح التي تصادف بكثرة على طرقات فرنسة، وخاصة بين أنغوليم وپواتيه، وبدت له عربة المسافرين بين بوردو وباريس وهي قادمة بسرعة، وتوقع أن ينزل منها المسافرون على الأرجح ليجتازوا ذلك السفح الطويل على الأقدام، ولم يشأ أن يراه أحد فتحوّل إلى أحد الدروب الجانبية المنخفضة وأخذ يجمع بعض الأزهار المنتشرة قرب سياج أحد الكروم، وعندما تحوّل إلى الطريق العام مجدّدًا كان يحمل طاقة من أزهار **حي العالم** الصفراء التويج التي تنبت بين حصى الكروم، ورأى نفسه فجأة خلف أحد المسافرين المكتسي بثياب سوداء كاملة، وقد تناثر على شعره ذرور أبيض، وهو ينتعل حذاء من جلد أورليان بإبزيم من فضة، أسمر البشرة تعلو وجهه الندوب كأنه سقط في النار أثناء طفولته. كان هذا المسافر ذو الهيئة

الاكليروسية الظاهرة يسير بهدوء، وهو يدخن سيكاراً، وعندما سمع وقع قفزة لوسيان من حافة سياج الكرم إلى الطريق العام، التفت المسافر المجهول خلفه، وبدا وكأنَّه مندهش من وسامة الشاعر ومظهره الكئيب، ومن طاقة الزهر الرمزية، وهندامه الأنيق، وبدا هذا المسافر أشبه بصياد وجد نفسه فجأة أمام فريسة بحث عنها طويلاً دون جدوى. تباطأ على طريقة البحَّارة متظاهراً بتأمل حافة السفح، وقام لوسيان بالحركة نفسها منتظراً ابتعاد المسافر لكنه لا حظ عربة صغيرة قُرن بها حصانان وإلى جانبها حوذي تنتظر على بعد خطوات.

توقّف المسافر وتوجه مخاطباً لوسيان بلكنة اسبانية ظاهرة، وبمنتهى اللباقة قائلاً: «تأخرت عن عربة المسافرين ياسيدي، ولن تتمكن من اللحاق بها إلا إذا أردت أن ترافقني في عربتي الصغيرة الأكثر سرعة من عربة المسافرين الكبيرة والثقيلة.»

ثم مدّ الاسباني يده إلى جيبه دون أن ينتظر جواب لوسيان، وأخرج منها علبة سيكار فتحها وقدّمها للوسيان ليتناول سيكاراً منها.

أجاب لوسيان: لست مسافراً، وقد اقتربت جداً من نهاية رحلتي مما يردعني عن متعة تدخين سيكار...

قاطعه الاسباني قائلاً: «إنك تقسو كثيراً على نفسك، وأنا أسمح لنفسي، بالرغم من أنني كاهن قانوني فخري في كاتدرائية طليطلة، بأن أدخن سيكاراً بين وقت وآخر، فالله قد منحنا التبغ لنلطف أهواءنا ونسكّن آلامنا... أراك في همّ، أو أنّك على الأقل تحمل رايته في يدك. ألا تأخذ سيكاراً؟... لتبدّد جميع همومك مع نفث دخانه...» وقدّم الكاهن مجدّداً علبة التبغ بنوع من الإغراء، وهو يلقي على لوسيان نظرات مفعمة بالشفقة. عقّب لوسيان بجفاء «عذراً ياأبتِ، لايوجد سيكار قادر على تبديد همومي...» وعند هذا القول اغرورقت عينا لوسيان بالدموع.

- أوه! أيّها الشاب، أتكون العناية الإلهية قد أوحت إليّ بالرغبة في أن أنفض عن أجفاني الكرى الذي يعتري جميع المسافرين صباحًا، بأن أحرك قدميّ على هذا الطريق، لألاقيك وأواسيك تنفيذًا لرسالة لي في هذه الدنيا؟... لكن أيّة هموم كبيرة يمكن أن تنتابك وأنت في هذا العمر؟

- مواساتك، يا أبت، ستكون دون جدوى، فأنت اسباني، وأنا فرنسي، أنت تؤمن بوصايا الكنيسة، وأنا ملحد...

- غفرانك أيتها العذراء القديسة في الكنيسة ذات العمود[1]!... أنت ملحد، إيه! هذه إحدى الطرائف الأكثر إثارة للفضول التي وعدت نفسي بملاحظتها في باريس، فنحن في اسبانية لا نعتقد بوجود الملحدين... ولا يمكن أن نصادف مثل هذه الآراء وخاصة في سن التاسعة عشرة، إلا في فرنسة، ووضع الكاهن يده تحت إبط لوسيان بحنان أمومي.

- قال لوسيان ببعض التشدّق وهو يشير إلى السماء: أوه! إنني ملحد تمامًا، لا أؤمن بالله، ولا بالمجتمع، ولا بالسعادة؛ انظر إليَّ جيّدًا، يا أبي، لأنني لن أكون حيًّا بعد بضع ساعات... فهذه آخر شمس أراها!...

- آه! هكذا، ولكن ماذا فعلت لتستحق الموت؟ ومن حكم عليك بالإعدام؟

- أعلى المحاكم، محكمتي أنا بالذات!

- صاح الكاهن: أيّها الفتى! هل قتلت أحد الأشخاص؟ هل تنتظرك منصة الإعدام؟ ألا نستمع قليلاً إلى صوت العقل؟ إذا كنت تريد، وفقًا لتصريحك، الموت، فكل ما في هذا الكون سيّان لديك». (أحنى لوسيان رأسه علامة الموافقة) «وبعد، ألا يمكنك، والحال هذه، أن تقصّ عليّ معاناتك؟ إنّك تعاني، على الأرجح، من حب فاشل؟ (هزّ لوسيان كتفيه نفيًا) «أتريد الانتحار غسلاً للعار، أو يأسًا من الحياة؟ في هذه الحال يمكنك فعل ذلك في بواتيه بدلاً من أنغوليم، وإن

(١) - هي كنيسة أثرية مشهورة في مدينة سرقسطة الاسبانية.

فاتك ذلك في پواتيه، فالأفضل أن تغرق نفسك في نهر اللوار قرب تور فرماله المتحركة لا تلفظ جثة المنتحر . . .

- أجاب لوسيان: كلا يا أبتِ، اخترت المكان، فقد رأيت منذ عشرين يوماً أفضل مرسى يمكن أن ينتقل فيه إنسانَ سئم من هذا العالم إلى العالم الآخر.

- العالم الآخر . . . لست ملحداً إذن.

- أوه! ما أعنيه بالعالم الآخر، هو تحولي المستقبلي إلى حيوان أو نبات.

- هل تعاني من مرض غير قابل للشفاء؟

- نعم، يا أبت . . .

- قال الكاهن: آه! ها قد وصلنا، وما هو هذا المرض؟

- الفقر.

نظر الكاهن إلى لوسيان باشّاً، وقال له برقة لا متناهية وقد ارتسمت على محيّاه ابتسامة شبه ساخرة: «الألماس يجهل قيمته».

- صاح لوسيان: لا يمكن إلاّ لكاهن أن يداعب بمجاملة رجلاً مسكيناً مقبلاً على الموت! . . .

- قال الإسباني بلهجة آمره: لن تموت.

- استأنف لوسيان: سمعت كثيراً عن سلْب أشخاص على الطرقات، لكنني لم أعلم أبداً بإغنائهم.

- قال الكاهن بعد أن نظر إلى المسافة التي تفصلهما عن العربة وإمكان السير ومتابعة الحديث حتى الوصول إليها: استمع إلي جيّداً، ثم ضغط بشفتيه على سيكاره واستأنف: ليس الفقر عاراً يدفع إلى الموت. إنني بحاجة إلى سكرتير، بعد أن قضى سكرتيري نحبه في برشلونة، ووجدت نفسي في حالة مماثلة لتلك التي وصل فيها البارون دي غورتز وزير شارل الثاني عشر الشهير إلى تلك المدينة

الصغيرة في السويد، ولا أريد أن أصل وحيداً إلى باريس[1]، فالبارون قد لقي ابن صائغ متميّز بوسامة هي أقلّ بالتأكيد من وسامتك . . . وقد لمح فيه علائم الذكاء كما أتفرس في جبينك نبوغ الشاعرية، فأقلّه في عربته، كما سأقلك في عربتي وشمل برعايته هذا الفتى الذي كان محكوماً عليه بصقل أدوات المائدة وصنع الحلي في مدينة صغيرة من مدن المقاطعات مثل أنغوليم وجعله أمين سرّه، ونديمه الأثير، وهذا ما أرغب به لك. بوصول البارون الوزير إلى استوكهولم، عهد إلى سكرتيره بجميع أعماله الكتابية وكانت كثيرة، مما أوجب على الشاب أن يقضي معظم لياليه في النسخ والإنشاء، مما جعله مثل معظم العاملين المجدّين يكتسب عادة غير مستحبة، هي أن يمضغ الورق، وبالمناسبة نذكر أن المرحوم دي مالزرب[2] كان يصنع من الورق أبواقًا يحرق طرفها وينفث الدخان في وجه محدثه، وقد أرسل

(١) - هو إغراء يقوم به الراهب المزيّف ليستهوي لوسيان، وهو يجتذبه بهذه القصة الزاخرة بالتوريات المضمرة (مما سيرد ذكره في الدراسة حول الرواية والمؤلف اللاحقة) ويمكن أن نقرأ صيغتها الأولى في **مجموعة نوادر وقصص تاريخية** التي جمعها ونشرها وطبعها بلزاك، العام ١٨٢٧ ولم يقصد بلزاك أو هريرا الدقّة التاريخية، لكن عناصر هذا المونولوج الأهوج حقيقية، فبطل القصة التاريخية أرنست - جان دي بيرن (١٦٩٠ - ١٧٧٢)، ابن فلاح، أو نقيب، أو صائغ كما يذكر بلزاك، بيد أنه كان يشغل وظيفة كاتب لدى موثق كما بيّن ب. تولي الذي أشار إلى أن جميع المراجع التي اعتمد عليها بلزاك عن حياة بيرن تتناقض، وما من قاموس تاريخي يؤكد الصحة التاريخية للنص البلزاكي. غير أن المراجع تذكر أن البارون دي غورتز كان وزيراً للمالية في عهد شارل الثاني عشر العام ١٧١٥، وأنه أعدم العام ١٧١٩، وأن سكرتيره الأثير بيرن كان وسيماً مثل لوسيان. لكن بلزاك القصاص يجهد أن يماشي المغامرة السويدية مع مشهد إغواء هريرا للوسيان، ومقولة ملتهم الورق تبسّط بكل حرية، وقد اختلق حدث وجود بيرن لدى الدوقة دي كورلاند من أجل **أوهام ضائعة** (أو من أجل لوسيان) مع ازدراء مهين بالدقة التاريخية، بيرن يتزوج الدوقة دي كورلاند بعد ترملها بانتظار تكليفه بالوصاية على العرش بعد موت كاترين الأولى والواقع أنه كان أثيراً لدى الدوقة، لكنه لم يتزوجها، إنما بعد أن غدت امبراطورة (١٧٣٠ - ١٧٤٠) تحت اسم آنا ايفانوفنا وهي نسيبة بطرس الكبير، منحته لقب دوق دي كورلاند، كما أنه عيّن وصيًا على العرش بعد موت آنا.

(٢) - دي مالزرب: (١٧٢١ - ١٧٩٤) رجل قانون فرنسي، كان أمين سر القصر الملكي، حاول إجراء بعض الاصلاحات لكنه اضطر إلى الاستقالة. دافع عن الملك أمام المؤتمر الوطني. أعدم في عهد الإرهاب.

واحدة من هذه النفثات الدخانية الورقية في وجه شخصية، كانت دعواه مرتبطة بالتقرير الذي يقدّمه عنه. بدأ الشاب الوسيم، أمين سر الوزير بمضغ الورق الأبيض، لكنه اعتاد عليه، وانتقل إلى الورق المكتوب الذي وجده ألذ طعماً، ولم يكن التدخين في ذلك الوقت شائعًا كما هو اليوم. أخيراً انتقل السكرتير الشاب من طعم إلى طعم حتى انتهى إلى أوراق الرق الصقيل يمضغها ويبتلعها وكان الاهتمام موجّهًا آنذاك إلى إجراء معاهدة سلام بين روسية والسويد تفرضها الدول على شارل الثاني عشر(*)، كما جربت تلك الدول بعد ذلك بنحو قرن أن تفرض معاهدة صلح على نابليون، العام ١٨١٤ وكان أساس المفاوضات معاهدة بين الدولتين بخصوص فنلندة. وعهد غورتز بالنسخة الأساسية لتلك المعاهدة إلى سكرتيره، ولكن عندما تقرّر عرض المشروع على الدول الوسيطة تبيّن فقدان المعاهدة، ووجّهت أصابع الاتهام إلى البارون دي غورتز مشيرة إلى إخفائه المعاهدة إرضاء لأهواء الملك، واعترف سكرتيره بأنه أكل تلك المعاهدة. . . وتبيّن من التحقيق صحة اعتراف السكرتير، فحكم عليه بالإعدام. لكن بما أنك لم تقترف مثل هذا الجرم، خذ سيكاراً، ودخّنه، بانتظار وصول عربتنا.

تناول لوسيان السيكار وأشعله من سيكار الكاهن، كما هي العادة في اسبانية، وهو يقول في نفسه: «إنّه على حق، فما يزال لدي متسع من الوقت للانتحار.».

استأنف الاسباني: «غالبًا ما يبدأ حظ الشباب عندما يبلغ قنوطهم على مستقبلهم أقصى درجاته. هذا ما أردت أن أقوله لك، وفضلت أن أبرهن عليه بمثال تاريخي، فهذا السكرتير الوسيم المحكوم عليه بالإعدام كان في غاية اليأس خاصة وأن ملك السويد لا يستطيع أن يعفو عنه، فالحكم قد أعلن من قبل الولايات

(*) - شارل الثاني عشر (١٦٨٢ - ١٧١٨) ملك السويد (من ١٦٩٧ - ١٧١٨)، انتصر على روسية أولاً في معركة نارفا (١٧٠٣؟) لكن بطرس الأكبر هزمه في بولتافا (١٧٠٩) فاضطر أن يهرب إلى تركيا ليطلب معونة السلطان العثماني الذي خذله فعاد إلى السويد، وهاجم النرويج وقتل في حصار مدينة فردريك شالر. (م. المترجم).

السويدية، لكن الملك غضّ نظره عن هربه، واستقل السكرتير الشاب الفاتن قارباً وفي جيبه بعض الدراهم ووصل إلى بلاط كورلاند(*) ومعه رسالة توصية من الوزير دي غورتز للدوق يشرح له فيها مغامرة محميّه وعادته الغريبة. وضع الدوق الفتى الجميل الهارب سكرتيراً لدى قيّم قصره، وكان هذا الدوق مُبذراً، وله زوجة جميلة، وقيّم قصر وهي ثلاثة أسباب للإفلاس. وإذا كنت تعتقد أن السكرتير الوسيم المحكوم عليه بالموت، لأنه التهم المعاهدة الخاصة بفنلندة، قد أقلع عن عادته الذميمة، فإنك لا تعرف سلطان الرذيلة على الإنسان، فالحكم بالموت لا يردعه عندما يتعلق الأمر بلذّة ابتدعها! من أين تأتي قدرة الرذيلة؟ أمن قوّة خاصّة بها، أو من الضعف البشري؟ هل توجد ميول تصل إلى حدود الجنون؟ لا أستطيع أن أمتنع عن الضحك والسخرية من الأخلاقيين الذين يريدون مكافحة مثل هذه الميول المرضية بعبارات ونصائح جميلة! . . . مرّت فترة من الوقت ذعر خلالها الدوق من رفض قيّم قصره مدّه بمبلغ من المال طلبه، وأراد منه أن يقدّم له كشف حساب عن نفقاته، إنّها حماقة! فلا شيء أسهل من كشوف الحسابات، فالصعوبة ليست أبداً هنا. عهد قيّم القصر إلى سكرتيره الجديد بإعداد ميزانية المخصصات المالية لدوق كورلاند بعد أن قدم له جميع المستندات اللازمة، وفي خلال زحمة أعماله أثناء الليل الذي كاد السكرتير ينهي فيه الميزانية المطلوبة اكتشف الفتى الجميل أنه يمضغ أحد الايصالات الموقّعة من الدوق وهو بمبلغ كبير من المال، وقد مزّقت أسنانه نصف توقيع الدوق: انتابه الرعب وهرع يحبو عند قدمي الدوقة مصرّحاً لها بعادته في التهام الورق التي لم يستطع التخلّص منها. باستعطافه سيدته الجميلة هذا الاستعطاف الذي تمّ في منتصف الليل من قبل الفتى الوسيم استهوى قلب الدوقة التي تزوّجت السكرتير بعد أن غدت أرملة. هكذا في صميم القرن الثامن عشر، وفي بلاد تسود فيها شعارات النبالة، غدا ابن صائغ أميراً عالي القدر. . . بل توصل إلى مقام أسمى! . . . فقد أمسى وصيّاً على العرش بعد موت كاترين الأولى وسيطر على الامبراطورة آنا، وأراد أن يكون ريشليو روسية. وبعد، أيّها

(*) - كورلاند: منطقة في ليتونية على بحر البلطيق، كانت في ذلك الحين دوقيّة تابعة لروسية.
(م. المترجم)

الشاب، أريد أن تعرف أمراً: إنّك إن كنت أكثر حسناً ووسامة من بيرن فأنا، بالرغم من أنني كاهن قانوني بسيط، أكبر قدراً وأهمُّ شأناً من البارون دي غورتز. إذن اصعد إلى العربة! سنجد لك دوقية كورلاند في باريس، وفي حال تعذَّر وجود دوقية فمن المؤكّد حصولك على دوقة».

وضع الإسباني يده تحت إبط لوسيان وحثّه على الصعود إلى عربته ثم صعد إلى جانبه وأغلق الحوذي الباب.

قال كاهن طليطلة للوسيان المنذهل: «تكلّم الآن، فأنا مصغ إليك، ولا تنس أنني كاهن عريق يمكن أن تبوح له بكل شيء دون خطر. إنّك حتى الآن لم تأكل، على الأرجح إلا ميراثك، أو نقود أمّك، وقد أفلست وأنت هارب من دائنيك، وليس في هذا ما يعيبك فالشرف مصان حتى طرفي جزمتك الناعمة الجميلة... هيّا اعترف بشجاعة، وتأكد أنّك في بوحك لي كمن يناجي نفسه».

وجد لوسيان نفسه مثل ذلك الصياد الذي أراد وفق إحدى الحكايات العربية أن ينتحر، فرمى نفسه في لجَّة المحيط وإذا به يصل إلى بلاد تحت بحريّة عجيبة غدا ملكًا عليها. بدا الكاهن الاسباني صادقًا في ودّه، فلم يتردّد الشاعر أن يفضي إليه بمكنونات قلبه، وهكذا قصّ عليه، والعربة تقطع المسافة بين أنغوليم وروفك، كل أحداث حياته دون أن يُغفل أيّاً من أخطائه، وأنهى اعترافه بالفاجعة الأخيرة التي سببها لأخته. وفي اللحظة التي أنهى فيها هذه القصة بشاعرية أكثر من تلك ردّدها على نفسه خلال الأيام الخمسة عشر الماضية، كانت العربة قد وصلت إلى نقطة من الطريق قرب روفك تطلُّ على أملاك آل راستينياك الذي بدرت من الاسباني حركة لا إرادية عند سماع هذا الاسم لأول مرّة.

قال لوسيان: «انظر من أين انطلق راستينياك الشاب الذي لا يضارعني قدرةً لكنه كان أوفر مني حظّاً».

- آه

- نعم، هذا القصر الصغير الريفي هو منزل أبيه، وقد غدا الشاب كما ذكرت لك عشيق السيدة دي نوسنجن زوجة المصرفي الشهير. سرح بي الخيال إلى الشعر، أما هو فكان أكثر مهارة فقد انصرف إلى التطبيق العملي...»

أوقف الكاهن عربته، وأراد، بدافع الفضول، أن يسير قليلاً على الدرب المتفرع عن الطريق العام المؤدي إلى منزل آل راستينياك وهو ينظر إليه باهتمام لم يتوقعه لوسيان من كاهن اسباني[1] سأل لوسيان الكاهن: «هل تعرف آل راستينياك؟».

أجاب الاسباني وهو يصعد إلى عربته: إنني أعرف كل باريس. ثم استأنف: هكذا إذن، أردت أن تقتل نفسك، بسبب عشرة آلاف أو اثني عشر ألف فرنك، إنّك طفل، لا تعرف الناس ولا الأشياء. إن القدر يعادل كل ما يؤمّل به الإنسان، وأنت لا تثمّن مُستقبلك إلاّ باثني عشر ألف فرنك، حسن، سأشتريك في الحال بأكثر من ذلك. أمّا سجن ابن حميّك فأمر تافه، فإذا كان هذا العزيز سيشار مبتكراً فسيحظى بالثروة، والأثرياء لا يُسجنون من أجل دين. يبدو لي أنك لست قويّاً في دراسة التاريخ. يوجد تاريخان: التاريخ الرسمي، المزيّف الذي يُدرَّس، التاريخ **المُعدُّ لمصلحة ولي العهد**(*)، ثم التاريخ السّري الذي يتضمّن الأسباب الحقيقية للأحداث، وهو تاريخ مخجل. دعني أقصُّ عليك باختصار نادرة تاريخية أخرى لا تعرفها، تتعلق بكاهن شاب طموح أراد أن يكون ذا شأن في

---

(١) - أطلق مارسيل بروست M. Proust (١٨٧١ - ١٩٢٢) على هذا المشهد «حزن أوليمبيو ذي الشذوذ الجنسي المثلي» وذلك في دراسة عن سانت بوف Contre Sainte - Beuve، (نشير إلى أن حزن أوليمبيو هو عنوان قصيدة لفيكتور هوغو).

(*) - Ad Usum delphini: وردت باللاتينية في النصّ: هي كتب كانت تؤلف خاصة لتدريس ولي العهد ابن لويس الرابع عشر. ثم ذهبت العبارة مثلاً لكل دراسة تعدُّ لخدمة قضية معينة أو مبدأ سياسي سائد. (م. المترجم)

القضايا العامة فأخذ يتزلّف لأثير الملكة، واهتم الأثير بالكاهن ومنحه مرتبة وزير بإدخاله مجلس المستشارين. وفي مساء ما، كتب أحد هؤلاء الرجال الذين يعتقدون أنّهم يؤدّون خدمة رسالة إلى الكاهن الشاب الطموح رساله ينبئه فيها بأن أثير الملكة المحسن إليه في خطر، فالملك مغتاظ منه وقد عزم على قتله في اليوم التالي إن توجّه إلى القصر (لا تقدّم أبدًا خدمة لا تُطلَب منك أيّها الشاب!). والآن أيها الشاب، ماذا كنت ستفعل لو تلقيت هذه الرسالة؟...

- هتف لوسيان بحماس: أذهب في الحال لأنبّه المحسن إليّ.

- قال الكاهن الاسباني: ماتزال ذلك الطفل الذي كشفت لي عنه مجريات قصة حياتك. إنّ الكاهن الطموح الشاب قال في نفسه: إذا كان الملك مصممًا على التخلص من هذا الأثير حتى بارتكاب جريمة فالمحسن إليّ هالك، وهذه الرسالة قد وصلتني متأخرة ولا جدوى منها! ونام حتى الساعة التي علم فيها بمقتل أثير الملكة المحسن إليه...

- قال لوسيان وقد لاحظ أن الكاهن الاسباني يميل إلى موافقة الكاهن الشاب الطموح على تصرفه: إنّه وحش قاس!

(*) - أحداث ليست ملتبسة وإنما هي متشابكة الأسباب: نزاع بين حاشية ايطالية مغامرة دخلت البلاط الملكي الفرنسي مع كاترين دي مديسي والنبلاء الفرنسيين، وخلاف بين البروتستانت والكاثوليك، وصراع بين نفوذ النبلاء والسلطة الملكية المطلقة: أثير الملكة هو كونسينو كوتشيني المغامر الايطالي المولود في فلورنسة، وقد مارس مع زوجته ليونورا غاليغاي نفوذًا كبيراً على ماري دي مديسي التي سمته مركيز دانكر ثم مارشالا، وكانت وصية على عرش فرنسة بعد موت زوجها الملك هنري الرابع في العام ١٦١٠ والمناداة بابنها لويس الثالث عشر (١٦٠١ - ١٦٤٣) ملكًا وله من العمر عشر سنوات. استاء الملك بتحريض من قائد الجيش شارل دي لوين (١٥٧٨ - ١٦٢١) من نفوذ دانكر وعزم على ابعاده وسجنه في العام ١٦١٧ وعندما قاوم قتله، أما ريشليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢) فكان مطرانًا دخل مجلس الطبقات في العام ١٦١٤ وكان خطيبًا مفوّها سمي كردينالاً في العام ١٦٢٢ غدا رئيسًا لمجلس الوزراء في العام ١٦٢٤، أيّد السلطة الملكية المطلقة وحدّ من نفوذ النبلاء، كان مدعومًا من الملكة الوالدة ماري دي مديسي لكنها حاولت اقصاءه في العام ١٦٣٠ فحرض عليها ابنها الملك لويس الثالث عشر الذي نفاها إلى مدينة كولوني (المانية) وماتت في المنفى. (م. المترجم)

- أجاب الكاهن الاسباني القانوني: جميع الرجال العظام وحوش قساة، وهذا يسمى الكاردينال دي ريشيلو، والأثير المحسن إليه يحمل اسم المارشال دانكر، ألست مقتنعًا معي الآن بأنك لا تعرف جيدًا تاريخ بلادكم، تاريخ فرنسة ألست على حقّ عندما قلتُ لك أن التاريخ الذي يُدَرَّس في الكليات والمعاهد هو مجموعة أحداث محدّدة في الزمن إنّما هي ملتبسة الأسباب ودون أي مغزى(*) ماذا تستفيدون إن عرفتم أنّ جان دارك(*) قد وُجدت في مدة زمنية معينة؟ هل جربتم أن تستنتجوا يومًا أن فرنسة لو ارتضت أبناء بلا نتاجينه(**) سلالة ملكية أنجوية لانضمّ الشعبان تحت تاج واحد وأسسا امبراطورية سادت العالم ولغدت الجزيرتان، اللتان سببّتا جميع الاضطرابات السياسية في القارة، مقاطعتين فرنسيتين؟ . . . وهل درستم الوسائل التي مكنت آل مديسي، وهم التجار البسطاء من الوصول إلى حكم دوقية توسكانية الكبيرة؟

- لا يمكن أن تنظر إلى شاعر في فرنسة نظرتك إلى راهب بندكتي يقضي حياته في العمل الجاد.

- اعلم، أيها الشاب، أنّهم غدوا أدواقًا كباراً بذات الطريقة التي غدا فيها ريشليو وزيراً. إذا فتشت في التاريخ عن الأسباب البشرية للأحداث بدلاً من أن

(*) - جان دارك (١٤١٢ - ١٤٣١) أو عذراء أورليان، ولدت في دومرمي في مقاطعة الفوج، سمعت أصواتًا تدعوها لإنقاذ فرنسة من الغزو الانكليزي. قابلت الملك شارل السابع وأقنعته بالدعوة الغيبية الموجهة إليها، منحها فرقة مسلحة من الجيش سارت على رأسها وتمكنت من فك الحصار عن مدينة أورليان، لكنها فشلت أمام باريس، سلّمت لأعدائها وحوكمت أمام محكمة دينية وعدت ساحرة، حكم عليها بالموت حرقًا، وتمّ تنفيذ الحكم بتاريخ ٣٠ أيار ١٤٣١ في روان طوبت بارّة في العام ١٩٠٩ وأعلنت قداستها في العام ١٩٢٠.

(**) - بلا نتاجينة Plantagenêt: لقب جيوفروا الخامس (١١١٣ - ١١٥١) كونت ودوق نورماندي. صاهر ملك انكلترة هنري الأول وحكم ابنه هنري الثاني انكلترة ودوقية آنجو ونورماندي وتتابعت سلالته المسماة السلالة الدانجوية على عرش انكلترة وايرلندة من ١١٥٤ إلى ١٤٨٥. فالجزيرتان انكلترة وايرلنده حكمتا إذن من قبل سلالة فرنسية وهذا مايقصده الروائي من انضمام الشعبين الفرنسي والانكليزي تحت تاج واحد قرابة أربعة قرون. (م. المترجم)

تحفظ عن ظهر قلب البطاقات المحدَّدة لها، لأمكنك أن تستمد من ذلك إرشادات لسلوكك، فمما تمكنت من أخذه بالمصادفة من مجموعة الوقائع الحقيقية استنتجت هذا القانون: انظر إلى الرجال وخاصة إلى النساء كأدوات، إنما دون أن تشعرهم بذلك، اعبد، مثلما تعبد الإله نفسه، من هو اسمى مقاماً منك ويمكنك أن تستفيد منه، ولا تتركه إلا بعد أن تنال منه ثمناً غالياً جداً لعبوديتك. في تعاملك مع الناس، كن جشعاً مثل اليهودي وخسيساً مثله، واسعَ إلى القدرة مثلما يسعى اليهودي إلى المال. لكن لا تبال بالرجل الذي يسقط، اعتبر أنه لم يكن موجوداً أبداً. هل تعلم لماذا يجب أن تتصرَّف هكذا؟... تريد أن تسيطر على العالم، أليس كذلك؟ يجب أن تبدأ أولاً بإطاعة العالم ودراسته جيّداً. العلماء يدرسون الكتب، والسياسيون يدرسون الناس، ومصالحهم، والأسباب الدافعة لتصرفاتهم. بيد أن العالم والمجتمع، والناس في مجموعهم استسلاميون، مؤمنون بالقضاء والقدر، يعبدون الحدَث الهام. هل تعلم لماذا أعطيتك هذا الدرس الموجز في التاريخ؟ ذلك لأنني توسمت فيك طموحاً لا يُحَدُّ.

- إنه كذلك ياأبت!

- استأنف الكاهن القانوني: «لا حظته جيداً، لكنك في هذه اللحظة تقول في نفسك: هذا الكاهن الاسباني يخترع النوادر، ويعتصر التاريخ ليبرهن لي أنني أتمسّك كثيراً بالفضيلة...» (افترت شفتا لوسيان عن ابتسامة، فأفكاره قد استشفّت تماماً). «لنأخذ، أيُّها الشاب، الأحداث الماضية في حالتها المبتذلة. في يوم ما، كانت فرنسة محتلة في معظمها تقريباً من قبل الإنكليز، ولم يبق للملك إلاّ مقاطعة واحدة، انتفض من صميم الشعب شخصان: شابة مسكينة هي جان دارك التي تحدثنا عنها، وبورجوازي اسمه جاك كور(*). قدّمت الأولى ذراعها وروعة

(*) - جاك كور. Jacqgues Coeur(١٣٩٥ - ١٤٥٦) تاجر ثري في بورج، كان مموّلاً للملك شارل السابع كلّف بمهام دبلوماسية، وطوّر العلاقات التجارية بين فرنسة والشرق، ورسّخ النقد الفرنسي، وساعد في تكوين جيش وطني، أُتهم بالابتزاز، ألقي القبض عليه في العام ١٤٥١ لكنه نجح في الهرب. برّاه لويس الحادي عشر من التهم المنسوبة إليه وأعاد إليه اعتباره إنما بعد وفاته. أقيم له تمثال أمام قصره في بورج الذي يعد نصباً مميّزاً للهندسة المعمارية في القرن الخامس عشر.

براءتها البتوليّة. وبذل الثاني ذهبه: وانقُذت المملكة. لكن ألقي القبض على الفتاة!... وكان بإمكان الملك أن يفتديها، لكنه تركها تُحرَق حيّة. كما أفسح المجال لحاشيته في أن تتهم البورجوازي الشهم الباسل بارتكاب أفدح الجرائم، وأن تستولي على جميع أملاكه، فاغتنت خمسة بيوتات نبيلة من أسلاب البريء، الملاحق، والمحاصر، والمحطم باسم العدالة... وغادر والد مطران بورج[1] المملكة إلى غير رجعة، وليس معه فلس واحد من ثروته في فرنسة، ولا يملك إلا بعض المال الباقي له ديناً على العرب وعلى التجار المسلمين في مصر. يمكنك القول أيضاً: هذه أمثلة قديمة العهد، وكل هذا الجحود يعود إلى ثلاثمئة مئة سنة من المعارف العامّة، وهياكل ذلك العصر أسطورية. وبعد أيّها الشاب ألا تؤمن بنصف الإله الأخير في فرنسة، بنابوليون؟ لقد أهمل تقدير أحد كبار قادته، ولم يُسمَّ مارشالاً إلا محرجاً، وهذا المارشال هو كلّيرمن[2] الذي لم يكلّفه نابوليون بأيّة مهمة ذات شأن، هل تعلم لماذا؟ لأن كليرمن أنقذ فرنسة، وأنقذ نابوليون القنصل الأول في معركة مارنغو بهجمة جريئة لاقت الاستحسان وسط الدم والنار، لكن نابوليون لم يُشِر إلى ذلك العمل البطولي حتى في النشرة العسكرية. سبب برود نابوليون

---

(١) - هو جان ابن جاك كور وقد دخل سلك الكهنوت وسمي مطراناً لبورج في العام ١٤٥٠.

(٢) - كليرمن. كريستوف Ch. Kellerman: (١٧٣٥ - ١٨٢٠) قائد فرنسي انتصر على البروسيين في معركة ڤالمي (٢٠ أيلول ١٧٩٢)، كان قائداً لجيش الألب أثناء حملة ايطالية، وقام بعمل بطولي في معركة مارينغو في إيطالية (١٤ حزيران ١٨٠٠) فبعد مقتل الجنرال دسكس الساعد الأيمن لنابوليون كاد النصر على النمساويين ينقلب إلى هزيمة لكن كليرمن هجم مقتحماً صفوف النمساويين بخمسمئة خيال، وقد أشادت الدوقة دابرنتس في مذكراتها بهذا العمل البطولي واستنكرت جحود نابوليون، ما يجدر ذكره أن إتيين بن كريستوف كلير من كان جنرالاً أيضاً في جيش نابوليون وحارب في اسبانية (١٨٠٩ - ١٨١١) وتميّز خاصة في معركتي لوزن وواترلو.

نحو كليرمن هو أيضًا السبب نفسه في النقمة على فوشيه[1]، وعلى الأمير دي تاليران[2]: إنّه جحود الملك شارل السابع، وجحود ريشليو، هو الجحود في كل عصر...

قال لوسيان: لكن لنفترض يا أبي، أنك أنقذت حياتي، وأنك تهيء لي الحصول على الثروة، إنّما أنت تحرّضني أيضًا على نكران جميلك.

قال الراهب مبتسمًا، وهو يمسك أذن لوسيان ويفتلها بألفة شبه ملكية، وإذا أبديت لي الجحود، فستغدو عندئذ رجلاً قويًا، وسأنحني أمامك، لكنّك لم تبلغ هذه الدرجة الآن، فأنت ماتزال تلميذًا بسيطًا، وتريد أن تقفز بسرعة إلى مرتبة المعلم، إنّه عيب الفرنسيين في عصرك. أفسدهم الاقتداء بنابوليون، وتريد أن تتنحّى لأنك لم تحصل على الرتبة التي تطمح إليها... ولكن هل سعيت بكل قواك ووجّهت جميع جهودك لتحقيق غايتك؟...

- قال لوسيان: كلا، للأسف!

- استأنف الكاهن مبتسمًا: كُنتَ، وفقًا لما يسميه الإنكليز متردّدًا، متقلبًا.

أجاب لوسيان: وما أهمية ماكنته، إذا لم أستطع أن أكون ما أريد.

---

(١) - فوشية Fouché: دوق اوترانت (١٧٥٩ - ١٨٢٠)، من نواب المؤتمر الوطني في عهد الثورة، قمع بشدة فتنة ليون، العام ١٧٩٣ سمي وزيراً للشرطة في عهد حكومة الإدارة، واستمر في هذا المنصب في عهد القنصلية والامبراطورية، خان نابوليون بعد حكم المئة يوم واحتفظ بوزارته. ويذكر المؤرخ فولابيل الذي لم يكن من محبي فوشيه: «في ٦ تموز ١٨١٥، والملكية ماتزال على ابواب باريس نادت جميع الأصوات حول لويس الثامن عشر بإبقاء فوشيه وزيراً للشرطة، وبعد ذلك بشهرين كانت صفة قاتل الملك تلاحقه حتى في مكتب لويس الثاني عشر، مما اضطره إلى الاستقالة في ١٩ أيلول» (تاريخ عودة الملكية الثانية، وملكية تموز).

(٢) - تاليران (١٧٥٤ - ١٨٣٨) كان مطرانًا ودخل الجمعية التأسيسية العام ١٧٨٨، ترأس رجال الكهنوت الدستوريين فحرمه البابا وترك الكهنوت، استلم وزارة الخارجية في عهد نابوليون (١٧٩٧ - ١٨٠٧) شارك في مؤامرة على نابوليون فأعفاه من الوزارة العام ١٨٠٨ شكل الحكومة المؤقتة العام ١٨١٤ واستدعى لويس الثامن عشر استلم وزارة الخارجية عند عودة الملكية لكنه اضطر أن يستقيل بعد استقالة فوشيه بخمسة أيام أي في ٢٤ أيلول ١٨١٥، ويعطي الراهب هريرا هذه الأمثلة لابهار لوسيان بمعرفته التاريخية، وليهيمن عليه بهذه الأحكام الجريئة على أحداث سياسية ماتزال ساخنة.

- قال الكاهن وقد حرص على أن يضمن عبارته بعض الكلمات اللاتينية لإظهار سعة ثقافته: إن وجدت خلف مزاياك الجميلة عزيمة قويّة فلن يعصى عليك أمر في العالم. لقد أظهرت لك ما يكفي من الحب... (ابتسم لوسيان متشككًا). «نعم، استأنف الراهب المجهول ردًّا على ابتسامة لوسيان، إنّك تهمني مثل ابن لي، وأنا على قدَر من القوة يمكنني من أن أحدثك بكل صراحة، مثلما حدّثتني. هل تعلم ماذا يعجبني فيك؟... ضربت صفحًا عن كل ما مرّ بك، ويمكنك أن تستمع إلى درس في الأخلاق لن يتيسّر لك في أيّ مكان آخر، لأن الناس المجتمعين في زُمَر، هم أيضًا أكثر نفاقًا منهم عندما تضطرهم مصلحتهم إلى المداهنة، وهكذا يقضي الإنسان قسمًا كبيراً من حياته في فرز وتصفية ما علق في قلبه خلال اليفاع وتسمّى هذه العملية اكتساب الخبرة».

قال لوسيان في نفسه وهو يستمع إلى الكاهن: «هوذا كهل لبق، يروق له أن يتسلى في الطريق، وقد طاب له أن يثني شابًا مسكينًا عن عزمه على الانتحار، بعد أن صادفه على حافة اليأس، وسيتخلّى عني بعد الانتهاء من مزاحه... لكنه يفهم جيّداً المفارقة، ويبدو لي بمثل قوة بلونده أو لوستو». رغم هذه الفكرة العاقلة، تسرّب الإفساد الذي يحاوله هذا الدبلوماسي إلى نفس لوسيان المستعدّة لتلقيّه وعاث فيها تخريبًا بقدر اعتماده على أمثلة تاريخية شهيرة. أخذ لوسيان بجاذبية هذه المحادثة الكلبيّة(*)، وتعلّق بكلّ طيبة خاطر بالحياة بقدر ما أحسّ بأنه سُحب من عمق الانتحار إلى السطح بذراع قويّة، وهكذا كان يتابع هذه التهكمات التاريخية، بين وقت وآخر، بابتسامة ماكرة، وازدهى الكاهن، بداهة، بانتصاره.

قال لوسيان: «إذا كانت طريقتك في معالجة الأخلاق شبيهة بنظرتك إلى التاريخ، فإنني أريد أن أعرف في هذه اللحظة ما هو دافعك إلى إحسانك الظاهري لي؟».

- أجاب الإسباني ببراعة الكاهن الذي يرى انطلاء حيلته: هذه هي النقطة الأخيرة من غظتي الدينية أيّها الشاب، واسمح لي بأن احتفظ بها، إذ أننا لن نفترق هذا اليوم.

(*) - الكلبي: Cynique: من دعاة احتقار العرف والتقاليد والرأي العام والأخلاق الشائعة.

- قال لوسيان وهو يفكر في دخيلة نفسه أن يكشف غرض الكاهن: ألا تحدثني عن الأخلاق؟

- الأخلاق أيها الشاب تبدأ بالقانون، ولو أنّ الأمر يتعلّق بالدين فقط لغدت القوانين دون جدوى: فالشعوب المتديّنة لا تحتاج إلا للقليل من القوانين، وفوق القانون المدني يوجد القانون السياسي. لكن هل تعلم ماذا يرى رجل السياسة على جبين القرن التاسع عشر؟ كتب على جبين تاريخكم أن الفرنسيين في مطلع القرن المذكور، ابتكروا في العام ١٧٩٣ السيادة الشعبيّة التي انتهت بحكم امبراطوري مطلق. هذا بالنسبة لتاريخكم الوطني. أما بالنسبة للأخلاق، فقد تميّزت السيدة تاليان والسيّدة دي بوهارنه بسلوك متماثل، وتزوج نابوليون الثانية وجعل منها امبراطورتكم بينما رفض استقبال الأولى رغم أنّها غدت أميرة. ورغم أن نابوليون كان لا متسرولا(*) في العام ١٧٩٣، فإنه انتعل تاجًا من حديد في العام ١٨٠٤، أما العاشقان الشرسان المناديان المساواة أو الموت في العام ١٧٩٢ فقد أصبحا منذ العام ١٨٠٦ متواطئين مع ارستقراطية شرعية متضامنة مع لويس الثامن عشر؟(**).

(*) - اللامتسرول: Sans - Culotte: لقب الثوار الفرنسيين في العام ١٧٩٣ وخاصة المنادين منهم بسقوط الملكية وإعلان الجمهورية وذلك لارتدائهم البنطال عوضًا عن السروال الخاص بالطبقة الارستقراطية.

(**) - هذه الملاحظات المتعلقة بنواح تاريخية قدلا تبدو واضحة لبعض القراء العرب لذلك نرى التعليق عليها بالملاحظات التالية:

السيدة تاليان: (١٧٧٣ - ١٨٣٥) هي تريزا كاباروس إسبانية الأصل، زوجة جان تاليان (١٧٦٧ - ١٨٢٠) عضو المؤتمر الوطني من الجبليين أي أنصار روبسبيير ودانتون لكنه انقلب مع بعض رفاقه على روبسبيير وسان جوست فيما يسمى أيام ترميدور الثورية (٢٧ - ٢٨ تموز الثورية) وأعدم روبسبيير وسان جوست مع عشرين من رفاقهما وأطلق على السيدة تاليان «لقب نوتردام دي ترميدور» وكان نابوليون من المغضوب عليهم في تلك الأيام لذلك رفض مقابلة السيدة تاليان بعد أن غدا في السلطة. ناصرت السيدة تاليان الحزب الملكي بعد العام ١٨٠٦ فغدت المركيزة دي فونتيني ثم الأميرة دي شيماي. وهي وزوجها من لمّح إليهما بلقب العاشقين الشرسين.

السيدة دي بوهارله: (١٧٦٣ - ١٨١٤) هي جوزفين تاشر، ولدت في المارتينيك، تزوجت في العام ١٧٧٩ الفيكونت دي بوهارنه الذي أعدم على المقصلة في العام ١٧٩٤ ثم الجنرال بونابرت العام ١٧٩٦ وغدت إمبراطورة مع إعلان الإمبراطورية في ١٨ أيار ١٨٠٤ وطلّقها نابوليون في العام ١٨٠٩ لأنها لم تنجب له وريثًا ليتزوج في العام ١٨١٠ ماري لويز ابنة امبراطور النمسة. توفيت جوزفين بوهارنه في قصر ماليزون العام ١٨١٤. (م. المترجم)

أما في ديار الاغتراب فالارستقراطية التي تتصدّر الآن عرش ضاحية سان - جرمَن قد فعلت أسوأ من ذلك، فقد كانت مرابية، وتاجرة، وصانعة للمعجنات الرخيصة، وطاهية، ومزارعة، وراعية غنم. في فرنسة إذن، وفي القانون السياسي، كما في القانون الأخلاقي، ناقض الجميع كما ناقض كل فرد، منذ البداية وحتى نقطة بلوغ الهدف، آراءهم بسلوكهم، أو سلوكهم بآرائهم، وغاب المنطق سواء لدى الحكومة أو لدى الخاصة، وهكذا لم يعد لديكم أخلاق، وغدوتم تسعون اليوم إلى النجاح، وهو غايتكم السامية في جميع تصرفاتكم أيّاً كانت، ولا غاية للفعل في ذاته، إنّما انحصرت الغاية كلها في الفكرة التي يكوّنها الآخرون عنها. من هنا أيّها الشاب، تنشأ قاعدة ثانية: اسعَ إلى جمال المظاهر! استُر الوجه الخفيّ من حياتك، واعرض الوجه الظاهر بمنتهى البريق. اجعل الكتمان، هذا الشعار الذي يتمسك به الطامحون، ومنهم رهبانيتنا، شعاراً لك. الكبار يرتكبون الدنايا بقدر ما يرتكبها البؤساء تقريباً. لكن خسّة الكبار تتم في السرّ وهم يتباهون بفضائلهم: فيبقون كباراً، أمّا الصغار فيبسطون فضائلهم في السّر، ويعرضون مصائبهم في وضح النهار، فيزدرون ويحتقرون. أخفيتَ أمجادك وأظهرت مصائبك. اتخذت علناً ممثلة خليلة لك، وعشت في منزلها ومعها. لم يوجّه إليك أي لوم، رأى كل فرد أن كلاً منكما حرٌّ تماماً، لكنك عارضت جهاراً أفكار المجتمع لذلك فقدت الاحترام الذي يكنُّه لمن يتقيدون بقوانينه. لو أنك تركت كورالي لهذا السيد كاموزو، وكتمت علاقتك بها، لتزوّجت السيّدة دي بارجتون وغدوت محافظ أنغوليم والمركيز دي روبمبره. ألا تغيّر عاداتك؟ أظهر للملأ وسامتك وظرفك، وفطنتك، وشاعريتك، وإذا أجزت لنفسك بعض المخازي الصغيرة، فلتكن ضمن أربعة جدران، عندها لن تهتم بإحداث لطخات وسخة على زخارف هذا المسرح الكبير المسمى العالم. سمّى نابوليون ذلك: **غسل البياضات الوسخة ضمن الوسط العائلي**. من القاعدة الثانية تنتج هذه اللازمة: كلّ شيء في الشكل. انتبه جيّداً إلى ما أسميه **الشكل**. يوجد أشخاص جهلة، تدفعهم الحاجة الماسّة إلى

أن يستولوا بالعنف على مبلغ ما من الآخرين، فيُطلق عليهم اسم مجرمين، وتلاحقهم العدالة، بينما رجل عبقري مسكين يجد سر اختراع يعادل كنزًا، ويقرضه دائن ثلاثة آلاف فرنك (على غرار هذين الأخوين كوانته اللذين استغلا سندات دين الثلاثة آلاف فرنك بين أيديهم لسلب ابن حميّك)، ويقوم الدائن بتعذيب المخترع المدين المسكين ليتخلى له عن سرّ اختراعه أو عن جزء منه، وما من حسيب له إلا ضميره، والضمير لا يقود إلى محكمة الجنايات، وأعداء النظام الاجتماعي يستغلون هذا التباين لينجوا وراء العدالة، ويعلنوا غضبتهم باسم الشعب مطالبين بإرسال لصّ إلى سجن الأشغال الشاقّة لأنه سرق ليلاً بضع دجاجات من قنّ أحد البيوت، بينما يسبّب تاجر ثري دمار عدد من العائلات بإعلانه إفلاس احتيالي. لكن هؤلاء المنافقين يعرفون جيدًا أن القضاة بإدانتهم للصّ الدجاج يحافظون على الحاجز الفاصل بين الفقراء والأغنياء الذي تؤدي إزالته إلى نهاية النظام الاجتماعي، بينما المفلس، المتحايل على المواريث والمصرفي الذي يدمّر مشروعًا لمصلحته الخاصة لا يسبّبان إلا إزاحات في الثروة. وهكذا فالمجتمع يابنيّ مضطر لأن يميّز لأجل مصلحته ما أحرّضك على تمييزه من أجل مصلحتك. النقطة الكبرى أن تضاهي كل المجتمع، فنابوليون، وريشيلو، وآل مديسي قد ضاهوا عصرهم كله. أنت تعد نفسك لا تساوي إلا اثني عشر ألف فرنك!... ومجتمعكم لا يعبد الإله الحقيقي بل عجل الذهب! هذا هو دين شرعتكم الدستورية(*) التي لا تهتم، من الناحية السياسية إلا بالملكية الخاصة. ألا يعني هذا القول لجميع الأشخاص: اعملوا على أن تكونوا أغنياء[1]؟... فعندما تعرف كيف تحصل على الثروة شرعيًّا، وتغدو غنيًّا، وتحمل اسم المركيز دي روبمبره، ستسمح لنفسك بترف التفاخر، وستجاهر آنذاك بكثير من الملذات دون أن يجرؤ أحد على

(*) - هي الشرعة التي أصدرها لويس الثامن عشر بعد سقوط إمبراطورية نابوليون وعودة الملكية الثانية بتاريخ ٤ حزيران ١٨١٤.

(١) - يبدو لنا أن بلزاك يعقّب هنا على لسان شخصيته الروائية على الخطاب الشهير الذي هتف الوزير غيزو خلاله بتاريخ الأول من آذار ١٨٤٣ مخاطبًا الشعب عبر المجلس النيابي «اغتنوا». وقد سخر وربسر من هذا الخطاب في الملهاة اللاإنسانية (غاليمار ١٩٦٥).

اتهـامك بأن لا تفـوتك واحـدة منهـا. ثم أرد ف وهو يربـت على يد لوسـيـان، وإن فاتك شيء منهـا، وهذا ما لا أنصـحك به أبدًا، فمـاذا يجب أن يدور آنذاك في هذا الرأس الجميل؟... المسألة التالية فقط: تحديد هدف برّاق وكتمان وسائل الوصول إليه، والتستر على مراحل السير فيه. تصرّفت كطفل، فكن رجلاً، كن صيّادًا، قف بالمرصاد، اجعل المجتمع الباريسي كـمينًا لك وترقب الفريسة والمناسبة، لا تراع شخصك، ولا ما يسمى وقار المقام، لأننا نذعن جميعًا لشيء ما، لنقيصة أو ضرورة. لكن تقيّد بالقانون السامي! السرّية.

- هتف لوسيان: إنك تروّعني يا أبي! يبدو لي أنها نظرية طريق المغامرة الكبرى.

- قال الكاهن القانوني: إنّك على حقّ، لكنها لا تصدرعني. هكذا استنتج محدثو النعمة، البيت المالك في فرنسة، والبيت المالك في النمسة. إنّك لا تملك شيئًا. وأنت في الحالة التي كان فيها آل مديسي، وريشليو ونابوليون، في بداية طموحهم. هؤلاء الأشخاص، ياصغيري، قدروا مستقبلهم بالنسبة لنكران الجميل، والخيانة، والمعارضات الأكثر عنفًا. يجب الإقدام على كل شيء للحصول على كل شيء. ألا نفكر بالأمر؟ عندما تجلس إلى طاولة لعب «البويوت»(*)، هل تناقش الشروط؟ قواعد اللعبة موجودة وعليك القبول بها وممارستها.

فكر لوسيان في نفسه: «هيّا، إنّه يعرف لعبة البويوت».

استأنف الكاهن: كيف تتصرف في لعبة البويوت، هل تمارس فيها أجمل الفضائل، الصراحة؟ إنّك لا تخفي أوراقك فقط، بل تحاول أيضًا عندما تكون متيقنًا من الكسب الإيهام بأنّك تعرّض نفسك لخسارة كلية. أخيرًا، إنّك تستتر وتناور، أليس كذلك؟... إنّك تكذب لتكسب خمس لويسيات(**)!... ماذا تقول عن لاعب يظهر الكرم والشهامة ويخطر الآخرين بأن أوراق لعبه تتضمن

(*) - البويوت Bouillotte: لعبة ورق سادت منذ العام ١٨١٠.

(**) - اللويسية Le Louis: الليرة الذهبية الفرنسية، وكانت تساوي في ذلك الحين عشرين فرنكًا.

البريلان المربع[1]؟ إن الطموح الذي يريد الصراع وهو متقيد بأحكام الفضيلة في مجال يناوئه خصومه المتخلّون عن تلك الأحكام هو طفل يقول له السياسيون العريقون ما يقوله لاعبو الورق لمن لا يستغل حظّه في حصوله على البريلان: «أيّها السيد لا تقامر أبداً في البويوت». هل أنت الذي وضعت قواعد لعبة الطموح؟ لماذا نبهتك إلى وجوب مضاهاة المجتمع؟ . . . لأن المجتمع في الوقت الحاضر، أيّها الشاب، استأثر بشكل غير محسوس، بكثير من الحقوق وفرضها واجبات على الأفراد، حتى أنّ الفرد وجد نفسه مضطراً للصراع مع المجتمع. لم يعُد للقوانين وجود، فالتقاليد وحدها هي السائدة، أي المظاهر المرائية، الشكل دائماً. (بدرت من لوسيان حركة معبرة عن دهشته). قال الكاهن وقد خشي أن يثير براءة لوسيان: «آه! ياولدي، هل تتوقع أن تصادف الملاك جبرائيل متمثلاً في رئيس دير مثقل بجميع آثام الدبلوماسية المضادة للملكين (إنني وسيط بين فرديناند السابع ولويس الثامن عشر، وهما كبيران. . . ملكان يدينان كلاهما بعرشه إلى تدابير. . . عميقة)؟ . . . إنني مؤمن بالله، لكنني أشدُّ إيماناً برهبانيتنا، ورهبانيتنا لا تؤمن إلا بالسلطة الزمنيّة. ولجعل هذه السلطة قويّة جداً، تتمسك رهبانيتنا بالكنيسة الرسولية الكاثوليكية الرومانية، أي مجموعة العواطف التي تبقي الشعب في الخضوع. نحن فرسان المعبد الحديثون. لنا عقيدتنا، ومثل المعبد، دُمِّرت رهبانيتنا للأسباب ذاتها: لقد تضاهت مع العالم. تريد أن تكون جنديّاً، سأكون قائدك. أطعني كما تطيع امرأة زوجها، وكما يطيع طفل أمه، وأنا أضمن لك أنك ستغدو خلال ثلاث سنوات المركيز دي روبمبره، وستتزوج إحدى أنبل فتيات ضاحية سان جرمن، وستجلس في أحد الأيام على مقاعد مجلس الأعيان. في هذه اللحظة، لو لم أسلبك بمحادثتي، لكنت جثّة ضائعة في سرير عميق من رواسب وحول النهر، أليس هذا ما كنت تنوي القيام به؟ إذن ألا تقوم بجهد شاعري الآن؟ . . . » (نظر عند

(١) - البريلان المربع: Brelan: ثلاث ورقات من نوع واحد في لعبة البويوت في يد أحد اللاعبين (ثلاث عشرات مثلاً) تتممها الورقة المكشوفة (أي العشرة الرابعة في مثالنا) وحاملها هو الرابح حتماً.

ذلك لوسيان إلى حاميه بفضول) واستأنف الكاهن الإسباني: «الشاب الجالس هنا، في هذه العربة، إلى جانب رئيس الدير كارلوس هريرا، الكاهن القانوني الفخري لمجلس رهبان طليطلة، الرسول السري لصاحب الجلالة فرديناند السابع[1] إلى صاحب الجلالة ملك فرنسة يحمل إليه برقية سجل فيها على الأرجح: ***عندما ستخلصني من الورطة التي أنا فيها، أشنق جميع الذين أتملق إليهم الآن، بمن فيهم رسولي إليك ليكون تدخلك في سرية تامة***[2]، هذا الشاب، لا علاقة له بعد الآن مع الشاعر الذي يعد في عداد الأموات، لقد انتشلتك من الماء، وأنقذتك من الغرق، ورددت لك الحياة، وأنت الآن تنتمي لي مثل انتماء المخلوق إلى الخالق، ومثل العفريت إلى الجني، والإتشغلان إلى السلطان العثماني[2]، والجسد إلى الروح! أنا أبقيك بيد قوية قادرة على دروب السلطة، غير أنني أعدك بحياة من المسرّات، ومراتب الشرف، والاحتفالات المتواصلة... لن ينقصك المال أبداً... ستتألّق، وستتباهى، بينما سأنحني في أوحال الأساسات لأؤمن لك بنيان ثروة متينة الدعائم. أنا أحبُّ السلطة للسلطة! سأكون دائمًا سعيداً لمنحك القدرات العالية المحرّمة عليّ. أخيراً، سأجعل روحي تحلّ فيك! بيد أنك في اليوم الذي

(١) - فرديناند السابع (١٧٨٤ - ١٨٣٣) ابن شارل الرابع تنازل له والده عن العرش في العام ١٨٠٨ أثناء غزو نابوليون لإسبانية، أسره نابليون ووضعه في قصر فالنساي في فرنسة وولّى أخاه جوزيف مكانه، عاد إلى عرشه بعد سقوط نابوليون العام ١٨١٤ واضطر إلى الاعتراف بالنظام الدستوري القائم مراءاة ونفاقًا وكان في الوقت نفسه يتآمر على حكومته مع فرنسة، فهذا الهذر من هريرا قابل للتصديق من قبل محادثه الساذج، والمشهد هو في بداية تشرين أول ١٨٢٢. وقد انتظمت الحركات الملكية المتطرفة في إسبانية وفرنسة على حدود جبال البيرنيه، وعارض فيليل وزراء فرنسة التدخّل في إسبانية لكن الملكيين المتطرفين حرضوه على ذلك وانعقد مؤتمر فيرونا في ٢٠ تشرين أول ١٨٢٢ وانضم ماتيو دي مونمورنسي قائد الجيش الفرنسي إلى الحزب الملكي وسار على رأس جيشه إلى إسبانية، وأعاد في العام ١٨٢٣ السلطة المطلقة إلى الملك فرديناند السابع وهكذا فإن الجزوتي الإسباني الغامض يمكنه أن يدّعي بأنه مرسل في مهمة سرية من قبل ملك إسبانية المتآمر ضد حكومته إلى ملك فرنسة.

(٢) - العفريت روح شريرة تأتمر بأمر الجن، وقد سادت قصص العفاريت والجن في ألف ليلة وليلة المنقولة إلى الفرنسية. والإتشغلان: الحاجب في قصر يلدز أيام السلاطين العثمانيين.

ترى فيه هذا الميثاق بين الإنسان والشيطان، أو الطفل والدبلوماسي لا يوافقك، يمكنك دائمًا أن تذهب لتفتش عن مكان صغير مثل ذلك الذي حدّثتني عنه، لتغرق نفسك فيه: ستكون أكثر أو أقل تعاسة أو عارًا بقليل مما أنت فيه الآن.

- هتف لوسيان وهو يرى العربة تتوقّف أمام إحدى محطات الاستراحة: ليست هذه عظة مطران غرناطة[1]!

- لا أعلم أي اسم ستطلقه على هذه التعليمات الموجزة، يابني، لأنني سأتبنّاك وأجعل منك وريثي، ولكن هذا هو قانون الطموح. فالمصطفون من قبل الله قليلو العدد، ولا خيار أمامنا إلا أحد أمرين: إمّا الانزواء في عمق دير حبيس (وستجد فيه غالبًا العالم مصغرًا!) أو قبول هذا القانون.

- قال لوسيان محاولاً أن يسبر روح هذا الكاهن الرهيب: ربّما كان الأفضل عدم التبحّر في العلم.

- استأنف الكاهن القانوني: كيف! أبعد ممارستك اللعب دون أن تعرف قواعد اللعبة تتخلى عن الجولة في اللحظة التي غدوت فيها قويًّا ومدعومًا بعرآب شديد المراس... وحتى دون أن تبدي رغبة في خوض مباراة الثأر! كيف لا تخالجك الرغبة في أن تنتقم من أولئك الذين طردوك من باريس!».

ارتعش لوسيان كأن أداة من البرونز، أو صنجًا صينيًّا[*] دوّى في أذنيه، بهذه الأصوات الرهيبة التي هزّت أعصابه.

استأنف الكاهن وقد ظهرت على قسمات وجهه الذي لوحته شمس إسبانية تعابير رهيبة: «لست إلا كاهنًا متواضعًا ولكن إن حقّرني بعض الناس وأغاظوني وعذّبوني وخانوني وباعوني كما فعل معك أولئك الغادرون الذين حدّثتني عنهم،

---

(١) - تلميح إلى واقعة شهيرة من وقائع جيل بلاس بطل رواية ليزاج التي تحمل الاسم نفسه، وهو شاب مثقف حكم عليه بالعيش من التحايل مما أكسبه الحكمة، وقد أشار بلزاك إلى هذه الواقعة في رواية النسيب بونس أيضًا.

(*) - الصنج الصيني: صفيحة من معدن دائرية معلّقة، يُضرب عليها بمقرعة فتعطي رنّات شديدة الوقع.

فإنني أغدو مثل بدوي الصحراء! . . . نعم، سأنذر آنذاك جسمي وروحي للانتقام، لا أبالي في أن أنهي حياتي معلقًا على مشنقة أو مشدود العنق إلى مخنق(*)، أو جالسًا على خازوق(**)، أو مساقًا إلى المقصلة(***) كما في بلادكم، لكن لن أسلّم رأسي للقطع قبل أن أسحق أعدائي تحت قدميّ. لزم لوسيان الصمت، إذ لم يعد يشعر بالرغبة في أن يكشف عن مزيد من أفكار هذا الكاهن الرهيب.

- أنهى الإسباني حديثه بالقول: «بعض الناس ينتمون إلى هابيل وآخرون إلى قابيل، أما أنا فهجين من هذا وذاك: قابيل على أعدائي، هابيل مع أصدقائي، وويل لمن يوقظ بي مورّثات قابيل! . . . بعد كل حساب، أنت فرنسي، وأنا أسباني، علاوة على أنني كاهن قانوني! . . .

قال لوسيان في نفسه وهو يتأمّل الحامي الذي أرسلته إليه السماء: ياللطبع العربي لم يكن في ملامح الأب كارلوس هريرا ما يشير إلى الجزويتي أو إلى رجل الدين، فهو قصير بدين، عريض اليدين، ضخم الجذع، ذو قوةّ هرقلية، ونظرة رهيبة يلطفها حلم الواثق من أنّه الآمر المطاع، وبشرة برونزية لا يفصح ظاهرها عما يجول في داخل نفس صاحبها. كلّ ما فيه يوحي بالنفور منه لا بالتعلّق به. شعره الطويل الجميل المخضّب بالذرور على نسق الأمير تاليران يعطي لهذا الدبلوماسي الفريد مظهر المطران، والشريط الأزرق المحاط بالأبيض الذي يتدلّى منه صليب ذهبي يشير إلى مقامه الكهنوتي، وقد ظهر الكاهن بداهة نسبة للوسيان بمزيد من التأنق، والتملّق، كهر أليف تقريبًا، فحص لوسيان كل شيء باهتمام وقلق، وشعر أنّ الأمر يتعلق في هذه اللحظة بالحياة أو الموت، إذ أنه يوجد الآن في المحطة الثانية

(*) - مخنق Garrotte: طوق حديدي كان الإسبان ينفذون به أحكام الإعدام بأن يضعوه في عنق المحكوم فيطبق عليه حتى يزهق روحه، وقد يجهز هذا الطوق أحيانًا برؤوس حادة تخرق النخاع الشوكي للمحكوم وتقتله.

(**) - الخازوق pap: عمود طويل محدّد الرأس يُدخل في دبر المجرم فيموت عليه.

(***) - المقصلة Guillotine: (نسبة إلى غيوتين (١٧٣٨ - ١٨١٤) الطبيب الفرنسي الذي اخترعها) أداة اعدام تتألف من ساطور حاد وثقيل ينزلق على سكة مؤلفة من دعامتين قائمتين حتى عنق المحكوم، المنحصر في فتحة نصف دائرية، وقد ساد استعمالها في عهد الثورة بدءًا من ١٧٩٠.

لإبدال الخيل بعد روفك، وعبارات الكاهن الإسباني الأخيرة حركت كثيراً من أوتار قلبه، ولنصرح بأنّ مما يخجل لوسيان والكاهن، الذي كان يدرس وجه الشاعر الوسيم، إن هذه الأوتار هي الأكثر سوءاً، إنّها تلك التي تهتز تحت هجمة العواطف المنحطّة. استعاد لوسيان رؤية باريس، وأحسّ بأنه يمسك ثانية بزمام السيطرة التي أفلتت من يديه غير الماهرتين في المرة الأولى. إنّه في طريقه للأخذ بالثأر! اختفت مقارنة حياة المقاطعات بحياة باريس التي أجراها، وكانت أكثر الأسباب تأثيراً في تفكيره بالانتحار: إنه يعود ليجد نفسه مجدداً في وسطه لكنه الآن محمي بسياسي عميق الغور لا يقل إثماً عن كرومويل.

قال في نفسه: «كنت واحداً، وسنكون اثنين»، وكلّما اكتشف المزيد من أخطاء سلوكه السابق ازداد اهتمامه بالإكليروسي، فقد ازدادت قيمة إحسان هذا الرجل طرداً مع الشعور بالتعاسة. لم يعد يُدهَش لشيء، غير أنّه تساءل ما هو دافع رسول الدسائس الملكية هذا. أقنع نفسه في البدء بسبب عام: الإسبانيون أريحيون كرماء! لكل شعب طبعه الخاص، فالإسباني شهم، والإيطالي مسمّم حسود، والفرنسي خفيف طائش، والألماني صريح، والإنكليزي نبيل، واليهودي خسيس. انظروا إلى هذه القضايا في انعكاساتها تتوصلوا إلى الحقيقة: فاليهود احتكروا الذهب، وألفوا أوبرا **روبير الشيطان**، ومثلوا مسرحية **فيدرا**، وأنشدوا مغناة **غيوم تل**، واشتروا اللوحات الفنية الشهيرة، وبنوا القصور، وكتبوا **حكايات الرحلات**[1] والقصائد المدهشة، ووصلوا إلى درجة من القوّة وطّدوا فيها ديانتهم وغدا البابا

---

(١) - مؤلّف أوبرا روبير الشيطان (١٨٣١) هو الموسيقي الألماني مايربير الملقب جياكومو (١٧٩١ - ١٨٦٤) وقد ولد في برلين، لكنه عاش في باريس، وقد حلّل بلزاك تلك الأوبرا في قصته غامبارا وبتاريخ ٦ نيسان ١٨٤٣ أشاد بهذا العمل في رسالة للسيدة هانسكا. وقد لعبت اليزابيت فليكس الملقبة الآنسة راشيل (١٨٢١ - ١٨٥٨) السويسرية الأصل مأساة فيدرا لمؤلفها راسين (١٦٧٦) على المسرح الفرنسي. أما حكايات الرحلات Reisebilder الذي ظهر بين ١٨٢٦ - ١٨٣٠ فهو من تأليف الكاتب الألماني هنري هين (١٧٩٧ - ١٨٥٦) الذي كتبه بالفرنسية والألمانية. ومغناة غيوم تل (قصة النّبال السويسري الذي طلب منه عند رفضه تقديم التحية لقبعة القاضي أن يرمي بسهم تفاحة على رأس ابنه) وقد وضعها الشاعر الألماني شيلر في مسرحية العام ١٨٠٤ فلا يعرف أنها غنيت من قبل أي ممثل يهودي.

مديناً لهم! في ألمانية، ولأتفه الأسباب، يطلب من الغريب: «هل أنت هنا بموجب عقد؟» ويطول الجدل حول شرعية العقد. في فرنسة يُهلَّل منذ خمسين عاماً على المسرح لحماقات وطنية، وتُعتمر باستمرار قبعات لا تعليل لها، ولا تتغيّر الحكومة إلا بشرط السير دائماً على نهج سابقتها!... وانكلترة تقذف في وجه العالم خيانات غادرة لا يماثلها إلا جشعها، وإسبانية بذّرت الذهب الذي حصلت عليه من الهندين القديمة والجديدة، وما من بلد الآن قلّت فيها أحداث التسميم مثل إيطالية حيث غدت الطبائع أكثر مرونة وظرفاً، وقد عاش الإسبانيون مدة طويلة على أمجاد وشهرة المغاربة، والعرب المسلمين.

عندما صعد الإسباني إلى العربة همس في أذن الحوذي: لك مكافأة ثلاثة فرنكات إن سِرتَ مسرعاً[1] ونادى لوسيان: «هيا اصعد» وتردّد هذا أولاً ثم صعد بذريعة أن يبادر الكاهن **بإدانة من كلامه**.

قال للكاهن: ياأبت، من حقّ الرجل الذي أظهر منتهى رباطة الجأش وهو يستمع إلى الحِكَم التي يصفها كثير من البورجوازيين أنّها منافية تماماً للأخلاق...

- قاطعه الكاهن قائلاً: وهي بمنتهى القسوة أيضاً، فهي الفضيحة التي أراد يسوع المسيح أن تكون من بين الآلام التي تعرّض لها، ولهذا السبب يرتاع الناس وينتابهم الهلع من الفضيحة.

- استأنف لوسيان: إن رجلاً من هذه الجِبِلة الصلبة القويّة لن يُدهش من السؤال الذي سأطرحه عليه.

- قال كارلوس: هيّا، ياولدي! إنّك لا تعرفني. هل تعتقد أنني أتخذ سكرتيراً لي قبل أن أتعرّف على ما يؤمن به من مبادئ تضمن لي عدم التعرّض لإدانته؟ إنني مسرور منك، فأنت ما تزال تملك كل براءة الشاب المزمع على الانتحار في العشرين من عمره. ما هو سؤالك؟

(١) - كان حوذي خيل الإبدال يتقاضى ٣٠ فلساً أجرة الخيل بين محطتين ومثلها مكافأة له، فالكاهن وعد الحوذي إذن بضعف مكافأته (٣ فرنكات = ٦٠ فلساً).

- ما سبب اهتمامك بي؟ ما هو الثمن الذي تدفعه لإطاعتي لك؟ . . . لماذا تعطيني كل شيء؟ ماذا ستستفيد مني؟»

نظر الإسباني إلى لوسيان مبتسمًا: لننتظر الوصول إلى سفح إحدى الهضاب، فنصعده سيراً على الأقدام ونتكلم في الهواء الطلق، فالعربة الصغيرة لا تحفظ سراً.

ساد الصمت مدة من الوقت بين رفيقيّ الطريق، وساعدت سرعة الجري، إن صحّ القول، على إثارة نشوة معنوية في نفس لوسيان، فقال وكأنه يستيقظ من حلم:

«أبت، ها هو سفح الهضبة أمامنا».

- قال الكاهن وهو يصيح بالحوذي بصوت قوي للتوقف: «هيّا لنسر على الأقدام.»

وانطلق الاثنان في الطريق الصاعدة.

قال الإسباني وهو يتأبط ذراع لوسيان: «هل فكّرت، ياولدي، بمسرحية فينيسية المحررة[1] لأوتواي؟ هل أدركت تلك الصداقة العميقة بين رجل ورجل، التي تربط بيير بجافيه، وهي صداقة تجعل المرأة بالنسبة لهما شيئًا تافهًا، وتغيّر بينهما جميع العلاقات الاجتماعية؟ . . . وبعد إليك هذا وأنت الشاعر».

قال لوسيان في نفسه: «الكاهن القانوني خبير بالمسرح أيضًا». وسأله: «هل قرأت ڤولتير؟».

- أجاب الكاهن: فعلت ما هو أفضل، مارست آراءه عمليّـاً.

- أنت لا تؤمن بالله؟

---

(١) - موضوع هذه المأساة (١٦٨٥) التي تعود إلى الكاتب الانكليزي توماس أوتواي (١٦٥٢ - ١٦٨٥) مستمد من الرواية التاريخية تآمر الإسبان على جمهورية فينيسية للراهب سيزار دي سان ريال (١٦٧٤)، وغرام جافيه لبلفيديرا وخلاعة السنيور انطونيو مع العاهرة آكيلينا، والصداقة الحميمة بين بيير وجافيه كلها موضوعات وشخصيات سحرت بلزاك وتركت آثاراً هامة في نتاجه ففوترن في الأب غوريو يعطي مثلاً لراستينياك الصداقة الرجولية بين بطلي أوتواي.

- قال الكاهن باسماً: هيّا إنّني أنا الملحد، ألا ننتقل إلى الناحية العملية، ياصغيري. وأحاط خصره بذراعه واستأنف: إنني في السادسة والأربعين من العمر، إنني ابن غير شرعي لسيّد كبير، هكذا لا عائلة لي، لكنّ لي قلبًا... لكن اعلم هذا، وانقشه في مخّك الذي مايزال ليّنًا: العزلة ترهب الإنسان، وأكثر مايروّعه العزلة المعنوية. عاش النسّاك الأوائل مع الله، كانوا يسكنون العالم الأكثر كثافة بالسكان، العالم الروحي. أمّا مكتنزو المال فيسكنون عالم النزوات والملذات. ينحصر تفكير مكتنز المال في الحصول على كل شيء، بما في ذلك إشباع غريزته الجنسية، أول فكرة لدى الرجل سواء كان مجذوماً أو محكوماً بالأشغال الشاقة، مرذولاً أو مريضاً، هي أن يجد شريكاً لمصيره. لإشباع هذه العاطفة، التي هي الحياة بالذات، يستخدم جميع قواه، وكل قدرته، وحميّا حياته. لولا هذه الرغبة العليا هل أمكن للشيطان أن يجد رفاقًا له؟... لهذه الرغبة يجب أن يُنظم الشعر والقريض الذي يعد مقدّمة **للفردوس المفقود**، مقدمة هي تقريظ للتمرّد.

- قال لوسيان: هذه هي إلياذة الفساد.

- وبعد، إنني وحدي، وأعيش في عزلة، وإذا كان لي ثوب الكاهن، فأنا لا أملك قلبه. أحبُّ أن أضحّي، لدي هذا العيب، وأنا أحيا بالتضحية، لهذا السبب أنا كاهن. لا أخشى الجحود، وأنا معترف بالجميل. لا تعني الكنيسة لي شيئًا، إنها فكرة. وأنا مخلص لملك إسبانية. لكن لا يمكن حبّ هذا الملك، إنّه يحميني، ويهيمن عليّ. أريد أن أحبّ صنيعتي، وأشكله، وأكيفّه لمنفعتي لأحبّه كما يحبُّ الأب ابنه. سأتنقل في عربتك السريعة ذات العجلتين، وسأبتهج لنجاحاتك مع النساء قائلاً: «إنّه أنا، هذا الشاب الوسيم! أنا خلقت هذا المركيز دي روبمبره وفرضته على المجتمع الأرستقراطي، ورفعته من صنعي. ينطق بصوتي، ويصمت باسمي، ويستشيرني في كل شيء. ألم يكن رئيس الدير الأب دي ڤرمون[1] كل ذلك بالنسبة لماري أنطوانيت».

---

(١) - الأب ڤرمون: هو موجه الأرشيدوقة ماري أنطوانيت، ولم يكن في البدء مسموع الكلمة، لكنه انتهى أخيراً إلى التأثير على الملكة وساهم في استمرارها في غيّها في مطلع الثورة وبالتالي فهذا التعليق مبرّرٌ.

- أودى بها إلى المقصلة.

- أجاب الكاهن: لم يكن يحبُّ الملكة، إنه لم يحبب إلاّ الأب دي ڤرمون.

- هل ستفرّج كربتي فأطرح خلف ظهري همومي؟

- لدي كنوز ستغرف منها ما تشاء.

- عقّب لوسيان بصوت يستبعد الانتحار: في هذه الحال، سأقوم بمساع حثيثة لتحرير سيشار.

- قل كلمة يابنّي، وسيتلقّى غداً صباحًا المبلغ الضروري لتحريره.

- ماذا! هل ستعطيني اثني عشر ألف فرنك!...

- إيه! أيّها الولد، ألا ترى أننا نقطع أربعة فراسخ في الساعة؟ سنتناول العشاء في پواتيه، وهناك إن أردت توقيع الميثاق، وتقدّم لي برهانًا واحداً على إطاعتك، أريده كبيراً! عندها ستحمل عربة بريد بوردو، التي تمر في أنغوليم، خمسة عشر ألف فرنك لأختك...

- «أين هي؟»

لم يجب الكاهن الإسباني، وقال لوسيان في نفسه: «ها هو قد ضُبط، إنّه يسخر مني». بعد لحظة صعد الاسباني والشاعر إلى العربة بصمت. وبصمت مدّ الكاهن يده إلى جيب عربته، وسحب ذلك الكيس من الجلد المصنوع بشكل حقيبة مقسَّمة إلى ثلاثة جيوب يعرفها المسافرون جيّداً وأخرج منها مئة ليرة ذهبية برتغالية، بعد أن مدّ يده ثلاث مرات إلى جيب الحقيبة لتخرج قبضته الكبيرة في كل مرة ممتلئة بالذهب.

قال لوسيان منذهلاً من مرأى هذا السيل من الذهب: «إنني لك، يا أبَتِ».

قال الكاهن وهو يقبل جبين لوسيان بحنان: أيها الولد، ليس هذا إلا ثلث ما هو موجود في الكيس، ثلاثون ألف فرنك عدا الدراهم المخصصة للرحلة.

- صاح لوسيان: وأنت تسافر وحيداً؟...

- أجاب الإسباني: ما أهمية ذلك! لديَّ أكثر من مئة ألف إكو سندات في باريس، فالدبلوماسي دون مال يماثل ما كنت به قبل اللقاء بي: شاعراً دون إرادة.

في اللحظة التي كان فيها لوسيان يصعد إلى عربة الدبلوماسي الإسباني المزعوم، نهضت إيڤ لتسقي ابنها، فوجدت على سريره الرسالة المشؤومة وقرأتها، وجمدَّ العرق البارد الرطوبة التي يُندِّي بها نعاس الصباح جبينها، وانتابها الدوار، وصاحت منادية ماريون وكولب.

عند هذا السؤال: «هل خرج أخي؟». أجاب كولب برطانته الألزاسية: «نعم ياسيدتي، قبل بزوغ الفجر!».

- اكتما السرّ العميق الذي أعهد به إليكما، خرج أخي ليقتل نفسه دون شك. هيّا انطلقا لاستقصاء الأخبار بحذر وراقبا مجرى النهر».

بقيت إيڤ وحدها، في حالة من الذهول الرهيب، ووسط هذا الاضطراب الذي تعانيه جاء پتي - كلو حوالي الساعة السابعة صباحًا ليحدثها في المشكلة الموكل بها، وفي مثل هذه اللحظات الحرجة يُستمع إلى جميع الناس.

قال المحامي «سيدتي، عزيزنا داڤيد المسكين في السجن، وقد انتهى إلى الوضع الذي توقّعته في بداية هذه القضية. نصحته آنذاك بأن يشارك منافسيه الأخوين كوانته في استثمار اختراعه. إن بين أيديهما الوسائل اللازمة لتنفيذ ما هو لدى زوجك في حال تصورّ فقط. وهكذا، ما أن علمت مساء البارحة بتوقيفه حتى تساءلت، ماذا يمكنني أن أفعل؟. ذهبت للقاء الأخوين كوانته لأحصل منهما على تنازلات يمكن أن ترضيكم. بمحاولتكم حماية هذا الاكتشاف ستستمر حياتكم كما هي: حياة منازعات ودعاوي ترزحون تحتها، وستنتهون منهكي القوى على وشك الموت، لتصلوا مع إلحاق الضرر بكم، على الأرجح، مع مموّل، إلى ما أودُّ تحقيقه لمصلحتكم، منذ اليوم، مع الأخوين كوانته، وهكذا توفرون على أنفسكم

الحرمان، وتتجنبون قلق صراع المبتكر ضد جشع الرأسمالي، ولا مبالاة المجتمع. لنر! إذا سدّد الأخوان كوانته ديونكم... وإذا قدّما لكم بعد تسديد الديون مبلغًا يعدُّ تعويضًا لكم إيّا كان استحقاق الاكتشاف أو مستقبله أو امكاناته، مع الموافقة لكم بالطبع، وبشكل دائم، على نسبة معيّنة من أرباح الاستثمار. ألا يسعدكم ذلك؟... ستغدين ياسيدتي، مالكة لمعدّات المطبعة وستبيعينها، دون شكّ، إن ثمنها عشرون ألف فرنك على الأرجح، وسأجد لك شاريًا بهذا السعر. وإذا حصلت على خمسة عشر ألف فرنك نتيجة عقد الشراكة مع الأخوين كوانته، فستبلغ ثروتك خمسة وثلاثين ألف فرنك، ستدرُّ عليك دخلاً سنويًا وفق معدّل الفائدة الحاليّة، يبلغ ألفي فرنك... في المقاطعات يمكن العيش جيدًا بألفي فرنك سنويّا، ولديك أيضًا احتمالات شراكتك مع الأخوين كوانته. أقول احتمالات، إذ يجب دائمًا توقّع عدم النجاح. إذن إليك ما باستطاعتي الحصول عليه: أولاً تحرير داڤيد بشكل كامل بتسديد ديونه، ثم خمسة عشر ألف فرنك تدفع بمثابة تعويض عن أبحاثه، وهي مستحقّة دون أن تكون موضوع مطالبة باستردادها لأي سبب حتى وإن تبين عدم جدوى الابتكار، أخيراً تشكيل شركة بين داڤيد والأخوين كوانته لاستثمار براءة اختراع تؤخذ بعد تجربة مشتركة تتم سراً على طريقة تصنيعه وفق الأسس التالية: يتحمل الأخوان كوانته جميع النفقات وتعد براءة الاختراع التي يقدّمها داڤيد إسهامًا منه في رأس المال، وله ربع الأرباح. إنّك سيّدة تتميز بالحكمة وصواب التفكير، وهذا لا يحصل كثيراً لدى النساء الجميلات. فكري بهذه الاقتراحات وستجدينها مقبولة جداً.

هتفت إيڤ المسكينة وهي في غاية القنوط وعبراتها تنهمر: آه! يا سيدي لماذا لم تأت مساء البارحة وتقترح علي هذه التسوية؟ لو فعلت لكان بإمكاننا أن نتجنب العار، و... ما هو أسوأ.

- لم تنته مناقشتي مع الأخوين كوانته إلا عند منتصف الليل، وهما من تشكّين أنهما يحتجبان خلف ميتيڤيه. لكن ماذا حدث منذ مساء البارحة مما تعدين أنه أسوأ من توقيف عزيزنا داڤيد؟

- أجابت وهي تعرض على پتي - كلو رسالة لوسيان: إليك النبأ المروّع الذي حملته لي هذه الرسالة عند استيقاظي. إنّك تبرهن لي الآن عن اهتمامك بنا، فأنت صديق داڤيد ولوسيان، ولستُ بحاجة لمطالبتك بالمحافظة على السرّ...

- قال پتي - كلو وهو يعيد الرسالة لإيڤ بعد قراءتها: لا تقلقي. لن يقتل لوسيان نفسه. وبعد أن كان السبب في توقيف صهره، بحث عن ذريعة يبتعد بها عنكم ولا أرى في هذه الرسالة إلا هروباً مسرحيّاً.

حقّق الأخوان كوانته أهدافهما، فبعد أن سقيا المبتكر وعائلته كؤوس العذاب المرّ، اختارا اللحظة التي يؤدي فيها الإرهاق إلى القنوط وطلب الخلاص والراحة، وليس لدى جميع الباحثين عن الأسرار كلاب حراسة تنهش فريستها بأنيابها. وقد درس الأخوان كوانته بكل براعة طبع ضحاياهما، ورأى كوانته الطويل في توقيف داڤيد المشهد الأخير من الفصل الأول من هذه المأساة. وبدأ الفصل الثاني بالاقتراح الذي حاول پتي - كلو أن يقنع إيڤ به، ورأى المحامي، وهو الماكر الماهر في تصرّف لوسيان المتهوّر أحد هذه الحظوظ غير المتوقعة التي تقرّر مصير اللعبة. ولاحظ مدى ارتباك إيڤ من هذا الحدث فقرر أن يستغله لكسب ثقتها وهو الذي انتهى إلى تخمين تأثير المرأة على زوجها. وهكذا فبدلاً من أن يغرق السيدة سيشار في القنوط حاول أن يطمئنها، ووجهها بمهارة إلى التفكير بزيارة داڤيد في السجن مؤمّلاً أن تعمل وهي في هذه الحالة من الاضطراب على إقناع زوجها بمشاركة الأخوين كوانته.

قال: «صرّح لي داڤيد ياسيدتي، أنه يسعى إلى الثروة من أجلك ومن أجل أخيك، لكن الوقائع قد برهنت أن من العبَث العمل على إغناء لوسيان: فهذا الفتى يبدّد كل ما يقع بين يديه من أموال».

كان مظهر إيڤ يشير كفاية إلى أن آخر أوهامها عن أخيها قد زالت، وتوقّف المحامي لحظة عن الكلام ليحوّل صمت موكلّته إلى نوع من القناعة. ثم استأنف:

«هكذا إذن، لم تعد القضية تتعلّق الآن إلا بك وبطفلك. وعليك أنت أن تقرّري إن كان دخل ألفي فرنك سنويّاً يكفي لإسعادكما، دون الأخذ بالاعتبار

ميراث سيشار العجوز؟ وقد بلغ دخل حميك منذ مدة طويلة سبعة إلى ثمانية آلاف فرنك سنويّاً، عدا الفوائد التي يستجرها من رأسماله، وهكذا فأنا أتوقع لكم مستقبلاً زاهراً، فلماذا تعذبين نفسك؟

كانت هذه النظرة المستقبلية التي طرحها المحامي على السيدة سيشار قد أعدت مساءً بكل مهارة من قبل كوانته الطويل، وهو الذي لقنها للمحامي عندما جاء يعلن له توقيف سيشار قال له ذلك الذئب الأرقم: «اذهب واعرض عليهما إمكانية الحصول على مبلغ ما من المال وعندما يقبلون الفكرة، سيغدون طوع أيدينا: سنساومهم، وشيئًا فشيئًا سنجعلهم يذعنون لشروطنا وقبول السعر الذي نحدّده لهذا الابتكار».

حوت هذه العبارة، إذا صحّ القول، أُسُس عرض الفصل الثاني من هذه المأساة المالية. عندما صعدت السيدة سيشار منكسرة الخاطر، محطمة الفؤاد، لارتداء ثيابها استعداداً لزيارة السجن والقلق ينتابها على مصير أخيها، نزلت متعثرة خشية ما ستعانيه من مذلة وهي تسير وحيدة عبر شوارع أنغوليم في طريقها إلى السجن، لكنها وجدت پتي - كلو ينتظرها، وقد تقدّم منها مدفوعاً بفكرة مكيافلية، غير عابىء بما تعانيه من ارتباك. بدا التأثّر على إيڤ من هذه البادرة اللطيفة تصدر عن رجل عُرِف بقسوته وجفاء طبعه، ولامت نفسها على سوء ظنّها السابق به، وشكرته بحرارة على ذوقه وحسن صنيعه، فقال لها مزهواً بانتصاره: «سأصحبك متبعًا الطريق الأطول الذي لا نصادف فيه إنسانًا».

- إنّها المرة الأولى، ياسيدي، التي أشعر أنه لا يحق لي السير عبر الشارع وأنا مرفوعة الرأس! أخذت درسًا وعبرة من ليلة البارحة.

- ستكون الأولى والأخيرة.

- إيه! من المؤكد أنني لن أبقى في هذه المدينة.

– قال بتي – كلو لإيف عند وصولهما إلى عتبة السجن: إذا وافق زوجك على العروض المقدمة من قبلي والمطروحة تقريبًا من قبل الأخوين كوانته، اعلميني لأحضر في الحال مزودًا بإذن من كاشان يتيح لدافيد الخروج وعدم العودة مرة ثانية إلى السجن على الأرجح.

هذه الكلمة التي قيلت أمام السجن تعني ما يُطلق عليه الإيطاليون اسم **التدبير**، وتعبّر هذه الكلمة بالنسبة لهم عن عقد غير محدد، يُصادف فيه بعض الخداع ممتزجًا بالحق بمناسبة تحايل مسموح به، عملية غشّ شبه شرعي خطط لها جيّدًا، فسان بارتلمي(*) بالنسبة لهم تدبير سياسي للأسباب المعروضة أعلاه يُعَدُّ التوقيف بسبب الدين إجراءً قضائيًّا، ونظرًا لندرته في المقاطعات لا يوجد له مكان خاص به في معظم مدن فرنسة. وفي هذه الحالة، يُودَع المدين في السجن الذي يُحبَس فيه المتهمون والأظنّاء والمشبوهون والمحكومون. هذه هي الأسماء المختلفة التي تطلق شرعًا، وبالتتابع على أولئك الذين يسميهم الشعب بشكل عام **المجرمين**. وهكذا وُضِعَ داڤيد مؤقتًا في إحدى الغُرف المنخفضة من سجن أنغوليم، حيث أخلي سبيل بعض المحكومين، على الأرجح، بعد أن قضوا مدة محكوميتهم، وبعد أن أودع في السجن مع المبلغ المحدّد في القانون لإطعام السجين خلال شهر، وجد نفسه أمام رجل ضخم الجسم يُعَدُّ بالنسبة للمحابيس صاحب سلطة تفوق سلطة الملك: إنّه السجّان! في المقاطعات لا وجود لسجّان نحيل الجسم، وهذه الوظيفة منصب بمرتب إنّما دون عمل تقريبًا، ثم أن السجّان مثل قيّم النزُل، ليس لديه منزل يملكه أو يستأجره ويعيش فيه وهو يتغذى جيّدًا جدًا بتغذيته سجنائه بشكل سيء جدًا. أي كما يفعل قيّم النزُل، كلٌّ وفق إمكاناته ووسائله. كان السجّان يعرف داڤيد بالاسم، بسبب أبيه خاصة، وعمل على أن يؤمّن سريرًا مريحًا لليلة واحدة رغم أن داڤيد لا يملك فلسًا واحدًا.

(*) – سان بارتلمي: مذبحة تمت على البروتستنت في ليل ٢٣ آب ١٥٧٢ بأمر من شارل التاسع بتدبير من والدته كاترين دي مديسي والأخوين دي غيز، مما سبب عودة الحرب الدينية في فرنسة.

يعود سجن أنغوليم إلى العصر الوسيط، وبقي دون أي تغيير مثل الكاتدرائية. وما يزال يطلق عليه اسم بيت العدالة وهو يستند إلى محكمة المشرفين الملكيين(*). كانت كوّة الاستقبال تقليدية فهي فتحة في الباب، المرصع بالمسامير، الصلب في مظهره، المتآكل لقدمه، المنخفض حسب طراز البناء، المنتصب كالعملاق الأسطوري ذي العين الواحدة في جبينه، هي ذلك الخصاص الذي يسترق منه السجّان النظر للتعرف على الأشخاص قبل أن يفتح لهم. يسود ممرّ في الطابق الأرضي على طول الواجهة، تنفتح عليه عدة غرف ذات نوافذ عالية ومجهزة بشبك يأتيها النور من الفناء. يشغل السجان مسكنًا منفصلاً عن هذه الغرف بقنطرة تقسم الطابق الأرضي إلى قسمين يُرى في طرفها شبك يغلق الفناء. قاد السجان داڤيد إلى إحدى هذه الغرف القريبة من القنطرة، وهي تطلّ ببابها على مسكن السجّان الذي أراد أن يكون إلى قربه رجل ذي مكانة خاصة يمكنه أن يتبادل الأحاديث معه.

قال السجّان وهو يلاحظ الدهشة التي اعترت داڤيد لمرأى المكان: «إنها أفضل الغرف لدينا». كانت جدران هذه الغرفة من حجر تعلوه بعض الرطوبة، والنوافذ عالية جداً مجهّزة بقضبان حديدية، والبلاطات الحجرية تنشر برودة شديدة، وخطوات الخفير المنتظمه الذي يقوم بنوبة حراسته في الممرّ تحدث ضجة رتيبة كتلك التي تحدثُها حركة المد والجزر في كلّ لحظة لتعلن لك: «إننا نراقبك! أنت لست حرًا!». كل هذه التفاصيل، هذه المجموعة من الأشياء توثّر بشكل خارق على معنويات الأشخاص الشرفاء. لاحظ داڤيد سريرًا شنيعًا، لكن الموقوفين يتعرّضون لاضطراب عنيف خلال ليلتهم الأولى فلا يلاحظون قسوة الفراش إلا عند الليلة الثانية. أبدى السجّان اللطف فاقترح على موقوفه تلقائيًا أن يتنزها في الفناء حتى

(*) - محكمة المشرفين الملكيين: Présidial: اسم أطلق على المحاكم التي أنشأها هنري الثاني العام ١٥٥٢ وكانت مكلفة بالنظر في القضايا المدنية والجنائية ذات الأهمية الثانوية.

حلول الليل، وهكذا لم يبدأ عذاب داڤيد إلاّ لحظة انصرافه إلى النوم. كان ممنوعًا إشعال النور لدى المساجين، ويجب الحصول على إذن من النائب العام لاستثناء الموقوفين بسبب الدين من هذا النظام الذي يتعلق بداهةً، بالأشخاص الذين تقبض عليهم السلطات القضائية، وقد تلطّف السجّان وأبقى داڤيد مدة خارج الزنزانات بين الفناء ومسكنه، إنما وجب مع هبوط الليل احتجازه خلف القضبان، وأحسّ زوج إيڤ المسكين عندئذ بأهوال السجن وخشونة الإجراءات السائدة فيه، مما أثار غيظه، غير أنه بأحد هذه الارتكاسات المألوفة لدى المفكرين لجأ إلى تلك العزلة، ونجا بنفسه من الاكتئاب بالانصراف إلى أحد هذه الأحلام التي تراود خيال الشعراء في اليقظة، وانتهى المسكين إلى التفكير بتصرفاته، فالسجن يدفع بشكل بالغ إلى محاسبة وجدانية. تساءل داڤيد عما إذا كان قد قام بواجباته كربّ عائلة؟ وأيةّ هموم سبّبها لزوجته؟ ولماذا لم يَسع، كما قالت له ماريون، إلى جمع بعض المال أولاً لينصرف بعد ذلك إلى أبحاثه المبتكرة بيُسر وراحة؟

قال في نفسه: «كيف يمكنني البقاء في أنغوليم بعد تفجّر هذه الفضيحة؟ وعندما أخرج من السجن ماذا سأفعل، وماذا سيحلُّ بنا؟ وأين سنذهب؟» وراودته الشكوك حول نتيجة أبحاثه. إنّها من مظاهر القلق الذي لا يدركه على الأرجح، إلا المبتكرون أنفسهم! ومن ارتياب إلى آخر، بدأ يتضح لداڤيد وضعه، وقال في نفسه ولنفسه ما كان قد صرّح به الأخوان كوانته للأب سيشار، وما سبق منذ لحظة أن أدلى به پتي - كلو إلى إيڤ: «بافتراض نجاح جميع التجارب، كيف سيتم التطبيق الصناعي؟ يلزمني براءة اختراع، والحصول عليها يقتضي توفّر المال! . . . يلزمني مصنع أجري فيه تجاربي على النطاق الصناعي، وهذا يعني الإفضاء بسرٍّ ابتكاري! إيه! كم كان پتي - كلو على حق!». (إن السجون الأكثر ظلمة تومض ببريق الأفكار الأشدُّ لمعانًا) «عجبًا! قال داڤيد وهو يحاول الرقاد على السرير الميداني الضيّق المجهز بفراش رديء، وملاءة سمراء شديدة الخشونة، سأرى دون شكّ پتي - كلو غدًا صباحًا».

بهذه التساؤلات بدا داڤيد وقد أعدّ نفسه دون أن يدري للاستماع إلى مقترحات أعدائه التي حملتها إليه زوجته. بعد أن قبلت إيڤ زوجها وجلست على حافة السرير لا حتواء الغرفة على كرسي واحد من الخشب الرديء، وقع نظرها على السطل الخشبي المقزّز الموضوع في أحد الزوايا، وعلى الجدران تناثرت الأقوال والحِكَم والشعارات والأسماء التي سجّلها أسلاف داڤيد الذين شغلوا سابقًا تلك الغرفة، وعند ذلك بدأت الدموع تنهمر من عينيها المحمرَّتين. كان مايزال في مآقيها بعض دموع سكبتها الآن بعد أن رأت زوجها يحتجز كمجرم في هذا المكان رغم كلّ ما ذرفته من عَبَرات في الأيام السابقة من الورطة التي عانت منها.

صاحت متحسّرة: «انظر، إذن إلى أين قادتنا رغبتك في تحقيق مجد الابتكار. إيه! يا ملاكي تخلّ عن هذه المسيرة... ولنتابع معًا الطريق الطويل السالك دون السعي إلى ثروة سريعة... إنني مقتنعة بالقليل لأنعم بالسعادة، وخاصة بعد كلّ هذه المعاناة الأخيرة!... وآه! لو تعلم!... إن هذا التوقيف الشائن ليس مصيبتنا الكبرى! ألا ترى؟».

وناولت رسالة لوسيان لداڤيد فشرع في قراءتها، ومن أجل مواساته ردّدت على مسمعه تعليق پتي - كلو الكريه على تصرف أخيها.

قال داڤيد: «إذا كان لوسيان قد عزم فعلاً على الانتحار فالأمر قد تمّ الآن، وإذا كان لم يقدم على ذلك حتى هذا الصباح فلن يقدم عليه، فعزيمته لا تقوى على الاستمرار، كما يقول، أكثر من عدة ساعات».

- صاحت الأخت وقد غفرت كل شيء تقريبًا أمام فكرة الموت: «لكن هل سأبقى في هذا القلق؟...»

أعادت على زوجها العَرض الذي ادّعى پتي - كلو أنه حصل عليه من الأخوين كوانته، وقد قبلت بسرعة من قبل داڤيد بسرور ظاهر.

هتف المبتكر : «سيكون لدينا ما يمكننا من العيش في قرية قرب هومو حيث يقع مصنع الأخوين كوانته، لا أريد إلا هدوء البال! إذا كان لوسيان قد عاقب نفسه بالانتحار فسيكون لدينا ما يكفي من المال للعيش بانتظار ميراث أبي، وإن كان مايزال حيّاً فسيتكيّف الفتى المسكين مع عيشتنا المتواضعة. سيستفيد الأخوان كوانته بالتأكيد، من اكتشافي، لكن من أكون، بعد كل حساب. بالنسبة لبلادي؟ رجلاً. وإذا كان سري يفيد الجميع، إذن سأكون سعيداً! نحن، ياعزيزتي إيڤ، لم نخلق أنا أو أنت لنكون تّجاراً، فليس لدينا حب الربح، و لا تلك الصعوبة في التخلي عن أيّ نوع من المال حتى ما نستحقه شرعًا، وهما دون شك فضيلتا التاجر الماهر. إنّهما البخل والشحّ، لكنهما تسميان حرصًا وعبقرية تجارية!».

اغتبطت إيڤ من هذا التوافق في وجهات النظر، وهو من أرق أزهار الحبّ: إذ يمكن للمصالح والحكم عليها عدم التطابق لدى كائنين متحابين، فَرَجت السجّان أن يرسل خبراً للمحامي پتي - كلو لاتّخاذ إجراءاته لتحرير داڤيد بالإعلان له عن موافقتهما المتبادلة على أسس التسوية المطروحة. بعد عشر دقائق دخل پتي - كلو إلى غرفة توقيف داڤيد الرهيبة وقال لإيڤ: «عودي إلى منزلك، ياسيدتي، وسنتبعك».

توجّه پتي - كلو إلى داڤيد قائلاً: كيف عرّضت نفسك، ياصديقي العزيز، للتوقيف! ما الذي دفعك إلى ارتكاب خطأ الخروج؟

- «إيه! كيف لا أخرج؟ وقد كتب لي لوسيان هذه الرسالة».

ناول داڤيد پتي - كلو رسالة سريزه المزوّرة، فأخذها المحامي، وقرأها، وأمعن النظر فيها، وتلّمس الورقة، وأخذ يتحدّث في القضية، وهو يطوي الرسالة متظاهراً بالشرود، ويضعها في جيبه. ثم تأبّط پتي - كلو ذراع داڤيد، وخرج معه؛ فإعلام مأمور الحجز بتحرير الموقوف من دينه وإخلاء سبيله وصلت إلى السجّان خلال تلك المحادثة. بعودة داڤيد إلى منزله، خيّل إليه أنه في السماء. بكى مثل

طفل وهو يقبل ابنه الصغير ويدخل غرفة نومه بعد عشرين يومًا من التخفي انتهت بتوقيفه وقضائه ليلة في السجن، تعد وفقًا لتقاليد المقاطعات عارًا لا يمحى. أعلمت ماريون سيدتها بعد عودتها مع كولب أن لوسيان رؤي وهو يسير على طريق باريس، بعد مارساك، وفقًا لما ذكره لها القرويون الذين يحملون خضرواتهم مع الفجر إلى هومو ولفت أنظارهم الشاب بأناقة هندامه، كما ذكر كولب أنّه انطلق على حصانه في ذلك الطريق وأنبأه السيد مارّون صاحب نُزُل مانسل أنه تعرف على لوسيان وهو منطلق في عربة سفر مسرعة.

هتف پتي - كلو: «ماذا قلت لكِ، ياسيدتي، هذا الشاب ليس شاعرًا فقط، إنه رواية مستمرة».

- قالت إيڤ: في عربة سفر، إلى أين يذهب هذه المرّة؟

- قال پتي - كلو لداڤيد: الآن، لنذهب إلى الأخوين كوانته، فهما بانتظارك.

- هتفت السيدّة الجميلة سيشار: آه! ياسيدي، أرجو أن تدافع عن مصالحنا جيّدًا، فمستقبلنا كلّه بين يديك الآن.

- قال پتي - كلو: أتريدين، ياسيدتي، أن يتم الاجتماع في منزلكم؟ سأترك داڤيد عندك وسيأتي هذان السيّدان إلى هنا هذا المساء، وستشهدين دفاعي عن مصالحكم.

- قالت إيڤ: آه! ياسيدي إنك تدخل السرور على نفسي.

- قال پتي - كلو: حسن، إلى اللقاء، إذن، هذا المساء، هنا، عند الساعة التاسعة.

- أجابت إيڤ بنظرة ولهجة برهنتا لپتي - كلو عن مدى نجاحه في إحراز ثقة موكلّته: أكرّر شكري لك.

- أضاف المحامي: ليس في الأمر ما تخشينه، ألا ترين؟ إنني على حق، فأخوك على مسافة ثلاثين فرسخًا من فكرة انتحاره. أخيرًا قد تحصلين على ثروة صغيرة هذا المساء. وقد يتقدّم مشترٍ رصين لمطبعتكم.

- قالت إيف: إذا كان الأمر كذلك، لماذا لانتريّث قبل ارتباطنا مع الأخوين كوانته؟

- أجاب پتي - كلو الذي رأى الخطر في مسارتّه: «نسيت، ياسيدتي، أنّك لن تكوني حرّة في بيع مطبعتك إلا بعد أن تسدّدي دين ميتيڤيه، لأن جميع معداتكم ماتزال محجوزة».

بعد أن عاد پتي - كلو إلى مكتبه استدعى سريزه، وهمس في أذنه وهو يقف معه أمام النافذة:

«غدًا ستكون مالكًا لمطبعة سيشار، وحائزًا على بعض الدعم للحصول على رخصة العمل لكنك لا تريد أن تنتهي إلى سجن الأشغال الشاقة؟

- لماذا! لماذا سجن الأشغال الشاقة؟

- استأنف پتي - كلو وقد رأى شحوب وجه سريزه: رسالة لوسيان إلى داڤيد مزوّرة، وهي في حوزتي، فماذا ستقول هنرييت إن استدعيت للتحقيق؟ . . . هيّا اطمئن، لا أريد ضياعك.

- هتف الباريسي: هل تريد مني شيئًا آخر؟

- استأنف پتي - كلو: استمع جيّدًا إلى ما أتوقعه منك! ستغدو طبّاعًا في أنغوليم خلال شهرين. . . لكن مطبعتك مرهونة وأنت مدين بثمنها، ولن تتمكن من تسديد أقساط دينك إلا خلال عشر سنوات! . . . ستعمل طويلاً لمصلحة دائنيك الذين أمدوك برأس المال، إضافة إلى أنك ستضطر لأن تكون الناطق الرسمي باسم الحزب الليبرالي. . . أنا من سينظّم عقد شراكة التوصية(*) مع غانراك؛ وسأجريه

(*) - شراكة التوصية Commandite: شراكة في مشروع يقدّم فيها عدد من الشركاء جزءًا من رأس المال ولا يسهمون في الإدارة.

بطريقة تعود فيها المطبعة إليك. لكن إن أنشؤوا صحيفة وكنت أنت مديرها، وغدوت أنا هنا الوكيل الأول للنائب العام، فستتفاهم مع كوانته الطويل لإدراج مقالات في صحيفتك ذات طبيعة تدفع إلى مصادرة أعداد الصحيفة أو حذف المقال. . . وسيكافئك الأخوان كوانته على تأدية هذه الخدمة لهما. . . أنا أعلم أنك ستحاكم عندئذ وستحكم بالتأكيد، وستُسجَن مدة، لكنك ستُعدُّ رجلاً مهمًا ومضطهداً، ستعد شخصية في الحزب الليبرالي، على مثال الرقيب مرسيه، أو بول لويس كوريه، أو مانويل ذي القدم الصغيرة(*). أخيراً في اليوم الذي ستلغى فيه الصحيفة، سأحرق تلك الرسالة أمامك. . . ولن يكلفك حظك السعيد ثمنًا غاليًا. . .».

تنتاب أفراد الشعب أفكار مغلوطة حول التميّزات القضائية لعمليات التزوير، وقد رأى سريزه نفسه على مقاعد اتهام محكمة الجنايات، وتنفس الصعداء لتواطؤ بتي - كلو معه.

استأنف بتي - كلو: سأغدو خلال ثلاث سنوات وكيل النيابة العامة في أنغوليم، وستكون محتاجًا لي، فكّر بذلك!

- قال سريزه: «موافق، لكنك لا تعرفني، اعتمد على ولائي لك، واحرق هذه الرسالة الآن أمامي».

نظر بتي - كلو إلى سريزه، وكانت إحدى تلك المبارزات بالأعين، ونظرة من يلاحظ بمثابة مشرط تستقصي أعماق الروح، وعينا الغريم الذي يستعرض فضائله تبرق مثل واجهة مسرح.

لم يتفوه بتي - كلو بكلمة بل تناول شمعة مشتعلة وأحرق الرسالة وهو يقول في نفسه: «إنّه يقامر بمستقبله!».

(*) - شخصيات معارضة، الرقيب مرسيه أحد رقباء لا روشيل الأربعة المنتمين إلى جمعية الكاربوناري الذين قبض عليهم وأعدموا العام ١٨٢٢، وبول لويس كوريه (١٧٧٢ - ١٨٢٥) كاتب معارض مؤلف رسائل هجائية للملكية الثانية.

- قال ناظر المطبعة: «كسبت نفساً تعاهدك على الولاء حتى الموت».

كان داڤيد ينتظر بقلق مبهم اجتماعه مع الأخوين كوانته: لم تكن مناقشة مصالحه، ولا البحث في شروط العقد الذي سيجريه تشغل باله؛ إنما رأي المصنعين بابحاثه. وجد نفسه في وضع مؤلّف مسرحي أمام ناقديه، فكرامة المبتكر وهواجسه في لحظة بلوغ هدفه تزيح أي إحساس آخر.

أخيراً في الساعة السابعة مساءً، وفي الوقت الذي لجأت فيه الكونتة السيدة شاتليه إلى سريرها بذريعة صداع مفاجئ أصابها ملقية على زوجها تبعات استقبال مدعوي حفل عشاء المحافظة وترؤس المائدة لشدّة اضطرابها من الأنباء المتناقضة عن مصير لوسيان! كان الأخوان كوانته البدين والطويل يؤمان مع المحامي پتي - كلو منزل منافسهم الذي سلّم نفسه إليهما مقيّد الرجلين واليدين. اعترضتهم أولاً عقبة إجرائية: كيف يمكن تنظيم عقد شراكة دون معرفة طرائق داڤيد؟ وكشف داڤيد عن طرائقه يجعله تحت رحمة الأخوين كوانته. رأى پتي - كلو تنظيم العقد أولاً. عندئذ طلب كوانته الطويل من داڤيد أن يطلعه على بعض منتجات تجاربه، وقدّم له المبتكر الأوراق الأخيرة التي أنتجها مع ضمانه لسعر الكلفة.

- قال پتي - كلو: هوذا أساس صياغة العقد، يمكنكم التشارك وفق هذه المعطيات، مع إدخال شرط ينصّ على جواز فسخ الشركة في الحالة التي لا تحقق فيها شروط براءة الاختراع التنفيذ على النطاق الصناعي.

- قال كوانته الطويل مخاطباً داڤيد: شيء آخر ياسيدي، هو أن تنفذ على نطاق مصغّر في غرفتك عيّنات من الورق، أو أن تنصرف إلى الإشراف على التصنيع على النطاق الواسع. سأضع أمامك واقعاً نعانيه ولك أن تحكم؟ إننا نصنع ورقاً ملوّناً. ونشتري من أجل تلوينه ملوّنات متماثلة. وهكذا فالصبغة النيلية المستعملة لدينا لإنتاج ورق أزرق بقياس ٤٤ × ٥٦ سم تؤخذ من صندوق ترد جميع أقراصه من مصنع واحد، لكننا لم نتوصل أبداً إلى الحصول على دفعتين ورقيتين متماثلتي المظهر اللوني... تتم في تحضير موادنا ظواهر لم نتوصل إلى التحكّم بها. فكمية

العجينة ونوعيتها تغير في الحال الصنف المنتج. عندما تأخذ في طست قسمًا من المواد التي لا أطلب منك معرفتها، فأنت سيّد الموقف، يمكنك أن تؤثّر على جميع الأقسام بانتظام، والجمع فيما بينها، وخلطها، وعجنها كما تريد، وإعطاءها قواماً متناسقًا. . . لكن من يضمن لك في حوض تصنيع خمسمئة ماعون من الورق أن الأمر يتمُّ على المنوال نفسه، وأن طرائقك ستنجح. تبادل داڤيد وإيف وپتي - كلو النظرات التي تعبّر فيها العيون عن أشياء كثيرة.

استأنف كوانته الطويل بعد مدة توقف: خذ مثلاً يوضّح لك ماذكرته: تقطع حزمتين من الشوفان من مرج، وتضعهما مشدودتين تمامًا في غرفتك دون أن تترك الفرصة للأعشاب أن تتخلى عن نارها الكامنة كما يقول الفلاحون، ويتم التخمّر دون أن تسبّب أيّ حادث. وتعتمد على هذه التجربة لتخزّن ألفي حزمة من الشوفان في مستودع حصيد مقام من الخشب؟ . . . إنّك الآن قطعت حزمتين، ونحن نخشى عند تجميع ألفي حزمة في مصنع ورقنا أن نشعل النار فيه. وبتعبير آخر نحضّر عمرة صناعية لكمية كبيرة من مواعين الورق ننفق على تحضيرها وعلى موادّها مبالغ كبيرة من المال ولا نجد في النهاية شيئًا بين أيدينا فنتعرَّض لخسائر كبيرة.

صُعق داڤيد فالممارسة تتكلم لغتها العملية المدعّمة بالأدلّة بينما كلمة النظرية تتعلق دائمًا بأهداف مستقبلية.

صاح كوانته البدين بفظاظة: «ليأخذني الشيطان إن وقّعت عقدًا لمثل هذه الشركة. أنت حرٌّ في تبذير نقودك وإضاعتها يابونيفاس أمّا أنا فإنني حريص على مالي. . . إنني أعرض تسديد ديون سيشار وستة آلاف فرنك. . . منها ثلاثة آلاف فرنك سندات تستحق بعد اثني عشر، أو خمسة عشر شهراً. . . وأرى أننا نتعرّض لكثير من المجازفة. . . سنسدّد اثني عشر ألف فرنك من حسابنا لدى ميتيڤيه، بذلك نكون قد دفعنا خمسة عشر ألف فرنك لقاء سرٍّ استثمره منفردًا. آه! هذا هو الاكتشاف النفيس الذي حدّثتني عنه يابونيفاس. . . أشكرك، كنت أعتقد أنك أكثر فطنةً. كلا لا يمكن أن أعقد الرجاء على مثل هذا المشروع».

- قال پتي - كلو دون أن يرتعب من هذا التعنيف المفاجئ: تتلخص القضية بالنسبة لكما في التالي: هل تريدان المجازفة بعشرين ألف فرنك لتشتريا سراً يمكن أن يعود عليكما بأرباح طائلة؟ فالمجازفات، ياسادتي، تتناسب طرداً مع توقع الكسب. . . إنه رهان عشرين ألف فرنك لقاء ثروة كبيرة، والمقامر على طاولة الروليت يضع لويسية ذهبية على أحد الأرقام متوقعًا أن تعود عليه بستة وثلاثين ضعفًا أو بخسارتها، فافعلوا مثله.

- أجاب كوانته البدين: أرجو منحي مهلة للتفكير، أنا لست بقوة أخي إنني رجل مسكين بسيط في أعمالي، لا أعرف إلا شيئًا واحداً: إعداد كتاب صلوات لأهل الخورنية بعشرين فلسًا لأبيعه بأربعين فلسًا، وأرى في ابتكار ما يزال في اختباره الأول سببًا للدمار. قد ننجح في عمرة أولى، ونفشل في الثانية، ونستمر فالدوّامة تسحب إلى الأعماق. وعند تمرير اليد بين أنياب المسننات، فإنها تجذب معها الجسم أيضًا. . . وبدأ يقصّ حكاية تاجر من بوردو أفلس بعد أن غامر بزراعة الأراضي البراح بناء على نصيحة أحد الدارسين؛ ووجد ستة مشاريع مماثلة لمشروعة موزّعة في شارنت ودوردوني بين الصناعة والزراعة؛ واحتدّ ولم يرد سماع أي شيء، فاعتراضات پتي - كلو ومقاطعته له زادت من غيظه بدلاً من تهدئته. قال موجهًا الكلام لأخيه: «أفضّل شراء شيء آخر أكثر ضمانًا من هذا الابتكار وأدفع ثمنًا أعلى مع الثقة بربح صغير مؤكّد. وفي رأيي أن في هذا مجال توطيد العمل التجاري.

- قال پتي - كلو: أخيراً، جئتما إلى هنا لتعرضا شيئًا ما، فماذا تقدّمان؟.

- أجاب كوانته البدين بحرارة: تحرير السيد سيشار، ولنكفل له ثلاثين بالمئة من الأرباح في حال نجاح مشروع الشركة.

- قالت إيڤ: «إيه! إيّها السيد، ومن أين سنعيش طوال مدة التجارب؟ لحق العار بزوجي من ملاحقته وتوقيفه، فالغريق لا يخشى البلل وسنجد وسيلة لتسديد ديوننا. . . »

وضع پتي - كلو إصبعه على شفتيه وهو ينظر إلى إيڤ، والتفت إلى الأخوين كوانته قائلاً:

«لنعالج الأمر بتعقّل، رأيتما الصحائف الورقية الناتجة عن التجارب، وقد أعلمكما الأب سيشار أن ابنه الذي عزل في قبو مغلق، مع بعض مواد أولّية ذات كلفة قليلة، أنتج منها خلال ليلة واحدة ورقًا ممتازاً. . . وأنتما هنا لا ستغلال هذا الابتكار بشراكة مُبتكرِه، فهل ترغبان في هذه الشراكة، أم تعزفان عنها؟

قال كوانته الطويل: هيّا، سواء أراد أخي أو لم يُرد، إنني أجازف بتسديد ديون السيد سيشار، وأدفع نقداً ستة آلاف فرنك، وأتعهد بحصوله على ثلاثين بالمئة من الأرباح لقاء الشرط التالي: إذا لم يتمكن المبتكر خلال سنة من تحقيق الشروط التي سيسجّلها بنفسه في العقد، فسيردّ إلينا مبلغ الستة آلاف فرنك، وستبقى لنا البراءة، فننتفع منها قدر ما نستطيع».

قال پتي - كلو لداڤيد وهو ينتحي به جانباً: «هل أنت واثق من نفسك؟».

قال داڤيد وقد فوجئ بمناورة الأخوين وذعر خشية أن ينتهي كوانته البدين بهذه المحادثات إلى الفشل بعد أن علق عليها كل آماله: «نعم».

قال پتي - كلو للأخوين كوانته ولإيڤ: «حسن، سأذهب لتنظيم العقد، وسيكون لكل منكم نسخة هذا المساء، وستدرسونها طوال صباح غدٍ، وسنجتمع في الساعة الرابعة مساءً وبعد المداولة، توقعون العقد، وعليكما، ياسيديّ، أن تسحبا سندات ميتيڤيه وما يتعلق بها من وثائق. أما أنا فسأكتب إلى محكمة الاستئناف لإيقاف الدعوى وسنعلن التنازل المتبادل.

هاهو نصّ التزامات سيشار.

بين الموقعين أدناه، إلخ. . .

«السيد داڤيد سيشار الابن، صاحب مطبعة في أنغوليم، يؤكّد أنه وجد طريقة لتغرية الورق في الحوض، كما أوجد وسيلة لتخفيض سعر كلفة تصنيع

جميع أنواع الورق بأكثر من خمسين بالمئة بإدخال مواد نباتية في العجينة، سواء بخلطها بخرق القماش المستعملة حتى الوقت الحاضر، أو باستخدامها دون إضافة بقايا قماش، وقد تشكلت شركة لاستثمار براءة اختراع يُسعى للحصول عليها على أساس هذه الطرائق بين السيّد داڤيد سيشار الابن والسيّدين الأخوين كوانته، بالبنود والشروط التالية...».

كان أحد بنود العقد يجرّد داڤيد سيشار بشكل كامل من جميع حقوقه في حال عدم وفائه بالوعود المنصوص عنها في نص هذا العقد المعدُّ بكل عناية من كوانته الطويل ووافق عليه داڤيد.

بحمله نسخة عن هذا العقد في صباح اليوم التالي عند الساعة السابعة والنصف، أخبر پتي - كلو داڤيد وزوجته أن سريزه يعرض اثنين وعشرين ألف فرنك نقداً ثمناً للمطبعة، ويمكن توقيع العقد في المساء.

استأنف قائلاً: لكن إذا علم الأخوان كوانته بعملية البيع، فقد يستنكفان عن توقيع العقد، ومضايقتكما وعرقلة الصفقة وإلزامكما بالبيع لهما...

- قالت إيڤ وهي مندهشة من رؤية قضية يئست من تحقيقها قبل ثلاثة أشهر، ولو أنها تمت في ذلك الحين لأنقذت كل شيء، وها هي الآن تُعَرض بكل يسر وبأكثر مما تؤمل: هل أنت واثق من قدرة الشاري على الدفع نقداً؟

- أجاب پتي - كلو بصراحة: المبلغ مودع لديّ.

- قال داڤيد: يبدو لي هذا مثل السحر، وسأل پتي - كلو كيف تحققت لسريزه هذه الثروة.

- الأمر في غاية البساطة. يريد تجار هومو تأسيس صحيفة وقد أقرضوه المبلغ.

- هتف داڤيد: لكنني لم أوافق على طباعتها في مطبعتي.

- أجاب بتي - كلو: أنت!... لكن خليفتك... ثم استأنف: مع ذلك، لا تقلق، بعْ، واقبض المبلغ، واترك سريزه يرتّب شروط البيع وهو سيعرف كيف يتمم هذه القضية.

- قالت إيف : آه! أنت على حق .

- استأنف بتي - كلو : إذا كنت قد امتنعت عن طباعة صحيفة في أنغوليم، فإن مموّلي سريزه سيؤسسون الصحيفة ويلزمونه بطباعتها» .

بهرت إيف من فكرة امتلاك ثلاثين ألف فرنك، والتخلص من الحاجة وتأمين دخل عيش لائق فلم تهتم بعقد الشركة إلا بمثابة أمل ثانوي . وأذعن أخيراً السيد سيشار وزوجته على بند في العقد، كان موضوع نقاش أخير، وهو يعطي صلاحية لكوانته الطويل باستصدار براءة الاختراع باسمه، فقد نجح في الإقناع بأن من حق الشريكين في الوقت الذي حدّدا فيه بشكل تام حقوق انتفاع داڤيد في العقد العمل على أن تصدر البراءة باسم أحد الشركاء الثلاثة وانتهى كوانته البدين إلى القول : «إنّ أخاه سيدفع رسوم البراءة، وسيتكبد نفقات السفر، ولن يقل ذلك عن ألفي فرنك! فليأخذ البراءة باسمه، وإلا لن يُنجزُ المشروع» وهكذا انتصر الذئب الأرقم في فرض جميع شروطه . وقّع العقد نحو الساعة الرابعة والنصف . وقدّم كوانته الطويل بتودّد للسيدة سيشار ست دزينات من الصحون ذات الشبك، وشال ترنو(١) جميلاً، هدية العقد التقليدية(٢)، ولدفعها إلى نسيان حدة النقاش، وفقًا لقوله . وما أن تم توقيع العقد وتبودلت النسخ، وما أن انتهى كاشان من تسليم بتي - كلو وثائق تحرير داڤيد من ديونه وملحقاتها والسندات الرهيبة الثلاثة التي زوّرها لوسيان، حتى رنّ هتاف كولب على السلم عقب ضجة شاحنة من مكتب النقليات توقفت أمام الباب .

---

(١) - هو غيوم لويس ترنو G. L. Ternaux (١٧٦٥ - ١٨٣٣) وهو صناعي ونائب ليبرالي، وقد أنشأ مصانع أقمشة هامة، وأدخل إلى فرنسة تربية ماعز التيبت، وأطلق نوعًا جديداً من الشالات، وكشميرات ترنو وقد لاقت نجاحًا واسعًا .

(٢) - هدية العقد التقليدية Epingle : علاوة صغيرة عن الثمن المطلوب لإنجاز صفقة، تقدّم عينا أو بشكل هدية لزوجة البائع أو لابنته، هكذا كان الأب غرانده مثلا في رواية أوجيني غرانده، يطالب دائمًا بعلاوة ذهبية نقدية تقدّم لزوجته عند بيع محاصيل كرومه .

صاح كولب: سيدتي! سيدتي! خمسة عشر ألف فرنك مرسلة من بواتيه نقداً من قبل السيد لوسيان.

- هتفت إيف وهي ترفع ذراعيها إلى السماء: خمسة عشر ألف فرنك.

- قال الساعي المكلّف بتسليم الإرسالية: نعم، ياسيدتي، خمسة عشر ألف فرنك نقلتها عربة بريد بوردو، هيا! لا ستلامها فلدي في الشاحنة رجلان لحمل الأكياس وهي مرسلة من السيد لوسيان شاردون دي روبمبره... أنا أحمل إليك أيضًا كيسًا من جلد يتضمن خمس مئة فرنك ذهبًا وغلافًا يتضمن رسالة على الأرجح».

خيّل لإيف أنها تحلم وهي تقرأ الرسالة التالية:

«أختي العزيزة

ها هي خمسة عشر ألف فرنك

بدلاً من أن أنتحر، بعت حياتي، لم أعد أملك روحي، فأنا أكثر من سكرتير لدبلوماسي إسباني، إنني صنيعته.

أبدأ حياة رهيبة، ربّما كان من الأفضل لي أن أغرق نفسي في النهر.

وداعًا، سيكون داڤيد حراً، ربما سيستطيع بأربعة آلاف فرنك متبقية له أن يشتري مشغلاً لصنع الورق وجمع ثروة.

لا تفكروا أبدًا بي. هذا ما أريده

«أخوك التعيس»

«لوسيان»

هتفت السيّدة شاردون التي جاءت تشهد أكياس الدراهم: «قُدّر على ابني المسكين أن يلازمه الشؤم على الدوام، حتّى وهو يفعل الخير، كما كتب في رسالته».

- قال كوانته الطويل عند وصوله إلى ساحة موريه: «نجونا بالشركة في الوقت المناسب، لو تأخرنا ساعة، لأمكن لبريق هذا المال أن يضيء العقد، ولذعر رجلنا، بعد ثلاثة أشهر، كما وعدنا، سنرى ما سيتحقق من ابتكاره».

في السابعة من مساء ذلك اليوم اشترى سريزه المطبعة ودفع الثمن، تاركًا على عاتقه أجرة الربع الأخير من السنة. وفي اليوم التالي سلمت إيف للجابي العام أربعين ألف فرنك ليشتري باسم زوجها سندات دين على الدولة ذات دخل سنوي يبلغ ألفين وخمسمئة فرنك، ثم كتبت إلى حميّها ليجد لها في مارساك ملكية صغيرة بقيمة عشرة آلاف فرنك تشتريها بمالها الشخصي.

كانت خطة كوانته الطويل في غاية البساطة، فقد حكم منذ الوهلة الأولى على استحالة تغرية الورق وهو عجينة في الحوض، وبدت له إضافة المواد النباتية القليلة الكلفة لعجينة الخرق هي الابتكار الصحيح والوسيلة الوحيدة للثروة، وهكذا فقد أظهر عدم الاهتمام بتحضير العجينة ذات السعر البخس ودفع دافيد إلى الانصراف إلى تحسين التغرية أو الصقل في الحوض وفق تعهده في العقد، والسبب هو أن صناعة الورق في أنغوليم تهتم بشكل خاص تقريبًا بورق الكتابة المسمى وفقًا لطبعته الداخلية، إكو، فروج، تلميذ، قوقعة[1]، وكلّها مغرّاة، أو مصقولة وكانت لمدة طويلة مفخرة صناعة الورق في أنغوليم، وهكذا فإنّ الاختصاص المحتكر من صناعيي أنغوليم منذ مدة طويلة حكم لصالح تشدّد الأخوين كوانته، والورق المصقول، كما سنرى لاحقًا، ليس موضوع مضاربة، فسوق ورق الكتابة محدود جدًا، بينما الطلب على ورق الطباعة لا حدود له. وفي الزيارة التي قام بها كوانته الطويل إلى باريس، سعيًا للحصول على براءة الاختراع باسمه، عزم على عقد اتفاقات تحدّد التغيرات الكبيرة لطراز الورق المصنع لديه، ووجّه ميتيفيه عند إقامته لديه إلى زيادة كميات ورق الصحف التي يقدّمها لتجار الورق الذين يتعاملون معه

(١) - أسماء مختلفة حسب قياس الورق، وظل الرسم المحدّد على العجينة قبل الصقل: الإكو ٤٠ × ٥٣ سم، القوقعة ٤٤ × ٥٦، التلميذ ٣١ × ٤٠ أما الفروج فذو قياسات صغيرة وهو مخصص لورق الرسائل.

بتخفيض سعر بيع الماعون إلى معدل لا يستطيع، خلال سنة، أي معمل ورق من منافسته فيه مع وعدٍ لأصحاب الصحف ببياض ونوعيات تفوق جميع الأصناف التي يستخدمونها حتى ذلك الحين، وبما أن التعاقدات تتمُّ على كميات كبيرة تحدّد لها مدة زمنية مناسبة للتسليم، وتلزمها بعض إجراءات للتداول مع الإدارات المختلفة لضمان احتكار هذاالسوق وجد كوانته أن لديه الوقت للتخلص من سيشار ريثما يحصل ميتيڤيه على اتفاقات تجارية مع الصحف الرئيسة في باريس التي يصل استهلاكها إلى مئتي ماعون في اليوم[1]. كان من الطبيعي أن يهتم كوانته بميتيڤيه على قدر هذه النسبة الكبيرة من التصريف في السوق الباريسية، ولحاجته إلى وكيل ماهر مقيم في العاصمة، مما يجنبّه تضييع الوقت في التنقّل والسفر، عدا عن أن ميتيڤيه يُعّد المورد الرئيس للصحف الباريسية وليس له مزاحم منذ عشر سنوات في تجارة الورق وقد جمع ثروة كبيرة منها، وهكذا عاد كوانته إلى أنغوليم مطمئنًا إلى مجالات تصريف مصنعه ليصل في الوقت المناسب لحضور حفل زفاف بتي - كلو الذي باع مكتبه، وهو ينتظر تسمية خليفته ليحلّ محل السيد ميلو نائبًا عامًّا بناءً على وعد الكونتة شاتليه بعد أن يغدو زوج فليونتها فرنسواز دي لاهاي، فنائب أنغوليم العام قد نقل إلى محكمة استئناف ليموج كما أسلفنا وبالتالي فهذا المنصب شاغر في أنغوليم منذ شهرين وهي فرصة مناسبة لپتي - كلو.

خلال غياب كوانته الطويل في باريس عمد داڤيد أولاً إلى تحضير عمرة من الورق غير المصقول بناءً على أبحاثه السابقة وقد أعطت صنفًا ممتازاً يفوق ما استعمل سابقًا في الصحف اليومية. ثم هيّأ عمرة ثانية من الورق القضيم الخاص بطباعة كتب الصلوات، وقد أعدّ المواد الأوليّة بنفسه معتمداً على مساعدة كولب وماريون دون مشاركة عمال آخرين.

---

(١) - كانت الصحف تطبع آنذاك على ٤ صفحات، أي على ورقة واحدة، وكان مجموع السحب اليومي للصحف السياسية في باريس العام ١٨٢٤ يصل إلى ٥٦٠٠٠ نسخة فتقدير بلزاك للاستهلاك اليومي في باريس العام ١٨٢٢ بمئتي ماعون (أي ٢٠٠ × ٥٠٠ = ١٠٠٠٠٠ ورقة) يبدو مرتفعًا حتى عند الأخذ بالحسبان المجلات والصحف الأخرى غير اليومية.

عِند عودة كوانته الطويل تغيّر اتجاه أبحاث دافيد كليّاً إذ قال له بعد أن ألقى نظرة عدم رضى على العينات المنتجة:

« يا صديقي العزيز، إنّ تجارة أنغوليم تعتمد على ورق «القوقعة» المصقول. فوجّه جلّ اهتمامك إلى تحسين هذا النوع من الورق مع تخفيض كلفته إلى خمسين بالمئة وفقًا لاتفاقنا.

حاول داڤيد صناعة عمرة من عجينة مغراة لإنتاج ورق القوقعة المصقول، فحصل على منتج خشن كالفرشاة يتوزّع عليه الغراء حبيبات متناثرة. تناول داڤيد، بعد انتهاء التجربة إحدى الأوراق وانتحى جانبًا، أراد أن يكون وحيداً يفترس حزنه وقلقه، لكن كوانته الطويل جاء يحفّزه وأبدى له مودّة فائقة، وهو يشجّعه ويواسيه قائلاً:

«لا تيأس ياصديقي، تابع أبحاثك وتجاربك، إنني إنسان طيّب وأقدّر معاناتك، وسأدعمك حتى النهاية!...».

قال داڤيد لزوجته عند عودته لتناول العشاء: «لم أكن أتوقع أبداً أن يكون كوانته الطويل بمثل هذه الشهامة، الواقع أننا حظينا بشركاء طيبين!».

وقصَّ عليها ما حدث له مع شريكه المخادع.

مرّت ثلاثة أشهر وداڤيد يجري تجاربه وهو ينام في مصنع الورق. كان يلاحظ مختلف مركّبات عجينته، وينسب أحيانًا عدم نجاحه إلى خليط الخُرق ومواده النباتية، يُعدّ عمرة مؤلفة من موادّه الأوليّة النباتية فقط، وأحيانًا يحاول تغرية عمرة مؤلّفة بكاملها من الخُرَق. وهو يتابع اختباراته بمواظبة تدعو إلى الإعجاب، وتحت أنظار كوانته الطويل دون أن يخامر المبتكر المسكين أي شك حول نوايا شريكه، وهو ينطلق من مادة متجانسة إلى مادة متجانسة إلى أن استنفد سلسلة المواد الأولية النباتية المجمّعة بإشرافه مع كل صنوف التغرية الموجودة. وخلال النصف الأوّل من العام ١٨٢٣، أقام سيشار في مصنع الورق مع كولب منصرفًا

بكليته إلى عمله مهملاً غذاءه، وثيابه، وشخصه، يصارع بقنوط الصعاب مندفعًا بتفان لو رآه أحد غير الأخوين كوانته لملأ نفسه الإعجاب بالمشهد السامي لممارسات هذا المصارع الشجاع الذي لا يدّخر أي جهد ولا يبالي بأيّة منفعة، همُّه أن ينتصر. كان يراقب بفطنة رائعة التأثيرات الغريبة للعناصر التي يحولّها الإنسان إلى منتجات لمصلحته، حيث تُروَّض الطبيعة، إذا صحّ القول، وتوجّه رغم ما تبديه من مقاومات خفيّة، ويستنتج قوانين شيّقة للصناعة بملاحظة عدم إمكان الحصول على هذه الأنواع من التكوينات المبتكرة إلا بالاستجابة إلى العلاقات التالية للأشياء، تلك التي يطلق عليها اسم الطبيعة الثانية للمواد. أخيراً توصل نحو شهر آب إلى الحصول على ورق مغرى في الحوض، يظهر مصقولاً تمامًا بعد نشره ومماثلاً لما تنتجه الصناعة في ذلك الوقت ويستعمل للتجربة في المطابع لكن أجزاءه غير متناسقة وصقله غير موثوق دائمًا. هذه النتيجة التي تعد جيّدة في العام ١٨٢٣ نظراً لوضع الصناعة الورقية في ذلك الحين، كلّفت عشرة آلاف فرنك، وأمّل دافيد أن يتغلّب على الصعوبات الأخيرة من تلك القضية، لكن انتشرت عندئذ في أنغوليم وفي هومو إشاعات غريبة: داڤيد سيشار يدفع الأخوين كوانته إلى حافة الإفلاس، ويقال إنه بعد أن أهَدَرَ ثلاثين ألف فرنك في التجارب لم يتوصل إلاّ إلى ورق رديء جداً. ذعر المصنعون الآخرون فتمسكوا بطرائقهم القديمة، ودفعهم الحسد إلى نشر شائعة الإفلاس المتوقّع لمؤسسة كوانته التي دفعها الطموح إلى المغامرة في صناعة الورق وفي الطباعة. قام كوانته الطويل خلال هذه الضجة باستحضار وتركيب آلات لصناعة الورق المتواصل الخاص بالصحف مدّعيًا أن هذه الآلات ضرورية لتجارب داڤيد سيشار. لكن هذا المنافق خلط عجينته بالمواد الأوليّة التي أشار إليها سيشار وهو يدفعه دائمًا إلى عدم الاهتمام إلا بالتغرية في الحوض بينما يرسل إلى ميتيڤيه آلاف مواعين الورق الخاصة بالتسويق إلى الصحف.

في شهر أيلول انتحى كوانته الطويل بداڤيد سيشار جانبًا وعندما علم منه أنّه ينوي إجراء اختبار حاسم، صرفه عن الاستمرار في هذا الصراع. قال كوانته بشكل وديّ:

«ياعزيزي داڤيد، اذهب إلى مارساك لترى زوجتك، ولتستريح بعد معاناتك وجهودك الشاقة، ما تراه انتصاراً كبيراً ليس إلا نقطة انطلاق. سننتظر الآن قبل أن نتوجّه إلى تجارب جديدة كن حكيماً؟ وانظر إلى النتائج. نحن لسنا صانعي ورق فقط، إنما نحن طبّاعون، وصرّافون، ويقُال إنك تسير بنا إلى الإفلاس...» (أبدى داڤيد سيشار حركة براءة نبيلة احتجاجًا على الشّك بنواياه الطيّبة) ردّ عليها كوانته الطويل بالقول: لن تفلسنا خمسين ألف فرنك أخرى تلقى في نهر الشارنت جزافًا. لكننا لا نريد أن تضطرنا النمائم التي تنال من ملاءتنا المالية إلى تسديد جميع نفقات أعمالنا نقداً، لذلك أجد لزامًا علينا التوقف عن عملياتنا. ها نحن في نهاية عقدنا ويجب التفكير به من كلا الطرفين.

لم ينتبه داڤيد الغارق في تجاربه الكبيرة المتعلقة بالتغرية والصقل إلى حركة التصنيع والتغيرات التي أجراها كوانته على الآلات ونوع المنتجات وقال في نفسه: «إنّه على حق».

وعاد إلى مارساك حيث كان خلال الأشهر الستة الماضية لا يقضي لدى عائلته إلا يومي الأحد والاثنين فقط فيتوجّه إلى منزله مساء السبت ليغادره صباح الثلاثاء. كانت إيڤ قد اشترت بناء على نصيحة الآب سيشار العجوز وفي مقدمة كرومه منزلاً اسمه «لاڤربري» تعود إليه حديقة مساحتها ثلاثة أربنتات، وكرم صغير متصل بكروم حميّها، وكانت تعيش مع أمّها وماريون بتقتير شديد إذ بقي عليها من ثمن ذلك البيت الذي يُعدُّ من أجمل بيوت مارساك خمسة آلاف فرنك. كان المنزل الواقع بين الفناء والحديقة مبنيًا من حجر الطفّ الأبيض ومسقوف بألواح الأردواز ومزيناً بنقوش زخرفية يسهل نحتها في حجر الطف دون كلفة كبيرة، وأثاثهما المنقول من أنغوليم يبدو أكثر جمالاً في الريف لعدم اهتمام الناس في تلك المنطقة بوسائل الترف، وأمام واجهة المنزل من ناحية الحديقة صف من أشجار الرّمان والبرتقال، والنباتات النادرة، زرعها المالك السابق، وهو جنرال عجوز مات على يد السيد ماروّن. وبينما كان داڤيد وزوجته يلاعبان طفلهما الصغير لوسيان ومعهما

سيشار العجوز حضر مباشر محكمة مانسل يبلغ داڤيد دعوة موجّهة من الأخوين كوانته لشريكهما يطلبان منه تسمية ممثل له لتشكيل هيئة تحكيمية للنظر في النزاع القائم بينهما، ويطالب الأخوان كوانته استرداد مبلغ الستة آلاف فرنك والاحتفاظ بملكية براءة الاختراع وكل ما ينتج عن استثمارها من فوائد كتعويض عن النفقات الباهظة التي سببها لهما دافيد دون أيّة نتيجة.

قال الكرام العجوز لابنه: «يقال إنَّك سببت إفلاسهما، إن كان هذا القول صحيحًا فهو العمل الوحيد الذي أرضيتني به».

في اليوم التالي توجّه داڤيد وإيڤ إلى بهو مكتب پتي - كلو وكيل النيابة العامة وقد غدا المدافع عن الأرملة، والوصي على اليتيم، وبدا لهما أنه الشخص الوحيد الذي يمكن الأخذ بنصائحه.

استقبل رجل القضاء موكليه السابقين بترحاب كبير، وأصرّ على دعوتهما لتناول الغداء.

قال مبتسمًا: يطالبكما الأخوان كوانته بمبلغ ستة آلاف فرنك! لكن ماذا تبقى عليكما من ثمن منزل القربري؟

- أجابت إيڤ: خمسة آلاف فرنك ياسيدي، لكنَّ معي ألفين منهما...

- قال پتي - كلو: احتفظي بالألفي فرنك التي معك، ولنحسب، خمسة آلاف!... يلزمكما أيضًا عشرة آلاف فرنك لا ستقراركم المريح في مارساك... إذن على الأخوين كوانته أن يقدّما لكما خلال ساعتين خمسة عشر ألف فرنك.

بدرَت من إيڤ حركة دهشة، واستأنف رجل القانون:

«... مقابل تنازلكم عن جميع مكاسب عقد الشركة التي ستصفونها حبيًا، هل يناسبكم ذلك؟»

- قالت إيڤ: هل نستحق هذا شرعًا؟

- قال رجل القضاء مبتسمًا: شرعًا وقانونًا، فقد سبب لكما الأخوان كوانته مصائب كثيرة وأريد أن أضع حدًا لادعاءاتهما. اصغيا إليّ، إنني الآن رجل قضاء، ومن واجبي أن أصارحكما بالحقيقة. الأخوان كوانته يبتزانكما، لكنكما في قبضتهما. بإمكانكما ربح الدعوى إن رغبتما بمقاضاتهما وخوض نزاع طويل معهما، فهل تريدان الانشغال في إجراءات قضائية قد تمتد عشر سنوات؟ ستتضاعف طلبات الخبرة والهيئات التحكيمية، وستتعرضان لتيارات الآراء الأكثر تناقضًا... وتابع مبتسمًا، لا أرى هنا محاميًا ماهرًا يمكنه متابعة قضيتكما، فخلَفي في المكتب عديم القدرة والوسيلة، وفي رأيي أن تسوية سيئة خير من دعوى جيّدة.

- قال داڤيد: كل تسوية تمنحنا راحة البال جيّدة بالنسبة لي.

- صاح پتي - كلو مناديًا خادمه: بول! اذهب واستدع خليفتي في المكتب السيد سيغو! ثم التفت إلى موكليه القديمين قائلاً: خلال تناولنا الغداء، سيذهب سيغو لرؤية الأخوين كوانته، وخلال بضع ساعات ستعودان إلى مارساك وقد ضاعت منكما ثروة لكنكما ستنعمان بالطمأنينة وراحة البال وتسديد بقية ثمن المنزل وعشرة آلاف فرنك تدرّان عليكما دخل خمسمئة فرنك سنويًا، وتعيشان سعيدين في ملكيتكما الصغيرة.

كان پتي - كلو عند وعده، فخلال ساعتين عاد المحامي سيغو ومعه العقود اللازمة موقّعة من الأخوين كوانته وفق الأصول ومبلغ خمسة عشر ألف فرنك.

- قال سيشار: إننا مدينان لك بهذا.

- أجاب پتي - كلو: ضاعت منكما ثروة، أصرح لكما بأنني سببت ضياع ثروة من أيديكما وأكرر قولي، وستكتشفان ذلك مع الوقت، ولكنني أعرفكما فأنتما تفضلان ضياع تلك الثروة على نوالها بعد نزاع طويل.

- قالت السيّدة إيڤ: لسنا من المستغلّين، ياسيدي، ونحن نشكرك لأنّك يسّرت لنا السبيل إلى الطمأنينة والراحة وستجدنا معترفين بجميلك على الدوام.

- قال پتي - كلو: ياإلهي، لا تباركيني! فأنت تسببين لي تبكيت الضمير، لكنني أعتقد أنني كفّرْتُ عن أخطائي الماضية هذا اليوم، وإن كنت قد غدوت قاضياً فالفضل لكما، وأنا من يجب عليه الاعتراف بالجميل... وداعاً.

مع الزمن غيّر الالزاسي كولب رأيه في الأب سيشار العجوز الذي أبدى بدوره مودة للألزاسي بعد أن وجده مماثلاً له لا يعرف القراءة أو الكتابة وتدور الخمرة بسهولة في رأسه، وقام الطبّاع القديم بتعليم الفارس المدرَّع أصول العناية بالكروم وبيع منتجاتها ودربّه ليعنى بأملاك ابنه وعائلته إذ كانت مخاوفه كبيرة وساذجة وقد أدلى بها لكورتوا الطحّان. قال:

«سترى، عندما أغدو في القبر، ويرث ولدي أملاكي. آه! ياالهي، إن مستقبله يدبُّ الذعر في نفسي».

في شهر آذار من العام ١٨٢٩، توفي العجوز سيشار مخلّفًا كرومًا قدّرت قيمتها بمئتي ألف فرنك ضمت إلى القربري فجعلت منها ملكية رائعة يديرها كولب بكل كفاءة منذ سنتين وجد داڤيد وزوجته في صندوق العجوز نحو مئة ألف أكو نقداً ذهبيًّا، وقد زاد مرور الطريق العام من قيمة عقارات العجوز سيشار كما هي العادة على الدوام فقدّرت في مقاطعة شارنت بنحو مليون فرنك، وبلغ الدخل السنوي لإيڤ وداڤيد نحو ثلاثين ألف فرنك، بعد إضافة ثروتهما الصغيرة إلى ذلك الميراث، وبعد أن انتظرا بعض الوقت لاستخدام رؤوس أموالهما ووضعها في قرض على الدولة بعد ثورة تموز. وعندئذ فإن مقاطعة شارنت وداڤيد سيشار كانا على بيّنه من ثروة كوانته الطويل التي بلغت عدة ملايين، وسمي نائبًا وعينًا من أعيان فرنسة، ويقال إنه سيغدو وزيراً للتجارة في التشكيلة الوزارية القادمة، وقد أقترن في العام ١٨٤٢ بابنة أحد رجال الدولة الأكثر نفوذاً لدى العائلة المالكة، الآنسة بوبينو، ابنة السيّد أنسيلم بوبينو، نائب باريس عمدة إحدى المناطق الإدارية.

مرّ اكتشاف داڤيد سيشار في الصناعة الفرنسية كما الغذاء لجسم ضخم. فبفضل إدخال مواد أخرى غير الخِرَق، تمكنت فرنسة من تصنيع ورق ذي كلفة قليلة لم يتوصل أي بلد أوروبي آخر من منافستها فيه، ووفقًا لتوقّعات داڤيد سيشار لم يَعُد لورق هولندة وجود، ويجب، دون شك على فرنسة عاجلاً أو آجلاً إنشاء مصنع ملكي للورق على نَسَق إنشاء مصنع غوبلنز، وسيڤر، والساڤونري والمطبعة الملكية(*)، هذه المنشآت الوطنية التي استطاعت أن تصمد أمام ضربات المفسدين البورجوازيين.

ركن داڤيد سيشار إلى حياة عائلية هادئة زوجًا لامرأة تكنّ له كل الحب ووالدًا عطوفًا لصبيين وابنة، ودفعه حسن الذوق إلى عدم التحدّث عن محاولاته السابقة، وتمكنّت إيڤ بفطنتها أن تجعله يتخلى عن نزعة المبتكرين الرهيبة، هؤلاء الذين يدفعهم الحماس كا ندفاع النبي موسى إلى جبل حوريب(**)، وهو يهتم بالأدب وسيلة راحة وتسلية، لكنه يمارس حياة الملاّك البارز السعيدة والخاملة بعد أن ودّع السعي إلى الأمجاد وداعًا لا رجعة عنه وانضمّ ببسالة إلى مجموعة الحالمين وهواة المجموعات، وانصرف إلى علم الحشرات ودراسة تحوّلاتها التي ما تزال محاطة بالغموض حتى الآن ولا يعرف العلم إلا الحالة الأخيرة منها.

ذاعت شهرت پتي - كلو في المنطقة نائبًا عامًا فغدا منافسًا لڤينه دي بروڤنس الشهير، وركّز طموحه على رئاسة محكمة استئناف پواتيه.

(*) أ - غوبلنز: مصنع أنشأه كولبير وزير لويس الرابع عشر، العام ١٦٦٢ لصناعة أثاث العائلة المالكة واختص بعد ذلك بصناعة السجف والسجاد.

ب - سيڤر: المصنع الوطني لصناعة البورسلين والقيشاني الفرنسي الشهير وقد أنشئ في العام ١٧٦٣.

جـ - ساڤونري: مصنع سجّاد وطني أنشئ في فرنسة العام ١٦٠٤ وقد ضم إلى غوبلنز العام ١٨٢٤.

د - المطبعة الملكية: مطبعة أنشئت للمطبوعات الحكومية منذ عهد فرنسوا الأول مطلع القرن السادس عشر. (م. المترجم)

(**) - جبل حوريب: جبل في طور سيناء تلقى عليه موسى الوصايا العشر. (م. المترجم)

تردد ذكر سريزه غالبًا لما تعرض له من أحكام قضائية لا رتكابه جنحًا سياسية وعُدَّ الأكثر جرأة من أولاد الحزب الليبرالي الضالين، ولُقّب سريزه الشجاع، وقد أُجبر من قبل خليفة بتي - كلو على بيع مطبعته في أنغوليم ففتش في مسارح المقاطعة عن عمل جديد يمكن أن تحقق له فيه موهبته في التمثيل واضطرته ممثلة شابة أن يعود إلى باريس ليطلب من أهل العلم دواء ناجعًا للشفاء من لوعة الغرام وسعى في العاصمة أن يتقاضى مالاً عن خدماته السابقة في الحزب الليبرالي.

أما لوسيان فسترى حياته الجديدة في باريس ضمن **مشاهد من الحياة الباريسية**(*).

(*) - وقد رويت بالتفصيل في بهاء وتعاسة الغانيات. وهي مترجمة منشورات وزارة الثقافة تحت رقم ٣٣ (م. المترجم)

دراسة حول الرواية والمؤلّف

إعداد: رولان شوله

R. CHOLLET

المؤلّف الرئيس في نتاج متواصل[1]

لَقِيَتْ ثلاثية **أوهام ضائعة**، بحقٍّ، الإعجاب إنها تحفة عمر النضج التي أطلق فيها بلزاك العنان لعبقريته، فأدهشت بوحدتها المتينة، وبالتفرّد المطلق لكلّ من رواياتها الثلاث المؤلّفة لها. فهذه الأقسام الثلاثة المنشأة على مراحل زمنيّة متباعدة امتدّت إلى سنوات (١٨٣٦ - ١٨٣٩ - ١٨٤٣) جمعت لأول مرّة تحت العنوان العام سنة ١٨٤٣ في الجزء الثامن من الطبعة الأولى من **الملهاة الإنسانية**، ولكل قسم بنيته، ولونه الخاص، ومعناه المستقل، وهو فرع خاص من تكوين متشجّر في أوج التطور. إذن من الضروري أن يدرس كل منها على انفراد. غير أن الديناميكية البلزاكية المتميّزة جداً في هذه الروايات المتمحورة على حزمة من الأقدار تتصل كلّ منها بالأخرى وبباقي **الملهاة الإنسانية**، وهذا ما تظهره بوضوح التعديلات التي جرت على تقطيع الثلاثية، فَحَوْلَ القصة النموذجية للوسيان دي روبمبره داخل كل رواية أو بين الرواية والأخرى، تنتظم المواضيع وتتحدّد فصولاً وتسميات، ويتسع المعنى ويزداد ويكبر حتى تلك الرواية الأسطورية التي يذكرها ويعلّق عليها لوكاكس[2].

(١) - من رسالة إلى السيدة هانسكا في ٢ آذار ١٨٤٣.

(٢) - لوكاكس، جيورجي: كاتب وفيلسوف هنغاري، أحد المفكرين البارزين المبدعين في دراسة الماركسية له تاريخ الوعي الطبقي (١٩٢٣) وتدمير العقل (١٩٥٥).

لم يلجأ الكاتب بعد فواصل زمنيّة تمتد إلى ثلاث أو أربع سنوات إلى أن يواصل بشكل صنعي سرد قصة لوسيان، ليضيف إليها مراحل جديدة أكثر أو أقلّ مهارة مرتبطة بالعمل السابق. من المؤكّد أن كلاًّ من هذه المراحل لها ولادة خاصة، تشكل موضوعًا لنبذة تاريخية قصيرة في توطئات كشوف تعديلات النصّ. ولكن ما يجب الإشارة إليه من أجل البدء، هو الظهور المتزامن، وتقارب العناصر المكوّنة الرئيسة للثلاثية، قبل أن يكون لمشاريع المؤلّفات المفردة بشكل مقرر أو محتوى محدّد. والمدّة القصيرة التي تواردت فيها المسائل والمواضيع مختلطة على بلزاك تؤرخ تقريبًا لتصورّ **أوهام ضائعة** فلنحاول توضيحها بدقّة:

أوهام ضائعة كانت في البدء عنوانًا في مشروع «الطبعة الأولى **لمشاهد من حياة المقاطعات**» في أربعة أجزاء، مخصص **لدراسات طبائع**. حاول بلزاك منذ نهاية العام ١٨٣٢ أن ينظم، على نطاق واسع، وفي آن واحد، عملية تأليف مؤلّفاته وتسويقها تجاريًّا، وانتهت محاولاته إلى **دراسات طبائع**، وصنّف اثني عشر جزءاً معداًّ أو قيد الإعداد باعها للسيدة بيشه في ٢٠ تشرين أول ١٨٣٣، وإذا كانت **أوهام ضائعة** لم تظهر في المخطّط الأولّي، في خمسة أجزاء، من تلك المجموعة، ولا في **النشرة الدعائية** الصادرة في أيلول، فقد أكّد بلزاك للسيدة هانسكا في ٢٤ تشرين أولّ ١٨٣٣ أن كل أفكاره قد تركّزت تقريبًا «على الأقسام الباقية من هذه الأجزاء الإثني عشر»؛ ولن نتقدّم مطلقًا إذن، إذا استخلصنا أن عنواننا قد ظهر في أيلول أو تشرين أولّ. والواقع أننا لن نعلم ماذا سيتضمن عدا هذه المعلومة الرئيسة: **أوهام ضائعة**، آخر مشهد من **مشاهد الحياة في المقاطعات**، ويجب أن تستخدم مُفصَّلة بين هذه المجموعة **ومشاهد من الحياة الباريسية** التي تليها- وهذا ما قاله بلزاك بوضوح بعد عدة أسابيع، في مقدمته **لمشاهد من حياة المقاطعات**: «مشهد المقاطعات الأخير (**أوهام ضائعة**) حلقة تربط بين عمرين من الحياة، وهي تبين مظهر من ألف مظهر حيث تقترن المقاطعات مع العاصمة دون انقطاع». وستحتفظ **أوهام ضائعة** بهذا الدور، في بنيان **الملهاة الإنسانية**، رغم جميع البلبلات اللاحقة.

هل تصوّر بلزاك على الفور بطله؟ في رواية **طبيب الريف** يستحضر بناسيس أحداث شبابه فيتذكّر «حياة حائرة لشاب من المقاطعات ألقت به المقادير في العاصمة، وهو مايزال يحتفظ ببعض العواطف الصادقة»، غير أنها فَسُدَت سريعاً بعد ذلك. بالارتكاز على هذه الصفحات فإن ناشر **المراسلات** يقترح تحديد شهر شباط ١٨٣٣ أو بضعة أسابيع بعده تاريخًا لجواب أرسله جان توماسي (مسجّل في المراسلات تحت رقم ٦٠٥) على رسالة مفقودة لبلزاك. ونحن نعيد تاريخ هذا الجواب بالأحرى إلى خريف ذلك العام، إذ ماذا طلب بلزاك من صديقه؟ «تصوير انتقال العالم الشاعري إلى العالم الحقيقي، أو بتعبير آخر فتح عيني شاب من المقاطعات»، وهي ذات الفكرة المصاغة في مقدمة **مشاهد من حياة المقاطعات**. وقبل وصف الفضائح الباريسية في رطانتها، أجاب توماسي (مستعيداً على الأرجح كلمات الرسالة المختفية؟): «يحمل الشاب ابن المقاطعات إلى باريس أوهام الحياةِ المنزلية، وأوهام الحياة الدينية، وأطياف ممتعة عن عالم مثالي». عنوان، ومقاطعاتِ، وشاب من المقاطعات مع أوهامه في دوّامة باريس، ومكان محدّد مسبقًا في المؤلّف المقبل، إنّها ولادة **أوهام ضائعة** ذلك الخريف.

ليس هذا كل شيء، فالموقع، والموضوع المضاد، والشخصية المفتاح، مسائل مختلفة ستدخل فجأة بتماس مع هذه العناصر المتضامنة سابقًا، ففي صيف وخريف العام ١٨٣٣ أَمِل بلزاك أن يحيي مشروعه المتعلّق **بجمعية الاشتراك العام** وهو محاولة إنشاء مكتبة صناعية تهدف إلى اقتلاع احتكار القاعات الأدبية لتأجير القراءة، ونجاح هذه «القضية الكبرى» التي شارك فيها «نفّاج» سنلقاه مرة أخرى هو ڤيكتور بوهن، تتعلّق بشكل وثيق بثمن الورق، وقد بحث بلزاك عبثًا عن هذا الورق المثالي الرخيص في باريس، وبيزانسون، وكلّف أصدقاءه آل كارو بمراجعة مصنّعي الورق في أنغوليم، إنّما دون جدوى، فالشروط التي حدّدها سواء من ناحية الوزن أو السعر دفعت المصنّعين إلى الابتسام وهم يتساءلون إن لم تلتبس في ذهن الطالب الكيلو غرامات بالليبرات... بقي له، على ما يظهر، خطٌّ من ناحية مونغولفيه حيث لا يُصنع الورق حصراً من الخِرَق، لكن عاصمة صناعة الورق لم

تَعد بشيء، ونقلت إليه زولما كارو في منتصف شهر تشرين أول هذه الأخبار غير المشجعة: لكن هل اقتنع بلزاك بكل هذه الأقوال؟ في الثامن عشر من الشهر أعلن للسيّدة هانسكا عن رحلة وشيكة إلى سانت، ليدرس في المكان موقع **آلام المبتكر** الرواية التي يُتَوقع أن يكون بطلها برنار باليسي (*)؛ لكنّه اختار بعد ذلك أنغوليم بلدة لروايته وهي لا تبعد إلا اثني عشر فرسخاً عن سانت.

كان بلزاك قد أقام مدة من الوقت لدى آل كارو خلال شهر أيار، لكنه لم يَعُد إليهم هذه المرَّة، ولم يكتب رواية عن برنار پاليسي. لكن إن لم يذهب إلى أنغوليم، فقد جاءت أنغوليم إليه بشكل رسالة (في ٢٤ أيلول أو ٢٤ كانون أول، قبل أو بعد رحلته المزمعة إلى سانت، مما هو قليل الأهمية في هذا السياق)، فقد دعته السيّدة دي سان - سورين، وهي مدّعية أدب من أنغوليم، صاحبة صالون في باريس إلى أمسية صالونها التي تقام ليلة الخميس، وطلبت منه منذ البدء وبكل بساطة أن يتوسط لدى مجلة **أوروبة الأدبية** لمصلحة شاعر من المقاطعات صديق لها، هو ليزياس موتارديه مترجم **غراميات الملائكة**.

من المتعذّر أن نحدّد كيف، وفي أي مستوى من الوعي، تدخلت جميع العناصر التي أمكن لنا تتبعها بين أيلول وكانون أول ١٨٣٣. لكن مثل ظهور المواضيع، فإنَّ بعض التركيبات المتعلّقة بها وحتى بعض المظاهر الأكثر شمولاً يمكن أن تؤرَّخ في ولادة المؤلَّف. منذ العام ١٨٣٣ أقلعت **الأوهام** مرتبطة **بالمقاطعات**. في سلسلة أخرى من الوقائع يكمل مشروع **آلام المبتكر** السابق تحوله تحت تأثير الظروف المستجدّة: رغبة بلزاك بالذهاب إلى **أنغوليم** لتحرير روايته، ومشاريعه التجارية المعلّقة على اكتشاف بعيد الاحتمال **لورَق ذي سعر رخيص** إلخ... والعنوان النهائي للقسم الثالث من **أوهام ضائعة** (قصّة خيبة أمل مبتكر ورق في

(*) - برنار باليسي B. Palissy: خزّاف، وكاتب، وعالم فرنسي، تألّقت رسومه من النباتات والحيوانات ولد في آجن وعاش في جنوب فرنسة في القرن السادس عشر (١٥١٠ - ١٥٩٠) اهتم بالعلوم الطبيعية ودراسة المستحاثات، أوقف في العام ١٥٨٩ باعتباره من الهوغنوت ومات في سجن الباستيل. (م. المترجم)

أنغوليم) يشهد على التبلّور الأول لموضوع لم تستنفده رواية **البحث عن المطلق**(*). أخيراً فإن حَدَث سان سورين ينم عن الترابط الأخير: أنغوليم، ربّة الوحي، الحامية، شاعر المقاطعة، حلم المجد الباريسي، . وكلّها مواضيع واضحة العلاقة في مفاهيمها مع المجموعتين الباقيتين. ها هو إذن عدد كبير من الافتراضيات الروائية المترابطة بشدّة لكن تآزرها الخفي لا يظهر إلا بعد مدّة كمون، كما يحدث غالبًا لدى بلزاك.

I

منذالعام ١٨٣٣(*)، عدّت **أوهام ضائعة** و**ورثة بواروج** مشروعين توأمين سيصدران في جزء واحد، ومع بدء العمل في ساشه، كان بلزاك مايزال يتحدّث عن **أوهام ضائعة** كقصّة «غير معقّدة» ، كما أشار إلى ذلك بنفسه: لأنها «على مستوى التوثيق»، لكن كلّ شيء تغيّر، أثناء التنفيذ كما ذكر في مقدّمته. فتحت تأثير المواضيع التي استعرضت في مطلع تلك المقدمة توسّع «المخطّط البدائي» بشكل كبير ليشكّل المدماك الأول من بناء عدة طوابق سيتمّمه بلزاك في العام ١٨٣٩ بالرواية الثانية **رجل كبير من المقاطعات في باريس**، ثم سيتوّجه في العام ١٨٤٣ بالرواية الثالثة **داڤيد سيشار أو آلام المبتكر**.

لم يكن المؤلّف الذي نُشر في ١١ شباط ١٨٣٧ تحت عنوان أوهام ضائعة إلا القسم الأول إذن من الثلاثية، وهو لا يتطابق تمامًا مع **الشاعرين** في الصيغة النهائية، لأنه ينتهي عندما يجد لوسيان نفسه «وحيداً في باريس، دون أصدقاء، ودون حماة». أمّا في التجزئة الأخيرة فقد غدا زوال وهم الحبّ، وهو خاتمة رواية العام ١٨٣٧، أول خيبة أمل لرجل المقاطعات الكبير في باريس، وهو نوع من بداية رحلة عذاب لوسيان الشاب بطل القرن التاسع عشر. لكن مؤلّف ١٨٣٧، مع خاتمته التي تبرّر عنوانه، هو الذي يتبادر إلى الذهن عند دراسة القسم الأول من **أوهام ضائعة**.

(*) - انظر ترجمة هذه الرواية: روايات بلزاك رقم (١٦) منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٥.

لماذا حُدِّد موقع الحدث في أنغوليم؟ في رواية **الزنبقة في الوادي** يزاوج بلزاك مناظر وادي الايندر مع حالات الأرواح النبيلة، والمشاهد الرئيسة من **حياة المقاطعات، اوجيني غرانده، والعازبون** (العنوان الأول **لكاهن تور**)، **وغوديسار الشهير، وجنة الرمان**(*) تواكب وادي اللوار من سومور حتى تلال سان سير، فتورين هي موطن ربّة الفن الماجنة وهي زخرف معظم قصص العشريتين الأوليّتين من **قصص ماجنة**، وبطل هذه الدعابات، على الدوام تقريباً توريني. وفي المدة التي أخذت ترتسم في **دراسات طبائع** آفاق **الملهاة الانسانية**، وجب تجاوز هذه الإقليمية المبدعة. لكن هذه المهمة بالغة الصعوبة وإذا كان بلزاك يحب بولَع تورين «مثلما يحب فنان الفن» كما كتب في الزنبقة، فإن بقية أرجاء فرنسة غير مألوفة لديه. والتمهيد لرواية **حجرة العاديات القديمة** في صحيفة **وقائع باريس** (٦ أذار ١٨٣٦) يمدُّ المنطقة البلزاكية إلى ألنسون التي اتخذت أيضاً مكاناً لأحداث رواية **العانس**، وقد غدا هذا التغريب من الآن فصاعداً لا عكوساً، وهو أحد مميّزات نتاج عمر النضج، إنّما للانتماء مرّة أخرى إلى جوار اللوار، يتحدّد مشروع **ورثة بواروج** في سانسير، وهو ما يبعدنا عن الموطن التوريني، ومع **أوهام ضائعة** تتزايد اللامركزية، ومباشرة الأديب بكتابة روايته في تور قد ساعد على هذه السيرورة: فبموجب قانون لايعاني كثيراً من الاستثناءات (وخاصة عند الإقلاع)، من غير الضروري لأن يكون مكان تنفيذ المؤلّف في موقع الحَدَث بالذات.

تعود تنحية **الورثة** لمصلحة **الأوهام** في بعض أسبابها إلى أنّ الروائي أكثر معرفة بأنغوليم من سانسير، فقد كان في ضيافة آل كارو ثلاث مرّات (١٨٣١ - ١٨٣٢ - ١٨٣٣) ومن زيارتيه الأوليين لا نعلم إلاّ ما أشارت إليه رسائله: لم يخرج مطلقاً من مصنع البارود حيث يقيم المقدم كارو على بعد فرسخ من المدينة، وقد كاد يهلك مرتين تحت جهد عمله المتواصل. ولم يخالط إلا قلة من الناس ضمن الحلقة الضيقة المحيطة بالسيّدة زولما كارو، أو بالأحرى أحبّت هذه القلة أن

(*) - جميع هذه الروايات والقصص مترجمة ومنشورة في سلسلة روايات بلزاك - نشر وزارة الثقافة السورية.

تتعرف عليه وتعاشره. كانت زلاقة لسان مفوّض الشرطة غران - بيزانسون تبهج الأمسيات بحكايات ممتعة غريبة جداً، وأعلن بيرجيس مدير إحدى المؤسسات استعداده لدعم ترشيح الروائي للنيابة عن مقاطعة شارنت؛ وحضر لويس سيغوند رئيس المحكمة المدنيه يتقصى اتجاه هذه الاجتماعات، وقام بلزاك بإجراء زيارة مجاملة لهذا الأخير، كما أنه قابل المحافظ لاريغوي، وكانت زولما الأبيّة، الوفيّة لآرائها الجمهورية تشارك زوجها المقدّم عزلته ولا تختلط بالارستقراطيين أو بالسياسيين المحليين، واحترم ضيفها هذا الامتناع؛ وما كاد يَعِدُ «دليله الانتخابي» بقبوله الترشيح عند زيارته التالية للسيدة دي سان - سورين حتى عجلت بنشر الخبر بشكل واسع. لكن بلزاك صرّح بسرعة من باريس لزولما كارو، صديقته القلقه (نحو ٢٠ شباط ١٨٣٣) أنه لا يعرف في أنغوليم إلا تلك الجماعة الصغيرة التي عاشرها في معمل البارود. وهذه الجماعة لم تترك أي أثر في رواية **أوهام ضائعة**. لكن زيارته الثالثة لآل كارو كانت مختلفة، لأن بلزاك المنهك أراد استعادة قواه، وأتاح لنفسه فرصة الاستمتاع باستكشاف المدينة بصحبة السيّدة كارو (التي سيذكّرها بنزهاتهما في رسالته بتاريخ ٢٦ حزيران ١٨٣٦) أو برفقة ابن رئيس المحكمة مرشداً. وانتقلت السيّدة دي سان - سورين إلى باريس دون أن تلتقي معه، ويمكن أن نستخلص مع السيّدة بيرار[1] أنّه لم يَرْتَد صالونات أنغوليم.

بعد نصف قرن، كان مجد بلزاك بعد الوفاة يأخذ مجراه، وألبيريك سيغوند الطاعن في السن ينعم بدفء «شمس المحتضرين». نسي أنه أعيا **رجلاً كبيراً في الفيغارو**، ولم يرد أن يتذكّر إلا الصداقة التي عقدها بلزاك مع يافع مجهول في أنغوليم: وهو يزعم[2] في الواقع أنه كان دليله السياحي في العام ١٨٣٣، وقد سأله الروائي، في ساحة موريه عن «منزل قديم ذي سقف مقرّن» (وقد أزاله مبنى مركز البريد): إنّه مطبعة بروكيس، وقد غدت مطبعة سيشار، وكان بروكيس يلقّب

(١) - السيدة بيرار، سوزان، «ولادة رواية بلزاك، أوهام ضائعة، ١٩٦٣» ومنها تستمد هذه المقدمة عدة تقصيات. في مؤلف بعنوان «دولاب الذكريات»، ١٨٨٥.

«بروكيس الطويل» وله أخ يلقّب «الحارس القديم» - وها هو كوانته الطويل قد وجد! عند نزول المتنزّهين نحو هومو توقّف بلزاك أمام لافتة الصيدلي اڤنجليستا. من هنا، دون شك، اسم بطلي **عقد الزواج**. لكن الرواي يعرف المشهد المماثل الذي قصّه غوزلان[1] بخصوص ز. ماركاس[2]، وتغدو قصته موضوع شك. أشار ب. إ. كاديلهاك إلى أن التماثل بين منزل آل شاردون وشقّة في فناء خلف الصيدلية القديمة ليس برهانًا على أن الكاتب قد زار منزل اڤنجيليستا. وفي العام ١٩٣٨ كان كل أثر لإڤنجيليستا وصيدليته قد زال، في البناء رقم ١٦٥ من شارع باريس يسكن الآن شخص اسمه لويس لامبر[3]، وفي هذا ما يدفع هواة تحقيق الهوية إلى التروي عند تماثل الأسماء.

هناك شهادة أخرى تفتن بغرابتها تقريبًا وهي تأتي من فوكور[4] الذي يذكر في العام ١٩١٣ قصة سبق أن سمعها منذ ثلاثين سنة من فم صانع شعر مستعار عدّه شاهدًا. . . هذا الشاهد، الذي كان يعيش منذ خمسين سنة سابقة واسمه سيشار كان في الثامنة عشرة من عمره عندما التقى ببلزاك، تائهًا قرب طاحونة فرجنوي، وطلب منه إرشاده إلى الطريق، وتبع ذلك حديث بينهما، وروى الدليل للمتنزه قصّة حياته، حفيد جَدٍّ توريني، صانع براميل، غني، بخيل له ولدان، لا يحبُّ البكر منهما، لكنه يكره الثاني، والد الرواي: وقد لقبه شاردون - سك (الشوك الجاف) وقد باعه معدات عمله بسعر يفوق قيمتها الفعلية. تزوّج شاردون - سك فتاة لا تملك شيئًا، وأفلس واضطرّ أن يعمل أجيرًا لدى الآخرين، وسار شاردون - سك رقم ٢ على منواله. بعد أن أنهى الدليل قصته، منحه بلزاك قطعة نقدية وانفجر ضاحكًا وهو يردّد بمختلف النبرات لَقَبَ الشاب المسكين. هذه البادرة

---

(١) - غوزلان، ليون (١٨٠٣ - ١٨٦٦) كاتب فرنسي له كتابان عن بلزاك (بلزاك في خفين ١٨٥٦) وبلزاك في منزله (١٨٦٢).

(٢) - ز. ماركاس Z. MARCAS: قصة لبلزاك من الدراسات السياسية.

(٣) - لا علاقة لهذا الشخص، بداهة بلويس لامبر بطل رواية بلزاك التي تحمل الاسم نفسه (منقولة إلى العربية - روايات بلزاك رقم ١٣ - نشر وزارة الثقافة - دمشق ١٩٩٤).

(٤) - فوكور، آندره: هـ. دي بلزاك في أنغوليم، ولادة تحفة روائية، ١٩١٣.

المغلّفة بالقسوة لا تصدر عن بلزاك، وطرفة فوكور لا تستحق أي اهتمام رغم تفاصيلها المترفة. لنضف أن المروّج الرئيس لواقعة سيشار هي زوجة صانع الشعر المستعار، وهي قارئة روايات نهمة، وقد لُقّبت على ما يبدو «الروائية» ويرجح أن تكون تلك الطرفة من ابتكارها.

من المؤكّد إذن أن أي تحقيق عن أوهام ضائعة مماثل للتحقيق الذي أراد بلزاك إجراءه في سانت عن برنار باليسي لم يجر. عندما باشر بروايته بعد ثلاث سنوات من إقامته الأخيرة في مصنع البارود، بقيت طبوغرافية أنغوليم العامة في ذهنه، لكن الأسماء فاتته، فتركها فراغات بيضاء في مخطوطته بانتظار المعلومات التي طلبها من آل كارو في رسالة موجهة إلى زولما بتاريخ ٢٦ حزيران ١٨٣٦، وقد بينت السيدة بيرار في دراستها الرائعة كيف استفاد من المخطط المرسل إليه. كما أجرت الناقدة نفسها مقارنات دامغة بين كتب **الدليل** (المعنونة بشكل عام **مسارات**) المتوفّرة عن ذلك العصر، ووصف بلزاك المقتضب للمدنية. كان لدى المؤلّف مجال واسع للتوثيق في باريس لكن لوحته في قسمها الأكبر عامّة غير مُتقنة. يخطئ عن إهمال، وفقًا لقول أ. فوكور الذي لم يجد في أي مكان المناظر العامة التي ينتظرها، أو عن خطأ: لا شيء أكثر إرباكًا من مسارات لوسيان، فهو أحيانًا يضلّ أويضلّلنا بتصوير أنغوليم قائمة على صخرة مخروطية الشكل مثلاً، أو بتوجيه عشّاقه نحو جسر سانت - آن الذي لا وجود له وفقًا لتحريات پ - إ. كاديلهاك.

إذا كان لقصر بارجتون أصل في أنغوليم، فمحض مصادفة: لم يدخل إليه بلزاك. إنّه صورة مقترنة بانطباع سمعي، برز على السطح في ساشه: «هذا البيت الكبير الذي سمعنا منه أحيانًا عزفًا على البيانو» (٢٦ حزيران ١٨٣٦)، وقد أضافت زولما كارو سمة باهتة عندما سئلت: «هذا الدير القديم، منزل كبير ذو شرفات على الطراز الحديث» (٢٨ حزيران). منزل لم نتمكن من تحديده بشكل موثوق، وقد لاحظه بلزاك في أعلى أنغوليم، على شارع ميناج. وافترضت السيدة بيرار أنه مقرُّ عمادة، أُزيل أثناء بناء كلية للبنات، أيًّا كان الأمر، يؤكّد ألبريك سيغوند وفوكور:

ارتياب بالحقيقة وباحتمال وجود هذه الضاحية وكأنها حي أرستقراطي نبيل في أنغوليم مماثل لسان جرِمَن في باريس إنّما في شارع يسكنه أناس بسطاء من عامة الشعب.

مثل هذه الحريات تدهش لدى بلزاك: هل التبس لديه الإطار الحقيقي لا شعورياً بمخطط رومنسي سابق؟ الواقع أن نيكول موزه وجهت انتباهنا إلى التشابه بين المشروعين المتوازيين في العام ١٨٣٦. فمدينة سانسير المعلّقة على هضبة شديدة الانحدار صُمّمت سابقًا إطاراً لرواية **ورثة بواروج** واحتفظ الكاتب بمخطط صمّمه للتوزّع الطبوغرافي للرواية، ووضع بشأنه بعض الملاحظات منها على سبيل المثال «قمة أرستقراطية» و«شوارع حُرَفيّة واطئة». أخفق مشروع رواية **الورثة** بسبب عدم ملائمة الموقع للموضوع، في رأيٍ نيكول موزه. لكن هذا الترتيب «في مكان مرتفع» يناسب بشكل رائع المشروع الآخر، وقد رأى فيه بلزاك، على الأرجح، إمكانية لتجسيم موضوع يهمُّه كثيراً وقد سبق له أن عالجه في **لا تلمس الفأس** (العنوان الأول **لدوقة لانجه**) وحديثًا في مطلع لا ينسى لرواية **حجرة العاديات القديمة**: إنّه العزلة المعنويّة والسياسية التي أُحيط بها المجتمع المؤيد للملكية، الذي غفَلَ عن الاستفادة من انتصارات الصناعة والموهبة، فقصر بارجتون يمثل في أعلى أنغوليم، هذا المجتمع الصعب المنال الذي لم يعرف العودة إلى عهده السابق - ونرى ابن صيدلي ينطلق من ضاحية تجارية ليخترق تلك القلعة القديمة.

انحرفت الرواية سريعاً في اتجاه آخر نحو الموضوع الذي حدّده بلزاك في مقدمته: «مقارنة بين طبائع المقاطعات، وطبائع الحياة الباريسية»، قدح لاذع «للأوهام التي يشكّلها بعضهم على بعضهم الآخر في المقاطعات» المعبّر عنه في الرواية، «شاب يعتقد في نفسه أنّه شاعر كبير، وامرأة تغذي فيه اعتقاده وترميه وسط باريس، فقيراً ودون حماية».

بعد أبحاث السيّدة بيرار، تولّد شبه يقين بأن رسالة السيّدة دي سان - سورين كان لها دور الحفّاز في ابتكار شخصية السيدة دي بارجتون. هذه الرسالة أثارت فضول بلزاك حتى أن زولما في ١٣ شباط ١٨٣٣ تناولت بسخرية كبيرة سخافات ربّة وحي المقاطعة هذه: «أعلم أن هذه المدينة ولّدت امرأة مؤلّفة، فنّانة، ترتدي غالبًا الزي الإغريقي»....

وقد تمّمت الصورة بكلّ تأكيد بعد ذلك بشهرين لدى آل كارو شفهيًا، ولنضف أن هذه الملهمة قد استندت إلى معرفتها ببوهن الذي يقيم معه بلزاك صلات طيّبة: ومحافظ شارنت السابق الذي أقيل لمجونه يعرف جيّدًا تلك المرأة، المتحررة من كل التزام، والتي لم تتردّد في استغلال اسمه مثيرة اشمئزاز المجتمع الطيب في أنغوليم.

ماري - كارولين - روزالي ريشار دي سندركور تزوجت في العام ١٨١٢ وهي في التاسعة عشرة من عمرها ببيير تيفون دي سان - سورين بحاّثة العلم الذي يكبر زوجته بخمسة وعشرين عامًا، وبارجتون، في رواية الشاعرين، يكبر امرأته باثنين وعشرين عامًا. لم يكن لهذين الزوجين غير الاسم، و «العجز الفكري المتميّز» لدى بارجتون - الأكول يُخفي عجزًا آخر، أما دارس بوالو المتحذلق، فلم يُسَّر لرؤية امرأته تذيع علنًا عجزه الزوجي في قصة سيرة ذاتية بعنوان **ماريا** التي كذبّها الزوج برعونة دامغة قطعًا في مؤلّف بعنوان **مذكرة صغيرة عن مناكفات طويلة**(١). لم تكن روزالي التي تنادى باسم روزا، رغم اسمها، إلا دهليّة(*) دون عطر. والزوج (بدوره أيضًا) «منصرف إلى وهم يستحق المغفرة»، باختصار، كان من الأفضل له أن يقتصر على إعطاء زوجته دروسًا في الأدب. لكن النجاح تجاوز

---

(١) - ماريا أو صبح ومساء طبعت في باريس العام ١٨٣٧، ومذكرة صغيرة عن مناكفات طويلة طبعت مرتين في أنغوليم العام ١٨٤٠، وقد تطرقت إلى ذلك آن ماري مينينجة في مقدمة قصة بلزاك: ربة وحي المقاطعة.

(*) - الدهلية Dahlia: زهرة من فصيلة المركبات الانبوبية دون عطر بينما تشتهر الوردة Rose بعطرها الفواح. (المترجم).

توقعاته، ففي أيلول ١٨٢٠ - وفقًا لتطابق تقريبي مع تأريخ القصة - غادرت روزالي فجأة أنغوليم بصحبة عم لها، روزيه مونتورو، هبط إليها من السماء، متوجّهين إلى بربينيان لزيارة أخ لسان - سورين لكن رحلة ذهابهما استغرقت خمسة أشهر أما رحلة الإياب فلزمها تسعة أشهر، عن طريق مرسيليا، وكليرمون فران، وڤيشي، وسويسرة. انتقل سان - سورين إلى باريس تبعته امرأته. . . في تشرين أول ١٨٢٤ . انقضت عشرون سنة على الزوجين بين دعاوي خسيسة، ومماحكات، ومجابهات غير محتشمة، نذكر منها أن مطران أنغوليم مع بعض الأعيان سوّى الخصام القائم بين الزوجين بانفصال ودي، قال عنه سان - سورين «إنّه يوم حداد بالنسبة للعائلات الشريفة، أما روزالي فقد كان لها رأي أخر، إذ أنها احتفلت بعتقها بإقامة مأدبة عامرة لم يجد المطران حرجًا في حضورها شخصيًا - مما يساعد على فهم دور المطران في تردّده على منزل آل بارجتون، فبلزاك لا ينسى شيئًا من هذه المهزلة المأساوية في الحياة الخاصة، «وهذا النوع من القضايا يقود غالبًا في المقاطعات إلى خضم ثرثرات المدن الصغيرة، الذي قد يتحوّل إلى صراخ صاخب لا يتوقّف غالبًا في قاعة جلسات المحاكم». (وفقًا لما جاء في مذكرة صغيرة. . .).

إذا كان بلزاك قد أفلت من السيّدة دي سان - سورين في أنغوليم، فإننا نستغرب عدم التقائه بها في باريس فهو يعرف الوسط المؤيّد للملكية البوربونيين في دوريّة **صدى فرنسة الفتية** والمتعاونين مع تلك الصحيفة التي تتردّد عليها السيدة دي سان سورين، كما أن **النشرة الدعائية** الصادرة في آذار ١٨٣٣ أشارت إلى بلزاك كعضو في هيئة التحرير. لنذكر أن الفصل الأوّل من رواية **لا تلمس الفأس** وهو بعنوان الأخت **تيريز** الموضوع الجذّاب في العدد الأوّل من الدوريّة، لكنه اختلف مع الدورية (في شهر أيار) بخصوص الفصل الثاني من تلك الرواية الذي يسخر فيه من ضاحية سان جرمن، بينما ظهر في عدد أيلول فصل من قصة **ماريا** لسان سورين مع نقد لاذع لرواية بلزاك **طبيب الريف** لكن السيدة دي سان سورين عبّرت لبلزاك في رسالتها عن عدم تضامنها على الأقلّ مع هذه الأحقاد.

وجد البارون دو شاتلية للسيدة دي بارجتون شقّة في شارع نوف - دي لوكسمبورغ (شارع كمبون حاليًا) على مقربة من شارع سان - أونوره حيث تعنى ببلاط صغير يؤمّه أصدقاؤها الخُلص الذين ذكرتهم في **أسبوع في باريس** : الدكتور أليبر، وثلاثة محرّرين متمرسين من مجلّة **ربة الوحي الفرنسيّة** : سومه، وغيرو، وإميل دشامب، ورائد جميع الصالونات جول دي رسيغيه، والآنسة دوشنوا الملازمة لها كظلّها، وعشيق ربّة المنزل مونمركه المتبحّر في العلم، وبعض الشاعرات، غبرييل سومه، وإليزا ميركور (المتوفية في العام ١٨٣٥) اللواتي ينشرن جوًّا من الشعر أو من مرح الشباب في ذلك المجتمع الصغير من الهيام المتبادل تضلُّ فيه أحيانًا مارسلين دبورد - فالمور، وقد كانت التسليات الوحيدة في السهرات التي تبدو طويلة مملّة هي تلك التي تتلى فيها الأشعار التي أرادت السيدة دي بارجتون أن تحييها في أنغوليم.

بديهي أن المترددين على صالون شارع ميناج في أنغوليم لم يلاحظ وجودهم في صالون شارع سان اونوره في باريس وبالمقابل، فالسيدة دي بارجتون على نسق السيدة دي سان سورين تأخذ «القيثارة - كلمة تؤثرها - بخصوص مقطع تافه دون تمييز بين القصائد الشخصية والقصائد العامة» وتغيب وجدًا، وتلتهب شعورًا وتتشدّق متحمسة بعبارات «يحيط بها القدم[١]»، ونحن لا نؤكّد أن بلزاك قد درس هذا الموضوع واقعيًّا إذ يكفيه أن يتصفَّح مصادفة **أسبوعًا في باريس**[٢]، ويقرأ: «كنت أستمع، وأنظر، وأفكر، وأحسّ بتأثير الإبداع الشعري الذي يملأ الجوّ حولي، وأستنشقه ملء رئتي». أو : «لم تكن تولي التقدير لإلهاماتها - قالت: كيف يمكنني أن أغنّي وأمّي مريضة، وتركت قيثارتي» هذا هو أسلوب ملهمة الوحي.

(١) - من الرواية الأولى، « الشاعران» في ثلاثية أوهام ضائعة.

(٢) - من كتاب مرآة الصالونات، الطبعة الثانية المزيدة بفصل أسبوع في باريس، ١٨٣٤.

بعض السخافات الملاحظة جيّداً لا ترسم الشخصيّة، وقد منح بلزاك ملكة أنغوليم المتصنّعة مرحلة شباب طليقة وسعيدة (وتقارن السيّدة بيرار تربية أناييس وتربية الدوقة دي دينو التي كان لرئيس الدير بياتولي قربها ذات الدور الذي لعبه رئيس الدير نيولان قرب السيدة دي بارجتون) والمرأة المحبطة بزواج مصلحة، المقيّدة بتقاليد متحجرة في المقاطعات، عرفت حبّاً حقيقياً تحطّم بموت السيد دي كانت - كروا في وَغْرام، ولمنح مسحة إنسانية لهذا الوجه المهدّد بالسخرية، أعاره الكاتب قسمات السيدة دي كاستري؛ ولم يتردّد في أن يضع أسراره الخاصة في خدمة المؤلّف الذي يُعدّه وتمثل بلوسيان المعذّب بعفّة أناييس المرائية، في علاقته مع مدرّبة هواه التي تصغر الأثيرة (**الديلكتا**) بعشر سنوات. بل إن في السيدة دي بارجتون شيئًا من السيّدة دي برني، فهي تطري طموح لوسيان وتبدي لذويه ازدراء متغطرسًا. يذكر أ. آدم أن السيّدة دي برني كانت تقول لبلزاك: «أنت زهرة أتت على مزبِلَة» كما أن السيّدة دي بارجتون تخاطب محميّها: «ماذا يهمني من عائلتك، وأنت استثناء منها؟ هل تقلق إن تزوّج أبي خادمته؟ بسخافاتها تبرز المرأة العالية المقام، بل إنّ المؤلّف لا يتورع عن طرح بعض الأفكار العزيزة عليه بلسانها منها على سبيل المثال، دور الفنان. وقيل إن زولما كارو قد أعطتها بعض ملامح من شخصيتها. لكننا نستبعد ذلك. زولما امرأة سامية، دون شك، لكنها نافذة البصيرة في عزلتها، وفيّة لحياة عائلية لا تسليها. باستثناء مودّات صادقة وفيّة، لا تعيبها (مع بلزاك وبورجيه) ما من شبهة خسّة أو غرور في شخصيتها، «وإدراكها الواعي لذاتها حماها من كل وهم»، وفقًا لما كتبته لبلزاك بتاريخ ١٠ تشرين أول ١٨٣٣. لنحفظ هذا التقارب في الموضوع والتاريخ. لا نعتقد أيضًا بما أثير غالبًا بأن جورج صاند هي نموذج السيّدة دي بارجتون: فليس بين الطبعين أي تشابه حقيقي. قد تكون بعض تربية ذكورية واستقلالية مشتركة بينهما، لكنها جعلت من أناييس كائنًا منعزلاً، أنانيًا، متحسبًا، بعكس أورور دوبن جورج صاند) المرأة السمحة، التي لم تفقدها حياتها العاطفية المتهوّرة قابلية رائعة للصداقة والودّ. هل للسيدة سان - سورين

لوسيانها؟ يبدو أنّها كانت تفضّل أهل العلم الناضجين. ودون معرفة محميّها، يحتمل أن يكون بلزاك قد اختلق حكاية حول اسم الشاعر الذي أوصته به: ليزياس (لوسيان؟) موتارديه، يمكن استحضار فكرة الصيدلة(*)... على ضوء السخرية من استئناف الاتصال مع مدعية أدب أنغوليم. لم تكن علاقات هذا الشاعر، في العام ١٨٣٦، مع السيدة دي سان سورين معروفة، ولا وجه شبه له مع لوسيان، فهو في الأربعين من العمر، متزوج، مدرّس في كلية أنغوليم، جلّ اهتمامه أن يدندن بأبيات الشعر الستة وثلاثين ألفًا التي سيتركها في العام ١٨٥٨ لأرملة حزينة لا تتواسى (سيطبعها في ديوانين قاتمين).

كانت أسماء لوسيان موضوع فرضيات كثيرة، اقترح فوكور اسمَ سيشار المستبعد، والملقب شاردون - سك كما أنّ اسم كوناشار الوارد في **ابنة بيرث الجميلة**(**) يمكن أن يعطي في آن معًا سيشار وشاردون وفقًا لرأي السيدة موزه التي تؤكّد انزلاق مشروع **الورثة** في مشروع **أوهام ضائعة**. يوجد أثر أكثر وضوحًا إن لم يكن أكثر وثوقًا في مذكّرات كانلر[1]: في ١٤ كانون أول ١٨٣٤، شارع سان - مارتن، وجدت الأرملة شاردون مقتولة في منزلها مع ابنها: كان هذا «الشاردون الملقب **العمّة** معروفًا بذوقه **المضاد للطبيعة**». وإذا كان يحق لبلزاك أن يجهل وجود مزرعة قرب أميان تسمى روبمبره فلا يمكن أن يجهل اسم ألبرت دي روبمبره نسيبة دلاكروا وخليلة ستندال السابقة (أ. آدم) كما أن هذا الاسم استخدم سابقًا للإشارة إلى ممثلة ذات دور ثانوي في الأحمر والأسود، هي المركيزة المحترمة دي روبمبره. كما أن السيّدة فورتاسيه[2] تفترض أن يكون بلزاك قد قرأ مؤلَّف **أسرار التوالد** لشخص اسمه موريل دي روبمبره، وهو يتعلّق بفنّ إنجاب الجنسين حسب الإرادة، وهو موضوع غريب يثير اهتمام بلزاك، كما هو معروف. هذا النوع من التخمينات

(*) - موتارديه Moutardier: تعني صانع الخردل.

(١) - كان كانلر رئيس دائرة الأمن العام.

(٢) - من مقال السيدة فورتاسيه في السنة البلزاكية ١٩٦٨، «حول بريا ساڤارين والتغذية في التوالد».

(**) - رواية لوالتر سكوت وكان بلزاك يحلم بتقليدها في رواية «ورثة بواروج» (كما ورد في رسالته للسيدة هانسكا ٢٦ آذار ١٨٣٦).

لن يقربنا كثيراً من الغاية المرجوّة، فاختيار الاسم عملية غامضة في الإبداع الأدبي، وكثير من العوامل - وليست كلّها من منشأ «خاص بأسماء العلَم» - تساهم في آن واحد في هذه الظاهرة من التبلور، إنّما بمقياس يتعذّر تحديده إلاّ في أحوال استثنائية. لنُشرِ إلى أن إتيين ديروفيل (في القسم الثاني من **الولد الملعون** - المعنُون **الدرَّة المحطّمة**) وحتى ضمن طبعة وردة (١٨٣٧) كان يحمل لقب المركيز دي روبمبره، ولكن من الصعب القول، وفقًا لرأي السيدة بيرار، إن كان الاسم سابقًا أو مرافقًا لخلق شخصية لوسيان في **أوهام ضائعة**.

يرى كثير من المعاصرين في مغامرة لوسيان الأنغوليمية وخاتمتها الباريسية المحزنة تلميحًا لعلاقة جورج صاند بجول صاندو، وكانت **أوهام** (الرواية الأولى من الثلاثية المسماة الآن **الشاعران**) ماتزال تحت الطبع، عندما أنذر وردة في نهاية العام ١٨٣٦، ساندو المعتزل في بورنيك، ووجّه انتباهه إلى هذه الرواية وقد أجابه صاندو بهذه الكلمات الغامضة التي نقتطفها من المذكّرات غير المنشورة لصاحب دار النشر: «ماتذكره لي من **أوهامكم الضائعة** (وقد وضع صاندو خطًا تحتها) ساهم في إزالة أحد أوهامي». هذا ما يفسّر الرسالة القلقة التي أرسلها صاندو إلى بلزاك بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٨٣٧، وهي أيضًا قبل ظهور الرواية، وقد جاء فيها: «ماهي **أوهام ضائعة**؟ كتبوا لي من باريس بأنّها قصتي مع الشخص الذي تعرفه. هذه القصة هي تلك التي يعاني منها جميع الناس، ويمكن أن يحدث خطأ في تعليلها، ومع ذلك فقد أُكّدَ لي أن كل صفحة من كتابك هي أحد أيام شبابي». وعندما خرج الكتاب من المطبعة كانت هذه الشائعة قد عمّت باريس، وقضى شارل ديديه طوال يوم ٢ شباط يلتهم هذه «الأوهام الضائعة لبلزاك، التي لم تكن - في رأيه - إلا القصة المقنّعة لجورج صاند مع جول صاندو، عدّها ديديه خيانة، وعدم لياقة سافلة، لكن فيها سمات مميّزة انتهازية للأسف». أمّا جول صاندو فقد اطمأن عند قراءة المؤلّف، وصرح بلا مواربة لبلزاك في ١٧ آذار ١٨٣٧ أنه لا يرى أيّة

علاقة بين أوهام ضائعة ومغامرته الشخصية، و لا صلة بينِ لليّا والسيدة دي بارجتون. لكن يحتمل أن تكون بعض الأسطر تقصده - ناصة في وجود وجه تشابه له مع الجانب السيّء من لوسيان».

مايزال هذا المصدر(*) يجد بعض أصداء حاليّا، دون الأخذ بالاهتمام رأي صاحب العلاقة الرئيس الذي استمدّ من فشله العاطفي موضوع رواية ماريانا (الصادرة في العام ١٨٣٩). الواقع أن العلاقة الطويلة والعاصفة بين عاشقي ضفّة السان ميشيل بألمها الباريسي المبرّح الذي لاينتهي، المتقطع بمراحل عطلات وأنصاف قطيعة، وأنصاف تصالح، لا تتماثل أبدًا مع المغامرة الصالونية والأفلاطونية للوسيان ينهشه الطموح، وهو شبه مطرود عند وصوله إلى باريس من قبل ملهمة شرسة الطبع مشبعة بتحيّز طبقتها.

يذكر ما بيل سيلفر (كاتب السيرة الذاتية لصاندو في العام ١٩٣٦) أن صاندو مثل لوسيان سليل عائلة فقيرة استقرت في المقاطعات - كان الأب جابيًا في بلدة لا شاتر «على بعد نحو ٣٠٠ كم جنوب غرب باريس» يكدُّ ويتعب ليؤمن عيش

(*) - لنذكر باختصار هذا المصدر (علاقة جول صاندو الغرامية بجورج صاند) لقراء العربية: جورج صاند الكاتبة الفرنسية الشهيرة هي أورور دوبن (١٨٠٤ - ١٨٧٦) تنتسب لأسرة عريقة في النبل ترجع في جذورها لموريس دي ساكس مارشال فرنسة وإلى ملك بولونية أوغوست الثاني في القرن السابع عشر. عاشت في قصر نوهان وتربّت في دير الراهبات الأوغو سطينيات في باريس حيث عانت من أزمة صوفية، تزوّجت في العام ١٨٢٢ البارون كازيمير دو دفان ورزقت منه ولدان: موريس وصولانج، واختلفت معه بشأن وصية واتفقا على تسوية تقضي بموجبها جزءاً من السنة في باريس منصرفة إلى عالمها الأدبي تعرفت على جوليان صاندو (١٨١١ - ١٨٨٣) ممارس أدب مستهتر وضعيف الشخصية، وهو أصغر منها بست سنوات. حاول أن يحدث له اسمًا في عالم الأدب. ألفّت معه روايتها الأولى، روز وبلانش ووقعاها بالاسم المستعار (ج. صاندو) في العام ١٨٣١ عاشت معه حبًا عاصفًا، لكنها وجدته تافهًا لايرقى إلى مستواها الأدبي الذي كونته باسم جورج صاند، فهجرته في آذار ١٨٣٣، وكتبت روايتها «لليا» من ذكرياتها السلبية معه، كما أنه بدوره كتب رواية «ماريانا» في العام ١٨٣٩ عن تلك العلاقة. (ملاحظة

عائلته المؤلفة من ابنه جوليان وابنته فليسي ووالدتهما التي يمكن لماري دورفال(*) أن توجّه لها رسالة إشادة بعاطفتها المتوقدة نحو الابن الضال، فهي وفليسي يحيطان جول بالرعاية كإحاطة إيف والسيدة شاردون بلوسيان. إنّما لنحترس من الذهاب بعيداً، فالنشأتان لا تتشابهان، ولوسيان يتيم الأب عانى من البؤس في أنغوليم، واضطرت أمُّه للعمل ممرضة للنفساوات من الأمّهات، ولم تكن أخته إيف تأمل بالزواج فهي دون مهر. كما أن لوسيان لم يغادر أنغوليم حتى العشرين من عمره. أمّا جول فقد كان وهو في السابعة عشر طالباً في باريس. بالمقابل يوجد في طبع الشابين الحقيقي والمتصوّر تشابهات واضحة يحقُّ التفكير بها في هذه الدراسة لرواية **أوهام ضائعة**، فكأن أحدهما يُعدُّ نموذجاً للآخر، وقد لاحظ شارل ديديه ذلك، كما أن صاندو نفسه، كما رأينا، لم يعارض ذلك، ويجب القول إن بلزاك وُجد في موقع مناسب جداً «لاستثمار نموذجه المفترض».

تمّ تعارف بلزاك وصاندو بواسطة بورجه في العام ١٨٣١، ووُضع مشروع تعاون مسرحي لكنه لم يتحقّق إنّما انبثقت عنه مودة متبادلة، وعندما اضطر صاندو في ٦ آذار ١٨٣٣ أن يترك نهائيّاً شقة رصيف ملاكي على ضفة السين، التقى بلزاك بالعاشق المطرود، وأعلن معاضدته له، قبل أن يرحل ليجفف دموع أحزانه تحت شمس إيطالية في رحلة طويلة استمرّت أكثر من عام وعندما عاد «جول الصغير» مع طيور السنونو في شهر آب قدّم له بلزاك شقّة بورجه في شارع كاسيني، وفي ١٨ تشرين أول أعلن في رسالة للسيدة هانسكا «الغريبة» أنه سيسكنه معه: «يجب ملء فراغ هذا الغريق المسكين الطيّب القلب، وإرشاده في بحر الأدب الكبير بعد أن تحطّم مركبه على تلك الصخرة الأثيمة التي أخذت اسمه، وتكنّت ج. صاند، وسلبته الروح». لو أن هذا الغريق صاحب موهبة لكتب مسرحيات عرض عليه بلزاك مواضيعها بلا مبالاة. وسنعود إلى هذه المرحلة الغريبة من المساكنة، لكن

(*) - ماري دورفال (١٧٩٨ - ١٨٤٩) ممثلة فرنسية، قامت بأدوار البطلات الرومانسيات. كانت على علاقة مع الشاعر الفريد دي فيني. (م. المترجم)

لنقل ببساطة إن صاندو لم يحقق الأمل المرجوّ منه: أمّن له المأوى والمأكل وغسل الثياب، إنما هو مشلول من قبل هذا الغول الذي يأويه، ولم يستطع «جول الصغير» وهو يدخّن ويبري أقلامه أن ينتج شيئًا جيّدًا، وأخيراً هرب كاللص في أحد أيام آذار ١٨٣٦ بعد أن خلّف وراءه ديونًا تقدّر بنحو أربعة آلاف أو خمسة آلاف فرنك. وكتب بلزاك في ٨ آذار للغريبة: «لا يمكنك أن تتصوّري أبداً مثل ذلك الاستهتار... لم يستطع خلال ثلاث سنوات أن ينشئ نصف جزء من مؤلَّف».

غير أنّه أعدّ ووقّع بشكل مقدّمة لإعادة طبع مؤلّفات بلزاك في مطلع شبابه الموقّعة بالاسم المستعار هوراس دي سان - أوبن، وهي مقدمة بشكل سيرة ذاتية متصوّرة للمؤلّف بعنوان: **حياة وتعاسة هوراس دي سان - أوبن** وقد كتبت بإشراف وتحت نظر بلزاك وأعلن عنها الناشر سوڤرن في ٢ نيسان ١٨٣٦ ضمن مرجعيّة **كتب فرنسة** وفي الإهداء الطويل الموجّه إلى إميل رينيو يصوّر صاندو نفسه ضحيّة لباريس، فعسى صديقه لم ينس المنطقة التي ولد فيها! وهو يذكّره بعهود الصبا، عندما أقسم جول بأن يلجأ في العمر «الذي يتبدّد فيه كل وهم» إلى قرب رينيو في المقاطعات، يطلب منه «السلام، والسكون، والحقائق الأكثر عذوبة من الأوهام نفسها». وفي مكان آخر يقطع استرساله ليهتف: «أتذكر ياعزيزي إميل اليوم الذي رأينا فيه باريس لأول مرّة، حيث دخلنا ولأوّل مرّة، في تلك الصحراء الواسعة من الرجال، وفقًا لقول الشاعر... أيّة آمال كنّا نعقدها آنذاك، ماذا بقي منها الآن، هوذا إذن صاندو في العام ١٨٣٦، يمثّل في حميمية بلزاك ملهاة ابن المقاطعة وأوهامه الخائبة، والأرجح أنه قد مثلها أمامه أغلب الأوقات.

جميع رسائله تشير إلى أن فشلَه الباريسي تسلّط عليه، وهذا الهاجس يظهر أيضًا في الكتاب الموجز الذي أعده لبلزاك. وهوذا على سبيل المثال ما بدأ يقوله عن الكاتب الذي يقصّ وجوده المتخيّل: «نادراً ما كان يتذمّر، كان يتكلم أحيانًا عن أوهام خامدة، وطموحات خائبة، وعبقرية مخنوقة». لأن **حياة وتعاسة** قصة كاتب

من المقاطعات في باريس، وأوهام ضائعة، تستحق عناء النظر إليها عن قرب، فصِلَةُ هذا الكتيّب مع مولّف بلزاك أكثر تميّزًا في الواقع من التماثلات المبهمة مع واقعة صاند[1]. وبمقارنة الكتابين يجب ألا ننسى أن **حياة وتعاسة** قصة أعدت بخفة وغالبًا بسخرية، وهي أشبه بأسلوب پيغو - لبرن[*] أو **روز وبلانش** إنتاج صاندو المشترك مع ج. صاند.

ولد هوراس سان - أوبن، العام ١٧٩٨، في كولون من مقاطعة دو - سيفر[**] وهو يتيم فقد والده مثل لوسيان، وقد مارس سليل هذا الاسم الجميل في عمق المقاطعات حياة كائن مغمور؛ وبينما كان ذوو لوسيان يعلّلون بأوهام أصول نبيلة، عُهِد بهوراس بعد موت أمّه إلى صاحب حانة، وعاش «جاهلاً أصله». غير أنّه يكشف مثل بطل رواية بلزاك «بنبالة تصرفاته الغريزية»، ويلتقي بالفيكونت دي بارتني، الذي يعيب عليه خمول ذكره، ويدعوه إلى قصره، ليغوص مجددًا في محيطه، ذلك الوسط الأنيق الذي أورثته السيدة دي سان - أوبن غريزيًّا لابنها، ويثور هوراس ضد الجهل الذي يتخبط فيه، ويُقبل بنهَم على قراءة رينه، **والقرصان ولارا**، **وخطية دي لامرمور** ويهيم حبًّا بأخت الفيكونت، ويظهر في كلّ مرة يعود فيها من القصر روحًا أشدّ تعلُقًا. «بالطموح، والحبّ، والثروة والمجد». ويحل شهر تشرين الثاني، ويهيّء آل بارتني حقائبهم. ويقول الڤيكونت لهوراس الواجم: إننا راحلون إلى باريس، ياعزيزي، أعلم جيّدًا أنّ لا معنى للعيش إلا هناك». كذلك قالت السيّدة دي بارجتون للوسيان: «هناك، ياعزيزي حياة عظماء

---

(١) - حُلّت علاقة كتيب صاندو مع **أوهام ضائعة** في مؤلف صدر بالإيطالية العام ١٩٦٨ للكاتب ر. سيزار.

(*) - پيغو - لبرن Pigot - Lebrun (١٧٦٣ - ١٨٣٥): مغامر فرنسي عاش حياة عاصفة ألف روايات قلد فيها الأسلوب الفولتيري.

(**) - دو سيفر Deux - Sévres: المقاطعة الفرنسية رقم ٧٩ غرب فرنسة. نذكر أن هوراس شخصية وهمية وقع به بلزاك رواياته الأولى.

الرجال، لا يرتاح الإنسان إلا بالعيش مع أقرانه». إلخ . . . وتدّخر العاصمة للبطلين اللذين تنكّرا لمقاطعتهما خيبة الأمل نفسها. وفي أول زيارة لدار آل بارتني يُستَقبل هوراس ببرود «فهو ظريف ممتع في عمق پواتو السفلى، لكنه قروي فظّ في صالون شارع ڤارين». وهو مثير للسخرية مثل لوسيان في ثيابه الإقليمية، ويهرع مثل لوسيان لينفق ثلثي دراهمه لدى الخياطين، ومثله أيضاً بعد أن هُجر على قارعة أحد شوارع باريس، يجد أنه لم يكن إلاّ «موضوع فضول». . . تسلية بضع ساعات لدفع الضجر عن سكان القصر النبلاء. أمّا ما يتعلّق بحياة هوراس في الحيّ اللاتيني وبعودته إلى المقاطعة، فإنها تظهر مع عرض **رجل كبير من المقاطعات في باريس** تماثلات مدهشة سنشير إليها لاحقاً.

لا يحتاج بلزاك إذن، وهو المسيطر على موضوعه للبحث عن بطله، فهو موجود إلى جانبه، في شارع كاسيني أو شارع باتاي، إنّه النموذج المجامل لكاتب المقاطعات المخيَّب الآمال. هل نتهمه بأنّه نَسخَ أو على الأقل انتحل **حياة وتعاسة**؟ إذا تذكّرنا العقم الأدبي المحزن «لجول الصغير» في تلك الحقبة نفكّر بالأحرى فيما يلي: كلّف صاندو بكتابة سيرة ذاتية متخيّلة للمعلم، فاكتفى بأن ينسج وينمق بعض الوشي حول المواضيع **التي قدمت له**. إذا كان هذا التكّهن صحيحاً نستنتج أن بلزاك، قبل أن يخطّ كلمة واحدة من **أوهام ضائعة**، كان يتصورّ بوضوح موضوع **رجل كبير من المقاطعات**. . . أخيراً يحقّ لنا أن نتساءل إن لم يكن نشر سان أوبن نتاجه بين ١٨٢٢ و ١٨٢٤ قد ألزم بلزاك بتوقيت القصة الأولى في مطلع عهد الملكية الثانية ومنعه من تحقيق ما ارتجله بحرارة في ساشة حول تركيز أحداث أوهام ضائعة في العام ١٨٣٠ بحيث تلي **جلد الحبب**(*) كما كان متوقعاً.

(*) - جلد الحبب La Peau de Chagrin : من سلسلة الدراسات الفلسفية لبلزاك وتدور أحداثها في العام ١٨٣٠، وقد ترجمت إلى العربية - منشورات وزارة الثقافة - روايات بلزاك رقم ١٢ - سنة ١٩٩٤.

لكن لنعد إلى لوسيان دي روبمبره. سمات مرسومة عن نموذج من الواقع، هو على الأغلب صاندو. صحيح، كما تقول سوزان جان بيرار، أن صاندو لا يتمتع بتلك العقلية الغاسقونية، والمغامرة التي ينسبها بلزاك إلى بطل روايته. لكن هل برهن لوسيان على تحليه بها، وعندما ركّز المؤلّف في بداية الرواية على الصديقين، ألم يُضَحِ للأدب بالتباينات؟

كانت عواطف لوسيان ذات كسوف وخسوف. «شجاع والريشة في يده» لكن سرعان ما يندم على الرسالة التي يضحي فيها بالزهو الدنيوي من أجل صداقة عهود الصبا. وسعادة إيڤ التي يجب أن تسعده تعاكس مشاريع الطامح، فهل تنتصر عاطفة الأخوّة؟ ها هو يغادر أنغوليم دون أن يشهد زواج أخته. هذا التقلّب المفرط في الطبع مافتئ بلزاك وكارولين مَرْبُوتي يلومان صاندو عليه، وخمّن أولئك الذين يحبّون لوسيان أن آلامه تكشف «كِبرًا بقدر الصغر». وإلى جانب التحدي الذي يقذف به راستينياك باريس يبدو تصرّف لوسيان بادرة رغبة وضيعة، وعندما هزأ به حمقى قصر بارجتون، وعد نفسه بأن يضحي بكل شيء، ليصمد في المجتمع الذي أهانه، ولم يقل «لنتعاضد كلانا» بل قال «جاء دوري الآن» وإذا صح ماذكرته ماربوتي العجوز وقد غدت شبه معتوهة، وزعمت أنها تكتب في العام ١٨٨١ تحت تلقين روحي من المرحوم بلزاك عن قصة مغامرتهما في تورينو وقد امتلأت نفس جول غيرة وحسدًا، وتضيف: «هذا الشعور الذي كان يلازم طبعه على الدوام».

لا مباليًا، خاملاً، دون إرادة أووفاء؛ هكذا كان هذا «الصديق الحميم»، «هذا الأخ إن صحّ القول» وفقًا لتعبير الدوقة دابرنتس (في شباط ١٨٣٥)، الذي وصفه بلزاك في ٨ آذار ١٨٣٦ للسيّدة هانسكا، بعد أن كان أقل قسوة عليه قبل عدة أشهر وعدّه آنذاك طيّب القلب. فتّش عن سكرتير نشيط، لكنه وجد جارية حريم؛ وبعد أن أسكنه بترَف في شارع كاسيني، شكا بأنه أنفق عليه «ما ينفقه سيّد كبير على

إحدى نزواته» كذلك شجّع داڤيد وإيڤ لوسيان وغذيّا بطالته، واستجاب لوسيان برضى مستمتعاً بخموله. من هنا نفهم لماذا كانت الشقة، التي أثثاها له في أنغوليم لتشابه الصالون الذي يشتهيه، تأخذ مثل هذا الاهتمام الكبير والمكان الفريد في الرواية.

كان المحسنون لهذين الكائنين الخاملين يكتفون بالملاطفات، ومن لا يتوقعها من لوسيان ويرغب بها؟ «كان فاتناً بجاذبيته! وتصرفاته رقيقة ناعمة! وهو يعبّر عن نفاد صبره ورغباته بمنتهى العذوبة ويصل دائماً إلى مرامه قبل أن يطالب به».

هذه العاطفة المعبّر عنها بانفعالية مطلقة العنان دون أي استهزاء تثير الدهشة، وتحّرض على متابعة هذا التحقيق. أما صاندو فهو ينتصر، مثل لوسيان، في الصيغة الآسرة، المداهنة، أو في الإعلان الصريح عن حبه، ولكلّ واحد في هذا المجال أسلوبه. وإليكم أسلوب صاندو: «المخلص لك موش Mush يُحبُّك»، «أحبكَ، وأقبّلكَ، راجياً أوقات أفضل»، «هناك على ضجة الأمواج الخالدة، يكتب لك المخلص موش Mush ويحلم ويفكر بك[1]». أو هذه الرسالة لوردة: «تسألني إذا كنت ما أزال أحبُّك؟ هل تشكُّ لحظة في ذلك؟ هل أنت مجنون لتحدّثني هكذا؟ أنت تعرف جيّداً أنني أحبُّك وأعتقد في هذه الساعة أنني أحبّك أكثر من أي وقت مضى» (**المذكرات** غير المنشورة). أيّ قارئ للرواية يتحمّل هذه الزخرفات التراسلية؟

من بطل **الجنيّة الأخيرة** إلى «الآنسة دو ڤيسار» كثيرون هم الأشخاص من الشباب الذين يعطيهم بلزاك علامات أنثوية، ويبدو لنا أنّه مع لوسيان دي روبمبره قد انطلق بعيداً، وأنّه أراد أن يظهر **حالة** غموض جنسي إن لم تكن جنسيّة مثليّة صريحة، فأدرج عدداً من العناصر السريرية في هذه الصورة التي تكتسب مصداقية

---

(١) - بلزاك: المراسلات: رسائل صاندو: رقم ١٠٥١، ١١٥٩، ١١٨٨.

متميّزة. تهيّؤ جسماني: «ردفان مستديرا التكوين مثل ردفي امرأة» وهيئة حسنة «مفعمة بالمفاتن الأنثوية»؛ في مظهر شابة متنكرة، كما أن التربية قد زادت من هذا التخنُّث الأنثوي. ودون أن نسرف في تفسير حديث بشكل رئيس، نلاحظ أن لوسيان نشأ بين امرأتين، ويبدو أن الأب المتوفي كان مستبعداً كلياً عن العلاقة الوجدانية بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة، وإن كان قد تبقى شيء من ذكراه، فهذا الاسم شاردون المسجّل على لافتة الصيدلي بوستل الذي يلاحقة لوسيان بنفسه بحقد ماحق مختلط بشكل قاطع مع طموحه. عومل لوسيان كفتاة واستجاب بسلوك «المرأة التي تعرف أنها محبوبة» وهتف أمام أخته «أريد أن أتعلم الخياطة»، وتوخى في السيّدة دي بارجتون «محسنة» يرغب في أن «تهتم به بشكل أمومي». وهناك ما هو أخطر من هذا لديه، فالأخلاق المألوفة غير سارية في وجدانه، فهو يتسكّع بكل سذاجة بين «بشاعة سجن الأشغال الشاقة وسُعُف العبقرية». ولا يرى من قمّة طور سينائه «كفَنَ عامورة الرهيب» - غلواً «مذهلاً»! - بكلمة واحدة ينتقل «من الشر إلى الخير، ومن الخير إلى الشر بمنتهى السهولة». أخيراً يشير الروائي بكلمات مبطنّة إلى ميل لوسيان إلى أن ينسج على منوال مراوغات خاصة بالدبلوماسيين على مايبدو... هذا هو لوسيان الذي سيغدو قريباً فريسة سهلة لهريرا.

لوسيان هذا لا يتطابق تماماً مع نموذجه المفترض، وطبعه قائم على سوابق مختلفة، بيد أن ما من شكّ في أن صاندو لم يظهر زمن مساكنته مع بلزاك بمظهر ذلك الكائن الصغير المخنّث المشبوه، إنّما بعد ذلك بسنوات يذكر أرسين هوساي أنه وفد إليه وهو ينتعل حذاءً أقرب إلى الأحذية النسائية، وفي رواية **ماريانا (١٨٣٩)** التي يعرض فيها علاقته بجورج صاند، يمثل هذه الهارب من شارع كاسيني نفسه بكياسة بملامح هنري: هذه الصورة الذاتية المتميزة بنرجسية مرضية تظهر بعض تشابهات قاطعة مع لوسيان مما يستدعي استشهاداً بمقطع مطول منها:

في مظهره تلك الأرستقراطية في الحركات، والتصرُف، واللغة، وكثيرة من سمات الظرف الفطرية والأناقة الغريزية حتى ليصعب التصور بأنه طالب كليّة مطلق السراح، يؤُم باريس لأول مرة. قامته هيفاء مرنة مثل قامة امرأة، شعره أشقر رمادي ينعقد بلا مبالاة على جبينه دون أن يحجب نقاءه الناصع. عيناه زرقاوان تنبعثُ منهما نظرة أمّه، تلك النظرة الحزينة، الحلوة، الصافية... وقد عرفه بُوسي دون شكّ من نظرته، وكذلك من صوته، ذلك الصوت الناعم، العذب، الذي يدين به لأمّه أيضًا، والذي أيقظ في قلب جورج جميع ألحان عهد صباه.

ويتابع صاندو: «هنري ذو طبيعة هادئة شاعرية، فيه كثير من اغراءات المرأة، وشيء من وهَن وحُسْنٍ يدفع إلى الحماية»... بديهي أن يعرف «جول الصغير» الاستفادة منها بكل مهارة. لنتصوّره في شارع كاسيني أو في غرفة جلوس **الفتاة ذات العينين الذهبيتين**، يدرس حركاته «على ضوء الشموع في وضع منكسر، شاحب، يسند جبينه بيده الناحلة الأنثوية» أشبه بزنبقة جميلة تميل على ساقها» ولنقارن بـ ظرف َلوسيان المتكلِّف وهو يميل «رأسه باسترخاء وحزن». من الممكن أن يكون بلزاك قد تأثر بجاذبية ضيفه المبهمة، وأنها خطرت في ذهنه وهو يصف شخصية لوسيان. بعد ذلك فقد هذا الأدونيس شعره، واستدار بطنه ودخل الأكاديمية، وبحث في أخلاقيات الكوخ والقصر في عهد الإمبراطورية الثانية، واستشاط غيظًا عندما قرأ، خلال العام ١٨٥٧، في مجلة **الصبي الأعرج** الرسائل ذات الطلاوة المتكلّفة الشاكية التي وجهها للناشر ورده قبل ذلك التاريخ بعشرين عامًا. هذا الغيظ يدفع إلى التفكير، وربما كان من المناسب أن نورد هنا تلميحات كارولين ماربوتي المتأخّرة[1]: «كان سلوك جول صاندو حيال بلزاك مقنَّعًا، ولم يعرف الرأي العام الحقيقة، فجُول صاندو قد دمّر بلزاك ماليّا وأخلاقيّا».

(١) - في رسالة موجّهة إلى الفيكونت لوفنجول (١٨٣٦ - ١٩٠٧) العلاّمة البلجيكي الذي جمع في قصره كل آثار بلزاك ومخطوطاته، ومسوّداته الطباعية وقد أهداها قبل موته إلى الأكاديمية الفرنسية، وقد أورد موريس سرفال هذه الرسالة في كتيب بعنوان صديقة لبلزاك، السيدة ماربوتي، العام ١٩٢٣.

بعد أن ناقشت السيدة بيرار بدقّة وجلاء وثائق ملف أوهام ضائعة، ودون أن تؤيد رأي فيلارت شاسل[1]، الذي ينسب إلى بلزاك ميول تيبريوس[*] في الحمام، سلمت بأن لدى الروائي، المشهور بغرامياته التقليدية السوية، ميلاً إلى الشبان، ربّما تصعّد كليّاً (لكن هذا التصعّد غير مؤكد). ولاحظ بيير سيترون وهو يجول في مقال من السنة البلزاكية ١٩٦٧ بعنوان «نطاقان غامضان من سيكولوجية بلزاك» أن بلزاك أحسّ بوجود النقيضين جنسيّاً[2] في ميوله بشعره خاصة، وربّما مارس العلاقة الجنسيّة الشاذة خلال عامي ١٨٣٥، ١٨٣٦، وفي ذات الوقت كان السكرتير الخامل، البطال، المستكين، المنفق عليه في شارع كاسيني، والمدلّل كإحدى «نزوات» «سيد كبير» يعاني كآبة عميقة، وقد نشر له مابل سيلفر عدة رسائل في تلك الحقبة تعبر عن شعوره بالذنب وإدانة نفسه على ارتكاب زلّة غامضة. حَسَدَ إميل پولتر على تفكيره بالزواج: «أما أنا فأملي بالزواج كأمل إبليس بالجنة. ولا أرغب إلا في تحقيق هدف واحد مستقبلاً، وهو أن أوفّر لأختي العيش معي» (آذار ١٨٣٥). ويشكو لكارولين ماربوتي «انسياقه نهائيّاً إلى مصير قُدّر له» معلناً نهاية علاقة، ويصرّح: «حطّمت تلك العلاقة لأنني أمقتها... سعداء أولئك الذين يستطيعون أن يحبّوا» (٢٦ أيلول ١٨٣٥). ويردّد لپلانش اللازمة نفسها: «هل سأتوصل إلى إعادة تكوين حياتي المبدّدة بشكل بائس؟» وقد أشار بيير سيترون بحقٍّ إلى نبرة «أزمة عاطفية» في بطاقة من صاندو إلى بلزاك في العام ١٨٣٨ أو ١٨٣٩. ألم يحصل له سابقاً، غداة الحب الفاشل مع جورج صاند المرأة ذات

---

(١) - فيلارت شاسل Philaréte Chasles: (١٧٩٨ - ١٨٧٣) ناقد أدبي، أستاذ في كوليج دي فرانس، تعدّدت رحلاته ضمن أوروبة نشر كتباً حول مكانة الأدب في الحضارة. ترك مذكرات تتضمن آراءه في أدباء عصره ومنهم بلزاك، نشرت في العام ١٨٧٥ بعد وفاته والرأي المدوّن أعلاه من دراسة **لكلود پيشوا** بعنوان «**المذكرات الحقيقية لفيلارت شاسل ١٩٥٦**».

(*) - تيبريوس: إمبراطور روماني من القرن الأول الميلادي.

(٢) - وجود النقيضين جنسيّاً Ambivalence Sexuelle: شعور الشخص نفسه وممارسته لإشباع **الميل الجنسي السوي** - أي ميل الذكر للأنثى، والأنثى للذكر - **والميل الجنسي الشاذ** - أي ميل الذكر للذكر، والأنثى للأنثى.

الفحولة الذكرية حادث يفاعة متأخر ترك صاندو شديد الحيرة، مضطربًا لا يهتدي؟ هل استدعى له بلزاك مومسًا سدّد له أجرها ليطمئنه على قدرته الجنسية وفقًا لما ورد في قائمة نفقات «السيد الكبير» «لنزوته»، (هذا ما يُؤوَّل بتحفظ) «دعارة: ٢٠ فرنكًا؟[١]».

في العشرين من العمر، أظهر صاندو خلافًا لطبعه، ولنقل اللاجنسي، أو بسببه انجذابًا للصداقة أكثر من انجذابه لعلاقات غراميّة، وقد أبدى لإميل رينيو، الذي كان يراجع لبلزاك مؤلفات سان أوبن، مودّة جليّة مشبوبة العاطفة، أهداه روايته **السيدة دي سومرڤيل** (١٨٣٤) كما أهداه السيرة الذاتية المتخيلة لسان أوبن، ولُقب إميل پيلاد[٢]، وكان بلزاك يحلم بصداقة رجولية وطيدة وربّما أعجبه ذلك الوفاء المتبادل، ومن المؤكّد أنّه وثق بصاندو، وكان محقًا تقريبًا في أن يعد نفسه مفهومًا بما قدّمه من تضحيات، لذلك استخلص من فرار مُساكنه تلك العبرة الكئيبة التي صرّح بها في رسالة للسيّدة هانسكا: «في فرنسة يتعذّر ائتلاف الرجال».

محاولة تلك الألفة وفشلها لعبت دورًا في إعداد شخصية لوسيان، وفي إعداد ثلاثية **أوهام ضائعة** بشكل عام، وهو دور يبدو تأثيره حتى في **بهاء وتعاسة الغانيات**، وهي رواية رباعية تُعَدُّ تتمة لأوهام ضائعة - بفضل رواية **ماريانا** تعرف، على الأرجح شيئًا عن علاقات بلزاك وصاندو الغامضة، والجزء الأول من هذه الرواية - التي رفض بلزاك إهداءها إليه، ثم انتقدها بقسوة - هو قصة صداقة ملتوية، صداقة جورج وهنري، ومنه استخلصت نبذات السيرة الذاتية المذكورة سابقًا، لكن الروابط مع مرحلة صاند ليست كثيرة الوضوح. هبط هنرى من مقاطعته إلى باريس «ونفسه تزخر بكل الحماسات وكل أوهام عمره»، وعند وصوله التقى مجدّدًا بجورج وهو صديق أكبر عمرًا منه، متورط في علاقة عاطفية في طريقها إلى الزوال، ودعم جورج هنري، واستسلم بسهولة غريبة «لجاذبية»

(١) - وردت في الوثيقة F'213, A331 من مجموعة لوڤنجول.

(٢) - پيلاد Pylade: بطل من الميتولوجية الإغريقية، صديق أورست ابن أغاممنون.

المراهق الذي وقع في حبّ ماريانا. وإليكم أولاً كيف يعبر صاندو عن هذه الصداقة (في مقطع يخاطب فيه جورج هنري):

- قال له بصوت عذب: أحبّك، يوجد حولك جاذبية لا أعرف كيف أعبّر عنها، فيها عطر مسقط الرأس الذي يحيي في قلبي جميع أحاسيس الصبا... أتساءل غالبًا عمّا إذا كان حبي لك ليس حبًّا لذاتي... وضمّه بحنان إلى صدره. برؤية الاثنين هكذا، أحدهما في زهرة محاسنه المتفتحة، يافع بجبين نقي، ونظرة صافية، وقامة هيفاء تتثنّى، فتى سعيد لم يعرف من الوجود حتى الآن إلا الابتسامات، والآخر عانى الألم فتخدّدت قسمات وجهه، يبدوان للناظر شجرة بَتُولة فتية قرب سنديانة عصفت بها الصاعقة.

مع تجنبنا الانسياق إلى تأويل، تجعله التأثيرات العارضة لكتابة بمثل هذه الميوعة، سهلاً لكنه مشبوه، لا يمكننا الامتناع عن ملاحظة أن صاندو ينسب لنفسه هنا في غفلة تثير بعض الدهشة دور لوطي مستكين ومغرٍ دون شكّ موافق لمزاجه. ولكن من يمثل جورج في هذه الرواية ذات الرمز؟ من الصعب أن نعطيه أحَد أدوار مأساة صاند - صاندو وهي ذريعة هذا الكتاب والتي يبدو أن موضوع هذه الصداقة قد طُعّم عليها. يمكن إذن أن نتساءل بحقّ إذا لم يكن الثنائي جورج - هنري يمثل قسمًا كبيراً من علاقة بلزاك وصاندو، وصفحة من الجزء الثاني من **ماريانا** تطابق الرسائل إلى السيدة هانسكا (١٨ تشرين أول ١٨٣٤) وأوهام ضائعة تبدو لنا تزيل كثيراً من الشكوك بهذا الخصوص وإليك ما جاء فيها:

مهّدت مودّة جورج أمامه آلاف العقبات التي يصادفها كلّ شاب مع خطواته الأولى في المجتمع: شاركه في رفاهيته، وطاب له أن ينمي فيه الميول والغرائز التي شجعها بمنتهى التساهل، وبعد أن جذبه إلى قصره، حيث كان ينتظره جناح أثثه له وزخرفه بنفسه بتدليل العاشق لخليلته المعبودة، وسارع بفتح أبواب الحياة الباريسية له... ودرّبه على جميع المُتَع التي لم يتمكّن هنري، في الشروط المحدودة التي خبّأها له القدر، من توقّعها إلاّ في أحلامه

كشاعر، واستجاب هنري بمرونة رائعة لمتطلبات هذا الوضع الجديد. إنّه من تلك النفوس المصطفاة التي يليق بها الترف كما الشمس للأزهار، والتي تتأقلم دون جهد عندما ترحل فجأة إلى جوّ من الأناقة فتتفتح سريعًا، كما في ركنها الطبيعي.

يمكن لتلك المرحلة المضطربة من حياة بلزاك أن تعرض بتسليط إنارتين مختلفتي الشدّة على **أوهام ضائعة**، الضعيفة، منهما أو إنارة الظل تذهب إلى عقد هريرا مع لوسيان في الرواية الثالثة آلام المبتكر، بينما الشديدة، ذات الضوء الساطع تتركز على الصداقة الحميمة، الخالصة الودّ، التي تربط بين داڤيد ولوسيان أو بالأحرى التي يكنّها داڤيد للوسيان في الرواية الأولى: **الشاعرين** تلك الصداقة التي يقيها حبّ داڤيد وإيڤ العفيف من الشبهات والريب، غير أنها تحتفظ ببعض آثار من اضطراب أساسي، وطبع داڤيد من الوجهة الأدبية يؤذيها، فمن الصعب في الواقع التوفيق بين صفاء الصداقة التي ينسبها بلزاك لداڤيد بل وصرامتها على مرٍّ التجارب والمحن مع تصريح كالتالي: «ضع اليد على أسمى الرتب، وتذوّق جميع الملذات، حتى تلك التي يوفرّها الغرور. كن سعيداً، وسأفرح لنجاحك. ستكون نسخة ثانية من ذاتي. نعم إن فكري يتيح لي أن أحيا حياتك». أليس هذا منتهى تسامح جورج مع هنري في رواية صاندو؟ أليس هذا خاصة، وبذات النبرة من الحقيقة، مضمون الكلمات التي سيسمعها لوسيان قريبًا من فم هريرا: «ستتألّق وستتباهى بينما سأنحني في أوحال الأساسات لأؤمّن لك بنيان ثروة متينة الدعائم... سأكون دائمًا سعيداً لمنحك القدرات العالية المحرّمة علي. أخيراً سأجعل روحي تحلّ فيك؟».

من المعروف أن بلزاك قد تمثَّل في داڤيد، والتوافق بين صورته الذاتية وصورة غوتيه الشهيرة جليٌّ حتى ليشتبه بأن غوتيه قد استوحى منه، كما أن بعض الشهادات المعاصرة تؤكّد صحة هذه الصفحة البلزاكية[1]. بديهي أن يُنسب إلى الطبّاع القديم

(١) - انظر الملاحظة (٢) في الصفحة ٣٣ من الرواية الأولى «الشاعران».

في شارع ماريّه (حاليًا ١٧ شارع ڤيسكونتي) الوصف الدقيق لمطبعة سيشار وطابعاتها الخشبية القديمة. ورجل المهنة يحرك بخفّة **القارصة والرفادة** معرّضًا المعلقين على طباعة ذلك العصر لاختبار قاس. إنّما يجب الانتهاء من أسطورة صاغها هانوتو وڤيكير[1]، فمطبعة سيشار ليست مطبعة بلزاك، وبناء مطبعة بلزاك، العام ١٨٢٦، في شارع المارية، بناء جديد، بينما يعود المحترف الطباعي العريق والطريف في أنغوليم إلى القرن السابع عشر، وهو يكاد ينهار، ومعداته عتيقة. أما بلزاك فقد كان يملك سبع طابعات من الحديد (أو اثنتي عشر) المسماة ستانهوب، ومنشأة حديثة، ضمت فيما بعد محترفًا لصنع الصفائح المجسمة (كليشيهات، عدا عن مصهر لصبّ الأحرف) وهذا ما يُشغل ثلاثين إلى أربعين عاملاً، والشبه الوحيد المحدّد من قبل هانوتو وفيكير بين المؤسستين - وهو شبه مستمد من اقتباس عن بلزاك، وهذا ما يعرضه للشكّ - هو تعرضهما لضوء النهار عبر واجهة على الشارع ونافذة على الفناء، وتضيف السيدة بيرار احتواء المطبعتين على **مغطس** خارجي، ويُعَدُّ تصميم المطبعة بشكل تستمد فيه نور الشمس الطبيعي وبعدُ الطابعات عن مكان غسل القوالب من حسن الترتيب فيها وهو متّبع في معظم المطابع، أمّا التخطيط الداخلي فيها فإن مئات الصور تبيّن أنّه لم يختلف من أيام غوتنبرغ حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

لشدّة الرغبة في المطابقة بين الكاتب وبطل روايته اعتمدت تلك الفكرة، الخاطئة كليًّا في رأينا، وهي إن تهاون داڤيد سيشار التجاري سبب إفلاس مطبعة بلزاك. الواقع أن بلزاك كان ضحيّة أحداث مالية»، بلبلت الوضع التجاري في باريس، خلال أزمة اقتصادية عامّة أثرّت بصورة خاصة على صناعة الكتاب، المختنقة بفقدان التسليف المنظم للتجارة الصغيرة والمتوسطة. مارس بلزاك الطباعة بين تموز ١٨٢٦ وتموز ١٨٢٨، وقد أحصى كرابله بين ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ٤٩ شهادة جديدة أو تحويل حيازة مطبعة في باريس، بينما لم يتجاوز عدد المطابع المرخصة

---

(١) - نشأة بلزاك وحداثته، بلزاك طباع، بلزاك والسيدة دي برني (إصدار فرُو ١٩٢١).

(٢) - رُخَص الطبّاع، شهادات أهلية اقتضتها الضرورة الحالية لاكساب المطبعة الصيغة القانونية المحدّدة بالأنظمة (دوفار ١٨٤٠).

ثمانين مطبعة! ويُعَدُّ مشروع مسبك الأحرف الذي أحدثه بلزاك في العام ١٨٢٧ مشروعًا قابلاً للنجاح ويبرهن عن بعد نظره، لكن وقوع المطبعة تحت وطأة الدين منعه من استثماره لكن أحد مموّلي المطبعة (وهم من سنسميهم السيّدة دي برني والعائلة) استولوا عليه بلا إنفاق شيء، وفي شروط لم تتوضّح أبداً بشكل كامل، وما يزال هذا المشروع المزدهر موجوداً.

بهذا القول نلاحظ أن العقد الذي يضع داڤيد تحت رحمة والده يماثل سريان حقِّ الانتفاع الجائر على مطبعة شارع ماريّه، فقد اضطرّ بلزاك بعد أن تراكمت عليه الديون لفشل محاولاته في النشر أن يبيع طابعاته إلى مقرضٍ من أَسُونْڤيلزَ، يُعَدُّ صديقًا للعائلة، وأن يستأجرها منه ليستمرّ في العمل. أمّا داڤيد بطل روايته فلم يستطع تسديد الثمن كاملاً لأبيه فضمِنَ له الدفع بعقد شراكة يمنحه بموجبه نصف الأرباح، إضافة إلى ذلك حدّد سيشار العجوز أجرة للمبنى. أخيراً فإن المؤلّف وشخصيته الروائية ينطلقان من نقد متداول لا وجود له، وهي بداية مزعجة في زمن قلّ فيه المال، وعندما نعلم أن تسديد أجور الطباعة تُسدّد بعد زمن معيّن، نجد أيضًا في **الشاعرين** تذكّرات «طباعية» أشرنا إليها في حواشي الرواية.

لن نترك داڤيد دون الإشارة إلى إيڤ. قوام رشيق وشخصية رصينة لم تأخذ من السيدة هانسكا إلا اسمها. بتساؤل السيّدة بيرار عن عائلة بلزاك في الكتاب الشيق، الذي استعرنا منه عناصر كثيرة في هذه الدراسة، دُهشت لهذه الأُلفة «شبه الزوجيّة» بين أونوره ولور، وبعيداً عن أيّة فكرة بارتكاب المحارم، فإن بين الأخ والأخت مودّة موثوقة ومُسرّة، منطلقة ولكنها شديدة الأواصر وقد استمرّت طويلاً رغم زواج لور من المهندس سورڤيل، المتضايق من هذه المشاركة العاطفية، ومثل السيدة بيرار لم نجد بدورنا هذه العاطفة المميّزة بين إيڤ ولوسيان، إنّما في الحبّ الهادئ بين داڤيد وزوجته، وهو حبّ غريب جداً عن الأهواء البلزاكية. ولا توجد له تجربة ثانية على مانعتقد في **الملهاة الإنسانية**. كانت زولما كارو بعد لور الملجأ والسلام لقلب بلزاك، وقد اختلطت قسماتها بقسمات لور في رسم شخصية إيڤ

التي نسب إليها جرأة زولما الهادئة، وربّما كان المشهد على ضفة النهر قرب الماء ذكرى نزهة برفقتها، وقد كتب في ٨ تموز ١٨٣٢: «هنا، يمكن العمل جيّدًا، وفي المساء نتنزه قرب شاطئ الشارنت نراقب سطوع البدر على الشلال»...

أما موضوع المبتكر وقد تمّ التطرّق إليه في لمحة عابرة من الرواية الأولى، **الشاعران**، فسينفصّل في الرواية الثالثة وسندرسه عند معالجتها مع الشخصيات ذات العلاقة. الواقع أن كل الاستطراد عن تاريخ الورق المدرج في المحادثة قرب الماء[١] كان يعود إلى الرواية الثالثة حتى طبعة فورن في العام ١٨٤٣، وبعدها رأى بلزاك في ملاحظة مسجلة على نسخته الأصلية نقل هذه المحادثة من الرواية الأولى إلى الرواية الثالثة لإجراء ربط أكثر متانة بين الروايتين في ثلاثية **أوهام ضائعة**.

كان بلزاك يرى أن على الروائي ألا يختلق شيئًا. هذا يعني أنّه يريد القول إنّ المجتمع والطبيعة أكثر خيالاً منه. وهذا موضوع دهشة مستمرة لقارئ **الملهاة الإنسانية** عندما يرى التاريخ (أو التاريخ الأدبي الذي ينطلق غالبًا باسمه) يُناقش في العالم الروائي للأبطال الذين يراهم يولدون من النصّ. بل غالبًا ما يأخذ الابتكار حيّزًا أساسيًّا حتى بالنسبة للأشخاص الذين تكتَشف آثار حقيقتهم التاريخية بمزيد من اليقين، فتشابهات «طباع» لوسيان ودافيد «وأقدارهما» عُدِّلت منذ تصورهما في المخطوطة بإجراء تبديل مذهل مرسوم بانتظام هندسي: لوسيان، المولود للعلوم، يرنو إلى المجد الأدبي، وداقيد المهيّأ للشعر يتحوّل «بميل إلى العلوم الأساسية»، ويتضخّم هذا التباين في المسودّات الطباعيّة، وهنا تظهر العقبات الشعاريّة المتميّزة التي يتحدّد بموجبها موقع الشخصيات في علاقة بعضهم ببعضهم الآخر: لوسيان هو باخوس الهندي، وداقيد هو سيلين[٢]، إنهما الثور والعُقاب، رجل الجنوب

---

(١) - يمكن مراجعة هذه المحادثة الشيقة في الرواية الأولى: **الشاعران** من الصفحة ١١٧ إلى الصفحة ١٢١. (المترجم)

(٢) - باخوس: رب الخمر والمجون عند الرومان ويقابله ديونيسيوس في الميتولوجية اليونانية، **وسيلين** رب الينابيع والأنهار، وهو مربّي ديونيسيوس.

ورجل الشمال، نعتان حيث القصيدة الأثيرة على قرّاء بلزاك تشكل أحيانًا تحديًا لحقيقة الطباع، فلوسيان ليس عقابًا، وداڤيد الصبور الرصين لايمتُّ بصلة لسيلين، وما يحدث هو أن بلزاك يرتد أحيانًا متراجعًا عن مغالاته: كما حدث مثلاً عندما ألغى بعض الصفات «الهرقلية[1]» التي خصّ بها داڤيد مقابل لوسيان الناعم العطوب، إنّما بصورة عامة يتزايد استقطاب الطبعين حتى هذه المزدوجة التي تجسّد، متجاوزة كل واقعية، الخنثى التي يعترف بها الكاتب وتستحوذ على نتاجه بالتناوب متحلية مرة بلويس لامبر ومرة أخرى بالوجه الآخر المقابل له في نقيضه سرافيتا، وبداڤيد ولوسيان، ورينه دي موكومب ولويز دي شوليو[2]. . .

ليس نادرًا أن يمتزج تشكيل طبع مع طور انشاء الرواية بالذات، فصورة العجوز سيشار، الذي يعده موريس باردش في قراءة بلزاك الوجه الأكثر جاذبية في الرواية الأولى، لا تتعدى نُبذة سيرة ذاتية نتعرف فيها على الطبّاع وتنبثق صورة السكير في قلب اسم العلَم «سيشار» إلى معناه كاسم جنس ليكون المسمّى «أمينًا لما هيّأه له القدر بهذه التسمية» بنوع من الجناس تنبثق كلمة «سُكر» من «طباعة» ثم تأتي تتمة الصورة من تعدّد معاني كلمة الدبّ (العامل الطبّاع ضاغط المكبس) في العامية الشعبية الطباعية، وكان ذا ميل للعنب المدروس، وهو «ميل طبيعي جداً لدى الدببة» مما ترك على سحنته الدبيّه علائم استعار لها بلزاك صوراً مستقاة من المطبعة والكرمة، فأنف سيشار قد نما متخذاً شكل حرف A الطباعيّة بنموذجها الأكبر، ووجنتاه المعرقتان تشبهان هذه «الأوراق من الكرمة المليئة بالحدبات

(١) - انظر هذا الوصف في الرواية الأولى **الشاعران** ص ٣٣.

(٢) - **لويس لامبر**: رواية مستقلة من الدراسات الفلسفية مترجمة ومنشورة في (روايات بلزاك - رقم ١٣ - وزارة الثقافة ١٩٩٤).

وسرافيتا: رواية مستقلة أيضًا مترجمة منشورة (روايات بلزاك رقم ٢٤، وزوارة الثقافة ٢٠٠٠)، وداڤيد ولوسيان بطلا هذه الثلاثية، ورينه ولويز بطلتا رواية **زوجتين شابتين** (المترجمة والمنشورة تحت رقم ١١ العام ١٩٩٤).

البنفسجية». صور يبدعها بلزاك في لوحة على طريقة أرسيمبولدي(*) لكن من السهل تتبّع جناسها التماثلي (**طابعة ومكبس ومعصره عنب**)، **وأيلولي وهريسة أيلولية ورب** السكارى، ورب البخلاء(١)).

هل يوجد نموذج حقيقي أوحى بالشخصية الأولى، يجب الأخذ بالحسبان الذي تضاعف واتخذ موضع قدم في الرواية. توجد لدى بلزاك طباع تنبثق من نموذج أدبي جزئي، وكما بيّنت السيدة بيرار فإن شاتليه هو تصميم أولي مطوّر لغابرييل دي سبوند أحد أشخاص قصة **زهرة البسلاء** التي مهّدت لرواية **العانس**، وتكمن المعجزة في أن هذا الهجين من الحقيقة والخيال الأدبي يغدو نموذجًا ممثلاً لهؤلاء «الشبان المتعين» من عهد الإمبراطورية الذين ذكرت الدوقة دابرنتس في **مذكراتها** عشر صور مختلفة عنهم (مثل السيد دي لونشامپ، أمين سر خدمات كارولين، أخت نابوليون» ومؤلف ملهاة وقصيدة غنائية قصصية «رومانس» ناجحتين) كما أن أوجه الشبه التي أشارت إليها الناقدة المذكورة بين السيد دي بارجتون والسيّد لالويت، وهو شخص من بايو وصفته لور بلزاك في رسالة لها مقنعة تمامًا؛ لكن بلزاك لا يعتمد أبدًا على نموذج معين، وصوّر السيد دي بارجتون إنسانًا في فراغ ذهني **خيالي** نتج عنه الحدث الأكثر مأساوية في الرواية وهو **المبارزة** واستمرّ يُشغل هذا الشخص مثل لعبة مكانيكية مسيّرة بدقّة يصعب وجود مماثل «حقيقي» له.

(*) - أرسيمبولدي (١٥٢٧ - ١٥٩٣) رسام ايطالي، رسم لوحات مركّبة من أزهار وثمار وقواقع وأسماك.

(١) - انظر وصف العجوز «سيشار» في الصفحتين ١٥ و ١٦ من رواية الشاعران (الأولى في أوهام ضائعة. وفيها يظهر هذا الجناس باللغة الفرنسية Calembour سواء تامًا مع اختلاف المعنى، أو ناقصًا باختلاف الأحرف Sechond : اسم علم، أما كاسم جنس فهو النازح أو المخفف وبالتالي السكير Soûlogeajphie سكر Typographie طباعة Presse طابعة Pres-soir معصرة عنب Septembriseur (أيلولي، وهو المشارك في مذابح أيلول ١٧٩٢) وهريسة أيلولية Septembrale Purée أي الخمر (وفقًا لتسمية رابليه).

لكن خيال الروائي يبلغ أقصى مداه في مشهد السهرة الشهير في قصر دي بارجتون، وهو دون شك يتعلق بوصف المقاطعة، لكن تلك اللوحة تُعَرض غالبًا من قبل بلزاك، وكما قال في بداية قصة **المرأة المهجورة**: المقاطعة هي ذاتها في كل مكان، ربّما لاحظ تصرفات سكانها في تور أو بايو؟ لكنه لم يختلط بهم في ضاحية سان جرمن دالنسون التي وصفها في **حجرة العاديات القديمة** ولا في واحة أنغوليم الأرستقراطية. ومجتمع المقاطعات الإقليمي، من رواية **العازبين (كاهن تور)** حتى العانس، هو باطراد موضوع تقصٍ وبحث، نصٌ يظهر فيه الكاتب براعته حيث تتألق صفحة يجب أن تُحرر ثانية، فآل شاندور، أو بيمنتل، أو بربيان، أو سانتو، أو برتاس، لا يظهرون في أي مكان آخر غير **أوهام ضائعة**، فهم لا يعيشون إلاّ في ذلك الوشي المطرّز المتحرك الذي يتكّون في قسمه الأعظم خلال الاختبارات في غمرة تكوين العالم، وإنّ وُجد لهم نماذج، ومن المؤكّد وجود بعض منها، لكننا نجهله، فدراسة النص تغيرهم بتحولات تجعل من المتعذّر التعرّف عليهم، فالأخوان بارتاس وزوجتاهما مثلاً يتولّد عنهم عائلتان جديدتان (بارتاس وبربيان)[1] فاستعادة الاسم الأول منهما يُشهر السيّدة بربيان خليلة لبارتاس (والسيدة بارتاس خليلة لبربيان)، كما نرى جنرالاً[2] دون تسمية ينضمّ إلى هذا الجمع مع المحافظ! وهكذا تتمثل الشخصيات، والمراتب، والطباع، على الأقل جزئيًا، وتظهر عمليات - تضاعف، وانقسام، ومعارضة - ناتجة عن الفعالية الأدبيّة الصرفة.

غير أن الفنان يدمغ بطابعه الموضوع بالذات، وسنحاول بالرغم من أنّ التقسيم النهائي للثلاثية قد أضعف أو حذف بعض تصورات منظور ١٨٣٦ - ١٨٣٧ أن نتقصى «فكرة الكتاب» الجميلة، وفقًا لقول بروست(*)، التي انبثقت

(١) - انظر صفحة ٩٠ من رواية الشاعرين (شارلوت بربيان وجوزفين بارتاس) وقد وردت تفاصيل عنهما حذفها المؤلف عند الطبع.

(٢) - انظر الصفحة ٩٢ من رواية **الشاعرين**.

(*) - بروست Proust (١٨٧١ - ١٩٢٢) أديب فرنسي كبير له «البحث عن الزمن المفقود».

عنهـا رواية **أوهام ضائعة**. يتحدّث فرويد(*) عن الوهم الديني باعتبـاره خطأً لا إراديـًا يدخل فيه جزء كبير من الرغبة. وينطبق هذا التعريف بشكل رائع على وهم الحب، الذي يشـوّه **الحاضر**. توجد أوهام أخرى يُطلق عليهـا بلزاك اسم «آمال» (وهي كلمة شائعة في رواية **الشاعرين**)، «أحلام ذهبية» عندما لا يقول بكل بساطة «أوهام» تتواطأ معها بشكل طبيعي التخيّلات الشابة[1]، التي تحل محل الطموح لدى لوسيان. لكن مقدّمة الطبعة الأولى تقولها صراحة، فوهم الحب خاصة، بشكله الذي يستطيع أن يجتاح به النفوس في المقاطعات - والذي يوجّه جميع الأوهام الأخرى - هو الذي أراد بلزاك أن يصوّره. وقد فقد لوسيان وأنابيس، بمغادرتهما أنغوليم، الأوهام التي كوّنها أحدهما عن الآخر، وكانت باريس سبب هذا «الفقدان» زوال الأوهام يعني الدخول في مجال الحقيقة، حيث الرغبات حافز الأعمال. هذا هو مغزى الرواية الأولى الذي قد لايُدرَك أحيانًا.

هذا التصوّر يتطلب أن يؤدي الانهيار الفجائي لوهم الحب في باريس، بطريقة ما، إلى خاتمة رواية التي وصفت بشكل مطوّل التنشئة الإقليمية، وكان النتاج آنذاك قد تشيّد على بعض **تأثيرات** لا تستبعد في التحليل السيكولوجي انتقالات في غاية التعقيد، فلقصر شارع ميناج يتصدّى فندق غايار - بوا(**) الحقير الزري الهيئة، حيث اقتُلعت صورة السيّدة دي بارجتون من إطارها، والتباين بين أمسية أنغوليم العامرة وأمسية الأوبرا، حيث يُرى لوسيان وأنابيس، وقد تبدّدت أوهامهما، لأول مرة على حقيقتهما يلعب دوره تمامًا في بنية الرواية، انتقل المشهدان الرئيسان، اللذان يظهران نهاية وهم الحب، كما سبق أن ذكرنا إلى القسم الأول من الرواية الثانية **رجل كبير من المقاطعات في باريس**. ربّما سيعاد إلينا في المعنى العام ما خسرناه من تأثيرات الفن المتعلقة بالمفهوم البدئي.

(*) - فرويد Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) عالم التحليل النفسي النمساوي الشهير.

(١) - انظر الصفحة ١٣١ من الرواية الأولى **الشاعرين**.

(**) - انظر ص ١٢ - ١٣ من الرواية الثانية **رجل كبير من المقاطعات في باريس**.

II

تُعَدُّ أوهام حبّ إقليمي وتشتُّته رواية «حياة فردية، استعيض عن الخاتمة فيها باستيقاظ الحالم شريداً على بلاط الشارع في باريس. في هذه الاستعاضة عن الخاتمة في رواية تحليل يرى بلزاك، على الفور، بداية رواية أخرى لا تتعلّق بلوسيان وحده وإنّما بشبيبة ذلك العصر». ومقدّمة العام ١٨٣٧ تشهد على تغيّر المنظور منذ ذلك الحين، فالمؤلف قد فكّر «**فجأة**» (هذا ما يبدو لنا) بالشرخ الكبير في ذلك العصر، بالصحافة، «التي تفترس الكثير من الكائنات» فما يجب إظهاره، وما سيظهره، ليس «وجه حياة فرديّة» وإنّما أحد هذه الوجوه الأكثر فضولاً في ذلك القرن».

لم تَعُد رواية العام ١٨٣٦ إلا مقدمة، «تمهيداً بسيطًا» إذ يلزم جزآن على الأقل ليعطيا المعنى، وسيشكلان مؤلّفه الكبير من ناحية الحجم» الذي سيأخذ العنوان الأولي **أوهام ضائعة** عند إعادة طبع **دراسات طبائع**[1] ولم يكن قد أنهى الرواية الأولى من **أوهام**، عندما وجد أن باستطاعته أن يشير إلى عنوان الجزئين المزمع إنشاؤهما: رجل كبير من المقاطعات (في رسالة إلى السيدة هانسكا بتاريخ ٢٢ تشرين أول ١٨٣٦) غير أنه في مقدمته المؤرخة في ١٥ كانون الثاني ١٨٣٧، يذكر هذا الواعد غير النادم ببعض الخجل: «متى سيتمكن المؤلّف من إنهاء لوحته؟ إنه يجهل ذلك، لكنه سينهيها» لكنه يستدرك في ذات اليوم ضمن رسالة للغريبة[2] «ليس قبل ثلاث سنوات» ظهور مفاجئ للموضوع، مراحل طويلة متوقّعة من قبل الروائي لتنفيذه، بديهي أن هذا المشروع الذي فكّر به متأخّراً غير ناضج. كما أن الموضوع الباريسي في كوكبة مواضيع العام ١٨٣٣، التي اعتقدنا أننا نستشف فيها فكرة غامضة عن الثلاثية، كان سيّء التحديد، ولم يُشَر في أي موضع بوضوح إلى الصحفيين أو الصحافة.

---

(١) - هذا ماوَرد في ثلاث رسائل إلى السيدة هانسكا هي على التوالي (في ١٠ شباط، ثم ١١ أيار، ثم ٢٨ أيار من العام ١٨٣٧).

(٢) - رسالة واردة في الصفحة ٤٧٦ من الجزء الأول «رسائل للسيدة هانسكا».

ذكرنا كيف أن بلزاك لا حظ، بعناية الطبيب المشخّص، في لوسيان **حالة** أكثر من أن يشكّل نموذجًاونتساءل كيف استطاع هذا الطبع الملتبس، غير المستقر، الشديد الهروب في بعض الأحيان، أن يجسّد شيئًا آخر غير مجرى حياته، دون أن يفقد دفعة واحدة مظهره الذي يعطيه قيمته. هل يوجد بين بطل **أوهام ضائعة** بشكله الأول، وموضوع **رجل كبير من المقاطعات**، عدم توافق لم يستطع المؤلّف التغلّب عليه؟ هذا ممكن. على كلّ حال، أظهر لوسيان دي روبمبره، قبل أن يقبل دوراً يستلزم تعديلات هامة في شخصيته استقلاله وحيويته (الروائية) بطريقة غيرمتوقعة. وضّح هذا الفصل المثير للفضول في الإبداع البلزاكي جان بوميه [١] بشكل يدعو إلى الإعجاب، وهو يحتم علينا إجراء انعطاف ضروري لفهم **أوهام ضائعة**.

منذ كانون الثاني ١٨٣٥ تردّد غالبًا عنوان في مشاريع الروائي: **الرَّعادة**، وهذا المؤلّف الذي يعود فيه ڤوترن الأب غوريو للظهور مُدَرج مثل **رجل كبير من المقاطعات** في برنامج ١٨٣٨، وقد رسم بلزاك خطوطه الكبرى لصحيفة **لا برس** La Presse التي لم ترغب به، غير أنه ظهر في شهر أيلول مع المرأة السامية (العنوان الأول **للمستخدمين**) وبيت نوسنجن، ليتّمم مؤلّفًا لم يكتمل حجمه لمصلحة دار نشر ورده. **والرعادة** بداية رواية **بهاء وتعاسة الغانيات** ليست نصّ ظرف طارئ، لكن الظروف منعت بلزاك من إعطاء أكثر من تمهيد فيها يظهر الأشخاص الرئيسين الثلاثة، الذين يهمنا بصورة خاصة اثنان منهم: فوترن أولاً المتنكر في زي رئيس الدير هريرا، الوحش الضاري الذي تمكن راستينياك أن يهرب منه في اللحظة الأخيرة في رواية **الأب غوريو**(*)، وقد وجد الآن فريسة أخرى، وهذه الفريسة هي لوسيان دي روبمبره. يحدثُ المشهد في شتاء ١٨٢٤، بعد ثلاث سنوات من نهاية الرواية الأولى من ثلاثية **أوهام ضائعة**، ونخمّن عدم تغيّر

(١) - الابتكار والكتابة في «الرعادة» لأونوره دي بلزاك، ١٩٥٧.

(*) - الرواية مترجمة ومنشورة في «روايات بلزاك (٥)وزارة الثقافة السورية، ١٩٩٢».

لوسيان، فهو يتابع مجرى حياته الهابط في منحدر. رأيناه في أنغوليم تنفق عليه أخته وداڤيد ويعيلانه مثل خليلة مدلّلة وهو يحاول أن يغزو قلب السيدة دي بارجتون، ونجده هنا في **الرعادة** يشارك محكومَ أشغالٍ شاقةٍ حياته ومنزله، ويغذّي على نفقته هوى أميريًا ربَطَه بمومس تائبة. داڤيد ولوسيان، والصورة الكالحة (أو الممجّدة) لهذا الثنائي، هريرا و لوسيان موضوع الشقة، الانعكاسات السيرية الذاتية للمرحلة المتكشفة بصفحة سبق ذكرها من رواية **ماريانا**؛ جميع هذه المصادفات تبرهن أن بطل الرّعادة فُصّل من ذات قماشة رواية ١٨٣٦.

لا تتوقف تشابهات النصّين عند هذا الحدّ. فعلى هزيمة رجل المقاطعات في الأوبرا العام ١٨٢١ تجيب عودته الظافرة إلى حفلة رقص الأوبرا العام ١٨٢٤، وبعض كلمات قاسية جعلت شاتليه يدفع غاليًا ثمن غرور نبالته المزيّفة، وازدراءه لأولاد الصيادلة، والمركيزة دسبار المتضايقة من لوسيان تنسى ازدراءها السابق له. حتى راستينياك نفسه أُعيدَ إلى صوابه، وهو الذي انطلق مثل حنظب في يوم إذلال لوسيان، واضطر أن يستكين صامتًا وهو يسمع تأنيب هريرا يصفه «بفرخ دجاج خارج من قنٍ الأم ڤوكه».

لم يُسلَط إلا ضوء بسيط على السنوات الثلاث المنصرمة، التي عمل فيها لوسيان صحفيًا، متعاونًا مع فينو حاميه ومستغله في صحيفته، ولكن بلونده، على ما يبدو، هو الذي درّبه على هذه المهنة المخزية التي لم يخرج منها بيدين نظيفتين، واضطرّ أن يعود إلى مقاطعته غارقًا في الديون، دون أن نعرف شيئًا عن الكاتب فديوان **أزهار المرغريت** ورواية **نبّال شارل التاسع** التي أشير إليها في رواية العام ١٨٣٦، لم يرد ذكرها في قصة **الرّعادة** العام ١٨٣٨.

بين هاتين المرحلتين من حياة الشخصية التي بدت الآن لبلزاك بهويتها وصيرورتها، فراح يبرزها في **رجل كبير من المقاطعات في باريس** التي ستظهر في حزيران ١٨٣٩، فرواية اللوحة الشاملة التي سنعدّد باختصار روائعها موجهة إذن

منذ الانطلاق وهي ستنتظم حول مصير رسم مساره لا يمكن الاهتمام به دون عاقبة من أجل حاجات رواية ذات قضية.

بيَّن پيير باربريس[1] أن اندفاع المقاطعات نحو باريس، في **الملهاة الإنسانية** يعكس ظاهرة رئيسة في تلك الحقبة توضح أحدَ وجوهها إحصاءات شارل دوپن الشهيرة في **القوى المنتجة والتجارية الفرنسية** (١٨٢٧). فالجنوب الفرنسي (مع شموله مقاطعة بريتانية وكلّ حوض نهر اللوار) متخلف صناعيّاً، متأخّر تعليمياً، وهو خزّان طاقات لا تجد مجالاً للعمل في مكان نشوئها: هذا ما يعلّل هجرة تيير وراستينياك من المقاطعات إلى باريس(*). لكن المركزية اللاإنسانية لا تؤرّخ بإحصائيات البارون، وهي ثمن الوحدة الوطنية، وتنسحب تأثيراتها أيضًا على مناطق الشمال والشرق. وقد كتب بلزاك في مقدمة رواية **حجرة العاديات القديمة**: هو «عيبٌ خاص بأمتنا» هذا الجذب من العاصمة للأنواع الثلاثة من الرفعة الموجودة في المقاطعات: الأرستقراطية، والصناعة، والموهبة. وبابتكار شخصيتي راستينياك وفيكتورنيان دسغرينيون(**) يقصّ بلزاك مغامرتي ارستقراطية المقاطعات في باريس، وسيظهر في **رجل كبير من المقاطعات** مغامرة رجل الموهبة.

رجل الموهبة **فقير**، وهو يريد أن يكتب. لا أحد مثل هذا الرجل - كاتب، ابن مقاطعة فقير - **محكوم** بالمغامرة الباريسية. مجهّز بثقافة «لا سوقَ» لها، مصاب بعجز سياسي من قبل حكومة الشيوخ المتحصّنة في قلعة نظام دافعي الضرائب أصحاب حق الانتخاب، وهو لا يجد في المقاطعة ناشراً لكتبُه، ولا مكتبة لبيعها،

---

(١) - مقال «بلزاك والبارون شارل دوپن والإحصاءات» السنة البلزاكية ١٩٦٦.

(*) - تيير (١٧٩٧ - ١٨٧٧) رجل دولة فرنسي ولد في مرسيليا وعمل محاميًا في إكس ثم هاجر إلى باريس في الثالثة والعشرين من العمر تدرج في المناصب حتى رئاسة الوزارة، وراستينياك شخصية روائية خلقها بلزاك في مقاطعة شارنت هاجر بدوره إلى باريس.

(**) - راستيناك Rastignac: هو الوصولي الأنيق في رواية **الأب غوريو**، وفيكتورنيان دسغرينيون Victornien d'esgrignon.

ولا قراء لشرائها، والمكتبات العامة نادرة فيها، وصالات القراءة مكلفة، فقيرة بالتجهيزات والروافد الثقافية. عمل لوسيان وداقيد على طلب **أشعار** آندره شينيه من باريس، بعد ظهورها حديثًا، وأتناز غرانسون يحبس نفسه في مكتبة مدينته، بانتظار الذهاب ليلقي بنفسه في نهر السارت. لكن معظم أصحاب المواهب **يصعدون** إلى باريس، وكثيرون أولئك الذين عرفهم بلزاك واحتكّ بهم. بعض منهم نجحوا، على الأغلب عن طريق الصحف، وآخرون تمكنوا من تحصيل عيشهم فقط. أسس لوتور - مزراي مع جيراردن صحيفتي **السارق** Le Voleur **والزي** La Mode وقد وفد من أرجنتان، وجاء كوست مدير صحيفة **الزمان** Le Temps من بوردو، وبيشو المشنّع عليه من قبل بلزاك من آرل، وغوزلان وبارتلمي من مرسيليا، والبيريك سيغون يافع أنغوليم لا يشكّل استثناء من القانون العام. وهناك مجموعة **البريشون** Les Berrichons التي ينتمي إليها جوليان صاندو الذي سبق ذكره في هذه الدراسة، كما وجدت زمرة **الليونيين** Les Lyon-nais مع فيليبون، وحقق ديناويه ارتقاء جميلاً **للصحيفة الوردية** Journal Rose في مسلسلة **القرن** Le Siécle وهو وافد من ماكون مثل بيتل الذي يحاول بلزاك إنقاذ رأسه، العام ١٨٣٩ - وهي ذات سنة **رجل كبير من المقاطعات**.

أدباء آخرون أقلّ موهبة، أو أكثر أمانة لطموحاتهم الأدبية الأولى فشلوا بشكل مأساوي. منهم إميل رولآن مثلاً الذي توفي في ١٤ شباط ١٨٣٥ بعد أن ترك ديوان شعر **قصائد لم تنشر إلا بعد الوفاة**[1] وكتب ناشره في العام ١٨٣٨: «في العام ١٨٢٥ وصل إميل مفعمًا بالآمال، غارقًا في الأوهام، ووضع قدمه على حجارة رصف الشوارع الحارقة في العاصمة» وقد مات لأن «التجربة والشقاء لم يبدّدا أيًّا من أوهامه الطليقة». وفي بداية العام ١٨٣٩ حاول بلزاك أن يشاركه في عمله شارل لا سايي، وهو شاعر يتضوّر جوعًا ويتميز بموهبة فريدة، وقد أجرى دراسات جيّدة وترك أورليان في العشرين من عمره، بعد أن عمل كاتبًا لدى صيدلي - ويلاحظ تشابهه مع لوسيان، **الذي ابتكر** من هذا النموذج البديل - وقد

(١) - نشرها غوسلين Gosselin العام ١٨٣٨ وقدم لها بنبذه عن المؤلف.

مارس هذا الشاعر حياة بائسة في باريس لكنها نشيطة وعمل حينًا صحفيًا، وحينًا شاعراً، ومارس العملين في أغلب الأوقات، وهو صاحب القصيدة الطويلة **أوهام** في مجلة **الروح** Psyché (حزيران ١٨٢٩) وهو الذي كتب **زهرة الربيع**، **وزهرة الكاميليا** سونيتين للوسيان في **رجل كبير** وأصيب بعد ذلك بالجنون في العام ١٨٤٠ وتوفي بعد ثلاث سنوات.

لن نضيف إلا اسمًا آخر لسجّل شهداء المقاطعات في باريس، مع استطاعتنا تطويله إلى ما لانهاية، وهو اسم هجزيپ مورو. وهو ابن سفاح تيتّم باكرًا، وعمل صانعًا لدى طباع من بروڤين(*)، هو تيودور ليبو. جابهَ باريس في سن الثامنة عشرة، وهو يافع غير مهيّأ لهذه المجابهة. أعطى نجيه سانت - ماري ماركوت[1] صورة تطابق بسهولة صورة لوسيان: «بشرته ناعمة بيضاء، أطرافه دقيقة نحيلة، هو أشبه بامرأة أو ولد صغير بما يبدو من طبعه الضعيف المسالم». عمل منضداً لدى فيرمن ديدو، لكنه لم يستمّر طويلاً، وتسلّق متاريس تموز[2] دون أن يشاطر المساهمين فيها تقاسم غنيمة الأيام التالية. فضّل العامل الضعيف الإرادة على حياة المطبعة مجتمع بعض العيّاشين الذين لا يشبهونه: «وفقدَ في وسطهم نضارته النقية، وسذاجة أوهامه، فالعالم في عينيه مخيّب للآمال، وهو يعيش في المجتمع بهذه النظرة». إنّه يعاني «تلك الأزمة المؤلمة التي تنتظر كل شاب شهم ومخلص عند انخراطه في المجتمع دون مرشد أو سند، فضلاً عن أنّه شاعر. ثم أحسّ بالنقمة على نفسه، وراح يعاني مرارة عميقة». وبعد عودة إلى بروڤين عانى من عمق الشقاء الباريسي، لكنه نجح في إصدار ديوانه الشعري لدى ديزيسار (في العام

(*) - بروڤن provins: بلدة على بعد نحو ٧٥ كم جنوب شرق باريس.

(١) - مؤلف نبذة عن مورو في مقدمه ديوانة «أزهار الحمحمية Les Myosotis الذي طبع مجددًا العام ١٨٥١.

(٢) - هي المتاريس التي أقيمت أيام ثورة تموز ١٨٣٠ ضد شارل العاشر وأدت إلى سقوطه وتولى لويس فيليب العرش.

١٨٣٨) وهو بعنوان **أزهار الحمحمية** لقاء تعويض مئة فرنك. نذكّر بأن عنوان ديوان لوسيان **أزهار المرغريت**، وقد اختير منذ العام ١٨٣٦.

هنا أيضًا يجدُ الحقيقي في إثر الخيالي (الروائي لا يخترع شيئًا، والتصرف النقدي بفطنة واحتراس ضروري)، لكن ألا يحقّ لنا أن نفكر أن مثل هذه المصادفات شجّعت على إطلاق شخصية لوسيان التي تحتاج إلى تعديل في المرحلة الروائية الثانية؟ وإذا كان ديوان شعر **أزهار الحمحمية** لا يتضمن قصائد مماثلة لأزهار مرغريت لوسيان فإننا نقرأ فيه أغنيات يترنّم فيها على موائد الشراب وتبادل الأنخاب، وضعت من قبل هذا الشبيه بالمحتضر وفق ألحان شهيرة: انبثاق الموت، الأجراس («من نافذتي يهرب الوهم إلى الأبد») نيكولا، إلخ... كيف لا تدفع هذه الأغاني إلى التفكير بالسهرة الجنائزية على كورالي! وجد مورو في نهاية حياته، عملاً لدى بيتوم وبلون، ناشري **أخبار باريس**، **والمرأة السامية** (في جزئين قياس ٨ْ، تاريخ أيلول ١٨٣٨)، **ورجل كبير من المقاطعات**. ويستحيل ألا يثير هذا الطباع غير العادي فضول بلزاك. وقد توفي هجزيب مورو في مشفى الإحسان في ١٩ كانون أول ١٨٣٨ في الوقت الذي كان الروائي منصرفًا إلى كتابة **رجل كبير**، وقد تطرّق بلزاك إلى ذكر تلك الوفاة في السنة التالية، وهو يدافع أمام محكمة روان عن الملكية الأدبيّة، بعد أن صرّح بأنه يدافع عن «جميع هؤلاء الشباب الذين يصلون إلى العاصمة مدفوعين بالطموح، لإقامة قاعدة لأمجادهم». كان للشاعر المغمور في حياته، جنازة حافلة، فقد تنبه الجمهور، متأخرًا إلى أن هذا المصير البائس عبرة ورمز، ربما على شاكلة مصير لوسيان.

توجد وثائق أخرى يمكن ضمّها إلى هذا الملفّ الأول من **أوهام ضائعة**، مثل تلك الواقعة المؤلمة، المتعددة الوجوه المكتشفة في مجلة المحاكم (١٣ آذار ١٨٣٥) «رواية حركة يومية» وفقًا لما كتبه محرّر الأخبار القضائية، قصّة شاب من عائلة إقليمية كريمة، حضر إلى باريس فقيرًا بالمال، غنيًّا بالآمال، مستثار الخيال بمؤلّفات

المدرسة الجديدة، متصوراً أن المجد والثروة ينتظرانه فيها»، وتتسم المغامرة الباريسية بإفلاس مكتبة النشر، وغرق الأوهام الإقليمية، واللقاء بمومس ذات قلب كبير، وتنتهي مؤقتًا، أمام محكمة الجنح.

إذن أمكن للظروف أن تخلق جواً معنوياً ملائماً للمؤلَّف الذي يعدّه بلزاك، إنّما كان حريّاً بالروائي أن يُعنون روايته الثانية **متدرّب رجولة كبيرة**، فتدرّب لوسيان على النجاح في باريس يتم بشكل مأساوي خاص، ولا تتعدى نسبة أمل أي مبتدئ أدبي في تحقيق مكانة له واحداً بالمئة، وما فتئ بلزاك يطرح هذه القضية روائيًا، في كتاباته الجدلية حول وضع الأديب: كيف يمكن للكاتب الفقير أن يعيش من ريشته دون أن يتنكر لمبادئه؟

كانت الكتابة الأدبية متسلّطة على الموضوع، وانساق بلزاك مع تيار تقليدي يدين له إنتاجه ببعض فضل. فضل قليل في الواقع. في شاترتون(*) (١٢ شباط ١٨٣٥) مثَّل ألفريد دي ڤيني الرجل الموهوب ضحية المجتمع، وكانت مقدّمته للمسرحية مفخّمة الأسلوب لكنها جريئة تندّد باستغلال الكاتب إنّما هذه الصورة الشعبية الجديرة بإبينال(**) لم تعجب بلزاك، فهل أوحت إليه هذه المسرحية السابقة للرواية الأولى من **أوهام ضائعة** بفكرة العودة إلى الموضوع إنّما بعد التحرّر من كل محاباة مثالية؟ وله في هذا سابقة فرواية سانت بوف **نشوة** قد دفعته إلى كتابة رواية **الزنبقة في الوادي**. من المؤكد أن بلزاك قرأ بتمعن ڤيني، وقد أشار على الأقل مرتين إلى مسرحية شاترتون في صحيفة **وقائع باريس**، وهو لن ينسى تعبير «المثقّف

(*) - شاترتون: مسرحية من ثلاثة فصول اقتبسها الشاعر الفرنسي ألفريد دي ڤيني عن روايته ستيلو Stello (١٨٣٢) وخلاصتها أن الشاعر الإنكليزي شاترتون يعارض بشدة الصناعي جون بل البارون الجديد للعالم الحديث ويتلقى دعم رجل دين مناهض للرأسمالية باسم القيم الدينية الحقيقية كما تعاضده كيتي زوجة جون بل بحكم التضامن التلقائي بين النساء والمثقفين في المجتمع الجديد القائم حصراً على المصالح المادية. (ملاحظة المترجم)

(**) - إبينال: مركز مقاطعة الڤوج، على بعد ٣٦٦ كم شرق باريس. مركز صور شعبية بدءاً من نهاية القرن الثامن عشر.

المنبوذ» (في القسم الأول من الفصل الثالث) الذي طبقه المؤلف على الفنّان. غير أن شاترتون الشاعر(*) - على الأقل كما تظهره **السيرة الذاتية** لميشو، بظلاله، وعيوبه الأخلاقية الممحاة من قبل ڤيني - يبدي تشابهات متميزة مع لوسيان، فهو يتيم تعبده أمه وأخته «وقد ساهمتا في تغذية طموحاته البرّاقة» وعرف في مقاطعته مجداً مبكراً، فهرع رجل بريستول الكبير يجرّب حظّه في لندن، واستقبلته دور النشر استقبالاً أفضل من ذلك الذي لاقاه لوسيان من مثيلاتها في باريس. لكنه مثل لوسيان استشف ثروته في العمل الصحفي، ومُني بخيبة أمل صاعقة؛ فبطل المعارضة كرّس ريشته لخدمة العدو، «مسكين ذلك الكاتب الذي لا يعرف الكتابة للحزبين». لكنه لم يستفد من قصيدة التوبة هذه، وخصص موارده الهزيلة للفسق والخلاعة «وانصرف إلى رفاهة سطحية، وغدت فاقته غير محتملة فأقدم على الانتحار بتجرع السمّ».

أعطى بعض كتّاب من الدرجة الثالثة، قبل بلزاك (وقبل ڤيني) صيغًا حديثة للموضوع نفسه وتشترك حكاياتهم **بمواقف** «بلزاكية قبل بلزاك» كما أشار بيير سيترون، لكن فضلهم، كما نعتقد لا يعود إلى أنهم بشّروا ببلزاك بل لتأكيدهم على صدق لوحاته وأوصافه، فابن المقاطعة الذي يتراءى في **أرنست** أو **عبر العصر** لدروينو (١٨٢٩)، أو **مبتدئ الصحافة** لألكسندر دوڤال (١٨٣٢)، أو **سيسيل لتيودور** موره (١٨٣٣) هي نفسها التي نصادفها في باريس قبل أو بعد ١٨٣٠. شاب تحكم عليه ثقافته أن يفتش عن وسائل العيش على أبواب مهن مكتفية بعدد العاملين فيها فيرضى بالكفاف أو أن يزاحم متحدّيًا المجتمع. هذا التحدي في ميدان الأدب يأخذ في البدء شكل مخطوطة، تُحَمل عامة من المقاطعة. رُفِض لإرنست **منفى التاركينين** (عنوان تبدو فيه دفاتر الكلية)، كما تُرفض مسرحية ألفرد (بطل دوڤال) ومسرحية غوستاف (بطل موره). فالمغامرة مبتذلة، ومن كل العصور،

(*) - شاترتون (توماس) (١٧٥٢ - ١٧٧٠) شاعر إنكليزي نشر في العام ١٧٦٨ أشعاراً يقلّد فيها العصر الوسيط. دفعه الشقاء إلى الانتحار وهو في الثامنة عشر.

وهي لا تحدث للوسيان (بل لبلزاك) ينشئ ألفريد رواية لكنها تبدو كثيرة الإرشاد، ويحس غوستاف بامتلاك قريحة شاعرية، فيجاب بأن الشعر ليس رائجًا. أما أرنست فيعرض دواوين قريضه على كل دار بخجل المبتدئ، ولا يلقى إلا غطرسة الناشرين. هو ذا بالمقابل مفارقات تركت دون شك تذكارات ممضة، فصاحب دارنشر يقول لدروينو: «أيها السيّد، عاهدت نفسي ألا أتعهد ساعيًا إلى شهرة»؛ ودوريًّا يقول للوسيان: «لن يدخل إلى هذه الدار إلا من ثبتت شهرته».

الحلقة المشتركة الأكثر دلالة لهذه السِيَر المتوازية هي ارتداد رجل الأدب المسكين إلى «الصحافة المحدودة». يصف دوڤال بشكل مطول صحيفة المسرح الصغيرة التي تعيش من الابتزاز، وتصنف المشاهير، وتسبّب الذعر للممثلات أو للسياسيين، وقد تناول بلزاك الموضوع نفسه: ولا شيء يشير إلى أنه قد تطرق إليه من خلال ذلك المجمل الضعيف.

الحلقات الأربع المعلنة عن **الشاب** لغورين وكابو دي فوبير (١٨٣٣) تبدو وكأنها تسجّل مجرى حياة لوسيان: **المقاطعة**، **باريس**، **العيّاش**، **العمل الشائن ومجتمع الأكابر أو متهتك الجيل**. مع هذا التصدير «الحياة درب كبير»، وصدرت الحلقتين الأوليين فقط، غير أن لا شيء بلزاكي في هذه القصة الساخرة عن فتوة وعرة، وغراميات طلابية في مدينة كان (كالڤادوس)، ولا في تلك الخلاصة التي تقول (في المقاطعة لا وهمٌ ولا مجال لنشوء الأوهام)! وفي باريس يبدأ هذا الوافد من المقاطعات في التدرب على كشف غوامض الصحافة المثيرة للاشمئزاز، ويتوقف التشابه عند هذا الحد، وعند الصفحة التي أشار إليها بيير سيترون في دراسته.

نعتقد أن بلزاك لم يخصص إلا بعض لحظات عابرة لهذا الأدب الضعيف في قيمته ومستواه، باستثناء قراءة مؤكدة **لشاترتون** ومحتملة **لأرنست**. لكنّ رجال المقاطعات الكبار، والمبتدئين حديثي العهد، المتخرجين حديثًا من الكليات،

يجتاحون الصحف بأسماء مستعارة، وينشرون اعترافات مذهلة تهزّ المشاعر أحيانًا، هي التعليق الحي على **أوهام ضائعة**. وقد أثار جيراردن ولوتور مزراي المتحسسين بالمآسي المستثارة بالمركزية الباريسية، حملة على صفحات صحيفة السارق Le Voleur من ١٨٢٨ إلى ١٨٣١ للتعبير عن سياستهما أو للتأكيد عليها، وتحت هذا العنوان ذي الدلالة: قد تكون هذه حكايتك (٣٠ حزيران ١٨٢٩) نشير إلى هذه العجالة المأخوذة من صحيفة **القيل والقال** Les Cancans: رجل كبير من المقاطعات - وتردُ كلمات **رجل كبير ووهم** عدة مرات في بضعة أسطر - هذا الرجل الكبير يكتب أشعاراً، وينشرها في صحيفة المنطقة، ويصعد إلى باريس بالنقود التي ادخرتها أمّه، ويعرض قصيدة هجائية على دور النشر، ويحملها إلى الصحف، وينشئ مسرحية خفيفة (ڤودڤيل) يدققها مع أحد «المحتكرين»، ويكتب «قصة» لن تكون أوفر حظًا، الخلاصة: «لم يَعُد يؤمن أنه رجل كبير، ويرحل دون تطبيل أو تزمير عائداً إلى مقاطعته، متحرّراً من جميع أوهامه. ليس هناك درس آخر يستخلص من مقال **لمجلة الغرب** (السارق، ١٥ تشرين أول ١٨٢٩) بعنوان مغر: **الدكتوران** قصة كثيرين من شبان المقاطعات، حضرا إلى باريس، ليدرس أحدهما الحقوق، وليدرس الآخر الطب، وبعد أربع سنوات عادا إلى مقاطعتهما ليعيشا في فقر مُدقع. هي النتيجة نفسها (باستثناء الصحيفة): «عملا على إنشاء مسرحيات «ڤودڤيل» رفضت بالإجماع، وكتبا روايات لم يأخذا عليها أجراً، ونظّما الدسائس في مسرح الأوديون، وحضرا العروض المسرحية الأولى، وصارعا ثلاث مرات، وتركا نصف ثيابهما في مكتب الرهنيات، وخلّفا ديونًا مُلحّة لأصحاب المطاعم والخيّاطين». بعد أربع سنوات، في كانون أول ١٨٣٤، تمكن جيراردن بدوره من تحقيق نجاح ناصع في الصحافة بتأييد إصدار **صحيفة المعارف المفيدة** - صحيفة مخصصة للمقاطعات! - تحمل صورة عامة عن الشباب الذين تضلّلهم الصحافة التي تستغلهم:

تضمّ الصحافة الدورية اليوميّة ومؤسسات النشر الإعلامي والأدبي التجارية، عدداً كبيراً من الشباب، ضحايا الثقافة الجامعية الذين لم يروا بعد مغادرتهم مقاعد الدراسة انفتاح أي مجال للكسب أمامهم، فيلجؤون، في غمرة قنوطهم، ولضرورة العيش، إلى تحويل مرارتهم الخاصة خبزاً يومياً، واستخدام ريشتهم غدارة في معركة يخوضونها للحصول على بعض شهرة أو قدرة أدبية تعطيهم في سوق الأدب قيمة تجارية.

في العادة يدؤون الممارسة محرّرين في صحيفة المسرح الصغيرة التي توزع نحو مئة نسخة تستند في مضاربتها المالية على الفدية المبتزّة من بعض الممثلين أو الممثلات ليتجنبوا التشهير بهم أو الكتابة عنهم في العدد التالي أو ما بعده من الصحيفة، بأن تصرفاتهم خرقاء غير لبقة أو أنهم دميمون، ممقوتون.

هذه اللوحة الجريئة التي تكتمل بحملة عنيفة ضد «أدب الابتزاز»، «ذلك الأدب الباريسي الهزيل، العليل»، «أدب الأمكنة الفاسدة» لم يخفَ عن رقابة بلزاك الدقيقة أو عن ريشته الثاقبة، وقد خصّ صحيفة جيراردن «**لابرس** La Presse في ٤ حزيران ١٨٣٩ بباكورة أحد فصوله الأكثر اتهامًا بعنوان **كيف تتصرف الصحف الصغيرة**.

هكذا يمكن تكوين مجموعة مختارات حقيقية عن المسألة، المعالجة على التناوب أو في آن واحد كموضوع تحليل ودليل قصٍّ وسرد. وسيكون سهلاً الرجوع إلى بدايات بلزاك نفسه أو تقصي التاريخ الذي يحدّد فيه أحداث روايته. وقد أمكنه في الواقع أن يرى في أكثر من صحيفة وضعه الخاص، كأنه أمام مرآة، كاتبًا محتاجًا شبيهًا بوضع ابن المقاطعات، الذي سيصفه فقيراً ودون حماية. من هو مثلاً ذلك الشخص المجهول، مؤلّف أول رسالة **عن الحياة الأدبية في القرن التاسع عشر**، والذي أسمع في صحيفة **المنظار الصغير** La Lorgnette، لسَان آلم (٣١ كانون أول ١٨٢٥) صوت لوستو أحد شخصيات **أوهام ضائعة**؟

يجب أن نأكل ياصديقي، ولا يمكن العيش الآن بأن نقدم للجمهور دون دعم، ودون الارتكاز على عصبة، مؤلّفات ذات عبقرية مستقلّة، يجب الارتباط بإحدى المؤسسات، أو إحدى الصحف؛ وأن يتركّز في خاطرنا صباحًا تعويض أسطر الأفكار التي جالت به، لنتمكن في المساء من الانصراف لإنشاء مؤلفات حسب الطلب، روايات، وخلاصات، وموجزات، إلخ... بعد ذلك، كيف سننكب على التعبير عن العبقرية الخاصة التي وهبتنا إياها الطبيعة؟ هكذا بدأ كثيرون من الشباب المفعمين بالعواطف النبيلة والأفكار السامية، كانوا يرغبون بالمجد، فوجدوا الشقاء، قدّم لهم الخبز على حساب ذكائهم وشهرتهم، واضطروا إلى الإذعان والرضوخ. وقد وعدوا أنفسهم بأن ينتقموا يومًا، لكن أملهم ذهب أدراج الرياح! فقد اعتادوا على أن يسوّدوا صفحات الورق وفقًا لأمر دار النشر وتوقفوا عن تعليل أنفسهم بموحياتهم النبيلة.

من هو ذلك الكاتب المجهول الذي قصّ في ٣١ كانون أول ١٨٢٣، في تلك **المسلسلة الأدبية**، التي كان بلزاك أحد المتعاونين الرئيسين معها، حكاية **سنة صحفي صغير**؟ «بعض كتابات متواضعة أدبية صرفة، أكسبتني في مدينتي شهرة رجل فكر... ثم تتكرّر الحكاية نفسها، العائلة الدامعة العين، والرحيل إلى باريس، ومراوغة الصحيفة، حيث غدا زرزور المقاطعات بيدقًا تحت رحمة المدير، والمساهمين، والمكتبات الناشرة، والسياسيين، والممثلين «الذين يتناول عندهم أحيانًا العشاء». أخيرًا العودة المحتّمة إلى البلاد.

ماذا نستنتج من هذا التحقيق التمهيدي؟ قبل كل شيء وجوب الاحتراس من التفتيش عن نموذج **وحيد** للوسيان الجديد، ثم أن صنف «رجل كبير من المقاطعات في باريس»، وهو تحريف المبتدئ الفقير، الممثل بشكل واسع بعد ثورة تموز ١٨٣٠ وقبلها، قد ولّد باكرًا جدًا نوعًا أدبيًا، يجب الإشارة في النهاية إلى أنّه بالرغم من إغراءات الكثير من التغييرات الأدبيّة والصحفيّة للموضوع المركزي فإن سيناريو

الرجل **الكبير** لا يستجيب إلا للمماثلات مبسّطة تتفسرّ خاصة بالحقيقة التاريخية الملهمة نفسها.

لا يبرهن على أثر النماذج إلا بالنسبة لعناصر ذات بنية محدودة، وقد وجّه بيير سيترون الانتباه إلى التشابه بين خاتمة سيسيل لموره (١٨٣٣) والسهرة على جثمان كورالي المتوفاة، فباريه يقدم مئتي فرنك للوسيان لنظم أغان وقحة لمجالس الشراب، سيكتبها الشاعر قرب سرير خليلته الميتة، بينما ينشئ غوستاف قرب سيسيل المحتضرة مرثاة مضحكة عن سقوط الوزارة، ويقصّ ورده مشهداً مماثلاً بطله موريس ألوا تحلّ فيه مرثاة حزينة محل الأغنية البا خوسية. وبما أنَّ بلزاك يسأل السيدة هانسكا في رسالة بتاريخ ١٠ تشرين ثاني ١٨٣٣، إن كان قد حدثها عن «ذلك الرجل الذي ينظم أغان لموائد الشراب ليتمكن من دفن خليلته المعبودة، وتاجر العاديات في رواية **جلد الحَبَب** يسأل رفاييل عمّاً إذا كان «ملزماً بنظم أغان لتسديد نفقات جنازة خليلته»، فقد استنتج بيير سيترون (في العام ١٩٦٠) أن المرجع الأدبي ليس إلا تأثيراً بصرياً: فقد انطلق الروائي من حدث عادي يعرفه. ومنذ ذلك الحين تعقّدت تلك المسألة الصغيرة من التاريخ الأدبي، المتخذة مثالاً. إذ أن اليزابيت تيشمن ومارسيل روف وماكس ميلنر قارنوا في ذات الوقت تقريباً، العام ١٩٦٢ بين المشهد البلزاكي وصفحة من **مجلة باريس** (١٨٢٩) يقصّ فيها لويف - فيما السيرة الذاتية المتخيلة لألويزيوس بلوك (الاسم المستعار لريمون بروكر): وقد ألفّ بطله ثلاث أغنيات جميلة مفرحة (**لتقويم لعيد الميلاد**) سدّد بثمنها نفقات دفن جان، ودندن فيها وهو يسهر على جثمان المرأة الشابة. ويُستخدم الإطار ذاته في **المرثاة** إحدى **قصص المحترف** الموقعة بالاسم المستعار ميشيل ريمون في العام ١٨٣٢، وكاد بول كريستيان أن يفقد صوابه وهو يُعدُّ لناشره الإثني عشر مقطعاً من مرثاته، .ويقدر ميلز وروف تلك المرثاة مرجعاً محتملاً لبلزاك، وتُعدّها **المجلة الموسوعية** «طرفة معروفة رتُّبت تحت أسماء جديدة»، لكن القصة لم تنته! في العام ١٩٦٦ قرأت السيّدة فورتاسيه في إحدى صحف الأزياء في ليون - المؤرخة

في ٩ تشرين الثاني ١٨٣٣ أي عشية اليوم الذي كتب فيه بلزاك للسيدة هانسكا الرسالة الوارد ذكرها أعلاه - قصة بعنوان **الجثة والأغنية**، وهي هنا قصة شاب عيّاش يدفع مئة فرنك لشاب بائس (أحد روائيينا الجيدين) لينظم له وهو قابع في سقيفته ثلاثة مقاطع «تفجّر من الضحك» ليقدّمها لخليلته خلال مأتم لائق، ورأت السيّدة فورتاسية أن المصدر الحقيقي لتلك القصة قريب من العام ١٨٣٣[1]. يبدو لنا أن وثيقة رئيسة تنقص ذلك الملف، وهو مقال **تريلبي** (١٦ كانون أول ١٨٢٩)، بعنوان **المؤلف الشاب، طرفة من القرن التاسع عشر**، «أوغوست ك. . . ابن تاجر شريف في المقاطعات، رأى فيه أبوه مؤهلات عالية، فأمّن له ثقافة جديرة به»، لكنّ هذا الرجل المتفوّق أفلس، وترك مقاطعته، قال في نفسه «في باريس وحدها، يمكن للرجل المثقف أن يعيش» إلخ. . . وفي باريس، تتكرّر اللازمة المحتّمة: «المسارح ترفض مسرحياته، ودور النشر ترفض مؤلّفاته، وفي كل يوم يقرّبه بعض حرمان جديد من البؤس». لم يبق له إلا حبٌّ كبير، حب كارولين المحتضرة الذي ينفتح على مشهد ميلودرامي متوقّع: «في يوم أضناه التعب والقلق، وهو ساهر قرب سرير خليلته، يُقرع الباب. . . (إنه السيد ب. . .، صاحب دار النشر المعروف بطبعه المرح، وبعدد الكتب ذات الحجم الكبير التي طرحها في السوق»، وبعد أن شكا من تسلق الطوابق للوصول إلى غرفة المثقف («عدا عن فرسخ اضطر إلى قطعه على القدمين لتعذر دخول عربته الزقاق الضيق»)، وبعد أن هنأ مضيفه على «موهبته» «ولكن دون أن يحظى بالشهرة»، طلب منه إعداد مرثاة بمناسبة سقوط الوزارة الوشيك، «شيء فكه، يتضمن كثيراً من الهزل، ويثير كثيراً من الضحك». بدأ أوغوست العمل سريعًا، «وتجلّت أفكاره مع نبرة التهريج» في الصباح وجد كارولين ميتة، ورسالة من دار النشر تنبئه بأن الوزارة قد رمّمت تصدّعها وطلب المرثاة يعد لاغيًا. . .

(١) - الجثة والأغنية» أو صيغة ليونية للسهرة الجنائزية على جثمان كارولي» مقال منشور في السنة البلزاكية ١٩٦٦.

هل أمسكنا بطرف الخيط؟ نرجّح رؤية هذه الطرفة، مرجعًا أصيلاً وهو في طور التهجين الأدبي، بعد إضفاء عنوان رمزي على تفاصيلها الحقيقية التي تتمثل فيها عدا عن ذلك جميع المواضيع المفهرسة حتى الآن. أخيراً لا شيء أيسر من الانتقال من ب. . . إلى باربه، ومن كارولين إلى كورالي، كما يسهل الانتقال من ركاميه إلى كامريستوس، غير أن الفكرة الرئيسة ليست هنا، وإنّما في التأكيد التجريبي على أن بعض **الأشكال** المركبة تربط بين عدة مواضيع ذات أُلفات خاصة مع بعض المسائل.

في **رجل كبير من المقاطعات**، وهي رواية ضخمة تمثّل رسمًا جداريًّا يجري قدر لوسيان دي روبمبره فيه عبر لوحات متجاورة، وقد استعان بلزاك بهذه العناصر من البنية التي تتضمن عدة سلاسل جذرية تؤمن استمرارية الموضوع المركزي، هي أوضاع، ومشاهد، وتصاميم مستملحة، وبعض توافه أحيانًا حتى لانقول إشاعات مستمدة من حقيقة أُعدّت سابقًا في صحيفة أو كتاب يعبأ ثانية ليستخدم من جديد، على حساب خليط معقّد من الابتكار والتقليد، كما في مثال السهرة الجنائزية على كورالي؛ هذا الإجراء المعقّد في الإنشاء يقي الرواية من الإفراط في الخيال، والتزايد المغالي في التعقيد.

اقتصرنا على وصف لوحة واحدة، لكنَّ في **أوهام ضائعة** عددًا كبيراً من هذه «الاقتباسات» التي لا تشكل لوحة، ويمكن أن ننسبها بحذَر إلى «التأثيرات الأدبية» الشهيرة، فموضوع زيارة الشاعر لدار النشر يرد عَرَضا في **طرفة من القرن التاسع عشر**، وفي حكاية موره، كما أن صاندو يعطي صيغة أكثر تفصيلاً في **حياة وتعاسات** التي يقتفي بلزاك أثرها خطوة خطوة عندما يصف زيارة دُوغِرو للوسيان وتذكُّر فوبلاس، وتنويه و. كونر وپ سيترون، عن حقّ به، ذو وظيفة مماثلة

لوظيفة تلك العناصر التي حلّلناها سابقًا، فالمشاهد المتتالية ذات الابتذال المطلق لكورالي (فوبلاس) التي تفاجأ بحضور حاميها، فتخبئ عشيقها، مثلما فعلت كورالي الأخرى في حجيرة الحمام تعود إلى موضوع تقليدي من صور القرن الثامن عشر التي نجد لها، دون شك، نماذج كثيرة في الأدب العاطفي المتطرّف، وبلزاك لا يسعى مطلقًا إلى تجنّب هذا الحدَث العام المتكرر، وهو يتيح له أن يتملّص من تضليل مأساوي. أما الجزمة المتهمة فهي موضوع رسم ليس أقل تكرارًا، وهنا أيضًا روعي التشويق في الخديعة، فالمسلاة (الڤودڤيل) نُزِع فتيل تفجيرها، بمعنى أن بلزاك، بدلاً من أن يسبّب إثارة فضيحة مضحكة تُبعد لوسيان عن طريقه، استثمر سيكولوجيًّا وضعًا يُظهِر تحت إضاءة قاسية لدى كورالي، ولدى كاموزو أيضًا جُبن الحبّ الحقيقي.

يجب الإشارة أيضًا إلى عناصر بُنيةٍ روائية، تأخذ بالاعتبار في آن واحد هذه السيناريوهات المتجمدة التي لا تتغيّر ومختلف مخططات دراسات الطبائع. بعضها يعود إلى نتاج سابق لبلزاك يعيد استخدام صيغ برهنت على كفاءتها، بعد تجديدها، وأفضل من سلسلة مغامرات عرضيّة مكلّفة فإنّ عشاء صحفيين ينهي تدريب لوسيان الباريسي، مثلما أزالت حفلة السكر والفجور التي أقامها تايلفر لتدشين صحيفة جديدة أوهام رفاييل الأخيرة في رواية **جلد الحبب**، والنزهة على مصطبة دير فويان المذكورة في قصة **فتيان باريس** تندرج بسهولة في رواية **الفتاة ذات العينين الذهبيتين**، ويكرّرها بلزاك في **رجل كبير**. كذلك فإن الصفحة الشهيرة المعنونة في العام ١٨٣٩ «كيف تتصرف الصحف الصغيرة» قد شكلّت في إطار مبتذل سبق استخدامه: مدير يعيش عيشة ماجنة، وصانع المطبعة يشكو لأن المنضدين قد تعطلوا بانتظار بقيّة مواد الصحيفة، وقد سبق تجميع كل هذه العناصر في مشهد تحاور من **العفريت** (الأول من كانون الأول ١٨٢٩) وهو معنون أيضًا «كيف تتصرف صحيفة كبيرة» مقال من **المجلة البريطانية** نقلته صحيفة إنكليزية . . .

نصل هنا إلى آخر دين لبلزاك من **نسّاك** جوي[1] **حتى الفرنسيون كما يصفون أنفسهم** وما بعد ذلك مافتئ المجتمع الفرنسي المفتون بالتحولات السريعة التي يتعرض لها منذ سقوط النظام الملكي القديم يصف نفسه. في العام ١٨٢٥، قام ل. مونتيني المتعاون مع **صحيفتي** المرآة Miroir **والشيطان الأعرج** Diable Boiteux بنشر مؤلف **ابن مقاطعات في باريس** في ثلاثة أجزاء صغيرة لدى لادفوغا وهو «وصف مجمل للتقاليد والطبائع الباريسية» وعنوانه يطابق الرواية الثانية من **أوهام ضائعة**. ولم يهدف مونتيني إلى تحليل مجمل، ولا إلى عرض منهجي، بل اكتفى بأن ينفتح على موضوع واسع جداً بضع نوافذ(مركز مسرح، نُزُل بورجوازي، مقصورة مُمثلة) حيث يظهر لنا المجتمع الباريسي تحت زوايا غير متوقّعة أحيانًا، في مرحلة فعالية **رجل كبير**. بطريقة مماثلة أعدّ بلزاك لمؤلفه إطاراً اجتماعياً، لكن اختفاء فصول ١٨٣٩ – التي نجد عناوينها في الملاحظات المتعلقة بالتغييرات – حجب تلك الصيغة في الإنشاء. ففي سلسلة دراسات طبائع (مكتبات، صحافة، مسرح) مقسّمة إلى وحدات أكثر صغراً (أنواع مختلفة من الكتبيين، قاعة تحرير صحيفة، إلخ...) يتجابه لوسيان مع المجتمع بأنواعه المختلفة، بشكل يحتفظ به تتابع اللوحات في تنظيم الرواية دوراً مركزيّاً وإيقاعياً، يمثل أهمية التقدّم الدرامي. عبر كلّ من هذه المواجهات يحمل لوسيان، وهو الحكم والخصم، والحكم والضحيّة، الشهادة الحيّة التي ننتظرها، يختلط بالجماهير دون أن يضيع فيها، يستعمل، كما رأينا، أقنعة «نماذج الإبدال»، التي يَعدلُ عنها ليتجاوزها. نحو لوحة أخرى، متابعاً سعيه نحو المعلم المحدّد منذ العام ١٨٣٨ في **الرعادة**.

لا يُضَبط بلزاك في أي موقع متلبسًا بالتقليد، لكنه استوحى بكل تأكيد من مونتيني اختيار اللوحات وتقسيمها. فاللوحة المعنونة **فليكوتو** لدى بلزاك يقابلها في كتاب مونتيني **ابن المقاطعة** فصل بعنوان **أصحاب المطاعم ذات الوجبة المسّعرة**

---

(١) – جوي، فيكتور (١٧٦٤ – ١٨٤٦): مغامر عسكري وملاحظ للطبائع المعاصرة: كتب عدة روايات تحت عنوان الناسك، ناسك شوسيه دانتن (١٨١٢) وناسك غويانا (١٨١٦) وناسك المقاطعات (١٨٢٤).

باثنين وعشرين فلسًا، **وممول المؤلفين المسرحيين** تقابله دراسة من الجزء الثاني من **ابن المقاطعة** بعنوان **السيدة بوليفار ووكلاؤها**، كما أن الكاتبين يخصصان دراسات حقيقية مستفيضة عن الپاليه- رويال ومكتباته. غير أن وضع الانتحال المثير للانتباه يتجلى في الفصل الرابع عشر من مخطوطة بلزاك، العام ١٨٣٩ فقد سجّل فيه عناوين فرعية لها ما يماثلها تمامًا أو ما يقرب منها في مؤلّف مونتيني، فهل يمكن القول إنّها مصادفات؟

تتدفق نحو كل لوحة كمية كبيرة من المعلومات ذات أصول مختلفة، وهي تخضع لاختصار تقريبي يتناسب مع تسلسلها الزمني الخاص. حتى الآن لم نلمح إلا قليلاً إلى المصادر السيرية الذاتية التي بالغ النقّاد غالبًا فيها، غير أن من الواضح أن أولّ «نموذج بديل» للوسيان في صراعه مع المكتبات الناشرة، هو بلزاك ليس لأنه هبط فجأة على باريس من إحدى سماوات المقاطعات، فهو في العام ١٨٢١ من سكان الضواحي قبل نضجه، نصف باريسي وأكثر يجري رحلات مكوكية بين ڤيلباريسيس ومنزل العائلة الصغير في حي الماريّه. وقد رأينا في المرحلة السابقة لوضع الخطوط الأولى للموضوع أن جميع المبتدئين يعانون محنًا متشابهة بل قد يمرون في البداية نفسها، وقدّر مونتيني عدد رجال الأدب في المرحلة التي تجري فيها أحداث **أوهام ضائعة بألف**. وبوضع «العباقرة منهم خارج السرب» وطرح نحو خمسين أديبًا برهنوا عن جدارتهم يبقى الجنود المشاة، جماعة «الأدب الصغير» أمثال لورد روهون، وهوراس دي سان أوبن، ولوسيان دي روبمبره.

ولوسيان يقبل مهاجمًا بمؤلّفين متغطرسين: ديوان سونيتات ينافس فيه بترارك، ورواية **نبال شارل التاسع** تفوّق فيها على والترسكوت. لا شيء من هذا لدى أونوره. فقد رُفضت مسرحيته **كرومويل** من قبل الناشرين اندريو ولافون وهو يحتفظ في عُلَبه الكرتونية ببعض بواكير يؤمن بقيمتها وباسم لبواتڤن سان - آلم. يقدّم للناشرين هوبر وباربا وپوله، ما ينتظره زبائنهم: رواية ساخرة، رواية فرحة، رواية عاطفية، رواية مرعبة. ولم تسئ المكتبات الناشرة استقبالها، وبعكس الرأي السائد، حظي كل من لورد روهون وسان أوبن، في العام ١٨٢٢، ببعض النجاح، فأشير إليهما في قوائم قاعات القراءة، غير أن المتاعب تبدأ في العام ١٨٢٣،

فمسرح الغتيه لا يريد مسرحية **الزنجي**، ومؤلَّف **الجنيّة الأخيرة** كاسد في سوق الكتب، غير أن بلزاك المعجب بمؤلَّفه يصدُر منه طبعة ثانية على نفقته، (أو على نفقة السيدة دي برني)، وأخيراً وفي السنة نفسها تلقى **وان - كلور**، وهي أول مشهد من الحياة الخاصة، وأول مؤلف أعد بعناية، تقييمًا أقرب إلى الإهانة من مكتبي ناشر مجهول: «خمنوا ماعرُض عليّ ثمنًا لوان - كلور! ستمئة فرنك!. . . أفضل أن أذهب لأحرث الأرض بأظافري، ولا أقبل هذا الخزي». هي ذي نقطة الاتصال مع أوهام ضائعة، فلوسيان يرفض بالاستنكار نفسه مبلغ الأربعمئة فرنك التي يريد دوغرو أن يشتري فيها حقوق نشر **نبال شارل التاسع** قائلاً «أفضل أن أحرقها، ياسيدي» كما يرفض عرض الستمئة فرنك لقاء مؤلفاته القادمة.

لكن ليس بين **وان - كلور والنبّال** أية علاقة، والتوازي بين الشخصية الروائية ونموذجها يقوم على حساب زيحان جديد: فبلزاك لم يحاول أن ينافس بجدّ والترسكوت إلا، العام ١٨٢٤، في **المحروم** (وحتى ذلك الحين كانت المحاكاة يبطل مفعولها بالسخرية) كما أن موضوع هذه الرواية التاريخية، المجهضة قبل أن تكتمل لا علاقة له **بالنبال**، وهي في النهاية دراما تاريخية ضعيفة، وماري توشه التي وضع، العام ١٨٣٦، الكونت دي غرامون تصميمًا أوليًّا لها على مخطّط لبلزاك هي التي تظهر بعض شبه أشار إليه رينه غيز. وكمثال لنتابع هذا التوازي. في مخطوطة الحدَث الأول **لأوهام ضائعة** تردّد بلزاك بين **نبال شارل التاسع وقاضي باريس الأول**، والعنوان المشطوب يقودنا إلى **نقيب مثيري الفتنة**، هذا المخطط الذي يعود إلى العام ١٨٢٥ (أو ١٨٢٨) مخصّص، مثل **المحروم**، إلى ملكية شارل السادس، وهو موجّه إلى **تاريخ فرنسة الرائعة** الذي أشار إليه لأول مرة، العام ١٨٢٥، في رسالة للدوقة دابرنتس. غير أن من البديهي لتاريخ الطبائع في روايات، الذي وجّه دارتز لوسيان إلى إنشائه لينتصر على والترسكوت في ميدانه الخاص، أن يظهر تماثلات مع مشاريع بلزاك الشاب أكثر وضوحًا، ولنشر من أجل اختتام هذه النقطة أن أقلّ تفصيل سيري ذاتي يتشكّل من عدد كبير من الرواسب، وأنّ بلزاك لا يتردّد في أن يرتسم في آن واحد، خلف سمتين متناقضتين للوسيان ودارتز.

وجب على لوسيان الروائي، على شاكلة مؤلف قصة الثائر الملكي أن يتحمل إهانة تصنيفه ضمن كتبة المقاس الصغير من المؤلَّفات، وأن يخضع لشروط مموّني قاعات القراءة. وكانت الرواية ذات المقاس $\frac{١}{١٢}$ المستثمرة من قبل مكتبة خاصة مزدراة من قبل «الأدب الرفيع». فبلزاك يقود إذن لوسيان في عالم يعرفه جيّداً، ولم يعبّر في أي مكان آخر، على ما يبدو، عن صورة أكثر دقة للحقيقة. مامن شكّ في أن دوغرو هو بيغورو الأب، «الشهير في عالم المكتبات كناشر لكمية كبيرة جداً من الروايات». في العام ١٨٢١ كان هذا الأستاذ السابق للغتّين اليونانية واللاتينية قد استقر منذ نحو ثلاثين سنة في ساحة سان - جرمن - لوكسروا رقم ٢٠، وهذا العنوان يطابق تقريباً شارع الكهنة وساحة اللوڤر في المخطوطة، عدا تفاصيل أخرى تطابق ما نعرفه عن هذا الناشر الرائع.

تقابل المصنّع المصغر للكتاب، المكتبة على الطراز الذي جابهه لوسيان الشاعر في الپاليه - رويال. ولوحظ منذ مدة طويلة أن دوريا يشبه إلى حدّ كبير لا دفوغا، فهو يتصف بلا مبالاة هذا المتسلط «رافع الكلفة» (الفونس كار)(*)، و إذ أنّه لم يتردد في الاستهزاء لمدة ستة أشهر متتابعة - في العام ١٨٢١ أوج الملكية الثانية، بالمفتش العام للنشر والمكتبات الذي اتهمه بالممارسة دون رخصة عمل. وقد هجا الزجالون المعاصرون ذلك «القطب المكتبي الأنيق»، «المكتبي المتملّق»، وهزأ المؤلفون الساخرون «القودڤيليون» من هذا «الناشر على العمود» «الذي نقش بأحرف مذهبّة أسماء المؤلفين المتعاونين معه على عمود في مكتبه. وقد اتهمت **المسلسلة الأدبية** الليبرالية، التي كانت تشنُّ حملة على الأدب الناشئ، لادفوغا (في العدد ١٧٢) بأنه يقتنص النجاح بضربات الصحفيين وعجلات العربة، وأشارت صحيفة **الرقيب** (الأول من تموز ١٨٢٤) إلى أنه يوجّه صحيفة **الدستوري** «بتضييق الحصار عليها». وكلّ من هذه التلميحات تشير إلى دوريا الذي ذهب لوسيان يعرض عليه **ديوان المرغريت**. وقد استقبل مثل ذلك الشاب في صحيفة **الشيطان الأعرج** (عدد ١١ أيلول ١٨٢٣) الذي يروي قصة زيارته لناشر لم يذكر اسمه، لكن تسهل معرفته،

(*) - ألفونس كار (١٨٠٨ - ١٨٩٠) هجاء ساخر ناشر مجلة «الدبابير».

هي طرفة **تاريخية** على مايبدو. الناشر ينشر أشعاراً لايقرؤها، فالأشعار لارواج لها - ومع ذلك فأنت تشتريها؟ - نعم ولكن لمؤلفين مشهورين. . . - ولكن جميع الكتّاب المشهورين كانوا مبتدئين - نعم ولكنني لم أشتر المؤلّفات الأولى». بذات الأسلوب قوبل لوسيان فردّ حانقًا: «ولكن، أيّها السيد، إن تصرّف جميع الناشرين وفقًا لما تقول، كيف يمكن نشر كتاب أول؟» ويجيب دوريا: هذه ليست مشكلتي.

إثباتات هوية، بمثل هذه الدقّة، استثنائية تمامًا، ولا تدع مجالاً للشكّ. وما بين المخطوطة والمسودات الطباعية تغيّر عنوان دوغرو، فغدا في شارع كوك، فهو بعيد من الآن فصاعداً عن بيغورو في المكان. وقد حرص بلزاك على القول إن دوريا مستقرٌ في مكتب مقابل للادفوغا. من السذاجة الاعتقاد بأنه أراد أن يشوّش الآثار، فأيّة مصلحة له في ذلك؟ فالروائي ليس المورّخ ولا مؤلّف المذكرات الذي يزعم، وهو ما فتئ ييسرّ لنفسه التكذيبات؛ **وتمثيل** الشخصية الحقيقية غير وارد لديه، منذ مباشرته بالرواية، دون طمس الهويّة الذي يجعل فكرة التمثيل نفسها ملتبسة للغاية. وبوله وحده، الشخصية الحقيقية، المحاور النشيط إنّما **غير المنظور** في حَدَث التنويه بڤيدال وپورشون، لم يغيّر اسمه.

وجد أنطوان آدم في دوريا بعض ملامح رندويل، الذي أبدى غوتيه إعجابه بعربته ذات الهيكل الخشبي الابنوسي، والذي لقبه لاتوش **الباشا**، أما دعابته حول أبيات الشعر التي «ستفترس المكتبة»(*) فهي لُمعَة سخرية من كانل أوردها وردْه في **ذكرياته**. لنضف أن دوريا يبدو لنا عابسًا مقطّب الوجه، كما يجب أن يُرَى رجل مقاطعات كبير بهرته أضواء الپاليه - رويال، غير أن للادفوغا وجهًا آخر لا يمكن للوسيان أو لقرّاء **أوهام ضائعة** تخمينه: وجه رجل شهم سيستقبله عمال الطباعة المضربون، في الرابع من أيلول ١٨٣٠، على حاجز الترون «العرش» وسيتوسط لهم لدى وزير الداخلية، إنه ناشر الأسلوب الشيّق الذي سيسعى الكتّاب لإنقاذه من الإفلاس بمنحه **كتاب المئة وواحد**. ودوغيرو نفسه، هذا الرجل الذي يبدو بعمر

(*) - الدعابة ناتجة عن الجناس في كلمة Vers بيت أو أبيات الشعر و Vers دود أو ديدان قارضة.

(م. المترجم)

آخر، فلو أنه بيغورو حقًا، من يخامره شكّ بأنه لم يتجاوز الخمسين من العمر (وُلد في ٢٦ كانون ثاني ١٧٦٩) وهو رب عائلة رُزق بتسعة أولاد، أكبرهم في ذلك التاريخ في الثالثة والعشرين من العمر فقط؟

لا أحد من أصحاب المكتبات الناشرين الوارد ذكرهم في الرواية يمكن أن يُحدَّد نموذجه الحقيقي. فيدال وپورشون في مكتبتهما على رصيف ضفة السين المسمى رصيف الأوغسطونيين حيث يستقر معظم الكتبيين الوسطاء، بيشون وديديه في الرقم ٤٧ (وهما أيضًا من المهتّمين بالكتب الرصينة، وقد نشرا محاضرات كوزين في العام ١٨٢٩)(*)، لكوانت ودوري في البناء ٤٩، وشارل بيشه في رقم ٥٧، إلخ... ورغم اسمه فإن باربه صاحب المحل على أحد أرصفة الضفة مثل العشرات من أمثاله الذين استقروا على رصيف الاوغسطينيين، ورصيف كونتي، ورصيف مَلقى ليس له أية ملامح شبه مع باربا الجريء ناشر مؤلفات بيغو - لبرُن(**). ولنفترض أن شابوا سو أو كاڤاليه وُجدا فعلاً، فإن الرواية تقدّم عن هؤلاء الأشخاص معطيات نفسيّة، وجسميّة، وهندامية أكثر تفصيلاً مما يتوقع الحصول عليه في الملفات الوثائقية، مما يجعل البحث عن نماذج لهم عقيماً وغير مبرّر.

تبقى الأسماء الحقيقية المعارة، كما جرت العادة، للشخصيات الروائية، وقد بيّن پ - ج. كاستكس في دراسة لاسم راستينياك أن «علم دلالة أسماء العلم» يبوء بالفشل. فالروائي، بإطلاق الأسماء، يبتكر: لوسيان، فيكتورنيان، ساڤينيان أسماء تحمل في نهايتها مجرى قدرها. وكتبيان في رواية **رجل كبير** نُحِتَ اسماهما من أسماء أخرى باربه (من باربا وپوله) ودوغرو (من دوتيرو وبيغورو) هذا بالرغم من وجود أشخاص حقيقيين يحملون الاسم (إذ أن نائبًا في المجلس في عهد لويس فيليب يحمل اسم البارون دوغرو، كما أن باربه اسم كثير الشيوع. هذه الأسماء لا

(*) - كوزن، فيكتور (١٧٩٢ - ١٨٦٧) فيلسوف ورجل دولة فرنسي. (المترجم)

(**) - بيغو - لبرن Pigault - Lebrun (١٧٥٣ - ١٨٣٥) كاتب فرنسي له مسرحيات وروايات خلاعية. (المترجم)

تعبّر عن طبّاع، لكنها تقرن الوجوه بطريقة تجعل القارئ مستعداً ليلاحظ بعين حذرة المكتبيين الآخرين خشية أن يكونوا من الصنف المحبّ للإيذاء.

هؤلاء الأشخاص المتميّزون بشدة حيويتهم، وبتفرّد يقاوم على الدوام تقريبًا جميع محاولات تحديد هويّاتهم بشكل يدفع إلى قبول وجود روائي مستقل لهم، لكنهم لا يتدخلون إلاّ عَرَضًا في السياق الرئيس للرواية فمهمتهم تقتصر على منح لوسيان دوراً رئيسًا في سلسلة من اللوحات المتحركة حيث تجسّم بشكل درامي مداورة إنّما بدقّة علمية عمليات للنشر والتسويق المكتبي في عهد الملكية الثانية، وهذه العمليات لم يطرأ عليها أي تغيير في ظل ملكيّة تموز، وهكذا فإن التشويش الخفيف المتعلّق بالترتيب الزمني الذي أجراه بلزاك لا يؤثّر على دقّة تحاليله التي تبقى صحيحة ومنطبقة على نقاط كثيرة.

ودون الدخول في التفاصيل التي سنجدها في الحواشي لتقتصر على بعض أمثلة بارزة. من هذه الأمثلة عقد جائر قائم منذ العام ١٨٢٢ بين فيكتور دوكانج(*) وپولة، التزم فيه الروائي بتقديم ثمانية أجزاء روائية سنويًا للناشر الذي تعهّد بدفع ٣٧٥ فرنكًا ثم ٨٠٠ فرنك ثمنًا للجزء الواحد، وهو سعر باهظ يؤدّي بپولة إلى الإفلاس (دعوى العام ١٨٣٠). هذا الوضع يفسّر المفاوضات بين پولة اليائس وڤيدال وپورشون، تلك المفاوضات التي استمع إليها لوسيان صدفة وهو خلف حاجز الانتظار.

أما العملية التي أنجزها المكتبيان - الوسيطان فإنها تسلّط الضوء بمثال على الاستثمار المكتبي في تلك الحقبة، وقد خصص بلزاك افتتاحية العدد الأول من **مسلسلة الصحف السياسية** (آذار ١٨٣٠) و«مقدمة» مشروعه **شركة الاشتراك العام** (خريف ١٨٣٠) لتحقيق عن وضع المكتبة، وكان بمثابة وثيقة اتهام معلّلة ضد تعسفات المكتبة الوسيطة، وواقعة فيدال وپورشون هي الإبدال الروائي الأدبي لذلك التحليل التجاري: المكتبة الناشرة تقع تحت رحمة المكتبيين الوسطاء الذين يتحكمون بالدعاية والتوزيع في المقاطعات بواسطة مندوبيهم الجوّالين وهم يلزمون دار النشر بحسومات مدمّرة، (وخاصة على الروايات) متظاهرين بمنح امتيازات

(*) - دوكانج، ڤيكتور (١٧٨٣ - ١٨٣٣) روائي ومسرحي فرنسي.

للمتنافسين لدى باعة المفرّق. وببضع كلمات فإن بلزاك الروائي يكشف الآلية الغامضة وغير المعقولة للمدفوعات المؤجلة التي تشوش الاستثمار التجاري للرواية.

كل لوحة تتضمن درسًا وعبرة، وكل كتبي ملاحظ يطابق بدقّة نادرة نموذج كتبي حقيقي تتحدّد فعاليته بشروط المهنة الاقتصادية وظروفها، ففندان وكاڤاليه، ناشرا **نبال شارل التاسع** ينتميان إلى فئة من المضاربين تعتمد عملياتهم على عدم التناسق في البيع بالتقسيط، فطول آجال التسديد تتيح لهذين الصناعيين عديمي الوجدان مضاعفة المحاولات السيّئة الإعداد معتمدين على نجاحات محتملة لتعويض إخفاقات أكيدة. من هنا كانت سرعة الكتبيين في طباعة مؤلّف روبمبره على أمل أن يسهل لهما خاتمة الشهر، من هنا الخفة غير المعقولة التي وضعا خلالها في التداول بعض هذه السندات ذات أجل الاستحقاق البعيد التي انتهت إلى حرمان المكتبة «الروائية» في عهد الملكية الثانية من كل اعتماد مصرفي. ومن هنا أيضًا إيداع الحساب الختامي وتوقّف الكتبيين عن الدفع مما يجعل سنداتهما واجبة الأداء قبل موعد الاستحقاق لتلك السندات التي حسمت لصالح لوسيان المتضامن في وجوب التسديد.

شكّل تعدّد العمليات دون رأس مال خطرًا على التعامل بتلك السندات ذات التوقيعين المرفوضة من مصرف فرنسة مما أوجد نوعًا جديدًا من الحاسمين المختصين بحسم سندات المكتبة، هم كتبيون يحجبون حتى التقدير لسندات المؤسسات العاملة في هذا المجال، أو أنّهم مرتدّون عن الولاء للمهنة التي لم يتخلوا نهائيًّا عن ممارستها، ونظرًا لعدم وجود مصارف أو مكاتب حسم مختصّة، فإنّ هؤلاء الكتبيين الحاسمين - وجميع الشهادات متطابقة حول هذه النقطة - يحتفظون في صناديقهم باعتمادات النشر وتسويق الكتب بكاملها، وفي كل حاسم يهجع مرابٍ، وقد أدرك لوسيان ذلك على حسابه، فباربه الذي عرفه عليه لوستو يحسم بمعدل ١٥ إلى ٢٠ ٪ سندات للمؤلفين على مكتبات يعيدها إلى مرجعها بقيمتها

الأصليّة في مبادلة، لقاء كتب مرغوبة. وعندما علم أن فندان وكافاليه في وضع ميؤوس منه، فإنه لم يعرض إلا ثلاثة آلاف فرنك لقاء سندات صادرة عنهما بقيمة خمسة آلاف فرنك، ويتحوّل لوسيان من باربه إلى شابوا سو الكتبي القديم، «والمصرفي الثانوي غير أنه ميلونير»، ومن شابواسو إلى سامانون، الورّاق، وتاجر الصور الممنوعة، الدائن لقاء رهنيات الذي لم يقدّم إلا ألف وخمسمئة فرنك، وطالب بكتبٍ رهن حيازةٍ لضمان المبلغ.

باع فندان، قبل أن يفلس، بسعر بخس **نبال شارل التاسع**، وراح الهواء يتلاعب بتحفة رجل أنغوليم الكبير على رفوف عارضي أرصفة الضفة، ومنها تحوّلت ورق صرٍّ في سلال قصب الباعة المتجولّين المتوجهين إلى المقاطعات. يجب تعديل الاستثمار التجاري للأدب الذي أوصل العمل المبدع ونتاجه إلى مثل هذا الحطّ من قيمته. هذه هي إحدى العبرَ الأخلاقية المستخلصة من رواية **رجل كبير من المقاطعات**.

كانت تتحكّم بنشر الرواية شروط خاصة. وقد وضع بلزاك نصب عينيه «هذا الأدب الصغير» مصمّماً على أن يقوم بمهمة المؤرّخ في مدة يتعرّض فيها الروائيون لخداع دور النشر، مما يدفعهم أكثر فأكثر نحو الصحافة الدورية أما «الأدب الرفيع» فيمكن القول أن لا مشكلة لديه. فكتاب دارتز هو أحد أجمل مؤلّفات الأدب الحديث». والاقتناع بكلمة بلزاك يدفع إلى التخمين، في أسوأ الأحوال. أن «رواية ناتان الرائعة» تتفوق على حشد الروايات ذات المقاس $\frac{1}{12}$ كما رواية سينك - مارس(*) وليس هذا بتقدّم كبير. وصورة كانا ليس الظلّيّة المرسومة بعناية في الأوبرا، أو في مكتب دوريا في الباليه - رويال لها وظيفة زخرفيه. فهذا «الشاعر الكبير» الذي ظهر اسمه في طبعة فورن فقط له ظاهرياً بعض ملامح لامرتين، لكن

(*) - سينك - مارس Cinq - Mars هو المركيز الفرنسي الشاب دي روزه (١٦٢٠ - ١٦٤٢) الذي لم تحُل صداقته مع الملك لويس الثالث عشر دون إعدامه مع تو Thou لتآمرهما على ريشليو وقد جعل ألفريد دي فيني من هذه الحادثة التاريخية رواية شيّقة، في العام ١٨٢٦، تفوق فيها على نموذجه والترسكوت في تسيير الرواية التاريخية. (م. المترجم)

الروائي بين طبعة وأخرى، عمد إلى تغييرات في الوصف ليفصل شخصيته الروائية عن النموذج المفترض، وبالطريقة نفسها جعل مكتبة دوريا في مواجهة مكتبة لادفوغا.

لن يتمكّن الروائي الفقير من التغلب على فشله الأول برواية ثانية، إذ يتساءل لوسيان: «من أين سيعيش وهو منصرف إلى الكتابة ولا مورد له؟» وهذا التساؤل يفسّر العبور إجبارياً من الأدب إلى الكتابة للصحف، إنّه هاجس دفع بلزاك وهو رئيس جمعية العاملين في الأدب أن يؤسّس صندوقاً للإقراض على المؤلّفات. إنّه القلق الذي جعله يُقوّل لوستو هذه الكلمات ذات النبرة الشخصية: «أين، وكيف، وبأيّة وسيلة يمكن أن أؤمّن عيشي، سؤال تردّد في نفسي وأنا أحسُّ بمخالب الجوع تقترب مني، وبعد محاولات كثيرة، وبعد أن كَتَبتُ رواية مغفلة اشتراها دوغرو بمئتي فرنك، ولم تدرّ عليه الكثير، تبيّن لي أن الصحافة وحدها قادرة على إعالتي»[1]، هذا القلق عرفه بلزاك غداة إصداره رواية **الثائر الملكي**، فقد أرهقته ديون المطبعة وتحقّق أن **فيزيولوجية الزواج ومشاهد من الحياة الخاصة** لن تقدم له ما يكفي لإعالته، ورغم الزهو الباريسي، مرّت عليه سنة ١٨٣٠ بكاملها، وصحوة وجدانية مرة تنتابه: «يجب تأمين حاجات العيش اليومية، فالمكتبة الناشرة تحتضر، وليس من موارد أمامي إلا الكتابة للصحف»[2]. ومافتئ يردّد هذه العبارة فيما بعد، وقد توصل أبطال روايته، في الوضع ذاته، إلى النتيجة نفسها».

قبل العام ١٨٣٠، كان بلزاك قد أجرى على الأقل تجربتين مماثلتين، فخيبة أمله في العام ١٨٢٣ يمكن أن تفسّر محاولة **المسلسلة الأدبية** في العام ١٨٢٤، إنّما دون أن يحظى بأيام بطل روايته المتعة (وأيام بلزاك العام ١٨٣٠)، فالصحفي قد امحى، العام ١٨٢٥ طي اغفال الاسم في أدب الأسبوع الصغير لمصلحة بعض المتعهدين الفطنين. وعدم نجاح **وان كلور** في السنة نفسها أعاده إلى وضع العام ١٨٢٤، ونحن نعلم أن بلزاك لم يجد مخرجاً حقيقياً لورطته إلا بشراء مطبعة شارع

---

(١) - انظر الصفحة ١١٩ من «**رجل كير من المقاطعات في باريس**».

(٢) - هذا ماورد في رسالة له موجهة بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ١٨٣٠ إلى أ. سويو.

الماريه. فوضعه في المرحلة ١٨٢٩ - ١٨٣٠ هو الأكثر شبهًا بالأزمة التي عاشها لوسيان في ١٨٢١ - ١٨٢٢.

لنترك مؤقتًا بطل الرواية، لنعطي فكرة عن المسرح الذي يظهر عليه. بعكس تلميحات بعض التقارير المعاصرة السيئة النيّة، فإن الصحف التي تعاون معها بلزاك في العام ١٨٣٠ مختلفة جداً عن نشرة شارع سان فياكر المحدودة التي عمل فيها لوسيان. وإذا كانت **السيلويت** Silhouette أو **الكاريكاتور** Caricature تبطّن أيضًا تضمينًا سياسيًا، فإن التحرير الرئيس فيها قائم على الطرف، والنوادر، ودراسة الطبائع، والأخبار المسرحيّة لا تأخذ إلا مكانًا قليل الأهميّة، والنقد فيها استثنائي. أخيراً، فهذه الأسبوعيات «الجمالية»، وهي الأولى من نوعها، تبدو مترافقة بصُوَر حجرية.

ما أُطلق عليها على مدى القرن التاسع عشر، «صحيفة صغيرة» هي نشرة تظهر أكثر من مرة في الأسبوع، يومية غالبًا أو أنها تسعى لتكون كذلك، وتنشر على صفحتها الأولى برنامج جميع المسارح الباريسية. ومحررون غفل من التوقيع يبددون على صفحة أو اثنتين في تقارير مسرحيّة، موهبة متميّزة غالبًا. وتحليل مؤلّف مثير للسخرية ذريعة لمازحات وتقلبات رأي ممتعة. وصورة ذات مغزى أخلاقي، أو تصميم مجمل لطبائع باريسية يتجليان عن أدب أكثر إعدادًا، وتنتهي الصفحة الرابعة - ومعظم الصحف في ذلك الحين تقتصر على أربع صفحات - بخليط من الطرف، أو أصداء أروقة المسارح، أو تلميحات إلى الوقائع السياسية أو المسرحية. هكذا كانت بعض الصحف التي ظهر فيها بلزاك: **الشيطان الأعرج** (١٨٢٣ - ١٨٢٥)، **المسلسلة الأدبية** (١٨٢٣ - ١٨٢٤) وقد تعاون معها بنشاط كبير، **المنظار الصغير** (١٨٢٤ - ١٨٢٦) التي يديرها صديقه لبواتفن. ثم الصحيفة المعدّة بسرعة عند الخروج من العرض المسرحي، ومرلن الذي يمحّص مع أمين الصندوق أعمدة مقاله والفراغات فيها، والمسارِح التي يتقاسمها الرفاق، كلّ هذا ينجم عن واقع معاش. كما يوجد في ازدحام الصُوَر، والرؤى، ولُقى **أوهام ضائعة** بعض **لقطات خاطفة** تحمل طابع الشيء المشاهد غير القابل للتقليد: مكتب الصحيفة حيث يوجد ضابط سابق من الجيش الكبير يقوم بالحراسة خلف الشريط المشبّك،

والعاجز المقطوع الذراع الذي يحمل بين أسنانه سجل إدارة الطابع، ثم تلك القاعة المخصصة للمحررين حيث يوجد الأثاث الزري الموزّع بشكل عجيب وفق ثلاثة أبعاد، ذلك الأثاث الذي يذكّر الباحث بقوائم الجرد الملحقة بسجلات كُتّاب العدل، لكن لا مراء أن القطعة الأكثر إثارة للدهشة في الملف هي عدد الصحيفة الصغيرة المعدُّ في شقّة فلورين، **وثيقة حقيقية مزيّفة**، بالكاد ملخّصة ومدرجة في مجرى الرواية.

الصحف الثلاث التي أشرنا إليها، وخاصّة **المسلسلة الأدبية** هي صحف حقيقية، وهي تتميز عن بقية صحف العروض المسرحيّة الصغيرة التي تحصل غذاءها من الشتائم والنمائم، ومن هذه الصحف الصغيرة حرّاقة شارع سان - فياكر، وهنا أيضًا يلتزم بلزاك بالحذر، كالتزامنا به: «فالافتئات على شخصيات محرري الصحف الصغيرة لم يكن أبدًا هدفًا لبلزاك» وفقًا لرأي شامفلوري الذي لامه مع ذلك على صورة لمونيه(*) بمظهر بيكسيو، وكما نوّه بلزاك في مناسبات عدّة: إنّه قد تجرّأ على وصف تلك الحمأة من الفساد لأنّه لم ينغمس فيها، وهكذا لم يتوصّل النقد الأكثر عدائية أن يدين الكاتب أو يجد مأخذًا عليه من خلال كتابه.

في الوقت الحاضر تتخذ بعض وكالات الدعاية من إحدى المجلات الأسبوعية الناشرة للفضائح واجهة تحتجب خلفها، ومثل هذه الأداة المتخصصة تسرق الحياة الخاصة للفنانين أو تغتصبها أو تشتريها بكل بساطة. لكن صحف المسارح والملاهي التي كانت تعطي كل صباح نسبة الغش في وثبة الباليه المتصالبة أو غمزة عين في السهرة لم تعُد موجودة. يصعب علينا أن نتصوّر تكاثر تلك الصحف الصغيرة، السريعة الزوال غالبًا، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر وما بعده، تلك الصحف التي كانت تحوّل إلى نقد، وهي في حصانة تامة تقريبًا، التلاعب بسيرة الفنانين المهنية وسمعتهم، وتتناول أحيانًا الكتّاب. وهكذا يشرح لاكروا (في العام ١٨٨٢) نجاح فيغارو ١٨٢٦ حيث كان يلعب بالمشرط وفق أوامر «المعلّم المعذّب» لبواتفن: «جميع ممثلي باريس وممثلاتها كانوا ملزمين في أن يدفعوا

(*) مونيه، هنري H. Monnier (١٧٩٩ - ١٨٧٧) رسام كاريكاتوري وكاتب. اشتهر برسوم كاريكاتورية للأشخاص.

له إتاوة، أي أن يشتركوا[1]» غير أن فيغارو كانت تتبع عُرفًا تقليديًا قديمًا. الاشتراك الإلزامي أو الحرب، هذا هو الخيار الذي عُرض على مانويل غارسيا الشهير (والد ماليبران(*)) في العام ١٨٢٢ من قبل صحيفة **بريد العروض المسرحية**، وتعرض غارسيا عند رفضه إلى حملة من النمائم، وقد اعترض في ٢٩ حزيران في صحيفة المناقشات Débats ضد هذه الممارسات المخجلة التي تتبعها صحيفة صغيرة قائلاً «بلى، يمكن أن نطلق اسم صحيفة على نشرة من هذا النوع». من لا يستطيع أن يدفع نقداً يسدّد عيناً، فالراقصة تدفع من مفاتن جسمها. وألبوم ماغالون (الصادر في أول أيار ١٨٢٢) يكاد لا يغالي بذكر **تعرفة الصُحُف**: «للثناء على ممثلة مأساوية صِفْرٍ استهجاناً لأدائها: سلطانية(**) من فضة، وللإشادة بمغن سيء الصوت شاذ اللحن: ساعة نواس جدارية... ولمدح مبتدئين، يُكتفى بصندوق من خمور بوردو، وسلّة من زجاجات شمبانية... أما المبتدئات فلديهن الوسيلة للتخلص من المآزق بلا إنفاق مالي». وقد رأينا ما يفكر به جيراردن(***) (١٨٣٤)، وهو مرتكب أكثر من معصية يحاسب عليها وجدانه كصحافي، بخصوص فضائح الصحف الصغيرة، ومنها **أخضر - أخضر**، **وفترة استراحة** Entr'acte اللتان شنتا في العام ١٨٣٦ حملة ضد إعادة طبع دار نشر سوفرن **لمؤلفات** سان أوبن، مثلها مثل فيغارو (١٨٣٩) التي تناولت رواية **رجل كبير من المقاطعات** بالنقد اللاذع، والصحف الثلاث تنتمي إلى الفئة المكروهة. بعد ذلك بنحو عشرين عاماً أجرى أحد المتعاونين مع صحيفة **الشيطان الأعرج** دراسة حول هذا النوع من الصحافة الذي مايزال مستمراً في نشاطه، وهو في تحليله يؤكّد بشكل متميّز الصورة التي أعطاها بلزاك عن هذه النشرات المرتشية العاملة في عهد الملكية الثانية.

---

(١) - لاكروا، پول (١٨٠٧، ١٨٨٤) «التاريخ المتواضع لعلاقاتي الأدبية مع أونوره دي بلزاك». الكتاب ١٨٨٢.

(*) - ماليبران (١٨٠٨ - ١٨٣٦) مغنية اسبانية شهيرة ولُدت وعملت في باريس.

(**) - سلطانية Soupiére: (عامية) وعاء كبير يقدّم فيه الحساء على المائدة.

(***) - جيراردن، إميل (١٨٠٦ - ١٨٨١) مؤسس عدة صحف فرنسية سياسية وأدبية أهمها لابرس La Presse. (م. المترجم)

تشكّل كلٌّ من صُحُف المسرح الصغيرة مصدر رزق لنحو عشرة أشخاص، مدير عام، ورئيس تحرير، وسكرتير، ومجموعة من المحررين والمعاونين، وهي توزع نحو ثلاثمئة نسخة، وقيمة الاشتراك أو البيع تعادل عشرة أضعاف ثمن التكلفة، وعلى كل ممثّل يريد تجنّب النقد اللاذع أن يشترك.

يحصل كل ممثل مشترك على ثلاثة أسطر مديح لقاء اشتراك ثلاثة أشهر. وعليه أن يدفع لقاء كل مديح اضافي فرنكًا أو فرنكين للسطر الواحد، أما الشتائم فهي مجانيّة وخاصة عندما تكال للفنانين غير المشتركين. ويعد مدراء المسارح والمؤلفون المسرحيون دعاياتهم بأنفسهم، وتعاد صياغة تلك الدعاية من قبل المحرّر الموقّع، ويُدفع عنها وفق تسعيرة السطر، وهكذا فكلّ عدد من صحيفة المسرح الصغيرة يتضمن نحو ألف ومئتي سطر يُدّر على الأقل دخلاً مقداره ألف أو ألف ومئتا فرنك.

لنقارن هذه العملية الحسابية الباردة مع المجاملات المرائية الصادرة عن جانين: «الصحيفة الصغيرة، تلك الوخزة، وذلك العيد، في كل يوم، هي أحد رفاق حرية الصحافة. تضحك وهي تخز، وتخز وهي تضحك. تجدُ وهي تتسلّى، الجانب المثير للضحك لدى الأشخاص الأكثر رصانة، والأشياء الأكثر جدّية... أنّها في الأيدي المخلصة سلاح جذّاب[1]».

كان بإمكان بلزاك بتوجيه ضرباته نحو **فيغارو** أو **القرصان** أن ينتقم من حملات نقد سابقة، وما عليه إلا أن يختار - لكن المخطوطة تكشف عن اختياره الإستيحاء من **بريد المسارح** (وهو الاسم الذي اتخذته صحيفة المسارح ابتداءاً من العام ١٨٢٣)، ويبدو شخصيّاً أنه لم يكن على خلاف معها، لكن هذه الصحيفة الصغيرة كانت تثير سخط المعاصرين بأعمالها المخجلة خلال المدة التي حددها بلزاك لمجرى أحداث روايته، عدا عن ذلك فإن هوراس ريسون وديبانيي المساعدين في صحيفة **المرشد**، صديقي بلزاك تناولا في العام ١٨٢٢ قابلية الرشوة في الصحافة

(١) - جانين، جول (١٨٠٤ - ١٨٧٤) تاريخ الأدب المسرحي، ١٨٥٧ الجزء الخامس. ص: ٦٨.

الصغيرة، وكتبا أنّ دزوجيه مدير مسرح الڤودڤيل كان يسدّد كلمات الثناء عليه في احدى الصحف باشتراكات فيها. وكانت الصحيفة المعنية، على الأرجح هي **صحيفة المسارح** التي روت الواقعة في ٨ تشرين أول (بعض الشك ما يزال قائمًا، فعددَ **المرشد** لم يُحفظ). الأمر الرئيس أنّ بلزاك يورد أو يبتكر وقائع مماثلة لتلك التي يندّد بها غارسيا، وديبانيي، وريسون، ونذكر خاصة المشهد الذي يهدد فيه فينو بتدمير راقصتين من الأوبرا إذا لم يسجّل مديرها لديه مئة اشتراك.

مَالُ **الأدب الصغير** الذي يتحدّث عنه مونتينيي هو إذن **الصحافة الصغيرة**. لكن الفارق بين الصحيفة «الكبيرة» والصحيفة «الصغيرة» ليس بمثل الهوّة بين مؤلف قياس الاثني عشر وآخر قياس الثمن، وبين مجهول نشرة العرض المسرحي الصغيرة والصحيفة الأسبوعية، أو الصحيفة «الأدبية» واليومية السياسية أو صحيفة اليمين وصحيفة اليسار، يستمر تلازمُ طموحات أولئك الذين تناولوا عشاءهم باثنين وعشرين فلسًا لدى فليكوتو. مرلن يعيش على حساب الصحيفة الصغيرة الليبرالية، ومن أداة ناطقة باسم يمين الوسط، وفينو يأخذ حصة في مشروع كبير لتأسيس صحيفة أسبوعية متأمّلاً أن يعيد بيعها للبلاط الملكي ويصرّح: «ربّما سأغدو مواليًا للوزارة أو متطرفًا ملكيًّا، فأنا لا أعلم حتى الآن، لكنني أريد أن احتفظ بعلاقاتي الليبرالية لحين الحاجة[1]». ولوستو يبيع قلمه ونفسه للأكثر سخاءً بانتظار أن يستقر في مسلسلة الصحيفة اليومية التي ترغب به. وناتان في الصباح يعمل وفقًا لآراء صحيفة **لاغازيت**، أما في المساء فهو حرّ في أن يفكر كما يشاء، وفقًا لقوله. هذا الجمهور المأجور والفكه يتآخى بين كواليس المسارح، فليس لديه ما يضيعه إلا الشرف، وهكذا فإصدار صحيفة جديدة يُعَدُّ دائمًا مناسبة لمزايدات تنافسية. هذه العملية المألوفة لدى قرّاء **جلد الحب**[*] **وأوهام ضائعة**، وصفت بهذه التعابير في صحيفة **القرصان** (٦ أيلول ١٨٢٩) التي ذكرت أنّها تعيد نشر رسالة من صحيفة **الأونيفرسل** Universel.

(١) - انظر الرواية الثانية «رجل كبير من المقاطعات في باريس» (ص ١٧٠).

(*) - من روايات بلزاك المترجمة والمنشورة لدى وزارة الثقافة السورية العام ١٩٩٤.

عندما يُراد إصدار صحيفة أدبيّة في زمننا، يدعى أولاً إلى مأدبة عشاء عامرة في مقهى باريس، تضمُّ اشخاصًا لطفاء ومشهورين، وهذا ليس بالأمر الصعب: فهم كثر وموزعون في زوايا الشوارع كلّها، ويدعى إلى هذه المأدبة أيضًا الصحفيون... إضافة إلى عُشّاق بعض الممثلات، ومصرفيون أو اثنان، وبعض الممثلين الهزليين، وأخيرًا بعض رجال الأدب... من أولئك الذين عرفوا بالطيبة واستعدادهم لتنفيذ كل أمر، وممن يسهل عليهم الانتقال من الأبيض إلى الأسود ومن صحيفة الراية البيضاء إلى صحيفة مينرڤا، ممن يمارسون الأدب أو السياسة حسب الرغبة. هم حُمرٌ أو زرق وفق الظروف ووضع آخر الشهر... يجب أن يكون العشاء شهيّاً والشمبانية غزيرة، ومتنوعة دون رابط، فالمهارة في هذه الحقبة من الزمن وذلك النوع من العمل شَرِهةٌ بقدر كثرة كلامها، وأنتم تعلمون أن الواجب يتطلب الأكل والكلام وفق مقتضيات العصر.

وفينو يأكل ويتكلم ويفكّر وفق مقتضيات العصر، ولا مبرّر لاتهام بلزاك بأنه لطخّ هذه اللوحة بالسواد، و«هو هدف لجميع الصحافة الفرنسية تقريبًا، من الصحف الكبيرة حتى النشرات الصغيرة... وكان باستمرار تحت رحمة محكمة عامة» وبيّن وهو مدير **وقائع باريس**(*) أن عدم الانسجام الايديولوجي لم يمنع التواطؤات الأكثر حقارة. ولوحة **رجل كبير من المقاطعات** - على الأقل بالنظر إليها من جهة الصحفيين... تظهر لنا مستوحاة من ذكريات الملكية الثانية لا من تجربة صحيفة **الوقائع** وهي ما تزال قليلة الخبرة.

والنظام قبل العام ١٨٣٠ نحّى الشبيبة جانبًا. وفي الصحافة، كانت البلاغة في خدمة أنصار مارتنفيل(*) ومؤيدي بنجامن كونستان(**)، واستراتجية الزُمر،

(*) - وقائع باريس صحيفة أسسها بلزاك العام ١٨٣٦ لكنها لم تدم طويلا. (المترجم)

والجدل حول المدرسة الجديدة يقومون غالباً مقام المجابهات السياسية. وبعيداً عن المؤمرات اليائسة وفشلها الدامي، كانت المعارك الأدبية في الصُحُف تنتهي عندئذ حول مائدة باحتجاجات ارتيابية مرحة تقريبًا، رغم قدرتها الكبيرة على تثبيط العزائم.

على مأدبة العشاء لدى فلورين، رأى لوسيان تجمع صحفيين مختلفي الآراء والمذاهب: لوستو (المتعاون مع المرآة، وفق المخطوطة)، وفينو دعامة **الدستوري**، وبلوندة المبتدئ الموهوب في صحيفة **المناقشات**؛ وناتان نسيّ **جريدة فرنسة**، يسكر مع فرنو «طاهي مسلسلة» يومية ليبرالية (الساعي Le Courrier حسب المخطوطة) بينما فينيون يخطب بإسهاب حول واجبات الناقد وهو يحتسي خمر الصحيفة. ولئن كان مرلن الماكر المتهيىء لإطلاق صحيفته الصغيرة الملكية غائبًا عن الحفلة نتيجة حرَد عابر، فسيلتحق بالمجموعة بعد عدة أيام عند إقامة لوسيان مأدبة مماثلة على شرف فلورين ولوستو. وقد أكّدت مثل هذه الأوصاف بشهادات كثيرة مثل هذه الشهادة الواردة في صحيفة المرشد (١١ كانون الثاني ١٨٢٢) التي يحتمل وقوعها تحت ناظري بلزاك أثناء إعداد روايته:

إلى السيد محرّر المرشد

السيد المحرّر، إليك هذا الخبر الكبير! مأدبة غداء – من هم المدعوون؟ – أذكر لك ما يمثلون... صحيفة المرآة إلى جانب الصاعقة، واليومية تصافح الدستوري، والجريدة تستنير الساعي! – مزاحٌ صرف، أم كذبة أول نيسان سابقة لأوانها؟ – أؤكد لك أن الخبر صادق، وإذا أضفت أن جان سبوغر يعانق بحرارة مؤلف الصهرين، فماذا ستقول؟

(*) مارتنفيل، ألفونس (١٧٧٦ – ١٨٣٠) أديب وصحفي فرنسي مضاد للثورة والليبرالية، صاحب صحيفة «الراية البيضاء». (المترجم)

(**) – بنجامن كونستان: (١٧٦٧ – ١٨٣٠) أديب وسياسي فرنسي. من المتنفذين في الجزء الليبرالي، وموجه صحيفة «مينرفا».

- أقول إننا مجانين عندما نتخاصم من أجل الآراء.

كان طبع لوسيان الضعيف الإرادة، وهو غارق في لدوآمة، مناسبًا ليعكس توترات الصحافة وتناقضاتها، وهو دون انقطاع معرض للإغراءات، ومحرج أمام الاختيارات والخيانات. ما من وضع في حياته إلا ويتطرق إلى عمل الصحيفة أو يسلّط عليه الضوء، وهذه الآليات كما وصفت، والتي تساهم في زخم دسيسة، يتجدّد انبعاثها في دراسة الطبائع، تظهر أيضًا كأنها تفسير لظاهرة تاريخية.

جدّد دوريا شراء مجلة أسبوعية بخمسين ألف فرنك، وباع سريعًا ثلثيها بستين ألف فرنك لفينو، ولصاحب المطبعة، ولتاجر الورق. كانت حصيلة العملية ربح عشرة آلاف فرنك والثلث هذا الجزء المجاني للنَهِم الشهير، وباع فينو من جهته بثلاثين ألف فرنك لماتيفا نصف الثلث الذي اشتراه، وتوقّع لوستو، الموعود برئاسة تحرير الصحيفة الصغيرة أن يحصل على ربع أرباح لوسيان، الذي سينتمي إلى هولاء الأشخاص، واستمر دوريا، الذي لم يفتح مخطوطة ديوان **أزهار المرغريت** في رفض نشرها! لكن أي تعهد معنوي وجد لوسيان أنه مقدم عليه عند دخوله شارع سان فياكر؟ «أفضّل الموت على أن أكون منهم» قال للوستو، الذي أجابه «بل فَضِّل الحياة»[1] وفضَّل الحياة. ومن أجل أن ينتقم من دوريا، انتقد دون توقيع رواية ناتان في صحيفة ڤرنو الليبرالية وكي لا يفقد ناتان أعدّ تقريظًا للرواية نفسها (مهره بالحرف الأول من اسمه) ووجهّه إلى قرّاء صحيفة مرلن الملكية، وانتهى بإعداد مقال بتوقيعه راعى فيه بإسهاب أكاديمي النقد والتقريظ ونشره في مجلة دوريا الأسبوعية. لم تكن هذه إلا البداية إذ اعتقد، وهو المتلهف لحمل اسم دي روبمبره شرعًا أن بإمكانه التعجيل بانبعاثه النبيل بارتباطه علنًا بصحيفة الحزب الملكي المتطرف **اليقظة** التي يديرها مرلن، وأثار تبديله لمعسكره فضيحة وكلّفه خيانة جديدة، أُجبر على توجيه نقد لاذع لمؤلّف دارتز «صديقه الأول ونشره في الصحافة الملكية. لكن العقد مع الصحيفة الصغيرة مايزال يهرب من أمامه: فحقد الصحفيين

(١) - انظر صفحة ١٦٩ من الرواية الثانية: رجل كبير من المقاطعات.

وتواطؤهم الحقود قلّب قصور ورق رجل أنغوليم الكبير، الذي غدا كبش فداء الحزبين.

هل يمكن أن نتعرف في هذه القصة النموذجية على أثار حقيقة موحية؟

تعرّضت المخطوطة لبعض المعالم: فقد عُنونت الصحيفة الصغيرة في البدء، كما رأينا، **بريد المسارح**، أمّا المجلة الأسبوعية فهي **عطارد فرنسة** Mercure de France ويبدو مساهمو صحيفة **الدستوري** لدى دوريا مشتركين في إطلاق المجلة التي يجب أن تعارض صحيفة **مينرفا** الليبرالية «التي تقدّم خدمات لإيمري خاصة» وهو منافس لدوريا، كمعارضتها **المحافظ الأدبي** Conservateur Litteraire الملكيّة التي يدعمها فيكتور هوغو. بيد أن **المسلسلة الأدبية** الليبرالية المستقلة سخرت، في العام ١٨٢٣ من إصدار **عطارد القرن التاسع عشر** حيث يوجد تيسو وجُوي وجميع أركان زمرة المعفّرين في صحيفة البقالين. صحيح أن **مينرفا** و**المحافظ الأدبي** قد احتجبتا في ذلك التاريخ... ولا توجد أيّة رابطة على ما يبدو بين **بريد المسارح** التي يديرها شارل موريس «الأكثر خسّة في رهط الهجائين» وبين **عطارد** الرزينة الكئيبة. أما **اليقظة** التي يذكر بلزاك أنها صدرت في آذار ١٨٢٢ فهي صحيفة صغيرة ملكية تحمل هذا الاسم وقد ظهرت في الواقع مطلع آب ١٨٢٢ واستمرت حتى آذار ١٨٢٣.

يُعَدُّ جول جانين[1] الملقب جانوس «النموذج البديل» هنا للوسيان، ويوجّه المعاصرون اللوم لهذا «الكاتب المتعطّر بماء الورد، المتأنّق بالمطرزات البرّاقة» على بداية تدريبه في صحيفة موريس، «فتلك النشرة الهزيلة المجهولة، وفقًا لما كتبه ج. ن. باربا (بوساطة قلم رسون)، التي بقيت عشرين عامًا لا توزّع أكثر من خمسين نسخة، فتحت له أعمدة صفحاتها المسطحة التي بدأ منها محاولة تلك الثروات المزركشة التي جمعها من كل الأنحاء... كان هذا منذ نحو اثني عشر

(١) - جانين، جول (١٨٠٤ - ١٨٧٤) أحد القوى الأدبية والصحفية في القرن التاسع عشر له كتابات نقدية أدبية كثيرة.

عاماً، وبعدها لم يفعل شيئًا سوى نقل ساكتة عباراته المصطدمة بمطبعة **بريد المسارح** إلى مطبعة **اليومية**، ومنها إلى **فيغارو**، ثم إلى بؤرة شارع الكهنة، وأخيراً إلى حيث تدور ماكنته الآن (١٨٣٦) لمجد **صحيفة المناقشات**. لكن لاشيء أكثر شيوعًا لدى صحفيي **رجل كبير** من اللعب على الحبلين، أو تغيير المعسكر والجبهة، أو الكرّ والفرّ: فينو، ومرلن، ولوستو، وڤرنو، وناتان، كل منهم يغدر، قليلاً أو كثيراً، مثل غدر شاترتون، وجانين، فبلزاك لم يخترع صنف الصحفي المتغيّر الرأي، وما عليه إلا أن يختار من بين محترفي الجحود. هكذا أمكن للسيد باراك أن يلاحظ على سبيل المثال التماثلات المدهشة بين تقلبات لوسيان وتلك التي انضمّ فيها أوغوست بارتلمي إلى مدّاحي لويس - فيليب مما عُدَّ فضيحةً. لكن من الحكمة أن نستنتج مع السيد كورنو الذي يعود إليه فضل هذا الاكتشاف أنَّ مؤلّف نميزيس قد يعبّر قليلاً عن روبمبره. لكن روبمبره «يسلّط الضوء على جميع أمثال بارتلمي في تلك الحقبة من الزمن»[١].

بالرغم من أن شخصية لوسيان، الممغنط بقَدَره، متخلفة عن الانتصارات البورجوازية التي حققها «جانين، أمير النقد»، فإن التشبيه المتعمد لوسيان - جانين يبقى ظاهراً في بعض النقاط، ووفقًا لما ذكره فليكس پيا[٢] مخبر بلزاك، لم يكتف جانين بهجر **بريد المسارح**، «هذا الغار الذي تغذّى منه ولا يتمكن فيه الممثلون الفقراء من أن يفتدوا جلودهم لينجوا من سهامه». لكنه حارب في المعسكرين في الوقت نفسه مثل لوسيان ومن هنا التشابه مع حدَث ناتان المتميّز بحق فقد «وجد الوسيلة للبقاء أيضًا في حزب ثالث بين الطرفين المتنازعين. كان يدخل، دائماً وفي ذات الوقت إلى **رسول المجلسين** صحيفة وزارة مارتينياك الهجينة». كم من مرّة، بعد العام ١٨٣٠، «وقَّع المديح في صحيفته، وموّه الهجوم في غيرها». هذا

---

(١) - عن «لوسيان ونماذجه»، الآداب الفرنسية ٢٧ أيلول ١٩٥٦. (وأوغوست بارتلمي (١٧٩٦ - ١٨٦٧) شاعر غيزيس صحيفة النقد اللاذع الساخرة).

(٢) - في مقال «شينيه وأمير النقد، مجلة الإصلاح ٤ كانون ثاني ١٨٤٤».

الكشف المترافق ببعض الشتائم كلف فليكس پيّا (في العام ١٨٤٤) حكمًا بغرامة ألف فرنك وسجن ستة أشهر. وبعد ثلاث سنوات سببّت مقالة للبواتڤن دي لفرڤيل المدير السابق لجانين في **الفيغارو** نشرها في **القرصان - الشيطان** (٢١ شباط ١٨٤٧) غرامة ألف وخمسمئة فرنك وسجن ثمانية أشهر لأنه لمّح في مقالته إلى أن زوجة جانين ضبطت وهي بين ذراعي أحد المغنين وقد أثارت هذه القضية المثيرة للسخرية في الصحافة (التي تعرف سوابق الضحيّة) لغطًا كبيراً، وهي تؤكد، بعد فوات الأوان، احتمال حملة «الصحيفة الصغيرة» ضد شاتليه والسيدة دي بارجتون.

كان فليكس پيا وأوغوست لوشه صديقين لجانين ولهما تظاهرات كثيرة عن عرفانهما لجميله، وقد مثلت لهما بتاريخ ٢٩ حزيران ١٨٣٥ في الأمبيغو - كوميك مسرحية بعنوان **آنغو**، وجّه لها جانين نقداً لاذعًا في صحيفة **المناقشات** في ٦ تموز، وأصدر المؤلّفان المتألّمان مسرحيتهما مسبوقة **بتوضيح**. ومنه عرف ما يلي: وعد الناقد بأن يهتم بمحاولتهما، بل إنّه دعا أصدقاءه لتصحيح مقاله اليومي. في الرواية يصحّح دارتز بنفسه التقرير الذي سيوجّه لوسيان له فيه ضربة عبر صحيفة المتطرفين. لذلك ليس ما يحول من أن نرى في هذا المشهد ذكرى مشوّهة عن الحدث الحقيقي. وإذا كنا لا نقتدي بيواكيم مرلان عندما يقرن أبطال الحكايتين فإننا نرى بالمقابل أن الأسباب التي ينسبها مؤلّفا **آنغو** لجانين تشبه كثيراً دوافع لوسيان. **فآنغو** مسرحية جمهورية تحرّض بورجوازي من دييپ على الملك فرنسوا الأول، ومن الصعب الدفاع عنها في صحيفة برتَن المتحالفة مع النظام الجديد، وقد صرح أصدقاؤه القدامى: «لم يعد لجول جانين استقلاله البدائي الرفيع، فقد سقط وهو يشعر بذلك، وهو مضطر لينهض إلى التضحية بصداقاته الأدبيّة للمتطلبات السياسية، وبتعاطفاته الشخصية من أجل وضعه الذي غدا أكثر فأكثر صعوبة في الصحيفة الملكية».

لنترك الاحتمالات إلى ما هو في حكم اليقين، فجانين في مسلسله عن **زنجي** أوزانو قد دشّن **طريقة** اندفاعية وملوّنة، كتب عنها باري دورڤيلي في وصفه الرائع:

«تتباين مثل قوس قزح برّاق متهلّل مع الطريقة القويمة والقاسية لأتباع جيوفروا[(١)]» وجانين يستعيد طريقته[(٢)]، وغوتيه يؤكّد أقواله[(٣)]. أي إحساس تثيره هذه التظاهرة الفنيّة والشعرية في أعمدة **صحيفة المناقشات** الصارمة. إنه عالم الصحيفة الصغيرة يثير مقال لوسيان. لكن التشابهات التحليلية بين التقرير المتصوّر عن القاضي ومقال جانين عن **جلد الحبب** في صحيفة الفنان (٤ آب ١٨٣١) تبرهن بشكل لا يقبل الجدل أن تقرير لوسيان معارضة لجانين[(*)] وستتوفر لنا فرصة التحقق من ذلك.

صرح بلزاك للغريبة، في رسالة له بتاريخ ٢٣ نيسان ١٨٤٣، أنّه لم يصوّر شخصًا في رواياته، «باستثناء بلانش[(**)] في كلود ڤينيون... وجورج صاند في كميل موپن» ويبدو بوضوح تلميحه إلى بياتريس. ووفقًا لما ذكره موريس رِغار فإن مقارنات ڤينيون المبتذلة في **أوهام ضائعة**، وبلاغته المصدومة ومرارة النقد، دون شك، تحمل طابع النموذج، وهذه المرارة وتلك البلاغة تميّزان أيضًا لوستو وأكثر من عبارة لدى ڤينيون يمكن أن توقّع من قبل بلزاك أو جيراردن[(٤)]. ونحن نتردد كثيراً في **المطابقة** بين الشخصين. وليبرئ بلزاك نفسه من وصف ليست في صورة كونتي، أكّد مرة أخرى للسيدة هانسكا في ١٥ أيار ١٨٤٣ دون خشية تكذيبه أن «كونتي هو صاندو متصورًا كموسيقي، كما أن لوستو هو أيضًا صاندو»، وقد كلّف نفسه بتدريب لوسيان على حياة الجحيم الباريسي. لوستو الناطق باسم جيل كامل مضحّى به كائن فاسد بالتأكيد، لكنه متألّم وأخوي. هذا المغضوب عليه يبدو في

---

(١) - باري دورفيلي (١٨٠٨ - ١٨٨٩) في كتابه: القضاة المدانون أو النقاد. وجيوفروا (١٧٤٧ - ١٨١٤) ناقد ناقم متحمس ملكي، عدو لفولتير.

(٢) - في كتابه «تاريخ الأدب المسرحي»، ١٨٥٣.

(٣) - تيوفيل غوتيه (١٨١١ - ١٨٧٢): في كتاب **صور معاصرة** (١٨٧٤ بعد الوفاة).

(*) - المعارضة Pastiche: هي المحاكاة أو المقابلة بالمثل: مثال معارضة شوقي في قصيدة «نهج البردة» لبُردة «البوصيري». (المترجم)

(**) بلانش، غوستاف (١٨٠٨ - ١٨٥٧) ناقد فرنسي من الندوة الرومانسية.

(٤) انظر الملاحظة (٣) في الصفحة ٢٠٣ والملاحظة (٢) في الصفحة ٢٠٦ من الرواية الثانية: رجل كبير من المقاطعات في باريس.

غسق حديقة اللوكسمبورغ الغائم، للوسيان وللقارئ، في مشهد مفعَم بالتذكارات الدانتية(*) شخصية توحي بالمهابة حقًا (يمكن أن يُنسى أمامها متظارف رواية **ربة وحي المقاطعة**» لكن هل يمكن لمحمي شارع كاسيني السيء الحظّ «صاندو» أن يكون نموذجًا له؟ نتحدى أيًّا كان أن يجد في رواية **رجل كبير من المقاطعات** أدنى شبه معبّر، **مميز** بين صاندو ولوستو. وذُكِر بهذا الخصوص شبهه بلاتوش[1]، وهو أديب فاشل من الطراز الأول. لكن بالعودة إلى الرواية يلاحظ أن لاتوش لعب دوراً معاكسًا تقريبًا لدور لوستو بالنسبة للوسيان. هل يتكلم لاتوش كما يكتب لأصدقائه؟ في هذه الحال لاتذكّر قريحة لوستو الغامضة مطلقًا بالعبارة الموجزة والحاسمة لهذا المراسل البارع. والمعاصرون يتعرفون في لوستو - **المذكور في ربة وحي المقاطعة** - تقمصًا آخر لجانين (طرفة إعلان الولادة) لكننا لانميّزه هنا. وخلال الطباعة، فقد لوستو نهائيًّا اسمه الأول إميل ليغدو إتيين. وإتيين بيكه صحفي في صحيفة **المناقشات** توفي في العام ١٨٣٨ لأن جانين انتزع منه خليلته، «مغنية مسكينة كانت تُسعد بيكه» مثلما انتزع ناتان فلورين من لوستو. وجاء بيكه المسكين إلى بلزاك في يوم من العام ١٨٣٣ يبكي في منزله ويذرف الدموع الأولى في حياته (كما ذكر بلزاك في رسالة للسيد هانسكا)، وقد يكون وصف لوستو باكيًا ذكرى ذلك المشهد، غير أن لوستو هو غير بيكه.

أن يعطى لورين الإبن اسم بلونده يُعَدّ سببًا كافيًا تقريبًا كي لا يكون بلونده الوريث، وقد كان أحد زملاء بلزاك في **المسلسلة الأدبية** يُسمى ڤينيون، كما أن أحد طبّاعيه، في شارع الماريّه اسمه لوستو، وجيرودو مكانيكي، كان يصلح له طابعاته الستانهوب، ولا علاقة لهؤلاء بشخصيات الرواية التي تحمل الأسماء نفسها لكنهم يؤكّدون احترام الكاتب التقليدي للأسماء المختبرةفي الحياة. ڤرنو رجل «غريب الأطوار» ومرلن مماثل له. وتتملكنا الرغبة في الكشف عن نماذج هؤلاء الأشخاص الذين تبهرنا حقيقتهم. فرنو يستحق الهجوم الرهيب الذي استهدف لويس ريبو في

(*) - نسبة إلى دانتي أليغيري (١٢٦٥ - ١٣٢١) الشاعر الإيطالي مؤلّف الملهاة الإلهية.

(١) - لاتوش هياسينت (١٧٨٥ - ١٨٥١) أديب يذكر بهجائه للمنتديات الرومانسية.

المجلة الباريسية، مجلة بلزاك بتاريخ ٢٠ آب ١٨٤٠ لأنه تجرأ في الحكم على فوريه مع استمراره في التخبط في بؤرة **القرصان** الأدبية الفاسدة، ولكن أين نجد بين ڤرنو وريبو ذلك التشابه المقنع الذي يخرجنا من مجال الفرضية؟ « لا يوجد أيّ مفتاح مضمون لفتح مغاليق أسرار بلزاك، كما كتب ر. ريكات، فنماذجه تهيّء له موضوع إثارة، وأربع أو خمس ملاحظات تولّد لديه فكرة تتعلق بالطبع أو السيرة الذاتية لكن الإبداع الأدبي لا ينحصر أبداً بالوجود الحقيقي الذي يلهمه».

إن القارئ، غير المحصّن ضد الوهم الواقعي، يقبل بصعوبة اختلاق بلزاك لشخصية، ثم دفعنا إلى الاقتناع بوجودها، وهذه العثرة استوقفتنا مرات كثيرة خلال هذه الدراسة. ونحن لا نفتأ نجرّب على أبطاله الأحياء أقنعة الموتى، فمن سيشفينا من هذه النقيصة التي لا تلقى القصاص؟ النقد البلزاكي على الأرجح. . . إذ أنّ أفضل عارفي بلزاك والأدب الإبداعي، والقرّاء المتتبعين له الذين خصّوه بتدوين عشرات الصفحات - مما يعني الانصراف إلى قراءته مئات الساعات لم يتمكنوا، على سبيل المثال، من إيجاد نموذج لناتان، أو إيجاد نماذج كثيرة له، مما يؤدّي إلى النتيجة ذاتها. أليس صعود ناتان ومقاومته لهذه الهجمات برهانًا علميًّا على الوحدة الصلبة لهذه الشخصية؟ من ناحية الهيئة الطبيعية، أظهر بلزاك، في العام ١٨٣٩، ناتان، بذات الوقت، في العشرين من العمر، في رواية **أوهام ضائعة**، وفي الخامسة والثلاثين في رواية **ابنة حواء**، وهو يبدي بعض قسمات لوران جان، وبلانش ولاسايي(*). وصاغ الروائي لهذا الدون جوان غراميات امتزجت فيها الحياة العاطفية لغوتيه وجانين ودوماس وروسيني ولا سايي وليست. . . وجُرّب عليه على التتابع، وأحيانًا في وقت واحد رأس، أو طبع، أو عمل غوزلان، لاتوش، سو، هوغو، ستندال، سانت - بوف، نوديه، بارتلمي، روكبلان(*). فلنضرب صفحًا عن ذلك. «فالجواب الوحيد خدّاع» كما يلاحظ

(*) - ثلاثة صحفيين بأعمار متقاربة من العاملين في النقد والصحافة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. (م. المترجم)

برتيه في مقال شيق[1] فرز فيه بجلاء هذه الأقنعة، وسلّط الضوء على المركّبة السيرية الذاتية، والمدى الرمزي للشخصية. «والجواب المتعدّد سيكون أكثر خداعًا». وناتان كما أعدنا صياغته لم يَعُد شخصية مركبة (أو مزيجًا) بل غدا بدعة، هذرًا أسطورية. لكن بقي لحسن الحظّ ذلك الوجه الذي لا ينسى في جبِلّة الرسوم الذاتيّة العظيمة المتجلية في لوحات دلاكروا[2]، وهي التي توجّه لنا السؤال.

سلسلة ثالثة من الوقائع تستحق التحليل: فإلى جانب المكتبة «الروائية» كما يسميها بيغورو، و «الصحافة الصغيرة»، تحتل «المسارح الصغيرة» هنا مكان هام. ونحن قليلو الاطلاع على مصادر معلومات بلزاك، إذ أننا نشك وهو المقرون إلى عربة هوبر وپوله، والموقِّع على رواياته بالاسم المستعار سان - أوبن في أن يكون قد ارتاد كثيراً كواليس المسارح في العام ١٨٢٢، وربّما كتب في العام ١٨٢٣ في إحدى الصحف الصغيرة عن برامج المسارح الصغيرة، ومن المؤكّد تقريباً أنه أعدّ في العام ١٨٢٤ قسمًا من التقارير المسرحية في **المسلسلة الأدبية**، وعلى كل حال فقد ارتاد مسرح البانوراما - دراماتيك قبل تموز ١٨٢٣ فدقّة التفاصيل التي يعطيها عن برترام، وتلميحاته عن صعوبات المسرح الجديد الذي اضطر إلى إغلاق أبوابه في تموز ١٨٢٣ تعود إلى معلومات شخصية أكّدها ل. هنري لكونت، مؤرخ البانوراما، ومع مصادفة محادثاته مع لاتوش في العام ١٨٢٩، ومع نوديه فيما بعد أمكن لبلزاك أن يجدّد ذكرياته: فصديقاه ينتميان إلى «الإدارة الأدبية» لتلك القاعة السريعة الزوال. أخيراً هل كنا نعلم أن سناريو **العفريت العاشق** وهي مسرحية جنٍّ مُثّلت في البانوراما بتاريخ ٢٣ أيار ١٨٢٤، وقد عرفنا بها عن طريق تقارير الصحف، قد استخدمت على الأرجح أساسًا **للجنية الأخيرة**.

(*) - مجموعة أدباء فرنسيين في ذلك العصر. (المترجم)

(١) - ب. برتيه: «ناتان وبلزاك والملهاة الإنسانية» السنة البلزاكية ١٩٧١.

(٢) - دلاكروا، أوجين (١٧٩٨ - ١٨٦٣): من أشهر الرسامين الفرنسيين. زعيم المدرسة الرومانسية في الرسم، له لوحات جدارية شهيرة موزعة على سقوف اللوفر والكنائس. (المترجم)

وصف بلزاك، على طريقة غافارني[1]، مقصورة «أمامية»، وتسللاً إلى الكواليس تتخلله تباينات الإضاءة مما يبشر بالتقنية المتحركة للسينما، ويلج القارئ مقصورة فلورين، ويفاجئ بلاطها الصغير المؤلف من الكتّاب والصحفيين، ويتساءل مع لوسيان عن وجود التاجر ماتيفا. وتلتقط بشكل رائع لحظة هاربة، عندما تخلو قاعة المسرح وتعمّ رائحة الشموع المطفأة التي كانت تنير مقدّمة خشبته. ودون أن ننكر الأهمية التوثيقية والفنية لهذه الصفحات يجب الاعتراف أن بلزاك لم يذهب بعيداً في استكشافه، فهو لم يذكر شيئًا عن إدارة المسرح، وعلاقاته مع السلطة، ولم يذكر شيئًا عن المساهمين، «هؤلاء الأشخاص الطيّبين بشكل عام الذين انسحبوا من تجارة القبعات القطنية»، وجوارب الحرير، ونقل السكّر وتفريغه، وفقًا لقول مجلة السارق في ٢٥ آب ١٨٢٩ التي أعادت نشر **الرقيب المسرحي**. أي ثلاثي من المساهمين - ماتيفا وكاردو وكاموزو - أراد بلزاك أن يحتفظ باحتياطي! لم يذكر شيئًا عن لجان القراءة، ولم يعط إلا معلومات قليلة جداً عن علاقات المؤلّفين بالممثلين، وعن الأجور والمداخيل التي يتقاضونها من المسرح، وعن الجمهور. بدا المسرح بالكليّة تحت رحمة الصحف الصغيرة ونزوات المتعاونين معها. هذا عدا برولار...

برولار يجسّد حشداً من الأفراد عاشوا في جوار المسارح والملاهي، وهو زعيم المصفقين المأجورين الذين أفرزتهم زُمَر صانعي الشعر المستعار، والمهربين، وباعة بطاقات الإكراميات، الطفيليين الذين جعلهم الاستثمار السيّء للفنّ المسرحي ضروريين لسير العمل في المسارح مثل ضرورة المكتبات - الوسيطة لدور النشر. في عهد الملكية الثانية كان لكل مسرح زعيم مصفقيه، وبلزاك بوصفه لبرولار ينساق قليلاً نحو التبسيط، فمونتينيي في مؤلفه ابن **مقاطعات في باريس** ركّز على هذه الظاهرة المتجلية ببراعة السيدة بوليفار، «التاجرة الحاذقة» في

(١) - غافارني، بول (١٨٠٤ - ١٨٦٦) رسام وكاتب فرنسي صور عادات وطبائع البورجوازيين والفتيات الماجنات.

موغمارتر، التي تدير شبكة من زعماء التآمر. المؤلّفون يعقدون صفقات بيع البطاقات مع المتعهدين، والمتآمرون يسلّمون الفائض منها للسيّدة بوليفار التي تمارس على نطاق واسع هذه التجارة غير المألوفة التي تعود فكرتها إلى دورڤيني. لكن هل يعود هذا التجانس الصوتي بين برولار وبوليڤار إلى المصادفة؟ يمكن أن نذكر أسماء أخرى: اسم فرمون الذي يُصرّف بطاقات التمثيليات الخفيفة المرحة (الڤودڤيل) في العام ١٨٢٥ وسوتون «المتاجر غير الشرعي ببطاقات العروض المختلفة» المتوفي في باريس، العام ١٨٣٠ مخلّفًا ثروة تدرّ، على ما يقال خمسة عشر ألف فرنك. . . كانت الصالات المسرحية تتنافس فيما بينها في نزاع عنيف أحيانًا، وزعماء المتآمرين ينتقلون من معسكر إلى آخر مع مأجوريهم المرتزقة. في العام ١٨٢٣ أُتهم غوبيّار المساهم في الجمناز «بأنه يمتهن صفير الاستهزاء أو يستأجر من يصفّر استهزاء بالمسرحيات الجديدة المعروضة في مسرح الڤودڤيل»، وفي الرواية غدر برولار لقاء أجر ممن يسمى غوبيّار بمصالح مسرح الجمناز في بدايات كورالي بالتمثيل، وهذه هي الإشارة الوحيدة إلى التصرف السيء فعلاً لهذا الشخص، فبرولار في غاب أمثال سامانون وشابواسو يظهر دائمًا مراعيًا لايخون. وقد بيّنت السيدة فلكاي أن هذا البرولار «صرّاف المؤلّفين المسرحيين»، هاوي المآكل الشهيّة والأدب، نسخة روائية عن پورشر الذي مارس طوال عهد الملكية الثانية مهنة برولار المضاعفة، وكان يتمتع بنوع من الاحتكار، فالمؤلفون يرفعون قبعاتهم احترامًا له، وهو لا يضنُّ على المبتدئين بالمساعدة.

في ٢٤ شباط ١٨٣٩ رفض مسرح النهضة مسرحية بلزاك **مدرسة الأزواج**، وهكذا جابه الروائي فجأة حقائق مهنة «المؤلّف المسرحي» القاسية، ولمس لأول مرة، على الأرجح، بالمعنى الحقيقي، والمجازي، مقلوب المنظر المسرحي، وظهر شيء من خيبة أمله في روايته، حيث يلتحق من جديد، مصدرا إلهام تفصل بينهما حقُبة خمسة عشر عامًا لكن يبدو المنبع «الحديث» هنا مسيطرًا. نُسب إلى بلزاك،

في العام ١٨٣٨ رغبته بالزواج من إحدى الأختين إلسلر[1]، لكنه دافع عن نفسه في رسالة للسيدة هانسكا: «أتزوج راقصة! أنا الذي لايطيق شيئًا يظهر على خشبة المسرح». لكن ما يثير الفضول أنّه وجد من المناسب أن يبلّغ الأميرة أرشينتو رسائل جنتز إلى فاني إلسلر، فهذا الدبلوماسي النمساوي وقع في غرام الراقصة بشكل جنوني. إذا قارنا الآن بين تقرير **القاضي في مأزق** مع تقرير **الشيطان الأعرج** كما ورد في مجلة **الفنان** بتاريخ ١٨٣٦ غير الموقَّع - إنما بقلم جانين دون شك - يمكن التأكّد أن الأختين إلسلر رقصتا تحت اسم فلورين وكورالي بوليرو الفصل الثاني من **القاضي**، وأن لوسيان قد حاكى في تقريره أسلوب مجلة **الفنان**.

الشيطان الأعرج نتاج أستاذ رقص تمثيلي اسمه كورالي، كما أن ممثلة في مسرح بورت - سان - مارتن، وشخصية لسكريب وملسقيل في مسرحية **كورالي أو الأخ والأخت** (١٨٢٤) يحملان الاسم نفسه، كما أن في **فوبلاس** راقصة أوبرا اسمها كورالي، كما أنه الاسم الذي اتخذته إلڤير نابوليون لاندي في **حياة غانية** (١٨٣٣) لممارسة تظرفها. يوجد إذن بعض صلات تاريخية وأدبية بين بطلة بلزاك والاسم غير القابل للنسيان الذي أعطاه لها.

يجدر التساؤل عن المسرحية التي أوحت بتقرير لوسيان. أليس في هذا استباق للجواب؟ لا ينطبق هذا التحليل التخيّلي على أيّ من المسرحيات الممثّلة على مسرح البانوراما. غير أنّ في **ترينغوليني** أو **الاختطاف المضاعف** ثلاثة فصول ألفّها سان - هيلير في ١٨ كانون الثاني ١٨٢٣ يمثل فيها بُوفّه دور قاض. وسط ارتباك اسباني يتعذر التخلص منه، حيث تتناوب الأخطاء والاعترافات، والتوقيفات والاختطافات، وحيث تسود في كل مكان بلبلة سارّة تبلغ الأوج عند الخاتمة، يوجد هذا القاضي، المستثار بصيحات التحريض دون انقطاع، «وقد انتابته

---

(١) - الأختان إلسلر: راقصتان نمساويتان، اشتهرت الكبرى منهما فاني (١٨١٠ - ١٨٨٤) بالرقص التعبيري الرومانسي.

الحيرة». هذا ما يبرّر على الأقل عنوان المسرحية، لكنها أخذت في المخطوطة عنوان **قاضي باداجوز**. هذا العنوان كما أشار آ. آدم، يشبه «بشكل يثير الفضول» **كورجيدو اشبيلية** (١٨٣٧) لهيبوليت أُوجه، كما أنّه ليس أقلّ شبهًا **بكورجيدور أڤيرو** لباليسون دي روجمون (مُثّلت في الجمناز ١٨٢٢) أو **بكورّجيدور بمبلونه** (مُثّلت على مسرح المنوّعات العام ١٨١٨. وهو أكثر شبهًا أيضًا **بقاضي مولوريدو** لبيكار (مثلت في الأوديون العام ١٨١٠ وأعيد تمثيلها العام ١٨٢٥) **أو قاضي لافيغا** لأونسلو (في الأوبرا - كوميك، ١٨٢٤). ألا يجب أيضًا أن نذكر هنا هذا الأنموذج الأمثل لجميع هؤلاء **القضاة قاضي زلاميا** دي كالديرون الشهير الذي نشره لادفوغا في مجموعته **تُحف المسارح الأجنبية** (١٨٢٢)، أحد هذه «المآسي الطفولية» التي لا يحبُّها بلزاك، وأطلق عليها سهم تحليله في **هرناني**، العام ١٨٣٠؟ ذكرنا أن العنوان البدائي استبدل به عند الطبع **القاضي في حيرة**. ومنه عنواننا... وسلسلة ثانية من الفرضيات النقديّة. وقد أعلمتنا آن - ماري مينينجه أن غوستاف وليون دي ويلي أعدّوا للأوديون (تشرين أول ١٨٢٥) «مسرحية أقلّ ما يمكن القول عنها أن عنوانها **الموت في حيرة** يُذكّر **القاضي في حيرة** الشهير» وسيقال مثل ذلك أو أكثر عن رجل الحاشية الملكية في حيرة لأرتوا ودوبن (ڤودڤيل، ١٨١٣). سيقال أكثر من ذلك عن **المؤدّب في حيرة** لإيمبر وڤارنر جمناز، ٣ تموز ١٨٢٣) لأن هذا العنوان لقي رواجًا بالغًا، ففي ١٤ تموز، استخدمه ملسڤيل بدوره في مسرحية متواضعة. في المنوّعات وأطلقه كارموش وكورسي على إنتاجهما الأخير المشترك على مسرح الغيته في ١٨ تموز. بعد خمسة أيام أعد منيسيه وشركاه مسرحية رابعة بعنوان **المؤدّب في حيرة** لمسرح الأمبيغو. في ٢١ تموز أعلن عن مسرحية خامسة من أجل الافتتاح المتوقّع لبانوراما، وفي ١٨ أيلول من السنة نفسها لامس مسرح السيد كومت الابتكار مجازفًا بعنوان جمع **المؤدّبون في حيرة**. وعودة إلى المفرد وإلى جمناز العام ١٨٢٤ إذ أعلن عن أوبرا جديدة بالعنوان نفسه لبالوشي وباير، وفي العام نفسه أعلن لبواتڤن وإيتين أراغو صديقا بلزاك عن تمثيلية في

الامبيغو - كوميك **يوم حيرة**. لنضيف إلى هذه اللائحة **المساعد في حيرة** لدوڤال (أوديون ١٨٣٠)، والسلطة في حيرة (المنوّعات ١٨٣٥) وتوطئة لغوفّه بعنوان **المدير في حيرة**.

يبدو من الجرأة المتهوّرة أن نستخلص من عنوان مسرحية متخيلة، الهويّة الحقيقية لدوبرويل مؤلّفها. لكن ماذا يمكن أن نستنتج من هذا الوابل من القضاة والحيرات؟ بحَدس ْتاريخي ويقين لا يتطرق إليه شكّ حدّد بلزاك اسمًا موصوفًا وصيغة صفة مميّزين إحصائيًّا لعناوين مؤلّفات قائمة خلال الحقبة التي يريد أن يدرس الطبائع فيها وبجمعهما ابتكر بالتماثل عنوانًا نموذجيًّا فائقًا.

كنا قد وصلنا إلى هذه الاستنتاجات، عندما وقع تحت ناظرينا عدد من صحيفة **باندور** مؤرخ في ١ آب ١٨٢٣ وفيه خبر يثير الارتباك، «**القاضي في حيرة** مسرحية صغيرة لآبل هوغو وڤالبن سيُعَرض دون انقطاع في مسرح الأوديون»! وبلزاك يعرف جيّداً **الباندور** فهل **قاضيه** مجرّد ذكرى مبهمة؟ غير أن مسرحية آبل هوغو لم تمثّل ولم تطبع ولم يُذكَر عنها شيء في أي مصدر آخر. لنذكر أن هذا العنوان لم يرد تلقائيًّا تحت ريشة بلزاك وأن **القاضي في حيرة** نتج في رواية **أوهام ضائعة** نتيجة تصحيح. إذن، كما لاحظ بحقّ ج. مرلان[1] في تعليل آخر: «إن تسليط الضوء وفق تصوّره في الرواية يركّز خاصة على الوقائع المبتكرة» فلو أن بلزاك كان على معرفة (أو تذكّر) لمشروع آبل هوغو لما تأخّر عن تجنّب نقل العنوان. ولزيادة البحث والتحري، سنستمر إذن في التفكير بأنه ابتكر أو بالأحرى أعاد ابتكار العنوان، وأنه عمل بذات الطريقة لإعطاء المضمون لتقريره. يجب أن يُرى إذن في نبذة **الباندور** فرصةً غير متوقّعة، هي البرهان من التاريخ بالذات على قيمة الطريقة البلزاكية في الابتكار التماثلي.

لم تدرس الصورة التي أعطاها بلزاك عن المسرح والممثلين، فهي مشوهة. بموشور أحكامه المسبقة، وهي تتباين تمامًا في **أوهام ضائعة** مع التحاليل الكاملة

(١) - ج. مرلان: «بلزاك في حرب مع الصحفيين» مجلة باريس ١ آب ١٩١٤ و كانون ثاني ١٩١٥.

الجودة عن عمل المكتبة والصحافة، ومع الصور البعيدة النظر التي توضحها. فتنة المشهد المسرحي وهم، والحقيقة هي الكواليس القبيحة و «الممرات القذرة» حيث «يسود ما يشبه الطاعون الذي يفترس النفس». لاشيء لدى بلزاك من هذا الحب للمسرح الذي يتغنى به موسيه أو غوتيه أو ترفال، كورالي كممثلة لا تمارس عليه أي سحر، ولا يرى في مشهد مسرحي إلا عاهرات «بأعين شهوانية»، «وأرداف أندلسية» يطلق عليهن اسم «الغانيات» أو «المخلوقات المسكينات». كورالي تطلق على نفسها اسم «المخلوقة البائسة المسكينة» ولوسيان يقارن الممثلات «بشريرات» القرن السابق. إنّما هو تخاصم سيّء مع كاتب، إن لمناه على قناعات شخصياته الروائية، لكن يجب الاعتراف أن القصّاص لم يشجب الابتذال الصارخ لميشيل كرستيان أحد هذه الشخصيات عندما صرّح: «في هذا الأمر، إنني ارستقراطي، لا يمكنني أن أحبّ امرأة يقبلها الممثل على خدها أمام الجمهور، امرأة تخاطب دون كلفة في الكواليس»... والوصف الواقعي لهؤلاء الفتيات المأجورات لا يحجب هذه الأخلاقية «البدائية» وتلونّها الانفعالي، وللقراء الموعوظين الحرّية في أن يتصرّفوا كتصرّف ڤينيي عندما وجّهت إليه أمّه هذه النصائح: «لن أقول لك شيئًا عن هذا النوع من النساء المحتقرات تمامًا لوضعهن ولأخلاقهن. بل أريد الكلام عن الممثلات، إنّهن بمثل خطر المومسات على الصحة، وأكثر من ذلك بجشعهن الذي لايعرف الحدود. وأنا آمل ألا تراهنَّ أبدًا إلا من طرف منظار المسرح»... لكننا نُدهَشُ لمثل هذه النواهي لدى بلزاك. هل يجد نفسه كما كان في العام ١٨٢٢، فتى يفتقر إلى الحب وقد غدا عشيقًا لامرأة في مثل عمر أمه وقد عاملته كأمّ وكرّس لها بدوره عاطفة خاصةً يُعَدُّ إزاءها كل حبّ آخر حلمًا أثيمًا أو انتهاكًا للحرمات؟ ربّما جسّدت الممثلة سابقًا مثل فتاة الپاليه - رويال استيهام الشاب السعيد والمحروم. أن يكون بين أيّ نصّ ڤودڤيل والتمثيل عمل الفنانين، وأن يوجد بكل بساطة فنانون، هذا ما يحاول بلزاك، في العام ١٨٣٩ أيضًا، مع بعض الندم تقريبًا، التظاهر بجهله. الفن الوحيد للممثلات أن يحببن، كما تحببُ العاهرات على أن يفتدين

بهوى عدم نقاوة حياتهن، «إن أحببت امرأة من هؤلاء، فعليها أن تترك المسرح وسأطهرها بحبي» يستخلص كريستيان في خاتمة حديثه. نخمن أن هذه الأفكار المبتذلة الرومنطيقية المكرّرة باستمرار ودون كلل من **ماريون دلورم**(*) حتى **غادة الكاميليا**(**) تحل محلّ الملاحظة الضعيفة. لكن للمؤلّف حيويته الخاصّة: فبالرغم من الأحكام المسبقة المستمرة، والازدراء المبهم، المعبّر عنها بما أظهره بلزاك من نوايا سيئة ضد فاني ألسلر، بتصرفه غير اللبق والمذهل في إفشاء أسرار رسائلها، فإن كورالي تتطوّر في خيال شاعري وواقع حقيقي في ردة فعل ضد القالب المكرّر الذي فرض عليها، فقد ولدت على هامش دراسة الطبائع، وابتكر نموذجها الأول في استير بطلة قصة **الرعادة**(***) التي ستنطلق وحيدة في اختبار أول ضمن إطار اجتماعي لتقاسم لوسيان مصيره.

ما بين موت لالمان في حزيران ١٨٢٠ وتنفيذ حكم الإعدام برقباء لاروشيل الأربعة في أيلول ١٨٢٢ تشكلّت في فرنسة أعداد كثيرة من الجمعيات المختلفة في درجة سرّيتها، وكان مركزها الرئيس غالبًا في «البلدان اللاتينية». تتوافق هذه المرحلة بشكل تقريبي مع الإقامة الأولى للوسيان في باريس، ولم يَفُت بلزاك أن يتطرق إلى ذكر إحدى هذه الجمعيات التي شكلّها بعض الشباب. فما هو دور الذكريات في المنتدى الأدبي لشارع الرياح الأربعة؟ في العام ١٨٢٠ لُقِّن بلزاك أسرار جمعية الفحّامين من قبل إتيين أراغو، لكنه لم يتمكن من استغلال هذا التلقين. حطام شبه ملغز لمسرحية **كاتيلينا** تعود إلى سنوات ١٨٢٠ - ١٨٢٢ وفقًا لدراسة أجراها رينه غيز، نرى فيها مجموعة طلاب حقوق يجتمعون في سقيفة تقع في شارع القمر (حيث سيسكن فيما بعد لوسيان وكورالي) وكان ضيف المجموعة

(*) - ماريون دلورم: مسرحية لفيكتور هوغو، مؤلفة من خمسة فصول. صدرت العام ١٨٣١.

(**) - غادة الكاميليا: رواية لألكسندر دوماس الابن. صدرت العام ١٨٤٨ أعقبتها مسرحية مستخلصة عن الرواية في العام ١٨٥٢.

(***) - دخلت هذه القصة فيما بعد ضمن رواية رباعية طويلة هي **بهاء وتعاسة الغانيات**.

(ملاحظات المترجم)

كاتيلينا «شاب من عائلة كريمة» ومن المجموعة نتعرف تحت اسماء لاتينية مستعارة على بلزاك (هونوراتوس)، مريمه، عضو جمعية الفحامين جول باستيد، سوتليه، مدير **الناسيونال** مستقبلاً، وربّما غودفروا كاڤينياك (غودوفردوس). وقد أشار آ. آدم وب. تولّي منذ مدة طويلة إلى أثر آخر أكثر دقة يقودنا إلى بوشيز ودارتز، ففي شارع الرياح الأربعة، في الواقع، منذ ما قبل العام ١٨٢٠، شكّل بازار وبوشيز(*) «جمعية فلسفية صرفة». لا شيء يشير إلى أن بلزاك قد انتمى إليها، ولكن سنحت له مرات كثيرة الفرصة، فيما بعد لأن يتتبع أخبارها من أفضل مصدر. في شارع الماريّة، طبع المجموعات الثلاث الأولى من **جمناز** (١٨٢٨). وهذه المجلة صدرت عن جمعية الأخلاق والأدب التي تضم نحو عشرين شابًا تخرجوا حديثًا من كليات الجامعة وهم يتساءلون عن المجتمع ومستقبلهم وقد تقرب بوشيز وبازار من هؤلاء الشبان، عندما ابتعد الأول عن السان سيمونيين، وأعانه أصدقاؤه الجدد على أن يقيم مركزاً محدثًا مقابل مركز تخلى عنه، ووجدت زمرة بوشيز من يعبّر عنها بريشة أُوجه وبوا - لكونت، في **مسلسة الصحف السياسية** التي يديرها بلزاك وإميل دي جيراردن ثم أسست هذه الزمرة قاعدة لها في شارع شوازو، وبعد أن تجولت في كل باريس تحولت إلى ناد فلسفي واستقرت في شارع شاباني وأطلق عليها هيبوليت أُوجه الذي تطرّق إليها طويلاً في **مذكراته** اسم **المنتدى الأدبي**. فمنتدى شارع الرياح الأربعة هو إحداث هجين يعود في آن واحد إلى بوشيز عضو جمعية الفحامين، في العام ١٨٢٠ وإلى رئيس مدرسة العام ١٨٣١.

من المبرّر لنا التساول عما يعود من دارتز إلى بوشيز. شَعربوشيز الأسود المسترسل يتوافق تمامًا، كما أشار أ. آدم مع صورة بونابرت التي يحيل إليها بلزاك.

(*) بازار، أرمان BAZARD.A: (١٧٩١ - ١٨٣٢) مؤسّس جمعية **الفحامين** في فرنسة وأحد دعاة السان سيمونية.

- بوشيز، فيليب Buchez. Ph : (١٧٩٦ - ١٨٦٥) فيلسوف ورجل سياسة فرنسي، أحد أهم ملهمي الاشتراكية المسيحية. (م. المترجم)

ومع ذلك فهو قرينة باهتة، إنما يجب القبول بأن الجمهوري الاشتراكي قد غدا، لحاجات الرواية، نبيلاً بيكارديًا ملكيًا. ثم أين بوشيز المتحمس، الحذر، المتشدّد، المتعصب كما وصفه أولئك الذين عرفوه؟ كان بوشيز يمارس على أولئك المنضمين إلى منتداه إرهابًا ثقافيًا لا يدع مجالاً للأذهان المتوقدة أن تتفتح حوله بينما التفكير المتزن والخاص بدارتز يتعايش مع رؤى لامبر وعبقرية جوزيف بريدو وحماس ميشيل كرستيان الجمهوري. في كثير من النواحي يُعَدُّ ميشيل كرستيان الأكثر شبهًا ببوشيز، ومع ذلك فأي جمهوري متحمس ونزيه، كارل، أو كاڤينياك، أو فارسي، أو بازار - ويمكن أن نذكر عشرة أسماء أخرى تتمم الشخصية - ومع ذلك توجد تشابهات في الفكر واللغة لا تقبل الجدل بين المنتديين، وقد سلّط عليها الضوء ب. تُولّي وليس ثمة إضافات إلى تحاليله. فبوشيز مثل دارتز - ومثل بلزاك - معجب ومدافع عن روبسبيير وعن كاترين دي مديسي، وله ذات الرؤية الوحدوية للتاريخ والسياسة. استخدم كل المنتدى البلزاكي التعابير البوشيزية (وهي ترد من سان سيمون، وأيضًا من بالانش ولامينّه): تضحية، كهنوت، إنسانية، وقد وعد ليون جيرو بأن يطورّ في صحيفة جديدة «المبادئ المفيدة للإنسانية» وينشرها. هذا هو البرنامج البوشيزي (لكن من المغري تقريب جيرو إلى لِرُو الذي ساهم في هذه اللغة). وأكثر نموذجية أيضًا التلميح إلى ڤيكو، و «الرؤية الربانية» الساخرة على لسان بيكسيو، وتهكمات بلوندة على «التقدم» و «مدعي النبوءة» و «الاتجاه العام للإنسانية». أما الصحيفة التي يستعد المنتدى لإصدراها، فمن المحتمل أن يكون بلزاك قد فكّر **بالأوروبي**، صحيفة فقيرة في حينه، وقد صدرت على نفقة بوشيز وأصدقائه، بدءًا من ٣ كانون أول ١٨٣١ تنتمي صراحة إلى المسيحية، وتدافع عن مبادئ الجماعة، وقد نشرت خاصة سلسلة من المقالات عن الاتحاد الأوروبي حررّها بوا - لي - كونت، وهذه وثيقة جديدة تُضَمُّ إلى ملف تحديد ميشيل كرستيان، الذي يحلم «باتحاد أوروبة».

في **سلسلة الصحف السياسية** احتك بلزاك عن قرب بالمجموعة البوشيزية، دون أن ينتمي إليها، حسب المعلومات المتوفّرة لدينا، وبالأحرى لا يسعنا أن نعزو

إليه خيانة لوسيان، الذي يُستغرب قبوله في منتدى شارع الرياح الأربعة، ووفقًا لفرضية مبتكرة من ب. تولي، يمكن أن يعتمد هيبوليت أوجه، في هذه الحالة، «نموذج أبدال»، فقبل مباشرة **رجل كبير من المقاطعات** التقى بلزاك مجدداً (في خريف ١٨٣٨) بهذا الصحفي اللامع والسطحي، عضد مجلة **الموضة** سابقًا، الروائي، والمؤرخ، والمؤلف المسرحي، والناقد حسب أوقاته. هذا الحريص على متّع الدنيا، الطفيلي بكل طيبة خاطر، الفتى الوسيم ذو الميول اللواطيّة وفق مذكرة ش. لامبر المحفوظة في ملفّات السان سيمونيين، السكرتير الخاص لعلامة بريطاني، يتصل بجميع الناس، دون أن يكون له أصدقاء، وقد أقصاه بوشيز علنًا لأنه أفشى أفكار الجماعة في **جريدة المعارف العامة الرسمية**.

لتكون موثوقة، تبقى التشابهات بين المنتديين على الأغلب أمّا عامّة كثيراً أو مفرطة في التجزئة فلنحذر من حجبها الأمور الهامّة. بديهي مثلاً أنَّ من بلزاك يستمد دارتز معظم تصرفاته، فالتحليل الذي أجراه على **نبّال شارل التاسع** معد من قبل بلزاك، العام ١٨٣٠، في **مسلسلة الصحف السياسية**، عند تدقيقه لمنتجات مقلدي والترسكوت. ولوسيان قارئ **النبال** على مسامع دارتز هو سان - أوبن قارئ **المحروم** لمؤلّف **مشاهد من الحياة الخاصة** (صفحة من **حياة وتعاسة** لصاندو حيث تُلحظ ُتماثلات نصيّة مع **أوهام ضائعة**) ودارتز الناقد للوسيان هو بلزاك الناقد لبلزاك، وأعضاء كثيرون من المنتدى، بريدو، بيانشون أشخاص مُعادّ ظُهورهم يرجعون إلى نماذج حُولت آنفًا بنتاج بلزاك السابق، وقد يكون فولجنس ريدال قد رُسم عن مرل (أ. آدم) ضمن المجموعة ولا ندرك وجود هذا القودفيلي وسط هؤلاء الحالمين برصانة تبعدهم عن فهم الفكاهة. أخيراً نلاحظ أن المنتدى لا يضمُّ إلا خمسة أشخاص (ستة مع لوسيان) في المخطوطة، وقد انضم إليه جيرو، وبريدو، وريدال خلال المسوّدات الطباعية، بعد أن ازدادت وظيفة المنتدى أهمية في السرد القصصي دون انقطاع.

هوذا في الواقع السبب الأخير للتيقظ. لم يكن المنتدى، كما بيّن أ. لاكو موجوداً في الحالة الأولى للمخطوطة، فالمؤلف قد صاغ ٣٤ ورقة قبل ظهور دارتز، وقد ظهر، وفق طريقة بلزاكية نموذجيّة في مشهد مرآة (نزهة في اللوكسمبورغ) يكرّر في نَسق آخر، اللقاء مع لوستو، وهو بحقّ، كما يقول أ. لاكو، «النسخة السلبيّة» عن ذلك الشخص. سبق أن وصفنا، في أكثر من مناسبة، خلال الصفحات السابقة، هذا الطراز من الابتكار انطلاقًا من ردّ فعل النصّ على ذاته، وهو الأكثر وضوحًا في ابتكار المنتدى، الذي لا يستبعد كما لاحظنا اللجوء إلى نماذج خارجيّة. جميع مميّزات المنتدى، وعلى الأقل ذات المدى الروائي منها الذي يفسح المجال للتحليل قد تمّ تصورّها على النقيض من العالم الصحفي، وضمن منظور مثالي. الإدارة، والصبر، والعفة، هذا هو دارتز، نقيض لوستو. في شارع الرياح الأربعة يسود التفاهم، والأخوة، والجمال الأخلاقي «وبهاء الثروات الفكريّة» التي تضعنا على مسافات شاسعة بعيداً عن خِسَّة الصحافة، الصحافة وخياناتها، لكنها تبعدنا أيضًا عن النماذج المفترضة للمنتدى الأدبي، وهذه الجمعيات السان سيمونية المرهقة بالانقسامات، والشقاقات، والمنافسات الشخصية. مع الفساد الشائع في الكواليس، كما يتصوُّره بلزاك وجب أن يُظهِرَ المبدأ الأخلاقي الحازم الذي يلخصه بيانشون في كلمتين: «التألّم ببسالة والاعتماد على العمل». لم يفكّر بلزاك في أيّة لحظة أن يعيد إلى الأرض الصورة المثالية التي رسمها عن دارتز، أو أن يثير الشبهة حول مثالية هذا الواعظ الذي يعيب على لوسيان تعلّقه بكورالي أو ينسب مواعظه إلى الغباء أو النفاق - لكن وجب أن يهيئ له مثيلة بياتريس - إنّما سيكيّف له قريبًا غانية من ضاحية سان جرمن «**انظر أسرار الأميرة دي كادينيان**(*)».

على ذات مستوى كورالي، يوجد دارتز ومنتداه الأدبي في موقع ثانوي تقريبًا ضمن دراسة الطبائع. فدارتز لاينتمي إلى عالم الأدب، أو المسرح، أو الصحافة، وقد عرض عليه لوسيان، كما في محكمة، روايته **نبّال شارل التاسع**،

(١) - مترجمة إلى العربية ومنشورة من قبل وزارة الثقافة السورية «روايات بلزاك ٢٠ العام ١٩٩٩».

وهو الذي أدان بمديح ساخر تقرير **مسرحية القاضي**، وهو من انتدب كرستيان وبريدو وريدال لتمثيل المنتدى في حفل عشاء كورالي، وعندما وجدت الممثلة هؤلاء الأفاضل الثلاثة في تجهّم كالح، أجاب لوسيان «إنهّم القضاة». وتدخل دارتز شخصياً، وهو الملكي، ليضمّ لوسيان إلى صفوف الملكيين، وكان أرحب صدراً أيضاً عندما ساعد لوسيان على أن ينقد بجدارة وبشكل لاذع روايته الخاصّة. وفي الفصل الأخير يمنح علناً الغفران لبطله المنهار أمام جثمان كورالي.

لأعضاء المنتدى الأدبي كيان روائي خاص، وقد رفعوا إلى مرتبة المثالية بشكل مؤثر على القارئ والشخصيات الأخرى في الرواية. فداڤيد يكتب للوسيان أن يعتمد على «هذه العقول شبه الإلهية»، وهو يسميهم بعد بضعة أسطر في رسالته «أرواح سماوية». أهي سذاجة إقليمية؟ كلا قطعاً، فتحت ريشة القصاص، هوذا المنتدى الأدبي يغدو «موسوعة حيّة للنفوس الملائكية» أو «سماء الفكر النبيل» ويتذكر القارئ عندئذ أن المنتدى الأدبي يبكي حزناً على فقد الأسمى موهبة بين أعضائه، لويس لامبر، الذي يصفه بلزاك بالنفس الملائكية، الشخصية المبهمة، شخصية الحد النهائي في **الكوميديا الانسانية** التي لا مكان بعدها إلاّ للملاك الخنثى **سرافيتا**. هذه النعوت، وهذه الاستعارات المتقاربة تؤثر على بنية الأشكال ذاتها المحرّرة بشكل واسع في سياق النصّ الواقعي. دارتز ليس ملاكاً، وسيبرهن على ذلك، كما أنه ليس شخصية رمزية تلعب دور الفضيلة في استحضار واسع يأخذ عنوان **أوهام ضائعة**، فالإعداد الذي أجري له هو بالأحرى صوري أكثر منه إيديولوجي، وإذا كان قد كُوّن نسخة سلبية للوستو، فإن لوستو بدوره كما لاحظ أ. لاكو قد حُدّد بدلالة دارتز، وإذا كانت ملامح الملاك ترتسم حول هذا الأخير، فقد جُرَّ الأولُ إلى الظلّ، والواقع أن الشخصيتين تخضعان لظاهرة الاستقطاب (البلاستيكي، والسيكولوجي، والأخلاقي) الظاهرة بصورة خاصة على مستوى النعوت والاستعارات المشتركة. سبق أن أشرنا إلى التذكارات الذاتية لمحادثة اللوكسمبورغ، فعندما يشير لوستو إلى المدينة الكبيرة التي أخذ يغمرها ضباب

الغسق، تمرّ سريعًا أمام عينيّ لوسيان «رؤيا المنتدى الأدبي، بينما لوستو يجهد معبرًا عن «قنوط الهالك الذي لا يستطيع التخلّص من الجحيم». من السهل متابعة وصف هاتين السلسلتين من الصور ليُسر الكشف عنهما غير أننا نتساءل عن الوظيفة الروائية لهذا البنيان المماثل لمعظم الملاحم الأوروبية الكبرى.

لوستو، ومثله دارتز يتمتعان بحظوة المرور بلا عقاب عبر اللوحات التي تشكّل الصورة الجداريَّة الروائية، فهما يواكبان إن صحّ التعبير، ويوجهان عبر **رجل كبير من المقاطعات** (الرواية الثانية من ثلاثية **أوهام ضائعة**)، مسلك لوسيان الذي يقترب على التناوب من الظلّ والضوء («ملاك طيّب» يقود حتى باب دارتز هذا «الهالك» الذي يطلب، في الحال، إعادته إلى «جحيمه»). وليست هذه المعجزة الوحيدة لهذه التحفة الفيّاضة دون حبكة موحّدة إلا الوضوح الثابت للمسار الذي ينساق فيه لوسيان إلى قدره بسوء ضبابية، هذا الطبع المفعم بالهروب والغموض.

مع صعوبة تحليله، فإنّ الهويّة العميقة لهذا الكائن الهارب محسوسة مع ذلك بحيوية عند القراءة. وهذا جانب آخر يثير الدهشة. فوحدة الشخصية وتفردها لا يعودان إذن للبنيان السيكولوجي وحده. ومثلما يظهر لنا في الظلّ والنور، يمكن أن يتحدّد بدلالة بعض نقاط معالم في حركة علاقات متبادلة وتفاعلات نصيَّة بمثل التعقيد والرهافة الموجودة لدى توماس مان(*) على سبيل المثال. وهكذا، فإن نجاح راستينياك يحدّد فشل لوسيان. وبلزاك لم يغب عن ناظره هذا التحديد المتبادل، على الأقل فيما يتعلق بلوسيان - الأكثر هشاشة بين الاثنين - فعدا عن أوجه التشابه والاختلاف في الطبائع والحياة المهنيّة - وهي موضوع مثالي لدراسة أدبية لن نتطرق إليها - توجد على جميع مستويات النصّ تطابقات مفضلة وتأثيرات دالّة تتيح الإحاطة بهوية الشخصيّة، فمناجاة راستينياك الشهيرة لباريس من أعلى مقبرة الأب - لاشيز، تقابلها في مشهد غسقي ينتسخ خطوة خطوة مع تلك الصفحة من رواية **الأب غوريو** صرخة لوسيان المؤثرّة: «من سيحبني بعد الآن؟» وهي القَدَر

(١) توماس مان (١٨٧٥ - ١٩٥٥) أديب ألماني حائز على جائزة نوبل العام ١٩٢٩.

الكامل، والانقلاب، وتغيّر الإشارة، في **صيغة** أدبيّة مُختزلة بشكل استثنائي، لطموح راستينياك. يحدُث أن يكون الوهم المنتج لإحساسٍ شبه خفيٍّ أحيانًا، وهو يساعد عندئذ على تصورّ الشخصية في ذاكرة القراءة المبهمة: السيّدة بارجتون وصديقتاها اللواتي يعرفن غرور لوسيان، وزهوه بلقب نبالة يطمح إليه، يمسكن «بهذا الخيط كما يمسك طفل بجُعَل»، أهي صورة تحيلنا إلى راستينياك يمسك انطلاقته «مثل حُنظُبٍ» في مشهد الأوبرا؟

دون أكاذيب الطبع، لاشيء أفضل لمقاربة لوسيان الحقيقي من علاقاته مع كورالي (وربما نُقارب ُأيضًا بلزاك الخائب الأمل عند تصورّه لفليكس دي ڤاندنس). فكلٌّ مشهد حبّ يمثله موسومًا، بذات الاستكانة الطفولية المثيرة للشفقة، مثلُه عند صرخته في مقبرة الأب - لاشيز. إنّه صاحب اليد المستسلمة التي ترفعها كورالي بشَغَف إلى شفتيها في غبش العتمة داخل العَرَبَة. إنّه الصحفي الثمل كالسُّمنة، الذي يتقيأ فتغيّر له كورالي ثيابه الملوثة، وتنظفه وترقده كطفل في سريرها وتتأمّله بكل حنان في إغفاءته. ووصف لوسيان العاشق مقتضب دائمًا وخاطف، فنحن لا نعرف عنه إلا إغفاءته الهانئة كانديميون(*)، ثم كورالي وهي تغمره بمداعباتها عند استيقاظه وتحممه وتسرّح له شعره، وتغطي رأسه، وتلبسه ثيابه.

هذه المشاهد المتدرِّجة في سياق الرواية، والتي ستتكرّر في **بهاء وتعاسة الغانيات**، تشهد على استمرار الشخصيّة بشكل أفضل بكثير من ذيول دسيسة بارغتون - شاتليه. وبين يافع أنغوليم ذي الرأس الملائكي وجسم المرأة، وبين روح هريرا الشيطانية في قصّة الرعادة، يُعَدُّ **بطل رجل كبير من المقاطعات** رابطة وحيدة وضرورية. فحقيقته لم تتعرّض للكسوف. وعندما يلتحق لوسيان بمقاطعته في نهاية مغامرته الباريسية، فقد كل شيء إلا سرّه الطفولي والمشؤوم: «من سيُحبّني بعد الآن؟».

(*) - **أنديميون**: الراعي الذي أحبّته سِلينه في الميتولوجية الأغريقية وحافظ لها زيوس على وسامته واستمراره في غفوة خالدة. (م المترجم)

III

منذ الأسطر الأولى لمقدمته لرواية **رجل كبير من المقاطعات** أعلن المؤلّف عن رواية أخرى ستتمّمُ الثلاثية «بطريقة توقظ الاهتمام وتحول دون برود الهمة» لكن القراء انتظروا أربع سنوات حتى ظهور **آلام المبتكر**. وذلك لبروز صعوبات أدبية جسيمة إلى جانب المتاعب المألوفة.

لم يقتصر الأمر على إعطاء تتمة لقصة لوسيان. فالمؤلّف الجديد يتطلّب اكتفاءً ذاتيًا، متكيّفًا إلى جانب ذلك مع توزّع روايتي **أوهام ضائعة** خلال العام ١٨٣٧. يجب الإمساك ثانية بالخيوط المرتخية لتلك المرحلة الأولى، ومن أجل تحديد الاهتمام بها تحويل مركز الثقالة الدرامية نحو شخصية داڤيد سيشار، والتجنّب، بأي ثمن، تقليص عالم المقاطعة الصغيرة، المعاد مجددًا إلى واجهة الأحداث، إلى زخرفة بسيطة لعودة الابن الضال. فالمقاطعة التي سيلقي فيها لوسيان مرساته بعد عبوره «الجحيم الباريسي» لم تَعُد بالتأكيد تلك الجنة اليانعة لأوهامه الطفولية.

غير أن موضوع المبتكر يغرز جذوره في قصيدة أحداث الرواية الأولى. فلنراهن على أنّ قرّاء العام ١٨٣٧ لن ينتبهوا إلى ذلك. الصيدلي شاردون «تحدث على أن يخفض سعر السكر إلى النصف باستخدام عامل كيميائي جديد، وأن يخفض بالمقدار نفسه سعر الورق بأن يستغل بعض المواد النباتية التي يمكن نقل زراعتها من أمريكة، والتي سبق أن استخدمها الصينيون في صناعة الورق وهي قليلة الكلفة، . . . واستحوذت هذه الفكرة على داڤيد ورأى فيها ما يحقق ثروة. . . » لم نكن نعرف أكثر من ذلك لو لم يسرِّ داڤيد العاشق إلى إيڤ بأنه «على مسار اكتشاف مربح» - وعلى هذا تجيب الفتاة «توقّعت أن تكون أحد هؤلاء المبتكرين. . . » هذا كلّ شيء، وهذا قليل. وبديهي أن مستقبل المؤلّف لم يكن محددًا.

ذكرنا عند البداية أن عنوان القسم الأخير كان سابقًا **لأوهام ضائعة**. ولو لم يكتب بلزاك رواية حول برنار پاليسي مصممة في المدة ١٨٣٢ - ١٨٣٣ لاقتنع وهو يعيد قراءة **فن الأرض**، المؤلَّف السيري الذاتي لهذا الحرفي المجدّ، والمبتكر العملي، بأنه لا يصلح أبدًا لدراسة **فلسفية** لكنه اكتشف مجدّدًا شخصية فذّة، لم يصوّرها أبدًا من قبل، شخصية المبتكر المتواضع المتحمس الشديد الملتفت نحو النسبي، والواقعي، الذي لم يهتم مطلقًا بالحقائق الميتافيزيقية، وبلتزار كلايس هو عكس ذلك الرجل. وهكذا لم يفكر بلزاك إلا للحظة في ربيع العام ١٨٣٥ كي يتخلص من **آلام المبتكر** العنوان الذي أعطاه سابقًا لسيرة برنار كلايس ويحل محله **البحث عن المطلق**، والأفضل أن يعيد انطلاقته من الصفر. وفي آب ١٨٣٦ وفي مرحلة إنشائه للرواية الأولى من **أوهام ضائعة** خطّ هذا العنوان على مربّع من الورق، **بيير شوسن أو آلام المبتكر** مضيفًا هذا الاستشهاد: «العالم لا يرحم المبتكر. **لويس لامبر**» بينما كانت مجلة أخبار باريس تعد بكل بساطة **بآلام المبتكر** (بتاريخ ٤ أيلول ١٨٣٦) التي أعلنت أيضًا على غلافي الجزئين الحادي عشر والخامس والعشرين من **الدراسات الفلسفية** (نهاية شهر آب أو أيلول ١٨٣٦).

في العام ١٨٣٦ وُجد موضوعان إذن عن المبتكر، وهما في تنافس ضمن الإبداع البلزاكي الأول داخل **أوهام ضائعة** والثاني مرتبط بموضوع پاليسي، خارجي، ودون روابط مع الأول ظاهريًا. ولم يتمّ الاندماج بين **آلام المبتكر وأوهام ضائعة** إلا في العام ١٨٣٩، في مقدمة **رجل كبير من المقاطعات**، حيث أعلن عن الرواية الثالثة للثلاثية لأول مرّة وأعطيت عنوانها النهائي.

غير أننا وقد تنوّرنا بنتاج بلزاك المنتج، وبما بدأنا بمعرفته من قوانين الإبداع البلزاكي، يمكننا أن نميز الآن على الأقل اندساسين في موضوع پاليسي ضمن الرواية الأولى من **أوهام ضائعة**، إنّما لم تنجح أيّ من محاولات التطعيم هذه في العام ١٨٣٦، لكنها برهنت عن ملائمة عميقة بين المشروعين، وهي تفسّر نجاح دمجهما في العام ١٨٤٣.

يلاحظ أولاً في الشخصية المرتسمة للصيدلي شاردون استعادة عابرة لشخصية كلايس، لكنّه متدن من الكيمياء القديمة وأهدافها الخيالية إلى الكيمياء وواقعها العملي. وهو صيدلي عرضاً وبدافع الحاجة - مثلما كان پاليسي زجاجاً أو مسّاح أراضٍ - ووالد لوسيان مثل پاليسي كيميائي بالموهبة وهو مثله أيضاً هاوي علوم طبيعية، وقد استهدف **التطبيق** العقلاني للعلوم في الصناعة[1]، فهذا العالم البراغماتي (العملي) يبعدنا عن كلايس الذي يلتحق به الصيدلي في **لحظته الأخيرة**، وفي لحظة احتضار قصيرة، عشية اكتشاف حاسم، رآه الطبيب الشهير دسبلن الذي كان يعالجه يموت وقد انتابته اختلاجات نفسية مفعمة بالغيظ[2]».

لم ينطفئ موضوع المبتكر مع هذه الشخصية ذات المرور العابر. ألم ترد عبارة عرّافية في المخطوطة هي تعليق منفلت عن شرود داڤيد سيشار خارج **الأعمال** الطباعية: ألا يرى نفسه وقد خصّته أكاديمية العلوم بجائزة في موضوع علمي (في الجيولوجية **المحذوفة من قبل المؤلف**؟) وقد كتبت السيّدة بيرار: «يبدو غريباً جداً، بل ومربكاً للشارح المتعوّد على كون داڤيد بطل صناعة الورق من نبات القريص أن يراه وقد منح جائزة على اكتشاف في الجيولوجيا». يتضح كل شيء عند الرجوع إلى موضوع پاليسي: فأبحاث التحريات عن المياه، والمعادن، والأحجار، وتشكّل المستحاثات القسم الرئيس من المواضيع الصغيرة المعالجة في **مقالات رائعة**، وقد استطاع م. م. ميشيل أن يخصّص مؤلفاً **لبرنار پاليسي هيدرولوجي وجيولوجي** (١٩٥١) أهي مصادفة بسيطة؟ پاليسي، كرجل علم يثير اهتمام بلزاك بل إنّه متعلق به بما يشبه «التعبّد» فهو يكنّ له إعجاباً كبيراً لأنه أول من لاحظ «الأحداث الجيولوجية التي يشكّل البرهان عليها مجد بوفون وكوڤيه[3]» فموضوع پاليسي يومض بقبس خافت.

---

(١) - في دراسة غير منشورة للسيدة كورين بوتلر تشير إلى أن أفضل ماقدمه پاليسي (١٥١٠ - ١٥٨٩) من مفاخر علمية، مساهمته في تطوير الزراعة وخاصة تقنية إصلاح الأراضي كيميائياً (تعديل الحموضة أو القلوية، إزالة الملوحة إلخ).

(٢) - انظر الصفحة ٢٨ من الرواية الأولى من ثلاثية **أوهام ضائعة «الشاعرن»**.

(٣) - عبارة وردت في رواية «لويس لامبر» (رواية من الدراسات الفلسفية لبلزاك مترجمة - منشورات وزارة الثقافة السورية ١٩٩٤).

خلال الكسوف المتعلق بمرحلة وجود لوسيان في باريس، طوّر داڤيد وفق أبحاثه الخاصة فكرة الصيدلي شاردون. وعرف لوسيان برسالة من أخته - ونحن نعرف معه - أن داڤيد يهمل مطبعته و «يقضي كلَّ أيامه في إجراء تجارب على صناعة الورق». إنّما وجب انتظار طبعة ما بعد الوفاة، ونقل قسم كبير من نص القسم الثالث من الثلاثية إلى القسم الأول، وسط محادثة الحبيبين على شاطئ نهر الشارنت، وخاصة البحث الصغير عن تاريخ الورق وصناعته. هي خدعة، لكنها ناجحة فقد أعادت الترتيب بطريقة مُرضية، في رأينا، لتوازن الثلاثية وحركيتها.

منذ العام ١٨٣٩ إذن، رُسم مسار داڤيد سيشار، وفونتانارس ومركبه البخاري، في العام ١٨٤٢، لا يمكن أن ينافساه بشكل جدّي، فموضوع المبتكر، في تضييقه ضمن رمزية ساذجة، لا يمكن بسطه في تلك المسرحية المسلية **موارد كينولا**، وقد وجد بالمقابل في داڤيد شخصية مناسبة، بصورة متميّزة، لتمثيله، فلا شيء أقرب إلى المعقول، في الواقع، من اهتمام عالم، تلميذ لآل ديدو، بصناعة الورق، خاصة إن كان يسكن في عاصمة الصناعة الورقية التي لا جدال فيها. لكن من يعلم أخيراً فقد تكون رواية داڤيد هي نهاية مشروع قديم جداً لسرد حكاية هذا **الورّاق** الغامض الذي خطرت فكرته للور، وتهيّأ بلزاك لوضع الخطوط الأولى لتنفيذ تلك الفكرة في العام ١٨٢٢[1]، وإذا كان ذلك الموضوع القديم قد وجَد شخصيته فإن رواية **أوهام ضائعة** وجدت معه نفحتها الثالثة مأساةً مبتكرةً، مختلفة تمامًا عن اعتبارها ملحقًا أو **تتمة** للرواية الثانية من تلك الثلاثية. «إيڤ، حبيبتي إيڤ، على بعد خطوتين من هنا، في سانت، وُجد أحد كبار رجال فرنسة خلال القرن السادس عشر، وقد ابتكر صناعة الميناء، وكان السابق الماجد لبوفون وكوفيه، فقد أكتشف الجيولوجية قبلهما، هذا الرجل الساذج! إنّه برنار دي (هكذا) باليسي، وقد آلمه هوى بحاثة الأسرار[2]»، هكذا هتف داڤيد وهو يضم زوجته،

(١) رسالة بلزاك إلى أخته لور في ١٤ آب ١٨٢٢.

(٢) - الرواية الثالثة «آلام المبتكر ص   في المخطوط.

ولاشك أن پاليسي الذي يشيد به داڤيد استخدم «نموذج إبدال» للشخصية، والتلميح إلى الجيولوجية (وهو الثالث الذي نصادفه) يتيح التحديد بشكل موثوق للظهور العابر للموضوع نفسه في الرواية الأولى.

يوجد في بداية بحث عن الزراعة بعض كلمات عن تسكع يقوم به برنار پاليسي على ضفة نهر الشارنت، لكن بلزاك يستوحي من مولّفه **فن الأرض** خاصة فكرة المبتكر، ولاتزييف أوتقليد ظاهر: وإنما تغيير وضع صريح. بُحثَ عبثًا لدى پاليسي عن مستند يشير إلى أنّه فكر بصناعة الورق، فلم يعثر، كما لا تشير الرواية إلى أيّ شكاوي مريرة لداڤيد من عدم فهم أو تقدير زوجته لأبحاثه. وشخصية إيڤ، السابق وجودها في الرواية، تجسيد للمودّة الهادئة والشجاعة، يعطي لمشهد الحياة الخاصة، وهو الوضع المعاكس الاضطراري لذلك المشهد من الحياة العقلية، تلونًا مختلفًا جداً.

في مؤلَّف پاليسي حوار **الممارسة العملية** في ردّها على **التفكير النظري**. المؤلّف يروي حكاية سعيه العنيد المجهد للتوصل إلى **الميناء الأبيض** «أو اصل العمل كلّ الأيام في دق وسحق مواد جديدة» سنتان من التلمسات المتواصلة دمرت ذلك العبقري البدائي، فقد بنى فُرنًا بيديه، وقام بنفسه بجميع الأعمال: «كنت أعاني من جهود مضاعفة، أدق وأسحق، وأعمل على إحماء الفرن». هذه الصور المستحوذة والمتسلطة على الباحث نتيجة جهود السحق، ومن الصراع مع المادة، في أعمال تحتاج لقدرة هرقل، وصبر سيزيف تتكرّر دون انقطاع لدى پاليسي، وكذلك أيضًا لدى بلزاك: فداڤيد يقيم تحت ظلّة فناءِ مطبعته فرنًا ذا حوض نحاسي، يحطم ويسحق النباتات بمدقات من الجذوعَ الخَشبية، ويمزج العجينة، ويعمل على غلي الحوض النحاسي في ورشة مرتجلة في مارساك لدى المبتكرين، تتراكم الديون، ويتواصل العمل الليلي، وتتفاقم عدوانية المعارضين. وقد قيل عن پاليسي: «يستحق الموت جوعًا لأنه أهمل مهنته»، والعجوز سيشار يوجّه اللوم نفسه لابنه لأنه أهمل المطبعة. كل يوم هو عشيّة غد الانتصار والنجاح، وكل يوم هو تلاشٍ لا

يُحتمل لآمال العشيّة. فطلاء الفرن يشكّل فقاعات تتلف الميناء عند تفجرها، وهذا عيب في المادة، وفي الطهي، ووجود شوائب عارضة يُوجب إعادة العمل من بدايته. حاول پاليسي خلال خمسة عشر أو ستة عشر عامًا ن يحصل على طهي منتظم. لم يكن يسعى إلى ابتكار جديد وإنما يعمل على تحسين السابق. عانى داڤيد من الصعوبات ذاتها مع مشكلة تغرية الورق في الحوض، وإذا كان قد توصل إلى إدراج نباتات جديدة في عجينته فقد فشل في تحقيق استواء التغرية وانتظامها. نجح في صنع ورق، ڤلين الصقيل، وورق المسوّدات الهزيل، لكن ورق الطباعة الرائج من صنف القوقعة خرج خشنًا، وعبثًا حاول التغلب على الصعوبات، متأرجحًا بين الأمل والفشل دون أن ينثني أو يتراجع، وربّما كان على وشك الوصول إلى هدفه عندما سُلب منه ابتكاره فكان أسوأ حظًا من نموذجه الواقعي.

إذا كان پاليسي يرتسم خلف سيشار، فإنّ المؤلّف نفسه يتوحّد بعمق في بطله المهدّد باستحقاق دين الأخوين كوانته: «وخلال النصف الأول من العام ١٨٢٣، أقام سيشار في مصنع الورق مع كولب منصرفًا بكليّته إلى عمله مهملاً غذاءه، وثيابه، وشخصه[1]». هذه الصفحات الأخيرة المحمومة، التي تصورّ صراع داڤيد ضد المادة والزمن، كتبها بلزاك المستحثُّ باستحقاقات أخرى، وهو في لانيي، حيث يعسكر ليلاً ونهارًا في ضجيج مطبعة جيرو وڤيالات، وعليه أن يفي بتعهداته تجاه لوكن - كوكن الصارم عديم الشفقة، وينهي الجزء الثامن من الملهاة الإنسانية الذي يحوي رواية **أوهام ضائعة** ليكون جاهزًا للإقلاع من ميناء دنكرك في ٢١ تموز، وقد انهى **داڤيد سيشار (آلام المبتكر)** في ٣٠ حزيران، وفي أول تموز بعد أن أسرّ «بآلام ليس لها ما يماثلها - آلام المبتكر، توجّه بالشكوى إلى السيّدة هانسكا: «هوذا أربعة أسابيع وأنا مُعسكر هنا، على سرير ميدان ضيق، دون وسائل الراحة، أعيش طوال الوقت في المطبعة». أبدًا لم يكن المؤلّف أكثر قربًا منه مثل هذه المرة إلى شخصية بطل روايته (وهو قربٌ ربّما أضرّ مع ذلك بالشخصية المعجل إلى الغرق

(١) - انظر الرواية الثالثة «آلام المبتكر ص ٢٢.

في سبات المنطقة عند ابتعاد المؤلف عنها). هذه التشابهات في الوضع نظراً لضيقها لا تسمح بتماثل خالص وبسيط بين الكاتب وبطله.

تقليد معنّد (لدى فايتاز، وآدم، وورمسر، وآخرين...) نسبَ إلى بلزاك تأمّلات داڤيد سيشار العلمية. في العام ١٨٣٣ خُمِّن أن بلزاك تصوّر بنفسه إنتاج ورق قليل الكلفة لم يعرف صناعيو بيزانسون وأنغوليم استثمار مبدئه الثوري. إننا أمام إحاطة المؤلف بسيرة مفخّمة. وهو بعكس بومارشه أدنرفال أولرو(*) لم يحقق في الأعمال الكثيرة التي حققها أي اكتشاف صناعي، أما ما يتعلّق بالعينات الشهيرة من الورق التي أرسلها إلى زولما كارو في العام ١٨٣٣ فقد بيّنا في مكان آخر أنّها تتعلّق بطلبية ورق شخصية خاصة بالمراسلات مع الغريبة، وهذه الطلبية من ورق المراسلات ومفاوضات السوق لجمعية الاشتراك اختلطت بشكل وثيق مع مراسلات السيدة زولما، مما سبب هذا التشوّش. لنضف أن شروط بلزاك المتشدّدة حول أصناف الورق في العام ١٨٣٣ - وهنا أيضًا ننفي نفيًا قاطعًا الرأي السائد - تظهر جهلاً فاضحًا لدى هذا الطباع السابق في هذا الموضوع وخاصة العلاقات بين الوزن - الجودة - السعر. وإذا كانت زولما قد اقترحت عليه أن يتوجّه إلى آل مونغولفيه الذين يصنّعون ورقًا باستخدام مواد جديدة، فإن بلزاك لم يتعرض أبدًا إلى موضوع تركيب الورق، وقد دفعه جهله لهذا الموضوع في العام ١٨٣٣، بعد عشر سنوات إلى تأمين معلومات فائقة في هذا المجال سيرد ذكرها.

هل برهن، كما قيل، عن حَدْس عبقري؟ أبدًا. فقد اكتفى في العام ١٨٤٣، **بشكل إرادي**، من ملائمات **الخيال العلمي** الارتدادية... ألم يصرّح هو نفسه بأن أكثر من مئة براءة اختراع ذات علاقة مع مواد جديدة تصلح لإدخالها في عجينة

(*) - بومارشه، بيير (١٧٣٢ - ١٧٩٩) كاتب فرنسي ابن ساعاتي حاول أن يحسن في آلية تسيير الساعات.

نرڤال، جيرار (١٨٠٨ - ١٨٥٥) كاتب فرنسي ابن طبيب، بدأ بدراسة الطب، انصرف إلى الأدب، اشتهر بمغامراته البحرية.

لرو بيير (١٧٩٧- ١٨٧١) اشتراكي فرنسي - سان سيموني - نائب في الجمعية التأسيسية. (م. المترجم)

الورق قد سُجِّلت خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة؟ لكنه خدع بمشقة كبرى قارئه، خاصة وأن صحيفة **الباريسي**، التي ستظهر فيها مسلسلته الروائية **إستير** بدءاً من ٢١ أيار، أعلنت بأحرف بارزة في ٢ و ٤ نيسان بأحرف عريضة ما يلي:

> **شركة عامة مشكّلة لاستثمار خيوط أشجار الموز وغيرها من النباتات النسيجية في المارتينيك وغوادلوب وغويانا القابلة بصورة رئيسة لصناعة الورق، أو الغزل والنسيج برأسمال (١,٠٠٠,٠٠٠) فرنك موزّعة على ٢٠٠٠ سهم بقيمة ٥٠٠ فرنك للسهم الواحد.**
> **عنوان المكاتب: ١٣ شارع ريشليو.**
>
> **تحت رعاية كريمة مشجّعة، وبفعل الأمور الراهنِة التي لاتُدحض كرست الشركة العامة لأشجار الموز نفسها للمهمة الشريفة والنبيلة، مهمة إيجاد مادة أوليّة لاتنفد للصناعة الفرنسية، وتهيئة عنصر ازدهار جديد للبلاد... وهكذا من المستحيل أن نقدّم لرؤوس الأموال استثماراً أكثر ريعيّة، أو أن نُعدّ عمليّة ذات مستقبل أكثر ضماناً أو إشراقاً. تسجّل الاكتتابات في مكاتب الإدارة، حيث تجري كل يوم تجارب علنية عامة.**

يكفي الرضى بتقاليد الخيال الروائي ليبدو لنا داڤيد سيشار في ١٨٢٢ و ١٨٢٣ يقوم بعمل رائد، لكن لا شيء من هذا. فليس تكييف الطرق الصينية في صناعة الورق على النباتات الأوروبية وليد البارحة. فمنذ العام ١٧٨٦ ليوريه دليل الذي لمح إليه بلزاك سريعاً أعطى للطباعة مؤلّفات شارل ميشيل دي ڤيليت على ورق من قشور جذوع الزيزفون وورق الخطمية. وقبل ذلك بعشرين سنة، صنّع جاكوب - كريستيان شيغر، في راتيسبون، ورقاً من البطاطا وحتى من القريص مثل داڤيد. وعيناته ماتزال حتى الآن في حالة حفظ ممتازة، وقد أمكننا أن نتأملها بإعجاب، في العام ١٩٧٢ في معرض كتاب المكتبة الوطنية. وفي العام ١٨٠١ سجّل سيغن براءة من أجل صنع ورق القشّ وغيره من المواد النباتية، وفي العام

١٨١٧ سُجّلت براءة بريتا (بقايا البطاطا) وفي ١٨٢٠ براءة هيريغوين (من القشّ الخالص) وقد ابتاعها في ١٨٢٨ ثانية بلّيترو التاجر في أنغوليم. وما بين ١٨٢٠ و ١٨٣٠ غدت سوق القنب والحلفاء والخشب وجذور عرق السوس والقش والقريص وحشيشة الدينار والذرة والشوفان ولبّ الشوندر موضوع تسجيل براءات، وقد أشار ديماره في مفصله الكلاسيكي (١٧٨٨)، وهو الذي عرف قبل داڤيد إمكان صناعة الورق من أي نوع نباتي، إلى العقبة الرئيسة في هذه الأبحاث: تخصيص مساحات واسعة من الأراضي لزراعة النباتات المخصّصة لهذا الغرض، وصعوبة التخزين، ودوريّة المحاصيل. ولم يقترح بلزاك أو داڤيد حلولاً لهذه المشاكل ولم يتصوروا تصنيع العجينة من الخشب! ولو فعلا لاستحقا اسم السابقين، بينما استخدم مونغولفيه خشب الزيزفون قبل العام ١٨٤٠. لنكن منصفين، فالفكرة التي طرأت للحظة في خاطر داڤيد وهو يمضغ ساق قُرّيص - انتاج تأثير فعّال بمشاركة آلة وعامل كيميائي - تُعَدُّ توقُّعًا حاذقًا. لكنه ليس الوحيد الذي قام بإجرائه.

جابه داڤيد مشكلة أخرى وهي **التغرية في الحوض** التي تعيق منذ مدة طويلة صناعة الورق في فرنسة. ففي زمن داڤيد كانت تتم التغرية باليد بشكل شبه حصري، التي اتبعت بعد ذلك لسنوات كثيرة في صناعة الورق الهولندي الصقيل، وبالرغم من شيوع استعمال التغرية في الحوض، العام ١٨٤٣، كانت النتائج ماتزال هزيلة. فهل يقوم مجد داڤيد الوحيد على أنه حسن، منذ العام ١٨٢٣، في روايةٍ هذا الوضع الرديء؟ لم يتحقق له هذا. فمنذ العام ١٨١٥، كلّفت شركة تشجيع أبحاث التصنيع الوطني آرسيل ومريمة بإجراء التجارب على التغرية في الحوض، وقد حققا نتائج هامة، كما يذكر المعجم التكنولوجي (في بند صناعة الورق - الورق) وهو مؤلّف يعرفه بلزاك وقد سبق له استخدامه.

لكن بلزاك لم يسع إلى خداع قارئه. ولم يجرِّب أن يحرك مشاعر جمهور جديد بموضوع رواية جديد، الموضوع العلمي الذي يحمل طابع التحديث أو

يستشرف المستقبل. إنّه يريد أن يكون شاعر العصر الذي يموت، بقدر أو أكثر من كونه شاعر العصر الذي يولد. أو بالأحرى إنه مسحور بما اختفى أو بما هو في طريقه إلى الاختفاء، بالانهيار، أو الفرقعة اللذين يُعلنان الأزمنة الحديثة، هل وصف مرّة واحدة كيفية عمل آلة، أو عملية بناء منزل؟ إنه يفضل أن يلاحظ بصمات الزمن والتاريخ على واجهة منزل آل غيوم في رواية **مجد وشقاء**، فمغامرة الصناعة لاتهمّه كثيراً، أو على الأقل لاتفرض عليه الغزوات المدهشة للحداثة شيئًا، إنه لا يحلم إلا قليلاً بالمستقبل. وفي نتاجه المنبسط على الواقع، أي مكان يحتل تصنيع المناطيد، أو استخدام البخار، أو الإنارة بالغاز، أو السكة الحديد، أو التصوير الضوئي؟ جابه طابع حي الماريه أزمة العام ١٨٢٦ بطابعات ستانهوب لكنه يصف ضواغط الأب سيشار اليدوية. وهو الذي تردّد في العام ١٨٣٠ على مطبعة سليغ في شارع الصائمين حيث تعمل الطابعات المكانيكية لهذا المهندس لم يجد ما يقوله إلا إنّها تنشر رائحة خبيثة، وعندما فكر أن يظهر على المسرح مبتكراً جعله مكانيكيًّا يبتكر المركب البخاري (في القرن السادس عشر).

هذا لم يمنع مؤلّف داڤيد سيشار من أن يسعى إلى التزوّد بالوثائق بدقّة ونزاهة. غير أن قلّة المفردات التقنية تشير إلى أنه لم يُرد التبحرّ العلمي في موضوع المعاملات المصرفية والأعمال المطبعية، ومجموعة من الصور تشهد على الشيء المرئي، ومن المستحيل ألا تكون نزهاته على ضفاف نهر الشارنت خلال إقامته الثالثة في أنغوليم لم توصله إلى أحد مصانع الورق وقد سبق أن قلنا إنّ من المرجح أن يكون أول تقاطع مع پاليسي **والآلام** و «الورق» قد حصل في تلك المدّة، وربّما في الوقت الذي بدأ فيه العمل، ربيع العام ١٨٤٣، قد حضر التجارب العامة التي أجرتها شركة أشجار الموز؟ فاللمحة التاريخية الممتازة عن صناعة الورق تكشف عن توثيق واسع. ففي أوّل مقال عن الصين والصينين لبورجه[1]، يؤكد أنه قرأ في مرحلة شبابه پ. دي هالد والأب غروزيه اللذين أشار إليهما في روايته، وكل منهما قد

(١) - ظهرت في الفصل التشريعي Le Lagislature ١٤ و ١٨ تشرين أول ١٨٤٢.

نشرَ **وصفًا عن الصين** (١٧٣٥ ، و ١٧٨٧) وخصّص كل منهما فصلاً عن صناعة الورق، ولكن كما بيّن ج . هـ . دونار[1]، يزعم بلزاك أنه اقتبس من هالد وكمپفر (**تاريخ اليابان ١٧٢٩**) تفاصيل عن **البروسوناتيا** (هكذا) لكنها لم ترد بهذا الاسم في مؤلّفيهما. أهو دلال كاتب أم رعونة؟ و ج . هـ . دونار يراهن على قراءة سريعة **لموجز صناعة الورق** تأليف جوليا دي فونتنيل وپواسون (١٨٢٩) الذي يتيح شرح الالتباس ويمكن في الواقع أن يكون بلزاك قد استمد معلوماته - كما فعلنا - من هذا المؤلف المختصر، أو من مؤلف لي نورمان (١٨٣٣) الذي ظهر أيضًا في مجموعة الموجزات روره. يصعب البرهان على ذلك. **فالمعجم التقني** الذي سبق ذكره يمدّه بجميع التوضيحات الضرورية عن صناعة ورق الصين وتركيب **البروسونتيا**. أخيرًا يكفيه أن يفتح مجموعة **نشرة جمعية التشجيع** الرائعة، هذا الصرح من الأبحاث الصناعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ليجد، سنة بعد أخرى، أخبار الأبحاث عن صناعة الورق على قاعدة مواد جديدة. من شبه المؤكّد أنه استخدم تقرير مريمه (١٨٣٤) عن الورق المصنَّع من القصب، أو تصنيع إشاركون، وهي دراسة يمكن أن تؤمن له مزيدًا من المعلومات عن ارتفاع أسعار الخرق والضرورة الماسّة لتأمين مواد أوليّة بديلة. لكن هذا الجرد لمصادر بلزاك بعيد عن أن يكون شاملاً، ولا يمكننا التخمين عما إذا كان قد استعلم من السيّدة ماسون أو اللورد ساليسبوري أو قضية بروست وكاردون.

تفوّق بلزاك على تبحّره في تحليله المستقبلي لأسباب ونتائج عدم التناسب المتزايد بين عرض الخُرَق وطلبها، مما هو مؤكّد حاليًا حتى أنّ أحد الاختصاصيين الحديثين في تاريخ الورق استشهد بصفحة **كاملة** من تحليل بلزاك ليشرح الآليات الاقتصادية والديموغرافية (السكانية) لتلك الأزمة التي أدت إلى استخدام عجينة الخشب.

مرجعان من المراجع التي أشرنا إليهما (المعجم التقني ولي نورمان) يشيران إلى قضية صناعية مدويّة، ربما فكّر بها الكاتب عندما قصّ سلب الأخوين كوانته

(١) - الحقائق الاقتصادية والاجتماعية في الملهاة الإنسانية - صادر عن أرمان كولن العام ١٩٦١ .

لابتكار داڤيد. ففي العام ١٧٩٩ حصل نيكولا - لويس روبير، المستخدم لدى ديدو - ليجه، ومدير مصنع ورق إسون على براءة اختراع آلة صنع ورق مستمر في طوله مما يُعَدُّ، كما نعلم ثورة في ذلك الفرع من الصناعة ونازع ديدو الذي يموّل المؤسّسة سريعًا، المخترع على براءته (دعوى منذ العام ١٧٩٩) وألزمه على أن يتنازل له عنها في السنة التالية، لكن المصالحة بين الرجلين كانت عارضة وقد أوجبت على روبير أن يتعهد بتقديم مخططات آلة جديدة، تتضمّن وفقًا لما ذكره هـ. غاشه الذي سجّل هذه المأساة الصناعية «بعض طرق خاصة صممها لتغرية الورق» لم يفِ ديدو بتعهداته التي قطعها لروبير، وهاجر إلى إنكلترة حيث صنّع بمساعدة نسيبه جون غامبل آلة روبير المحسّنة. أقام روبير دعوى أمام المحاكم لتحصيل حقوقه مستنداً إلى براءة الاختراع المسجلة باسمه في العام ١٨١٠ لكن ديدو عمد إلى تسجيل براءة صنع آلته الإنكليزية المحسّنة بواسطة برت، وتشارك هذا الأخير مع غريڤيش لاستثمارها لكن وجب عليه بدوره أن يخاصم ديدو بدعوى طال أمدها أمام القضاء. ليست العبرة في المجريات القضائية التي نسي أمرها، إنّما في مصير المبتكر العبقري روبير الذي لم يحصل على أي نفع ماديّ من ابتكاره ومات وهو يعاني من الفاقة والعوز في العام ١٨٢٨.

كان المهندس سورڤيل صهر الروائي يقاتل ببأس منذ عشرين عامًا ضد قصور أو معارضة الإدارة وكسل المكتتبين تجاه تحقيق مشاريعه في شق الأقنية أو تحسين الطرق الحديدية، ويمكن أن يكون قد أعار بعض سماته لصورة داڤيد سيشار الجديدة. لكن التشابهات بين داڤيد وسورڤيل التي أشارت إليها السيدة آن - ماري مينينجه[1] تبقى في الحالة التي وصلت إليها تحرياتنا في نطاق العموميات. لتقوية بنية الثلاثية دمج بلزاك كما رأينا القسم الأكبر من استطراده عن الورق في القسم الأول - رواية **الشاعرين**. ويمكن أن نلاحظ السيرورة المعاكسة في **آلام المبتكر** حيث حاول أن يقدّم إيضاحات جديدة عن الموضوع الطباعي، لكنه توقف عن ذلك في العام ١٨٣٦ رغم **التحضيرات** الواسعة التي أعلن عنها.

---

(١) - «أوجين سورڤيل، نموذج عائد إلى الظهور» السنة البلزاكية ١٩٦٣.

بعد أن غدا داڤيد **مبتكرًا**، أنعشت إيڤ المطبعة المهجورة، وارتجلت بعض عمليات ذكية فأغرقت البلاد ضمن دائرة اثني عشر فرسخًا بصور إيپنال، وطبعت ٥٠٠٠٠ نسخة من **تقويم الرعاة** للأميِّين، لكنها لم تنقذ المطبعة القديمة، وفي مسرى العودة إلى الأشهر المنصرمة منذ رحيل لوسيان، يجد السرد نفسه ممغنطًا بوضع المشروع البدائي القديم، وهو وضع لم يعالج أبدًا لكن أشير إليه بكلمتين على غلاف عنوان العام ١٨٣٦: «قنوط الأب سيشار عند بيع طابعاته» أُوقف الطابع في الواقع، ولم تتمكن إلاّ حيلة تمّت في آخر لحظة من تأجيل البيع. لكن العجوز سيشار لم يعد كما يجب أن يكون، فقد نسي الأب ابنه، وهو ككَرّام يسخر من الطبّاع، وقد قتلت عنجهية الملاك فيه سجايا العامل الحُرفي. وأفلت الموضوع الطباعي نهائيًا عبر مماس في نقطة على الدائرة دون التمكّن من إعادته ووضعه على محور السرد القصصي.

يمكن تلخيص فشل إيڤ باللازمة المكرّرة في جميع **مشاهد رجل كبير من المقاطعات**، فقد عاد بلزاك إلى موضوعه المفضل، ارتهان(*) الإنسان بالقوى التي ولّدته، المال، والملكية، والسلب النهائي للمبدع سواء سُمي إيڤ أو لوسيان أو داڤيد. وإذا كانت الآلية العمياء للنظام قد انتهت إلى رفد داڤيد، الذي اختُلِس ابتكاره، بفيض من الذهب، فإن هذا الانتصار المتأخر، وغير المعقول يفقد الصراع المتوحد للفرد بالذات كيانه. والعبرة الاجتماعية هي تلك التي سيحدّدها غيزو(**) فيما بعد، فهريرا على حق في قوله: «هذا هو دين شرعتكم الدستورية، التي لا تهتم من الناحية السياسية، إلا بالملكية الخاصة، ألا يعني هذا القول لجميع الأشخاص: اعملوا على أن تكونوا أغنياء[1]؟ . . . » و «ترف الشرف» سيأتي فيما بعد.

(*) - الارتهان أو الاستلاب Aliénation: حالة شخص يصبح بفعل ظروف خارجية اقتصادية أو دينية أو سياسية عبدًا للأشياء ويعامل هو نفسه كشيء (عن معجم المنهل).

(**) - غيزو، فرنسوا (١٧٨٧ - ١٨٧٤) أديب ومؤرخ ورجل دولة فرنسي قال بتدخل الدولة في السياسة مما سبب ثورة ١٨٤٨. (المترجم)

(١) - انظر الرواية الثالثة (آلام المبتكر) ص ٧٠١.

هذا التجانس في قدر الأشخاص لا يكفي لتوطيد وحدة المؤلَّف. وانطلق بلزاك بعيداً، فحاول أن يجنّد جميع أبطاله في فعالية واحدة، فعالية يُستخدم فيها الارتهان الاقتصادي، بطريقة ما دافعًا مأساويًا. وما أراد فعله، صرّح به، «إنّها مأساة ماليّة» غير أنها مضاعفة «بمأساة قضائية» وهو لا يشكّ بأنّ القارئ سيوليها اهتمامًا كبيراً، «لأنه سيرى فيها آليّة إجراءاتنا القضائية» وقد قارن غالبًا صياغة حبكة بمباراة شطرنج، و «المأساة المالية» هي نوع من ذلك المفهوم الذي قد يساعد على دراسة عمل الرواية على ضوء نظرية اللعب، كما توقّع د. مندلسون فقارئ رواية **أوجيني غرانده** يرى نفسه وقد جُرِّع بشكل عشاء، مع آل كروشه درسًا غريباً حول التفليسات تتخلله تأتآت الأب غرانده التكتيكية. لكننا نستخلص من رواية **سيزار بيروتو** فنّاً مسرحيّاً كاملاً حول الإفلاس. وقصة غرام السيدة دي ڤاندنس بناتان في **ابنة حواء** مختلطة بطريقة معقدّة بطوارئ كمبيالة. كذلك وجب، بدءاً من طبعة سوڤرت، خمسين صفحة من «صراع قضائي للتوصل إلى حل العقدة الدراميّة في رواية **غرفة العاديات القديمة**.

لكن هذه التقنية لم تُطبق في أي مكان آخر مثل تطبيقها في **آلام المبتكر**. ثلاثة سندات مزورة من قبل لوسيان وثلاث أو أربع شخصيات، الأخوان كوانته الطامعان في سرّ دافيد، وبتي - كلو وسريزه الراغبان في جمع ثروة، لا يلزم المزيد لتشغيل «الآلة الرهيبة» للمصرف والإجراءات القضائية التي تهلك المبتكر. سيحلّل الكاتب خطوة خطوة التزايد الهائل للقيمة الوهمية المسحوبة من قبل لوسيان، ويمكن الأسف على الحذف الجاري في طبعة فورن لتقسيم الفصول الذي يوقّع تقدّم السرد الروائي، إنّما توجد في ملاحظات المتغيّرات، العناوين المحذوفة.

هنا تبدو الدقّةُ التاريخية للروائي شرطَ النجاح الأدبي. إنّه يعلم عما يتكلَّم. فالغلام الساعي لدى المحامي المرخص غويّونه - مرڤيل قد بدأ المخاصمة في الدعوى من مقلوبها، وحالما ترك مجمّع رجال القضاء عرف معاناة الزبون. وهكذا فبين يدي مؤلّف **آلام المبتكر** أجمل مختارات الأوراق ذات الطابع التي يمتلكها أي

روائي آخر قبله: مجموعة احتجاجات (بروتستو)، وإشعارات، وأوامر دفع، واعتراضات، وتكليفات بالحضور أمام المحكمة، وأحكام، وكلها مصنّفة ومحفوظة حسب الأصول. وسيستخدمها كما سيستخدم هذه الآلام التي يسميها شارع الماريّه، ووردة - ووقائع باريس، ففي ٣ تموز ١٨٣٤، كلّف بالحضور بصفته طابعاً قديماً أمام محكمة التجارة، ليستمع إلى حكم عليه بتسديد باقي رصيد تصفية سند يعود إلى ٢٠ تموز ١٨٢٧. ولن يكون هذا الحادث المزعج الأخير من نوعه، ففي ٨ شباط ١٨٣٧ صودرت عربته، وهي بقية رخاء كاذب كان عابراً. وفي الشهر نفسه لوحق بلا هوادة من قبل دُوكِت، شريكه في ملكية صحيفة **الوقائع**، ولعب مع مأموري الحجز أبرع دور ماكر وهو يزوغ منهم بين عدة مساكن في شايو وشارع بروفنس، وصدر أمر بالقبض عليه وسجنه لتخلفه عن تسديد دين مستحق، فهرع للاختباء في منزل خليلته الكونتة غيدوبوني - ڤيسكونتي، واكتشف مكانه، لكن شهامة الكونتة ودفعها قيمة الدين جنّبته في اللحظة الأخيرة سجن كليشي، باختصار، مامن واحدة من محَن داڤيد إلا وتعرّض لها.

في العام ١٨٤٣، استمر في تأمين نفقات حياته من عمله، وبالوسائل المتيسرة له، مسترشداً منذ بضع سنوات بالمحامي غاڤو، «رجل ذو طبع رائع»، مستشاره والمحسن إليه، وقد كتب للسيدة هانسكا منذ ١٦ كانون أول ١٨٤٠: «إنّه يجمد ديوني بإجراءات قانونية» هذا المعين يسهر الآن على مصلحته بتفان شبه أمومي. والصورة المُحسَّنة التي يطري بها «محامي باريس» في **آلام المبتكر** هي ثناء جليٌّ لغاڤو، الذي يسميه بلزاك «ولي أمره» أمّا محامي المقاطعة المتمثل في بيتي - كلو، فربّما تصوره النسخة السالبة لغاڤو، فبدا بمثل هذه القتامة، أيّاً كان الأمر، بينما كان الروائي يطلق مأمور الحجز، والمحامي المرخّص، وحُرّاس التجارة لملاحقة بطله، راح يسأل ولي أمره طالباً توجيهه في دغَل الإجراءات القضائية. ونحن نعرف ذلك بالضبط من شهادة ثمينة، لكنها وردت من شاهد مجهول، وقد أوردها إميل دشانل[1] وها هي:

(١) - فيزيولوجية الكتاب والفنانين، نشرها شيت، العام ١٨٦٤ ص: ١١٨ - ١١٩.

نَقَل إلي أحد رفاقي في الكلية الذي يمارس مهنة المحاماة التفاصيل التالية:

كنت أعمل كاتبًا لدى غافو، صديق بلزاك الذي أهداه أحد مؤلفاته. كان بلزاك يتردّد في أغلب الأوقات على المكتب. في تلك المرحلة كان يصارع ضد دائنيه ومن أجل أن يحمي حقوقه كمؤلّف، كنت في الظاهر وكيله المفوّض لقبض المبالغ المترتبة له لدى ناشريه، وكان بلزاك يحبّ التحدّث عن الإجراءات القضائية، يجلس حينًا إلى مكتب، ويستلقي حينًا آخر على ديوان عريض، أو يتكوّر قرب مِقرأ، ويطلب أن تشرح له تلك المعارك الصغيرة المتنوعة في مرافعات المحامين وكلاء الدائنين والمدينين والمذكرات التي يقدمونها والإجراءات التي يتخذونها. كان ينشئ في ذلك الوقت رواية داڤيد سيشار. كنا ومجموعة القوانين بين أيدينا نتابع معه جميع الشكليّات الإدارية والقانونية التي يمكن لدائن أن يطارد باللجوء إليها مدينه، والدفوع التأخيرية التي يعترض بها المدين، ثم الرسم المترتب على كلّ إجراء، والتكاليف من جميع الأنواع، وكيف بعد وقت قصير، بفضل ذلك الفن الحاذق من الإجراءات يمكن لمصلحة الضرائب ومأمور الحجز أن يغتنيا على حساب تدمير المدين، ودون استفادة الدائن. أكثر ما يثير الفضول آنذاك رؤية بلزاك يضحك مقهقهًا حينًا، وترتسم على وجهه مظاهر الحزن حينًا آخر، وهو يحث دائمًا، ويسأل دون انقطاع، يريد أن يعرف شكل الإجراءات وتفاصيل الرسوم، ويطلب أن يشرح له مدلول كل كلمة من تلك اللغة التي تبدو غريبة لمن لم يعتد عليها، لكنها لغة لها الحق والأسباب الموجبة للوجود، وقد تمكّن بلزاك، بتوقّد ذكائه أن يفهمها بسرعة وبشكل يدعو إلى الإعجاب.

بينما كان بلزاك يحرك أمثال برنار پاليسي في مطبعة جيرو وفيالات في لايني، كان صاحب حق الانتفاع، لويس فورتينه لوكن، وهو مصرفي في الخامسة والعشرين من العمر، يراقبه عن كثب. فهذا «الماكر» ذو الأسنان الطويلة أعطى، على الأرجح، بعض الملامح لكوانته، الأخوين المصرفيين، اللذين قيل لنا عنهما إنهما يتهرّبان من دفع ضريبة المهنة. لكن بلزاك فعل ما هو أفضل من مراقبة لوكُن، فقد أشركه في أعمال المتابعة التي يقوم بها في المطبعة، وسيكتب فيما بعد في **مذكرة** يكشف فيها سوء نيّة هذا المضارب: «اطلع لوكن على سحب كلّ أوراق رواية **دافيد سيشار**. وأخيراً تكرّم بمعونته في تقديم المعلومات حول **حسابات الرجوع**». من هنا نتجت هذه الدقّة، غير المألوفة لدى بلزاك، في الكشف الحسابي للأخوين كوانته. فالنموذج المفترض مدّ يد المساعدة للشخصية الروائية، وهو وضع نعترف أنه مبتذل. لكنه ليس الوحيد لدى بلزاك، وقد نتج عن هذا التعاون «الأدبي» خاتمة غير روائية، وهي فعلاً قضائية، مما يبرهن على أن الكاتب قد استوثق من مصدر جيّد. لجأ لوكن إلى مناورات ملتوية لاستغلال بلزاك، فقد اشترى منه ثلاثة مولّفات ليبيعها لدومون (أو بالأصح دُفِع له لتأمين هذه العملية) ثم عمل على أن يلاحقه دومون ليلاحق بدوره الروائي بطلب تعويض عطل وضرر أمام محكمة التجارة مع انزال عقوبة السجن. «إنّها سرقة يقوم بها محتالان باسم القانون» وفق تصريحه في رسالة بتاريخ ١٥ تموز ١٨٤٤ إلى السيدة هانسكا، غير أن هذه القضية انتهت في شهر آب ١٨٤٤ بمصالحة ملائمة لبلزاك.

عيب الدراما الصناعية، الضروريّة، والمدقَّقة بتفاصيلها، التي تشكل القسم الأعظم من رواية **آلام المبتكر** هو اتقانها ذاته. استخدمت بالتأكيد جميع عناصر الرواية الأولى من الثلاثية بترتيب وشكل ملائمين لها لكن مظهرها الاستقلالي البيّن يكبح الثلاثية بل يكاد يوقفها لو لم يصل لوسيان الهارب ليمر عبر هذه الحبكة المركّزة. فقد شعر الروائي بالضرورة الماسّة، وبصعوبة التوفيق بين حلّ عقدة رواية المبتكر، والبروز المجدّد لمؤهلات لوسيان الروائية. فقبل خمسة عشر يوماً من وضع

اللمسات النهائية لأوهام ضائعة، وجد نفسه مايزال في حيرة وارتباك حول وضع بطله الذي تركه يعاني المرض لدى الطحان تورتوا في بداية القسم الثالث من الثلاثية، ولم يتهيأ له أن تطأ قدماه أرصفة أنغوليم. وبتاريخ ١٣ حزيران لم يكن قد كتب إلا ٣٢ صفحة من الجزء الثاني، فلم يجد أفضل من أن يسترسل في التعبير عن دفقات الحنين العائلي لعودة لوسيان.

بسرّد هذا اللقاء مع أنغوليم بعد غياب، استسلم بلزاك، كما رأيناه يفعل عدة مرات لجاذبية موضوع طال استثماره سابقًا في الأدب والصحف، وتم التطرّق إليه في جميع النصوص التي ذكرت تقريبًا في بداية هذه الدراسة، ويمكن للقارئ العودة إليها، كما أن بلزاك نفسه قد عالجه أحيانا في مقال عابر مثل **فيغارو القرن التاسع عشر** في **مجلة الغرب** الذي أعيد نشره في مجلة **السارق** (بتاريخ ٣١ تموز ١٨٢٩) غير أن تصميم العودة إلى المقاطعات، بخيباتها الأدبية والاجتماعية والعودة مجدّدًا إلى العاصمة، تشغل حيزًا هامًا في **الملهاة الإنسانية** نفسها. وقد خصّ بها قصص الباريسيين في المقاطعات، واستطاع بلزاك الذي استهواه الموضوع أن يستعين، أثناء تحرير **آلام المبتكر**، بأمثلة أدبية كثيرة، إلى جانب عدة نماذج حيّة، لن نشير إلا إلى واحد منها هوراس دي سان أوبن، نسخته الثانية، بطل **حياة وتعاسات**، الذي ولد في شروط غامضة ذكرناها.

عاد هوراس إلى موطنه مرتين، وكان في المرّة الأولى أقل عوزًا وفاقة من لوسيان، فتمكن أن يأخذ عربة السفر العامّة من باريس إلى نيور، وأن يستأجر بعد ذلك حصانًا أقلّه إلى كولون، غير أن جوّ اللقاء مع المقاطعة بعد بُعاد عنها لدى بلزاك وصاندو يبقى هو ذاته، والمشاهد التي تستخدم إطاراً زخرفيّاً تتشابه، فالماء يتدفق في كل مكان من مشهد بلزاك (مفكراً على الأرجح بيون - دي - روان، قرب ساشه) فهو يخرُّ في سدود الأقنية، ويضجّ على العنفة التي تدير رحى الطاحون، ويتلّوى أو يمتد في بساط طبقة، ويلتمع على سطح حوض. القرية التي

يعود إليها هوراس على ضفة بحيرة أو مستنقع حيث تنزلق عدة أشرعة، ويتسامر عدة صيادين قرب الشاطئ (كما تلوح صورة شباك معرّضة للشمس لدى بلزاك)؛ وصاندو يستحضر العودة الأولى لدون كيشوت، وكآبته لمرأى أزهاره، «وبطّاته التي تنفض أجنحتها في البركة»، و«نسيبته ومربيته اللتين ترتقان جواربهما على عتبة الباب». هذه العناصر موجودة من النص البلزاكي، غير أنها مندمجة في اللوحة، فالمسافران يلتزمان أمام هذه المشاهد بلحظة صمت. وأحدهما (هوراس) «يوقف حصانه ويشرع بتأمل لوحة هذا النعيم العذب الوديع» والآخر «يتوقّف لينعم النظر في هذا الحريج النضر المورق الذي ينعش بظرفه الريفي الروح».

في العودة الثانية التي «أراد فيها هوراس مثل لوسيان أن يُحيي مجد أجداده واسمهم» اضطر لقطع المسافة سائراً على قدميه، وقد حمل عصا بيده، ومثل لوسيان أيضًا، احتفل بابن المقاطعة في بلده بينما نسيه الباريسيون. فمثيلات المركيزة دي سڤيني في الضواحي أحطن به، و**صحيفة السيفرين** مجّدته وأشادت به. لكن بلزاك تصوّر بدلاً من هذه البضاعة الأدبية الرخيصة، انتصار بتي - كلو المحبوك في مؤامرة حشد المحامي لها طموح سريزة الفتّاك مع جشع الأخوين كوانته وعمالهما، وحقارة البارون المنتقم، وحماقة مدير مدرسة ثانوية عجوز ساذج، في تقريره **رسالة حول قضية پيتل** (١٨٣٩) وصف الروائي بعد تحقيق في المكان ولادة سمعة سيئة في المقاطعات. وبعد عودة المتعاون السابق مع صحيفة **السارق** Le Voleur تعرض لمضايقات الحاسدين والنمامين. عُدَّ لوسيان مثل پيتل كاتب العدل المجرم، «باريسيًّا مختلطًا برجل مقاطعات» «مدّعي أدب»، صحفيًّا نفاجًا ومغروراً، وهكذا لم يسمع صوتًا صديقًا في معزوفة الأكاذيب التي عرضها عليه پتي - كلو، وهكذا دخل دون علمه في الدسيسة التي دبّرت لداڤيد واستخدم فيها طُعمًا.

بهذه الطريقة دُمجت بشكل دقيق الدراما القضائية، قضية العودة، وهرب لوسيان الذي عدَّ نفسه مسؤولاً عن توقيف داڤيد (الناتج عن رسالة سريزه المزوّرة) وعزم على الانتحار، وفي الوقت نفسه تخلّص وهو الشخصية المركزية في الثلاثية

من جاذبية مأساة سيشار الرهيبة. ونحن نعلم أن لوسيان لم يمُت، وقد سردت تتمة حياته في **الرّعادة**، العام ١٨٣٨، لكن بلزاك في ذات الوقت الذي نشر فيه دافيد سيشار رواية مسلسلة في صحيفة **الوضع** Etat أنشأ **استير** (الرعّادة وتتمتها، بداية **بهاء وتعاسة الغانيات**) لمصلحة صحيفة **الباريسي**، مستمراً في ابتكار أحداث تتعلّق بمستقبل لوسيان الشخصية الرئيسة في **أوهام**، قبل أن ينتهي من ماضيه، مما يسبّب الذهول، دون شك للقراء الذين يشترون الصحيفتين اليوميتين، المشكلة الأدبية المطروحة على بلزاك إذن في نهاية شهر حزيران هي في أن يبرهن أنّ مرشح الانتحار في **أوهام ضائعة** والروح الهالكة في قبضة ڤوترن - هريرا في **بهاء وتعاسة الغانيات** ليسا إلا للشخص الواحد ذاته. وحل عقدة مأساة سيشار بدأت تسيل من المنبع، ولن نتوقف عندها. لكن لا شيء أكثر إثارة للفضول، في الصفحات الأخيرة من تلك المأساة، حيث يفسح القلق المكان لتخلي داڤيد الكئيب عن مشروعه، من الاختراق الرائع لصورة لوسيان.

هل توقّع المؤلّف هذا اللقاء بين لوسيان وهريرا على طريق پواتيه؟ ربّما كانت هذه الصفحة من أجمل صفحات الأدب الروائي، فهل ارتجلت وسط عمال مطبعة لانيي في لحظة حماسة مبدعة. تبدو هذه الفكرة بمنتهى المجانيّة، فالمشهد من الأكثر غنى بالأصداء في **الملهاة الإنسانية**، وهو بمثابة المخ الذي تنتهي إليه جميع ألياف **أوهام ضائعة**. حول نشأة هذا النصّ، يمكن أن نصوغ بعض الفرضيات. لنتصور، على سبيل المثال، أن بلزاك بمناسبة جولة في باريس قلّب صفحات **الألبوم التاريخي والحكائي** المجمّع سابقًا بإشرافه في شارع الماريّه، والمطبوع في مطبعته، في الصفحة ٢٤، وتحت كلمة **أنغوليم** سيقع نظره على (حكاية عن دوق أنغوليم) وفي الحكاية التالية كلمة أوهام التي تثير فضوله لقراءتها. إنّها تتعرض للقاء على طريق ليون لشاب إكليروسي متوجه ليبحث عن الثروة في باريس (موري) مع طالب طبّ (پورتال) صاعد بدوره إلى العاصمة، يلتحق بعد ذلك بالصديقين، على مسافة، مسافر ثالث (موريلّي) «رئيس دير طويل القامة، قوي البنية، متهكم» وهو

«فيلسوف رغم أنّه لاهوتي». فلماذا لا يلتقي لوسيان بكل بساطة برئيس دير رواية **الرعادة** الرهيب، على أحد طرقات فرنسة بذات الطريقة التي تعرّف بها بورتال أو موري على موريلّي؟

هذه المصادفة السعيدة خلال القراءة يمكن أن تجرّ عندئذ إلى أخرى. فبلزاك قد جمع في ألبومه سلسلة من الحكايات تتعلّق «بارتقاء مشاهير مفضلين، والأحداث الغريبة التي أوصلتهم إلى ثرواتهم» موضوع «جدير بتأملات أكثر من رجل دولة» وهو أطول هذه الحكايات (٦ صفحات) وأكثرها غرابة، وهي قصة الدوق دي بيرن، وسيقصها هريرا بكل دقة على لوسيان لتكون بمثابة شَرَك يمسك بواسطته الشاب. ببعض التنقيحات الطفيفة، وتلميح، وتعليق، تغدو كل تلك القصة الهوجاء مبهمة، فالمعنى فيها قد حُرّف وانزاح والتبس بشكل مبالغ فيه.

قصة أخرى عن البارون دي غورتز، وزير شارل الثاني عشر، الذي صادف أثناء عودته إلى السويد شابًا في مدينة صغيرة، فأدخله في خدمته. واللبيب من الإشارة يفهم. لكن «الشاب الوسيم» «السكرتير الفاتن»، السكرتير الصغير»، «السكرتير الصغير اللطيف» «الولد الحلو» (جميع هذه النعوت في المشهد من وضع هريرا - وقد خصّ بها غانيميد(*) طريقه الطويل) ألّمت به عادة غريبة غير مألوفة فتحت شهيته لالتهام القراطيس، ، وراح يفترس الإيصالات والمعاهدات. كانت هذه هي اللحظة المناسبة لهريرا ليصرح بنصف بوح يحرق شفتيه. كم أُعجب بروست(**) غير المطّلع على نصّ **الألبوم التاريخي والحكائي** بهذه الحكاية، وقد رأى فيها بارقة طبع ڤوترن وأمثاله المثير للإعجاب، وواحدة من نظرياتهم المفضّلة، القليل الذي تركوه يتسرب من سرّهم». والكاهن المزيّف يصرّح أن الموت نفسه لا

(٢) - غانيميد Ganymède: أمير من طروادة اختطفه في الأساطير الأغريقية زيوس وجعله ساقيًا للآلهة. (م. المترجم)

(**) - بروست، مارسيل (١٨٧١ - ١٩٢٢) أديب فرنسي سيطر على تاريخ الرواية الفرنسية بمؤلفه الدوري «البحث عن الزمن المفقود». (م. المترجم)

يمكن أن يردع الإنسان «عندما يتعلّق الأمر بلّذة ابتدعها» «فالذوق المنحرف أخلاقيًا»، لبيرن أو لهريرا، أيقظ عندئذ نغمة متوافقة من الرواية الأولى، تذكّر إحدى العبارات الغامضة المتعلّقة بالانحطاط الخلقي الخاص بالدبلوماسيين، وهو موضوع أثار في حينه خيال لوسيان اليافع (ويلاحظ أن حكاية بيرن لا تخلو من مفاهيم ضيِّقة وساخرة مع موضوع مبتكر الورق وهو في مركز أحداث الرواية الثالثة). نجا السكرتير في آخر لحظة من الموت - ملاحظة برسم الراغب في الانتحار - وانضمّ إلى حاشية الدوق دي كورلاند، وحظي باستلطاف الدوقة ونَعِمَ بطيبات محاسنها دون أن يستطيع التخلّص من عادته الذميمة. إنّها مناسبة ليلمّع للوسيان دوقية كورلاند في باريس، ولإقناعه بأن الحظوة بمفاتن دوقة تستحق أن يتحمّل هريرا.

يصعد لوسيان آنذاك إلى العربة، وعندما يمر المسافران من أمام منزل آل راستينياك الريفي غير المتوقّع قرب روفّك، يوقف الكاهن عربته بذرع الممر بخطا واسعة، وقد خصّ بروست هذا المقطع بعنوان: «كآبة أوليمبيو في شذوذه الجنسي المثلي» بإلقائه مجانًا على هذه الأسطر بلبلة المشهد المؤثّرة. بالنسبة إلينا يهدف استحضار راستينياك خاصة إلى إضاءة مشهد آخر في عمق **الملهاة الإنسانية** يبرز بجلائه المشهد الذي نطالعه: المحادثة الخطرة التي جرت بين ڤوترن والطالب في حديقة نُزُل ڤوكه. صورة راستينياك الصاعدة وهي تستمر في معارضة صورة لوسيان التي يجذبها الظلّ.

هذه الصفحة الجميلة تلخص أيضًا وتختتم رواية خيبة الأمل. فالحبُّ والأدب والمسرح والعائلة وبلد مسقط الرأس جُرِّدت على التتابع من أحلامها وأرجعت إن صح القول إلى حقيقة سن الرشد. وقد أظهر حديث هريرا المدوّخ للوسيان، الوحيد بشكل رهيب، المجتمع والتاريخ في عريهما، فريشليو، أو آل مديسي، أو شارل السابع، أو نابوليون لم ينجحوا إلاّ بنكران الجميل. لا يوجد إلا قانون واحد هو قانون الطموح. لكن لوسيان سيخسر مكسب هذا التحرّر من

الوهم لأن مغوية يُحلُّ مكانه وهما أخيراً ينتظره. وعلى صرخته في مقبرة الأب لاشيز: «من سيحبني بعد الآن»، يجيب الأب هريرا، «لقد أظهرت لك ما يكفي من الحب» وكان لوسيان قد اعترف في رسالة وداعه لأخته « لا يمكن أن اكتسب قيمة إلا باقتراني بإرادة قوية، لا ترحم»[١] وقد جاء الرّد الآن بهمسة من مغويه: «إن وجدت خلف مزاياك الجميلة عزيمة قوية، فلن يعصى عليك أمر في العالم[٢]».

وقد سبق أن تنبأ له دارتز: «سيوقع بكل طيبة خاطر غداً ميثاقًا مع الشيطان، إن كان هذا الميثاق سيؤمّن له عدة سنوات من حياة برّاقة مترفة[٣]». وعند رؤية ذهب الكاهن، صاح لوسيان أخيراً «أبتِ، إنني لك». وقد أعطى في محطة إبدال الخيل في بواتيه البرهان على الإذعان المنتظر منه.

يُستذكر غالبًا أنصار رواية الشرّ السوداء، وموضوع الميثاق مع الشيطان الفاوستي عند التطرق إلى سيرة ڤوترن وبديهي أنّها الحقيقة البيّنة الساطعة في هذه الصفحة التي لامثيل لها في القوة. حقيقة لوسيان كما تصوُّره الفيزيولوجي، والسيكولوجي والشاعر، مرئيٌ في سقوطه، كما حاولنا أن نظهره وهو فريسة رفيعة بشغف نسبة للصيَّاد الذي ينتظرها في روفّك. وحقيقة هريرا الذي يفترسه سرّه ورغبته. لكنها حقيقة سهلة المنال، على مستوى القراءة. أعطى پروست لهذه الصفحة التحليل الأكثر عمقًا، لكنه اعترض بشكل مضمر ضد القراءة المُسبغة بالمثالية منوّهًا بأن لوسيان «حتى في أحاديثه الخاصّة بالضبط بالمرح المبتذل، شيء من الشباب المهمل الذي أعجب ڤوترن» والذي سيعجب فيما بعد أوسكار وايلد.

هذا مسلّم به، ويمارس مشهد اللقاء على القارئ سحراً لايُدحض، وبالأحرى مدهشًا، تشهد عليه **المذكرات الداخلية** لمورياك: «أسمع في داخلي حواراً رهيبًا، أشهد ذلك الفساد ينهش قلبًا فتيّا يؤثّر تحت ناظريّ بفوعة خارقة

(١) - انظر «آلام المبتكر».

(٢) - انظر «آلام المبتكر».

(٣) - انظر «آلام المبتكر».

للطبيعة تقريبًا، في جو من هوى كدرٍ وحلُمٍ[1]». يجب أن نكرّر القول، إنّ حول هذا الثنائي، وهذا الحوار، وهذا المشهد الحقيقي كلّ **الملهاة الإنسانية** التي تنشط مضخمة صداها وحقيقتها. والميثاق المقترح على لوسيان عُرِض عشر مرات من قبلُ، من ڤوترن على راستينياك أو على راوول دي فرسكاس، ولكن أيضًا من داڤيد على لوسيان، ومن رينه دي لستوراد على لويز دي شوليو، وربّما من بلزاك على بورجه، وعلى صاندو، وعلى بلوا وغرامون، وعلى لاسايي. لكن لنحترس من أن نستنتج بأنه يعترف في نتاجه بمشارب أو أذواق لم يشكّ بها معاصروه. فخارجًا عن ميل تصعّد تقريبًا، وقد تحدّثنا عنه في القسم الأول من هذه الدراسة، ولا يهمنا كثيرًا في الحالة الراهنة، يشير تيوفيل غوتيه إلى أن «حُلمًا معندًا تسلط عليه يهفو إلى صداقة بطولية ومضحّية، روحان، قمتان في الشجاعة، روعتا ذكاءٍ تنصهران في إرادة واحدة[2]» على طريقة بيير وجاڤيه في **ڤينيسية المحرّرة** لأوتواي(*) وقد تقلّب هذا الحلم في مواضع عدة من **الملهاة الإنسانية** لكنه كان ينتهي دائمًا إلى الأفكار نفسها، والحوارات نفسها، والأشخاص ذاتهم، وإلى الوضع النموذجي ذاته. ألا يعبّر هذا الحلم عن ضيق الكاتب دون «تواطؤ مع قدره» كما يقول هريرا، وقد حُرمت قابلية الاستمتاع بالحياة لديه بزحمة المؤلّفات الواجبة كتابتها، وقصرَ الحياة؟ يوجد آخر عندئذ يحيا مكانه، كما تحيا الشخصية الروائية بالكاتب ومن أجله. «لكنني أحبك - قال ڤوترن، ولديّ القدرة في أن أضحي من أجل شخص آخر» ويقول هريرا: «أحب أن أضحي. لدي هذا العيب. إنني أحيا في التضحية». وقد كتب بلزاك منذ العام ١٨٣٣ إلى السيّدة هانسكا هذه الكلمات الغريبة التي يخيم

---

(١) - فرنسوا مورياك (١٨٨٥ - ١٩٧٠) أديب وصحفي فرنسي شهير، حاز على جائزة نوبل ١٩٥٢. المقتطفات من مذكرات له صادرة العام ١٩٥٩. ص ١٤٨.

(٢) - تيوفيل غوتيه (١٨١١ - ١٨٧٢) كاتب فرنسي، من أبرز أدباء القرن التاسع عشر في فرنسة. الفقرة مقتطفة من كتابه بلزاك ص ٨٩.

(*) - أوتواي، توماس (١٦٥٢ - ١٦٨٥) شاعر مسرحي إنكليزي حافظ في بناء مستوحى من الكتاب الفرنسيين على قوة المسرح الإنكليزي.

عليها شبح مشهد العام ١٨٤٣، ومع الوفاء، والرذيلة والفضيلة، وبمصادفة صورة، وشاب وطاقة ورد:

كنت أفكر فيك... وأنا أنصرف بكل إخلاص وتفان لتأمين مستقبل زاهر ونبيل لشاب آمل أن أوجهه في الحياة. إنك على حقّ، توجد لحظة في حياة الشباب يكون فيها قلب صديق ذخرًا ثمينًا لهم. في منتزه ڤرساي يوجد شاب، مثيل آخيل بين الرذيلة والفضيلة، بدا لي تحفة فنية كبيرة، وقد فكرت دائمًا لدى رؤيته بتلك اللحظة الحرجة من الحياة البشرية. نعم يحتاج الشاب لصوت جريء يقوده إلى حياة الرجولة، مع إفساح المجال له ليلتقط أزهار الهوى والهيام من على حافة الطريق.

أولئك الذين انتقدوا **أوهام ضائعة** تمثلوا في أذهانهم، أغلب الأحيان، الرواية الثانية، **رجل كبير من المقاطعات**. وجدت فيها الإيديولوجيات ما يُعرّف عنها وما يتحداها، وفشل داڤيد في الرواية الثالثة أغنانا من الحكم على فشل لوسيان الضعيف. شهامة لوستو المتقلّب قد تفضّل على خيانات دارتز الفاضلة. بيانشون، الطالب السابق في نُزُل ڤوكه، عضو المنتدى، تتألّق صفحته ناصعة بالشهرة. كوانته يغدو عينًا من أعيان فرنسة، وپتي - كلو نائبًا عامّا، وسريزه ينتظر فرصته المناسبة، فمعيار القيمة الإنسانية في ذلك المجتمع القائم على الملكية والمال هو النجاح. فهل ينجح هريرا، دون مشقّة، في إقناع لوسيان أن العنف حقٌّ، وواجب؟

المهم أن هذا المؤلَّف، «النتاج الرئيس في نتاج متواصل» ينتهي كقمّة وهو يشكّل بين رواية **الأب غوريو** ورباعيّة **بهاء وتعاسة الغانيات** سلسلة جبلية موطّدة الدعائم تستخدم هيكلاً بنيويّاً **للملهاة الانسانية** تمدّ منه تفرّعاتها إلى سائر الأنحاء.

مقدمة الطبعة الأولى لرواية الشاعرين
المعدة من بلزاك «العام ١٨٣٧»

خلال ثلاث سنوات، من كانون أول ١٨٣٣ إلى كانون أول ١٨٣٦، نشر المؤلّف الإثني عشر جزءاً التي تشكّل السلاسل الثلاثة الأولى من **دراسات طبائع في القرن التاسع عشر**[1] وبانتهاء هذه الطبعة الأولى يُسمَح له أن يشير إلى أنّ المؤلفات المعادة طباعتها، وتلك التي لم تُطبَع حتى الآن تطلّبت عملاً مماثلاً، إذ أن معظمها قد أعيد تنقيحه، بل إنّ بعضًا منها قد جُدد موضوعًا وأسلوبًا، ومن المحتمل ألا تحتاج السلاسل الثلاثة الأخرى: ***مشاهد من الحياة السياسية، ومشاهد من الحياة العسكرية، ومشاهد من حياة الريف*** إلى مدة أطول، وهكذا فإن المهتمين بهذا المشروع سيرون قريبًا جميع أبعاده، ويدركون بعَرْض أُطُره فقط، التفاصيل الواسعة التي يتضمنها.

لئن عاد المؤلّف إلى الفكرة العامة من نتاجه، فإنه، إذا صحّ القول، قد اضطر لذلك لِما تعرضت له طريقة عرضها من انتقادات لا تستحقها.

عندما يأخذ كاتب على نفسه القيام بوصف كامل للمجتمع، مُشاهداً من جميع وجوهه، ومدركًا في جميع أطواره، منطلقًا من مبدأ أن الوضع الاجتماعي

(١) - كان بلزاك قد وقّع عقداً مع دار نشر السيدة بيشه في ٢٠ تشرين أول ١٨٣٣ يتعلّق **بدراسات طبائع** وظهر مؤلّف **الشاعرين** أول روايات **أوهام ضائعة** في القسم الأخير من هذه الدراسات المؤلفة من ثلاث سلاسل: **مشاهد من الحياة الخاصة، ومشاهد من حياة المقاطعات، ومشاهد من الحياة الباريسية**. المشكّلة لأسس **الملهاة الانسانية**.

يكيّف الناس وفقًا لحاجاته، ويحولّهم حتى أن هؤلاء الناس لا يشبهون أمثالهم في أوضاع اجتماعية أخرى، **فالمجتمع** يخلق أنواعًا بقدر المهن السائدة فيه. أخيرًا، إنّ البشرية الاجتماعية تظهر تنوعًا بقدر تنوّع المملكة الحيوانية[1]. ألا يجب أن نهيء الفُرَص لمؤلّف بمثل هذه الجسارة، ونمنحه بعض الانتباه والصبر مقدّرين مثابرته؟ ألا يجب أن يعطى الحقوق الممنوحة للعلم في تيسير السُبُل له للقيام بأبحاث معمقة حول موضوع واحد، وإعطاء الوقت الكافي المناسب لأهمية المشروع وسعته؟ ألا يمكن أن يتقدّم في نتاجه خطوة خطوة، دون أن يضطر مع كل خطوة جديدة للتذكير بأن المؤلّف الجديد حجر في البناء العام، وأن جميع الأحجار ستتكامل وتشكل يومًا عمارة شاهقةً؟

أخيرًا أليس في التعرّف على التفاصيل ميزّات كبرى عندما يكون المجمل بمثل هذه الأهمية؟ الواقع أن كل رواية هنا ليست إلا فصلاً من رواية المجتمع الكبيرة، وشخصيات كل رواية يتحركون في جوّ ليس له حدّ إلا حدّ المجتمع، وعندما تُرَى إحدى هذه الشخصيات مثل السيد **دي راستينياك** في **الأب غوريو** وقد قطعت أخباره وهو مايزال في خضم مسيرته، فذلك يعني أنكم ستعثرون عليه مجددًا في رواية **صورة المركيزة**[2]، وفي **التحريم** وفي **المصرف الشهير**[3] وأخيرًا في **جلد الحبب** وهو يتصرف في عصره وفق المرتبة التي وصل إليها ملامسًا جميع الأحداث التي يساهم بها في الواقع الأشخاص ذوو المكانة الكبيرة. هذه الملاحظة تنطبق تقريبًا على جميع الشخصيات المتمثلة في رواية المجتمع الطويلة هذه: والأشخاص المشهورون في عصر ليسوا كثيرين كما يخيّل إلينا، ولا يوجد أقلّ من ألف في هذا

(١) - كانت الفكرة الأولى في **الملهاة الإنسانية**، متولّدة من مقارنة بين المجتمع الإنساني والمملكة **الحيوانية**، كما سيوضح بلزاك في مقدمتها العامة، العام ١٨٤٢، فالملهاة الانسانية هي تناول مشروع **دراسات طبائع** ضمن منظور أشمل وأعم.

(٢) - أعطي لهذه الرواية فيما بعد عنوان **دراسة المرأة**.

(٣) - نشرت هذه القصة فيما بعد بعنوان بيت نوسنجن (ترجمت ونشرت ضمن روايات بلزاك رقم ١٩ وزارة الثقافة - دمشق).

النتاج الذي يبدو أنه سيتألف، لأول وهلة، من نحو خمسة وعشرين جزءًا[1] في قسمه الأكثر وصفًا، في الواقع فالملاحظة، ضمن هذا المنظور صحيحة.

يعترف المؤلّف إذن بكل طيبة خاطر، أن من الصعب عليه أن يعرف أين سيتوقف مؤلَّف كما أن من المتعذّر أن يحدّد تمامًا طريقة نشره. هذه الملاحظة ضرورية في مقدمة **أوهام ضائعة**، وهذا الجزء لا يتضمن إلا القسم الأول منها، والمخطط البدائي لم يكن يتضمن أكثر من ذلك، إنّما مع التنفيذ تبدّل كل شيء، فترقيم الأجزاء صارم، والتأمّل لا ينتظر، لذلك وجب أن يتوقَّف عند الحد الذي رسمه بالذات للعمل، فهو لم يكن يهدف في البدء إلا لمقارنة بين طبائع المقاطعات وطبائع الحياة الباريسية، وقد تعرّض إلى هذه الأوهام التي يتشكل بعضها فوق بعضها الآخر في المقاطعات لغياب المقارنة، والتي تنتج كوارث حقيقية، لو لم يعتد سكان المقاطعات، لحسن حظّهم، على جوهم، والتعاسات السعيدة في حياتهم، بحيث يتألمون في أي مكان آخر، وأن باريس خاصة لاتعجبهم. من جهته يبدي المؤلّف غالبًا إعجابه بحسن نيّة هؤلاء الإقليميون الذين يمجدّون امرأة شبه حمقاء ويقدمونها لك ذوّاقة أدب وفن أو يحدثونك عن أخرى رائعة الجمال وهي في الحقيقة أقرب إلى الدمامة منها إلى الجمال. لكنّه وهو يصف بإعجاب منزلاً زوجيّاً، وتطوّرات مطبعةٍ بائسة في الأقاليم، ويعطي لتلك اللوحة التفاصيل التي لا توجد إلا في المعارض، فمن الواضح أن حقل الرؤية قد اتسع رغم المؤلّف. عندما تنسخ الطبيعة تحدث أخطاء دون قصد: عند مشاهدة أحد المواقع، فغالبًا

---

(١) - وضع بلزاك في العام ١٨٤٥ قائمة بالمؤلفات التي ستتضمنها أو تضمنتها الملهاة الإنسانية، ووزعها على ٢٦ جزءاً ولنلاحظ أن نُسبَ البنيان لم تتغيّر وأجزاء طبعة فورن المتراصة تحوي أربعة أمثال نصوص دراسات طبائع كما أنَّ توسّع النتاج يظهر أيضًا في تضاعف الشخصيات، والمؤلّف قد توقع هنا ألفًا منهم على الأقلّ. وصحّح توقّعه في مقدمة العام ١٨٤٢ فذكر «ألفين أو ثلاثة آلاف وجه بارز» وقد أحصاها الدكتور لوت وفهرسها فذكر أنها وصلت في **الملهاة الإنسانية** إلى ٢٤٧٢ ماعدا الغلط أو السهو كما أن هذا المؤلّف ذكر وجود ٢٥٠ شخصاً غفلا من الاسم ونحو خمسين حيوانًا. (كما ورد في قاموس السير - كورتي ١٩٥٦).

لاتدرك أبعاده الحقيقية، فطريق ما قد يبدو شعبًا ضيقًا، وتظهر الفرجة الصغيرة بين هضبتين واديًا متسعًا، وقد ترى العين الجبل الظاهر لها سهل الارتقاء بينما يتطلب الوصول إلى قمته سير يوم كامل. وهكذا **فالأوهام الضائعة** لا تقتصر فقط على شاب حسب نفسه شاعراً كبيراً أو على المرأة التي تغذّي هذا الاعتقاد في نفسه، ثم ترمي به في باريس فقيراً ودون رعاية[1]. لقد بينت العلاقات القائمة بين باريس والمقاطعات، وجاذبيتها المشؤومة، للمؤلّف شاب القرن التاسع عشر بمظهر جديد: فكّر فجأة بآفة هذا القرن الجديدة، بالصحافة التي تفترس الكثير من الحيوات، والكثير من الأفكار الجميلة، وتُحدث ردّات فعل رهيبة في معتقدات حياة المقاطعات الساذجة[2]. فكّر خاصة بالأوهام الأكثر شؤمًا في ذلك العصر تلك التي يتصوّر بها الأهل أبناءهم الذين يمتلكون بعض مظاهر العبقرية لكن تصورهم لا يحفّزهم لمنح تلك العبقرية وسائل البروز، ولا يمتلكون المبادئ التي تكبح انحرافاتها. هكذا تتوسع اللوحة، وبدلاً من وجه ممثل لحياة فرديّة يتحوّل الموضوع إلى أحد هذه الوجوه الأكثر فضولاً في هذا القرن، وجه متهيء للانقراض كما انقرضت الامبراطورية ويجب الإسراع في رسمه بعلائم الحياة فيه قبل أن يتحوّل إلى جثة هامدة تحت عينيّ الرسّام، والمؤلّف يعتقد أن هذه مهمة كبرى لكنها صعبة، فبكشفه الطبائع الخاصة بالصحافة، سيبدو الخجل على أكثر من جبين لكنه سيوضح، على الأرجح، كثيراً من النهايات الغامضة لأكثر من حياة أدبية واعدة، خاب الأمل فيها، كما سيوضح النجاحات المخجلة لبعض أشخاص ضعفاء زكّوا على حساب حُماتِهم، وربّما أيضًا بتأثير الطبيعة البشرية. متى سيتمكن المؤلف من

---

(١) نذكر بأن الرواية الأولى من ثلاثية **أوهام ضائعة** كانت تنتهي في العام ١٨٣٧ بترك لوسيان على قارعة الطريق في باريس. والكاتب يلمّح هنا صراحة إلى العبارة: أحسّ بأنه وحيد في باريس، دون أصدقاء أو حماة له». انظر الرواية الثانية (رجل كبير من المقاطعات في باريس -).

(٢) - هذه العبارة التي بدت غريبة للفيكونت لوفنجول وبعض الناشرين بعده، وحسبوها خطأ مطبعيّاً، مألوفة لدى بلزاك، فلوسيان الوافد حديثًا إلى باريس لم يجرؤ أن يتصرّف على شاكلة لوستو فهو يعود إلى ذكرى التزامه الورع في المقاطعة. «انظر رجل كبير من المقاطعات في باريس».

إنهاء لوحته؟ لا يعرف لكنه سينهيها. لقد بدت أمامه مثل هذه الصعوبة مرّات كثيرة سواء عند كتابة **لويس لامبر أو الولد الملعون**، أو **التحفة المجهولة**، لكنه لم يفقد الجلد والمثابرة إنّما الجمهور الذي لا يبالي بهذه التفاصيل عيل صبره، ولنقل بصراحة إنه يريد كتبه دون أن يبالي بالطريقة التي تتمّ فيها.

بلزاك

باريس ١٥ كانون ثاني ١٨٣٧

مقدمة الطبعة الأولى

لرواية: رجل كبير من المقاطعات في باريس

معدَّة من بلزاك «العام ١٨٣٩»

رجل كبير من المقاطعات في باريس. هذا هو عنوان الرواية الثانية من **أوهام ضائعة** إنّها مقدّمة هذا المشهد، وهو الأطول، على الأرجح، من جميع المشاهد التي ستشكل **دراسات طبائع**، ويشعر المؤلّف مرة أخرى بالضيق لاضطراره أن يعلن عدم اكتمال هذه اللوحة، وستندرج رواية ثالثة في **أوهام ضائعة**، فانطلاقة البطل، وإقامته في باريس هما، إن صح التعبير، القسمان الأوّلان من ثلاثية ستتممها العودة إلى المقاطعات، وسيكون عنوان القسم الأخير **آلام المبتكر**، وسيظهر بطريقة لا تدع مجالاً للاهتمام المتولد عن ظهور شخصيات هذه المأساة بأن يتوالى، فالممثلون الرئيسون باقون حتى النهاية بدقّة الانتظام الكلاسيكي السائد في المسرح القديم، وقد خسروا جميعًا ما يكفي من الأوهام ليكون العنوان المشترك للروايات الثلاث مبرّرًا.

هل وفى المؤلّف بوعوده التي أشار إليها في مقدمة الرواية الأولى من أوهام ضائعة؟

لكم الحُكم على ذلك إنّما الصحفيون كأمثالهم من أصحاب المهن الأخرى لا يمكنهم النجاة من أحكام قضاء الملهاة. قد يكونون أشد حاجة إلى أرستوفان(*)

(*) - أرستوفان (٤٤٥ - ٣٨٦ ق.م) شاعر إغريقي. ألفّ إحدى عشرة مسرحية يهاجم فيها أعداءه الأدبيين والسياسيين.

جديد منهم إلى ريشة كاتب تسطّر بعض نقد لاذع. إنّهم يوحون إلى الأدب برعب كبير، حتى أن أيّاً من المسرح، أو قصائد الهجاء، أو الرواية، أو الشعر الساخر، لم يجرؤ على تقديمهم إلى المحكمة التي ترفع شعار **تصحيح الطبائع ضاحكة**(*). لمرة واحدة جرب سكريب[1] القيام بهذه المهمة في مسرحيته الصغيرة **الشعوذة** فكانت صورة أكثر منها لوحة، لكن المتعة التي ولّدتها هذه الصيغة الأوليّة الفكهة دفعت المؤلف إلى تصوّر استحقاق الموضوع لمشهد أكثر سعة وتفصيلاً.

تطرّق لاتوش «وهو أديب آخر» إلى موضوع الطبائع الأدبية، إنّما لم يكن الهجوم، هذه المرة، على الصحافة بل على أحد هذه التحالفات المتشكلة لمصلحة نظام ترتبط ديمومته بإبهام المواهب المؤلفة له: فما أن تشتهر حتى يصعب على المتحالفين التفاهم، فهم متضامنون في المعركة، لكنهم متنازعون على مكاسب المجد. هذا الرجل النبيه لم يكتب إلا مقالاً واحداً ساخراً، غير أنه كان كافياً ليكسب اللغة كلمة **الرفقة** التي ستبقى بالمعنى الذي حدّده لها وتغدو عنوانًا لمسرحية من خمسة فصول[2]. هكذا كان للمؤلف وحده فضل القيام ببادرة جريئة أحدثت الذعر لدى الكثيرين، لاسيّما وأنّها تمت في حقبة سعى فيها كل واحد، إلى البحث عن مواضيع جديدة، دون أن يجرؤ أي قَلَم التعرّض لطبائع الصحافة المثيرة للضحك بشكل مريع، رغم أنّها الطبائع الوحيدة المبتكرة في عصرنا. غير أن المؤلف لن يكون منصفًا إن فاتته الإشارة للمقدمة الرائعة للرواية المعنونة **الآنسة دي موبن**[3] حيث اقتحم مؤلّفها الشاعر تيوفيل غوتيه والسوط في يده، والمهماز في

(*) - شعار ورد باللاتينية في النصّ.

(١) - سكريب، أوجين E. Scribe (١٧٩١ - ١٨٦١) مؤلف مسرحي فرنسي. له مسرحيات كثيرة منها مسرحية الشعوذة التي ألّفها مع مازير وهي من نوع الڤودفيل وقد مثّلت على مسرح الجيمناز - دراماتيك لأول مرة في ١٠ أيار ١٨٢٥.

(٢) - **لاتوش، هنري** (١٧٨٥ - ١٨٥١): هو الكاتب الناشر لشعر آندره شينيه، والمدافع عن جورج صاند اشتهر بالمقالة الهجائية التي هاجم فيها الندوات الرومنسية بعنوان «الرفقة الأدبية» التي نشرتها مجلة باريس العام ١٨٢٩.

(٣) - **رواية الآنسة دي موبن**: رواية من جزئين ومقدّمة ظهرت في ١٨٣٥ - ١٨٣٦ للشاعر الشاب تيوفيل غوتيه (١٨١١ - ١٨٧٢) اشتهرت مقدمتها خاصة التي كانت بمثابة بيان ومرافعة اتهام عنيف للنقد الأدبي في الصحافة.

جزمته، عرين الصحافة كما لويس الرابع عشر على عرش عدالته الشهير. هذه المقدّمة الصادرة عن قريحة ساخرة، بل لنقل هذا العمل الجريء أثبت خطر المؤسّسة، لكن هل لقي الكتاب بالذات، وهو أحد المؤلّفات الأكثر فنّاً، واخضراراً، وأناقة، وجزالةً أسلوباً في عصرنا، مما يستحق من نجاح؟ هل جرى الحديث عنه بشكل كاف؟ إحدى المقالات النادرة الناقدة لم تتعرَّض للتعريف بالكاتب الشاب الجريء بل هاجمت تقتير المكتبة الناشرة التي رفضت تقديم الكثير من النسخ للصحيفة. إن الجمهور يجهل مدى الأضرار التي تلحق بالأدب في تحوله إلى سلعة تجارية، ومنذ بدء المدّة التي تطرق فيها المؤلف إلى هذا المشهد واتخذه موضوعًا لروايته، تفاقمت المصائب التي أراد أن ينبّه إليها في اللوحة التي يزمع رسمها. كانت الصحافة، في السابق، تفرض على المكتبة الناشرة عمولة عينية: تطلب عدداً من النسخ، ومع العدد المتزايد الآن من الدوريات الصحفية يمكن أن تصل هذه النسخ المجانية إلى مئة على الأقلّ. عدا عن ذلك فمقالات التقريظ التي يسعى الناشر جاهداً لظهورها في الوقت المناسب و «مقالات التجريح التي يريد تجنبها» غدت مأجورة وتصل الأجور إلى مبلغ معتبر مع تزايد الصحف. وهذه الضريبة المضاعفة التي ازدادت مع أسعار الإعلانات الباهظة التي تماثل كلفة إعداد الكتاب، ويستفيد منها التزوير البلجيكي خاصة بما أنّ لا شيء قد تغيّر في الإجراءات المالية لبعض النقاد، ويمكن وجود اثنين أو ثلاثة، لا أكثر، من المتحيّزين أو الحاقدين، إنما غير المغرضين، مما يعني أن الصحف ليست أقل ضرراً على وجود الكتّاب الحديثين من سرقة بلجيكية لحقوقهم. هل استحسنت النفوس النبيلة والكثير من الأشخاص الساخطين مقدمة تيوفيل غوتيه؟ هل قدّر الناس واحتفلوا بالقصيدة الساخرة التي كشف فيها هذا الشاعر الفساد العميق وعدم أخلاق هذه النمائم التي تشكو من فساد السلطة وعدم أخلاقيتها؟ أي شيء أرهب من فتور

الناس الشرفاء الذين يهتمون بجراحهم لكنهم يرون الأطباء أعداء لهم! إنَّ العالم ينظر إلى هذه الزخرفات الشيّقة ويعدّها خطرة عندما تعرض للأنظار إحدى ليدات جيرار(*) أو باخوسيات جيروده(**) وهي في الرسم كما الكتاب في الشعر.

تشكّل طبائع الصحيفة أحد هذه المواضيع الواسعة التي تقتضي أكثر من كتاب، وأكثر من مقدّمة وقد شخّص المؤلّف بدايات المرض الذي وصل الآن إلى ذروة انتشاره. كانت الصحيفة في ثوب براءتها في العام ١٨٢١ مقارنة بما هي عليه في العام ١٨٣٩[(١)]، وإذا كان المؤلّف لم يحدّد الجرح بكامل اتساعه، فإنه على الأقل تعرّض له دون هلَع، مستفيداً من محاسن وضعه، فهو ينتمي إلى هذا العدد القليل جداً من أولئك الذين لا يتوجّب عليهم أبداً تقديم الشكر للصحافة: لم يطلب منها شيء أبداً، وقد شقّ طريقه دون أن يعتمد على عصاها الناشرة للطاعون، ولم يلتمس من أيّ قلمٍ أيّ مقال، ولم يلجأ إلى إعلانات لا جدوى منها يدبّجها كتاب خالدون لإقامة نَصَب لكتابٍ لا يستطيع العيش في الوقت الحاضر أكثر من ستة أسابيع. إنّ له الحقَّ أخيراً، وهو حقّ اكتسبه بسعر غال، في أن يواجه هذا السرطان الذي يُحتَمَل أن يفترس البلاد. ربّما سيقول كثيرون بهذه المناسبة، إن

(*) - جيرار، فرنسوا (١٧٧٠ - ١٨٣٧) من مشاهير الرسامين الفرنسيين، اشتهر برسوم الأشخاص، وليدا Léda إحدى ربات الميتولوجية الإغريقية التي مثّلها في لوحاته.

(**) - جيروده، لويس (١٧٦٧ - ١٨٢٤) رسام فرنسي آخر شهير، اشتهر بلوحات جدارية منها الباخوسيات Bachantes الممثلة لحفلات رقص وسكر ومجون.

(١) - في رواية في باريس يتعرض المؤلّف للصحافة الأدبية خاصة، لكننا نرى فيها أيضاً الصحفي الذي يضطر ليتلاءم مع المصالح المالية والسياسية للصحيفة التي يكتب فيها ويناور أحياناً بين هذا التلاؤم أو التمرد عليه مما يعد خيانة للصحيفة. وبلزاك يستنكر هذا التهديد المتزايد لاستقلال الكاتب الصحفي وكرامته الذي تزايد بين عامي ١٨٢١ و ١٨٣٩ بظهور الرواية المسلسلة في العام ١٨٣٦ وماتؤمنه من إمكانات ربح للروائيين، وبذلك ارتبط مصير بعض الكتاب بمصير الصحافة ورؤوس الأموال المتحكمة بها فالكتاب يبيعون الكتب والصحف تشتري الكتاب.

المؤلّف يتظاهر بالجروح ليستجرّ بعض المنافع، وإنه يستطيب كل شيء. في موضوعه هذا تعرَّض المؤلف إلى الافتراء والتشهير إلى حدّ أنّ الشرطة التأديبية أُنْذِرَت بواسطة أحد ناشريه بخصوص مقال تُهاجَمُ فيه عملية مفيدة للأدب المعاصر، وهو جهد من المكتبة الفرنسية لمجابهة التزوير البلجيكي. مما اضطر المكتبة الناشرة أن تلجأ إلى صرامة القوانين ضد الصحيفة اليومية الصغيرة، واطّلع القضاة على عجز الصحافة، فقد برهنت المكتبة على وجود أربع طبعات بأحرف مختلفة وفي مطابع مختلفة لرواية **طبيب الريف** التي لم تعتمد على أي استحسان أو تقريظ من أيّة صحيفة. بينما كان المؤلّف ينتظر الطبعة الثانية من **أوجيني غرانده**، أحد مؤلّفاته التي حاول النقاد بالمغالاة في الإشادة بها الحدّ من شهرة رواياته الأخرى[1].

لم تترك الصحيفة شيئًا إلا وقالته عن المؤلّف، كما أنه تحملَ في قضية معروفة كل ما حاول بعض المؤلّفين أن يجرّحوه به وهو زميلهم[2]، فأي جرح جديد يمكن أن ينال

---

(١) - يلمّح بلزاك إلى حدث فات مؤرخي نتاجه وهو يتعلق بالأدب وبتاريخ النشر فقد أرادت دار شاربنتيه أن تحدّ من تزوير الكتب الفرنسيّة في بلجيكة، وتأثير قاعات المطالعة، والمسلسلات الروائية في الصحف، على بيع الكتب ونشرها فعمدت إلى إصدار طبعة شعبية لبعضها بسعر رخيص، ومنها رواية **طبيب الريف** لبلزاك لكن صحيفة الكورسير Le Corsaire في عدد ١١ اذار ١٨٣٩ هاجمت تلك الطبعة وادعت أن دار شاربنتيه غلفت ماكسد من **طبيب الريف**، وتراكم في المستودعات بغلاف جديد لتروجه بنصف السعر، وأقام شاربنتيه دعوى على الصحيفة المذكورة وكسبها وفقًا لما أشارت مجلة المحاكم في عدد ٢٥ نيسان ١٨٣٩ وألزمت الصحيفة المذكورة بدفع غرامة وتعويض لدار النشر لكنها انتقمت من بلزاك بتوجيه نقد عنيف لهذه الرواية التي ظهرت في العام نفسه.

(٢) القضية التي يشير إليها بلزاك هي الدعوى التي أقامها على دار نشر بولوز Boloz التي سرّبت مسوّدات رواية «الزنبقة في الوادي» إلى إحدى المجلات الروسية في سان بطرسبرج قبل نشرها في فرنسة ودون إذن من المؤلف وقد أدانت المحكمة بولوز بتاريخ ٣ حزيران ١٨٣٦ بالرغم من أن الدار المذكورة قدمت وثيقة موقعة من الأدباء «دوماس، وغوزلان، وسوليه، وسو ميري، وبوفوار، وجانين، ولوف ڤيمار»، تفيد بأن الدار المذكورة تصرفت وفقًا لما هو مألوف لدى الأدباء في التعاون ما بين دور النشر والصحف (انظر تفاصيل هذه القضية في ملحق رواية «الزنبقة في الوادي» من إصدارات وزارة الثقافة السورية العام ٢٠٠٠).

منه بعد أن هوجم دون جدوى في شخصه، وطبعه، وحظّه سعيداً كان أو سيئاً، وطبائعه وسخافاته المزعومة؟ غير أن لامبرّر للاعتقاد بأن الهوى، أو الرغبة في الانتقام، أو أيّة عاطفة سيئّة قد أوحت إليه بتنفيذ المؤلّف الحالي، فمن حقه أن يرسم المشاهد، وقد حرص على أن يبقى في العموميات، فالصحافة تلعب دوراً كبيراً في تاريخ الطبائع المعاصرة، حتى ليتهم المؤلّف بالجبن لو أغفل هذا المشهد من المأساة الكبرى التي تجري في فرنسة. يمكن أن تبدو هذه اللوحة بالنسبة لكثير من القرّاء قاتمة، لكن ليكن معلوماً أن كل ما فيها ينطق بحقيقة مقنطة، بيد أن كل شيء قد لُطّف في هذا الكتاب، الذي حدّدت طبيعة الموضوع مرماه فاقتصر فقط على تأثير الصحيفة المفسد على النفوس الشابة والشاعرية وعلى الصعوبات التي تنتظر المبتدئين، والتي تكمن في تثبيطهم معنويّاً أكثر من إقامة العوائق في وجههم ماديّاً. الصحيفة لا تقتل فقط كثيراً من المواهب الشابة، بل تعرف كيف تدفن موتاها بصمت وكتمان عميق. لا تضع زهرة على قبورهم، ولا تذرف دمعة إلا على من تغمده الله برحمته من مشتركيها. لنكرر القول! إن للموضوع سعة العصر بالذات وتوركاره ليزاج، وفيلينت وطرطوف موليير، وفيغارو بومارشيه، وسكابن المسرح القديم(*)، جميع هذه النماذج الممثلّة للمكر وُجِدَت مضخمة بقدر كبر عصرنا، حيث السلطان موجود في كل مكان باستثناء العرش، وحيث كل واحد يتطاول باسمه ويريد، وهو نقطة على محيط الدائرة، أن يشكّل مركزاً لها، أو ملكاً

(*) توركاره: الخادم الغبي المكّار الذي تمكن من جمع ثروة في مسرحية المؤلّف لزاج Lesage التي تحمل الاسم نفسه ومثلت في العام ١٧٠٩، و**فيلينت** شخصية في مسرحي كاره البشر Misanhroje (العام ١٦٦٦) لموليير، و**طرطوف** المنافق المكار في مسرحية لموليير تحمل الاسم نفسه (العام ١٦٦٩) و**فيغارو** مكّار آخر في مسرحية حلاق أشبيلية (العام ١٧٧٥) وزواج فيغارو (العام ١٧٨٤)، وسكابن المخادع في المسرحيات الإيطالية القديمة، وفي مسرحية موليير حيل **سكابن** (العام ١٦٧١). .

(م. المترجم)

في زاوية مظلمة. أيّة لوحة يمكن أن تُعبّر عن هؤلاء الأشخاص التافهين الذين اغتنوا بالخيانات، وتغذوا بالأدمغة المستغَلّة، وتنكّروا لمن قضوا حياتهم حتى العجز في خدمات مخلصة، وقابلوا تضحياتهم وآلامهم بسخريات بشعة، واحتموا ضد كل هجوم خلف أسوارهم الموحلة، وهم مستعدون دائماً ليلقوا بعظمة لكلاب حراسة تحميهم، وتفتح أشداقها المجهزة بأنياب عضّاضةٍ، بينما يعلو نباحها وفق مقتضى الحال وتوجيهات أسيادها! وجب على المؤلّف أن يهمل كثيراً من التفاصيل، ويصرف النظر عن كثير من الأشخاص: ولو لم يفعل لتجاوز مؤلّفه الحدود، مع أن موقعه يتطلّب منه تجنّب الشخصيات. لكن هل يستطيع هذا الكتاب أن يقف حائلاً أمام شاعر شاب، ذي روح طاهرة، يعيش في عمق المقاطعات وسط عائلة محبوبة، دون المجيء ليزيد عدد المحكوم عليهم بالهلاك في الجحيم الباريسي، الذين يتصارعون برشقات المحابر، ويتضاربون بالمؤلّفات المجهضة، ويتسلحون بالمذاري ليقتلعوا، في منافسة أحدهم للآخر، الأزهار الأكثر رهافة؟ إن توصّل هذا الكتاب إلى ذلك فقد قام بعمل جيّد، فالكتب تولد وتحيا وتموت مثل تلك الحشرات على ضفاف نهر الهيبانيس[1] التي أوحت طبائعها بأول مقالات الصحف لأحد كتّاب الإغريق. هل سيحفظ هذا الكتاب بعض أوهام الأشخاص السعداء؟ يشك المؤلّف في ذلك، فالشباب ضد الشباب، والموهبة في المقاطعات تعاكسها الحياة في المقاطعات التي تدفع كل إنسان ذي خيال إلى مخاطر الحياة الباريسية. فباريس بالنسبة لهم مثل المعركة بالنسبة للجنود الذين يتباهون كلّ صباح لأنهم مازالوا على قيد الحياة منذ مساء يوم البارحة، ولا يتذكّرون الأموات إلا في اليوم التالي. أمثال

(١) - الهيبانيس Hypanis: وفقاً لتاريخ هيرودوت نهر في بلاد سيتي Saythie الواقعة شمال البحر الأسود.

لوسيان مثل أولئك المدخنين في منجم ذي غاز متفجر يشعلون غلايينهم رغم التحذيرات والمنع. إنَّ للُجُجَ المخاطر والهلاك مغناطيسيتها. على الأقل ستتعلم هنا أن المثابرة والاستقامة هما أيضًا أكثر ضرورة على الأرجح من الموهبة لاكتساب شهرة نبيلة نقيّة[1].

بلزاك

باريس ، نيسان ١٨٣٩

---

(١) - أخلاقية مثالية نفتش عنها عبثًا في الكتاب، فدارتز بعيد عن الشهرة، والرواية لاتقنعنا بدارتز كاتبًا أو بروبمبره شاعراً أو كاتبًا. أما ناتان وكاناليس فهما أقرب إلى النفاق والتدجيل، بالنسبة لبلزاك فإن كانت شهرته «نبيلة ونقية» في نظره (ونظرنا الآن) فإنها كانت بعيدة عن هاتين الصفتين بالنسبة لقارئ العام ١٨٣٩.

ملاحظة من المترجم

هذه هي الرواية الثالثة من ثلاثية **أوهام ضائعة** التي تضم ثلاث روايات:

الأولى بعنوان: «**الشاعران**» وقد صدرت في العام ١٨٣٧.

الثانية بعنوان: «**رجل كبير من المقاطعات في باريس**»، وقد صدرت في العام ١٨٣٩

الثالثة بعنوان: «**آلام المبتكر**» وقد صدرت في العام ١٨٤٣[1].

(المترجم ميشيل خوري)

(!) - وقد صدرت متأخرة في العام ٢٠٠٣.

الفهرس

الطبعة الأولى / ٢٠٠٤

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

تحرص وزارة الثقافة في سورية على تقديم أهم الكتّاب العالميين والسوريين في طبعات كاملة لأعمالهم مساهمة منها في تكوين قاعدة قراءة ومعرفة معمقة بالأدب العالمي والأدب في سورية.

ضمن هذا التصور تقوم وزارة الثقافة بتقديم الأعمال الكاملة للروائي الفرنسي «بلزاك»، وها هي تتابع المشروع بتقديم روايتين في هذا المجلد.

تأمل وزارة الثقافة أنْ تفي بوعدها وتقدم بعض أهم الأعمال العالمية والسورية ومختارات من الأدبين العربي والعالمي.

يصدر قريباً:

فرانسيس مراش	الأعمال الكاملة
سعيد حورانية	الأعمال الكاملة
إيتاليو كالفينو	الأعمال القصصية الكاملة

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ٢٠٠٤

سعر النسخة داخل القطر ١٧٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل ٣٤٠ ل.س